

موريس كين

حضارة أوروبا العصور الوسطى

ترجمة د. قاسم عبده قاسم

موريس كين

حضارة أوروبا العصور الوسطى

ترجمة

دكتور قاسم عبده قاسم

كلية الآداب - جامعة الزقازيق

الطبعة الثانية

مزيدة ومنقحة

٢٠٠٠



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

المستشارون

د . أحمـــد إبراهيم الهـــوارى

د . شـــوقى عبد القوى حبـــيب

د . عـلـى السـيـد عـلـى

د . قـاسـم عبده قـاسـم

مدير النشر: محمد عبد الرحمن عفيفى

تصميم الغلاف : منى العيسوى

الناشـر : عين للدراســات والبحــوث الإنسانيــة والاجتماعيــة

- ٥ شـــارع ترعة المريوطية - الهــرم - ج.م.ع - تليفون - فاكس ٣٨٧١٦٩٣

ص . ب ٦٥ خـالـد بـن الـولـيـد بـالـهـرم - رمـز بـريـدى ١٢٥٦٧

Publisher:ËIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES
5, Maryoutia St ., Alharam - A.R.E. Tel : 3871693
P . B 65 Khalid Ben - Alwalid - Alharam P. C 12567

محتويات الكتاب

القسم الرابع : ١٣٢٠-١٤٦٠م تقريبًا

إهــداء

إلى أستاذى الدكتور سعيد عاشور ...

الذى علمنى الحروف الأولى

قاسم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

هذا الكتاب الذى نقدمه لقراء العربية، فى ترجمته الأولى للغة العرب، يحاول أن يعيد الاعتبار لفترة هامة من التاريخ الأوروبى، وهى الفترة التى اصطلح على تسميتها «العصور الوسطى» .

والكتاب رحلة ممتعة فى رحاب حضارة أوروبا فى تلك الفترة : إذ هو يوقفنا على تشكيل تلك الحضارة فى مستوياتها المختلفة: سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ، وثقافيا، وعسكريا . ويبين لنا بسلاسة وبساطة كيف انتقلت أوروبا من التدهور الذى ميز الفترة الأخيرة من العصور الرومانية ، إلى عصر سيادة العناصر الجرمانية، وانتصار المسيحية ، ونمو الكاثوليكية ، ثم ظهور البابوية وكنيسة روما قوة توحيدية فى الغرب الأوروبى فى عصر مزقته الحروب الإقطاعية، وتطاحن الإمارات التى برزت فى كافة أنحاء الغرب الأوربى، فى مقابل تحول الدولة الرومانية الشرقية إلى مجتمع قائم بذاته ، يتركز حول عاصمته القسطنطينية الحصينة الرابضة على ضفاف القرن الذهبى ، بلسانها اليونانى، وتراثها الفلسفى والمنطقى وخصائصها الحضارية المتمايزة بسماتها وعناصرها اليونانية والبلقانية والسلافية .

ثم يناقش الكتاب محاولات إحياء الإمبراطورية الرومانية فى الغرب منذ أيام شارلمان، فالصراع على السيادة بين الإمبراطورية والبابوية والحروب الصليبية خارج أوروبا وداخلها ، وضد المسلمين وضد المسيحيين من أعداء البابوية وصولا بنا إلى ظهور المدن ونمو التجارة، وبداية ظهور الدول السيادية القومية على حساب نموذج وحدة العالم المسيحى ، الذى ناضلت البابوية والامبراطورية فى سبيل تحقيقه نضالاً طويلاً أسفر فى نهاية الأمر عن تدمير النموذج والمثال الكلى لصالح النموذج والمثال المحلى الذى تجسد فى دول قومية مثل انجلترا وفرنسا والممالك الإسبانية ؛ فضلا عن بولندا والمجر على المستوى السياسى، كما أفرز اللغات المحلية وآدابها على المستوى الثقافى ، وأنتج الشعور الجمعى بالانتماء إلى مجتمع محلى آمن تقوده حكومة محلية قادرة على المستوى الاجتماعى.

هذه الرحلة الطويلة فى رحاب الحضارة الأوروبية فى العصور الوسطى قادها المؤلف ببراعة واقتدار . وإذا كنا نختلف معه فى بعض الآراء فاننا أثبتنا هذه الاختلافات فى موضعها دون أن نرى فى ذلك الأمر ما يقلل من قيمة الكتاب العلمية الرائعة.

وهو كتاب كتبه أحد المتخصصين فى هذه الفترة الصعبة من تاريخ أوروبا والغرب بحيث ينتفع به الباحثون والدارسون والطلاب، كما ينتفع به القارىء المثقف العادى .

أما عن الترجمة ، فقد حاولت قدر طاقتى أن تكون نقلاً أمينا دقيقا لأفكار المؤلف وعباراته ، كما اجتهدت فى أن تحتفظ الترجمة بقدر كبير من خصائص الكتابة العربية على الرغم من اختلاف الطبيعة البنائية لكل من اللغة العربية واللغة الإنجليزية . كذلك فإننى حرصت على كتابة أسماء الأعلام بنفس النطق الذى وردت به فى الأصل الإنجليزى دون محاولة التغيير أو التبديل من ناحية ، وبغض النظر عن بعض الصياغات الشائعة من ناحية أخرى .

ولاشك فى أن المكتبة العربية تحتاج إلى المزيد من مثل هذه الترجمة التى توقفنا على فترة هامة فى تكوين مؤسسات وأفكار ومواقف القوى الأوروبية؛ وهى أمور ما تزال تحكم علاقاتنا بالغرب إلى حد كبير فى عالم اليوم . واعتذر سلفا عن التقصير الذى أعتقد أن القارىء سوف يسامحنى عنه .

وقد اتضح لى من قراءة الطبعة الأولى لهذه الترجمة أن هناك بعض الأخطاء ، وبعض الصعوبات فى الصياغة وقمت بتصويب هذه الأخطاء . كما راجعت الصياغة بشكل جذرى فى بعض أجزاء الكتاب . ومع هذا فإن مراجعة ثانية قد تكشف عن المزيد من نقاط الضعف التى أرجو أن يسامحنى القارىء فيها.

والله الموفق والمستعان

مقدمة

تم تأليف هذا الكتاب بغرض الاستجابة لما يطلبه عقل القارىء العادى الذكى، الذى لايعرف الكثير مما حدث فى العصور الوسطى ويرغب فى معرفة المزيد . ولقد حاولت أن أروى قصة هذه العصور فى حيز مختصر ومعقول ، وباعتبارها قصة متصلة مستمرة قدر الإمكان . وفى الوقت نفسه بذلت جهدى لكى أفسر ما يبدو لى سمة مميزة لحضارة أوروبا العصور الوسطى عن حضارتها فى العصور السابقة أو فى العصور اللاحقة. وربما أكون قد انزلقت نحو التبسيط الشديد للأمور : بسبب أملى فى الحفاظ على استمرارية الموضوع ، ورغبتى فى تجنب تراكم تفاصيل الحقائق والوقائع، ومن المؤكد أننى تركت مسائل كثيرة للغاية دونما مناقشة . ولأن تاريخ بيزنطة العصور الوسطى يختلف عن تاريخ أوروبا الغربية تماما فى نغمته الكلية وفى مغزاه : فقد بدا لى أن من الحكمة ألا أحاول القيام بأى مسح منهجى للتاريخ البيزنطى كذلك فإننى لم أذكر شيئا عن تاريخ روسيا فى العصور الوسطى لأنه بعيد عن الموضوعات التى أشعر بأهمية دراستها : وربما يكون ما ذكرته عن أسبانيا أقل مما يجب. ولاشك فى أن الذين تتركز اهتماماتهم فى هذه المجالات سيجدون كتبا أخرى تخدمهم على نحو أفضل . وإننى ببساطة أسألهم الصفح لأننى ركزت على الموضوعات التى بدت لى شخصيا أكثر أهمية وأشد إثارة ، والتى أشعر أن مؤهلاتى تؤهلنى للكتابة فيها .

ولقد تلقيت مساعدات جمة فى كتابة هذا الكتاب ، لابد لى من الاعتراف بها : إذ أدين بالفضل الأكبر للأستاذ سوثرن R. W. Southern الذى قرأ مسودة الكتاب كاملة، وقدم اقتراحات مفيدة لاتحصى للتنقيح والمراجعة. وكان من الصعب أن نجد مرشدا وناقدا أكثر منه كرما فى وقته واهتمامه . كما أننى أشعر بالامتنان للأستاذ جاكوب E. F. Jacob لنصائحه الكثيرة وتعليقاته الرزينة. وأدين بدين خاص للدكتور بلومب H. Plumb الذى تم تأليف الكتاب بناء على اقتراح منه كذلك فإننى ينبغى أن أشكر بحرارة الآنسة مرجريت بامفورد التى كتبت المخطوطة على الآلة الكاتبة، كما أننى شاكر تمامًا للسيد جرانت من كلية Worcester بأكسفورد لأنه قرأ تجارب الكتاب ، وساعدنى على تصحيح عدد كبير من الأخطاء التى ظهرت فى الطبعة ذات الغلاف السميك. وكان الناشرون مجاملين ومؤازرين إلى حد كبير ، ودائما كنت أجدهم كذلك. وكل الأخطاء والهنات الواردة فى الكتاب (ولاشك عندى فى أنه ما يزال هناك كثير منها، سواء ما يتعلق منها بالحقائق أو التفسير) من صنعى.

موريس كين

مدخل

تراث العصور الوسطى

فكرة وحدة العالم المسيحى

كان رجال عصر النهضة أول من أسموا الفترة السابقة على عصرهم «العصور الوسطى» وكان هذا المصطلح بالنسبة لهم مصطلحا مُشينا ومخزيا ، كما كان علامة على قرون الجهل والبربرية والتحجر والجمود التى توسطت ، فى رأيهم، ما بين نهاية العصر الكلاسيكى وإحياء التعليم الكلاسيكى. ولأن حكمهم كان ظالما ، فإن إعادة النظر فيه أدت إلى مشكلات عديدة. ويقال إن التاريخ ثوب بلا خياطة: وعلى الرغم من هذا فإن من المناسب تقسيمه إلى فترات . ومع أن المؤرخين لم يعودوا يرون عزل آخر أباطرة الغرب عن عرشه سنة ٤٧٦م انكساراً واضحًا فى مجرى التاريخ ، مثلما ظن رجال عصر النهضة، فإنهم ما زالوا يكتبون عن «العصور الوسطى» . وعلى أية حال ، فإن غالبيتهم يجدون أن من الصعب عليهم تحديد بداية هذه العصور، أو نهايتها . وتعتمد مسألة تحديد البداية والنهاية فعلا على موقف كل مؤرخ فرد إلى حد بعيد. ولأن التغير الذى طرأ فى مجالات الأفكار الاجتماعية العلمية والدينية لم يكن متسقا سوى فى أحوال نادرة ، فقد أدى هذا إلى أن يقسم كل مؤرخ الفترات التاريخية على نحو مختلف عن غيره بسبب الاختلاف حول تقدير أهمية التغير الذى حدث . ولاتتمثل مشكلة تحديد فترة مثل العصور الوسطى فى العثور على الحدود التى يمكن تبريرها ، وإنما تتمثل المشكلة فى إيجاد التقسيم الزمنى الذى يصمد للنقد. ومن ثم : فإن مهمتى الأولى أن أقرر أى تحديد زمنى استخدمه ، ولماذا ..

فى عيد الميلاد سنة ٨٠٠م، تم تتويج شارلمان ملك الفرنجة على يد البابا ليو الثالث Leo III فى كنيسة القديس بطرس الرسول بروما . وكتب كاتب سيرة معاصره القديس ويلليهاد Willehad « لقد اختارته كنيسة أوروبا الكاثوليكية إمبراطورا عليها » . هذا هو الحد الأول للعصور الوسطى ، أما الحد الآخر فيقع سنة ١٤٤٩م عندما انفض مجمع بازل بعد عشرين عاما من الاجتماعات. وكان المجمع قد اجتمع باعتباره ممثلا لأوروبا الكاثوليكية بأسرها ، كنائسها وممالكها، وزعم أن من سلطاته أن يحدد معالم الديانة الصحيحة وأن يراقب منازعات الأمراء . ولم يحدث مرة أخرى أن حاز مجمع أو مؤسسة على الاعتراف بأن لها مثل هذه

السلطة الممتدة فى جميع أرجاء أوروبا، مثلما اعترف الناس بتمثيل هذا المجمع لهم حقا. وعندما انفض المجمع لم يدرك هذا التغير الجذرى الذى جرى سوى أفراد قلائل . ولكن فى فترة لاتزيد عن عمر الإنسان إلا قليلا بدا هذا واضحًا : ففى ثلاثينيات القرن السادس عشر لم يعد بوسع أحد أن يتحدث عن أوروبا الكاثوليكية بنفس المعنى الذى كان الناس يتحدثون به سنة ٨٠٠م وسنة ١٤٤٩ .

وبطبيعة الحال ، فالتواريخ لاتحدد تقسيمات قاطعة ؛ إذ كانت أسرة شارلمان تحكم مساحة أكبر من أوروبا المسيحية قبل سنة ٨٠٠م، وبعد سنة ١٤٤٩م . وظلت إمكانية عقد مجمع آخر يضم ممثلى أوروبا المسيحية تلح على عقول الناس على مدى أكثر من جيل. ففى التاريخ لاتوجد حدود فاصلة . وعلى أية حال فالحقيقة أن الفترة التى يحددها هذان التاريخان تتميز بوحدة معينة . ففى هذه الفترة ، كانت أوروبا الغربية تعتبر نفسها ، ويمكن أن نعتبرها، مجتمعا واحدا، بمعنى لم يسبق من قبل ، ولم يحدث من بعد . وفى هذا المعنى كان المظهر الخارجى والعلامات الظاهرة تشى بحقيقة أن الأوروبيين كانوا على استعداد للاعتراف بأن فى مجتمعهم نوعا من السلطة العامة. وفى قلب هذه الوحدة كان هناك قبول للتعاليم الدينية العامة، كما كانت توجد كثير من وشائج الوحدة. إذ كانوا يعتقدون أن العالم المسيحى اللاتينى يشكل جمهورية متحدة، وهو نمط من الجمهورية يمكن أن يخوض الحرب، مثلما حدث عندما أرسل المسيحيون اللاتين جنودهم فى الحملات الصليبية. وفى أوقات مختلفة فى فترة العصور الوسطى كانت تسود وجهات نظر مختلفة حول مكمن السلطة النهائية فى هذه الجمهورية ؛ إذ كان البعض يرون أن السلطة من حق الإمبراطور ، على حين اعتقد البعض أنها بيد البابا ، ورأى آخرون أنها تتمثل فى أى مجمع كنسى عام. وكان الكثيرون على استعداد لأن يقاتلوا فى سبيل معتقداتهم ، ومع هذا فإن الشعور بالوحدة ظل باقيا . وكتب جاكوب ماير Jacob Meyer الذى عاش فى القرن السادس عشر وليس فى القرن الثالث عشر: «إن **الجمهورية المسيحية دولة واحدة، وبيت لايقبل التقسيم والحروب التى تنشب بين رعاياها مصدر عار كبير : والحقيقة أنها لايجب أن تسمى حروبا ، وإنما ينبغى أن تسمى فتن وضيعة»** لقد كان الاعتقاد بالوحدة مستقرا، ولم يكن من السهل أن يموت .

ولم يكن ممكنا أن يترسخ هذا الاعتقاد ويدوم دونما شعور بأن هناك تراثا وأهدافا مشتركة، فمن أين جاء هذا التراث المشترك والأهداف المشتركة؟ قبل محاولة الإجابة على هذا السؤال سيكون من الأفضل أن نلقى نظرة على خريطة العالم المسيحى. لنرى ما الذى كان يمكن أن تعنيه هذه الجمهورية المسيحية فى مصطلحات الجغرافيا .

إذا ما عقد المرء مقارنة بين إمبراطورية شارلمان وأوروبا التى أرسلت ممثليها إلى مجمع بازل، سنجد أن الحدود لم تكن مختلفة كثيرا. إذ كانت إمبراطورية شارلمان تمتد شرقا وغربا من نهر الإلب حتى برشلونة وراء جبال البيرينيس ، وشمالا وجنوبا من ساحل القنال الإنجليزى إلى الريف جنوب روما. كما أن السلاف والآفار الذين سكنوا تشيكسلوفاكيا والمجر الحالية، اعترفوا بشارلمان سيدهم الأكبر؛ وكانت الجزر البريطانية فقط، فى الغرب المسيحى ، هى التى لم تقبل أبدا بشكل رسمى أن تكون له سلطة عليها. وتوضح خريطة يرجع تاريخها إلى سنة ١٤٤٩م هذه الحدود أكثر امتداداً، بيد أنها ما تزال فى الأساس خريطة لكتلة الأرض الأوروبية. فخلف ألمانيا باتجاه الشرق نجد ممالك بوهيميا وبولندا ، والأرض التى كان يحكمها الفرسان التيوتون تمتد داخل روسيا الحديثة ، وكلها أراض مسيحية: وشمالا لابد من إضافة ممالك الدنمرك والسويد والنرويج. أما فى الجنوب فيوجد جنوب إيطاليا وصقلية وكل شبه جزيرة أيبيريا تقريبا التى كان المسلمون والبيزنطيون قد استولوا عليها وكانوا يحكمونها زمن شارلمان ، فضلا عن جزر البليار وكورسيكا وسردينيا . لقد امتدت الحدود لكى تشمل معظم الشعوب التى تضمها أوروبا الحديثة.هذه التغيرات التى طرأت على الحدود لاتعنى مع ذلك أن ثمة توسعا ثابتا كان يجرى. وإذا ما قدر للمرء أن يرى خريطة للمسيحية اللاتينية فى القرن الثالث عشر، مثلا، فسيجد حتمًا أنها كانت تضم مساحة أكبر بكثير. وكان المرء سيكتشف أن أحد الدوقات الفرنسيين كان يحكم فى أثينا، ويجلس على العرش فى القسطنطينية إمبراطورا من اللاتين؛ وبينهما أمير أنطاكية وملك بيت المقدس الذى يسيطر على قبرص وساحل فلسطين وبلاد الشام. كذلك ظهر كما لو أن تونس وغيرها من مدن شاطىء الشمال الأفريقى التى تعتمد على إمدادات الغلال من صقلية سوف تسقط عاجلا تحت هيمنة حاكم صقلية. فضلا عن أنه سيكون ثمة تناقض ملحوظ فى الثروة ومستوى المعيشة بين جنوب أوروبا وشمال أوروبا، لصالح الجنوب. هذا التناقض لم يكن على هذا القدر من الوضوح سنة ٨٠٠م أو سنة ١٤٤٩م.

هذه الخريطة التى تبين المسيحية اللاتينية فى القرن الثالث عشر تذكرنا بالإمبراطورية الرومانية أكثر مما تذكرنا بأوروبا الحديثة. لقد كان الرومان يسمون البحر المتوسط «بحرنا» لأن إمبراطوريتهم ضمت كل سواحله، كما أن رخاءهم ارتكز على تجارته . وفى القرن الثالث عشر كان المسيحيون اللاتين يسيطرون على شطر كبير من سواحل البحر المتوسط، كما أن تجار المدن الإيطالية، الذين تحكموا فى تجارته ، كانوا أغنى رجال أوروبا . وبطبيعة الحال، فإن هذا كله لم يستمر فقد بات واضحا أن اللاتين لن يستمروا فى سيطرتهم على هذه الأراضى الساحلية

الشاسعة حتى قبل ظهور الأتراك العثمانيين. وعلى الرغم من أن تجارة البحر المتوسط ظلت ذات أهمية كبرى حتى بعد كولومبس ، فإن مدن الفلاندرز ومدن البحر البلطى كانت قد بدأت بالفعل فى منافسة الإيطاليين منذ القرن الرابع عشر. والخلاصة أن المقارنة لاتصلح سوى فى فترة زمنية بعينها.

والمثير أن روح العالمية المسيحية وصلت ذروتها فى القرن الثالث عشر، عندما اقتربت حدود المسيحية اللاتينية من حدود الإمبراطورية الرومانية. لقد جاءت لحظة فى التاريخ بدا فيها أن روما هى «رأس العالم»، عندما عقد بها مجمع جاء أعضاؤه من عالم مسيحى أوسع كثيرا من عالم القرن الخامس عشر، ذلك المجمع الذى اجتمع فى اللاتيران ١٢١٥م بناء على دعوة البابا إنوسنت الثالث. واعتقد أن المرء يمكن أن يجد مفتاح القوى التى ساعدت على توحيد العالم المسيحى اللاتينى فى العصور الوسطى فى وحدة أكثر صدقا من وحدة أوروبا اللاحقة، كما أن هذه الوحدة هى التى يمكن أن تميز عصراً عن عصر آخر.

كانت الإمبراطورية الرومانية قد قدمت لشعوب حوض البحر المتوسط فى زمانها قدرا كبير من الوحدة السياسية والثقافية والتجارية . فتحت حكمها كان السلام والرخاء مصحوبين بمستوى حضارى عالٍ. وقد كان الناس الذين عاشوا فى أوروبا العصور الوسطى مدركين لهذا تماما ، كما عرفوا أن المقارنة بين الماضى الرومانى وزمانهم لن تكون فى صالحهم. ومن ثم فإن الماضى الرومانى بدا لهم مستوى كان ينبغى أن يسعوا لتحقيقه ثانية. وكل شىء أعادوا اكتشافه عن العالم الكلاسيكى، وعن معارفه فى الفلسفة وفى العلوم الطبيعية، عن نظامه القانونى وعن انجازاته الأدبية، كان يؤكد هذا الموقف. وكانت إعادة سيطرة روما على العالم حلما يراود بابوات العصور الوسطى وأباطرتها، كما كان يراود رعاياهم ، كانت تلك رغبة طبيعية للغاية تباركها الرفاهية التى فاضت عقب استقرار السلام الرومانى.

وتدعم هذا الموقف بحقيقة أن معظم الناس كانوا مدركين لكيفية التغير الجذرى الذى طرأ على الأشياء منذ وقت الرومان. وكان هذا أيضا أمرا طبيعيا. لأن خلع آخر إمبراطور رومانى فى الغرب سنة ٤٧٦ لم يكن كارثة كما كان الناس فى عصر النهضة يعتقدون . فقد كانت تلك مجرد خطوة ، ليست فائقة الأهمية . على طريق تغلغل الشعوب الجرمانية فى ولايات الإمبراطورية الرومانية القديمة وكان رخاؤهم التجارى والحضرى ضحية الأزمة التى أمسكت بخناقهم فى القرن الثالث الميلادى. ففى بلاد الغال وأسبانيا وبريطانيا، وفى إيطاليا أيضا إلى حد ما ، اضطر الناس إلى الاعتماد على مواردهم المحلية. فضلا عن أن الدفاع عن حدودهم

الممتدة كان يخرج عن نطاق إمكانيات الجيش الرومانى. وقد حلت الإمبراطورية هذه المشكلة بأن عهدت بهذه المهمة إلى القبائل المحاربة التى كانت تعيش على حدود الإمبراطورية، وحولتها إلى معاهدين "Federates" ، كما منحوها الأراضى الواقعة على حدود الإمبراطورية وامتياز الإرتباط بالإمبراطورية ، فضلا عن الوعد بمساعدة تلك القبائل ضد أعدائها. وفى حالة ما أثبت أولئك الأعداء أنهم أقوى من أن تحتويهم الإمبراطورية ، فإن الحل البسيط كان فى تحويلهم إلى «معاهدين» أيضا . وكانت تلك هى البداية السلمية للغزوات الجرمانية.

وكانت غالبية القبائل المعاهدة من أصول جرمانية ، من نفس أصول القبائل التى سكنت الأراضى الواقعة إلى الشرق والشمال من نهرى الراين والدانوب، والتى أطلق عليها الرومان اسم جرمانيا . وبعد سنة ٤٠٠ مباشرة، كان العالم التيوتونى بأسره يهتز تحت ضغط القبائل الهاربة من هجوم الهون، وهم شعب بدوى من مناطق الإسبتس الآسيوية، وانسابت سلسلة من القبائل ، من القوط والوندال والبرجنديين ثم الفرنجة فيما بعد ، عبر الحدود الإمبراطورية الرومانية تبحث عن الطعام والمرعى والوضع الممتاز«للمعاهدين» . ولم تكن هذه القبائل كبيرة جدا ولكنهم كانوا جنودا ممتازين كما كان الضغط الواقع عليهم من الخلف شديدا؛ ولم يتوقفوا عند الحدود ولكنهم توغلوا فى داخل الولايات الرومانية. بل إن الوندال وصلوا إلى شمال أفريقيا حيث أقاموا مملكة استمرت قائمة على مدى مائة سنة . ولأن ملاك الأرض الرومان الأثرياء لم يستطيعوا مقاومة هذه القبائل فإنهم اقتسموا معهم أراضيهم فى الولايات الرومانية. وكان أهم أولئك الغزاة، والذين استمر نفوذهم أكثر من غيرهم، هم اللمبارد الذين استقروا فى شمال ووسط إيطاليا؛ والفيزيقوط الذين أسسوا مملكة فى أسبانيا اجتاحها العرب فى نهاية القرن السابع؛ والفرنجة الذين بسطوا سلطانهم على معظم أنحاء بلاد الغال وعلى معظم القبائل التى كانت ما تزال تعيش فى ألمانيا إلى الشرق من المنطقة التى كانت حدود الإمبراطورية الرومانية على نهر الراين.

ولم تكن تأثيرات التوغل الجرمانى داخل الولايات الغربية الرومانية كارثة . إذ أنها قد ساعدت على إبراز الاتجاهات التى كانت كامنة بالفعل وأسرعت بظهورها وهى الاتجاهات التى تمثلت فى اضمحلال الرخاء الحضرى وانكماش التجارة ، وتقهقر الأثرياء إلى ضياعهم الكبيرة، فضلا عن انهيار وسائل المواصلات الداخلية والخارجية . كما أن وصول الجرمان واستقرارهم قد زاد من عمق الهوة التى كانت موجودة بالفعل بين الولايات الشرقية فى الإمبراطورية الرومانية والولايات الغربية من حيث أساليب الحياة والتفكير . ومع هذا فإن هذه العملية جرت بشكل

تدريجي . ولذا فإنه عندما تمت الإطاحة الإمبراطور الغربى سنة ٤٧٦م، لم يفترض أحد أن وجود الإمبراطورية فى الغرب قد انتهى. فعلى مدى قرون مضت، وعلى الرغم من استمرار اعتبار الإمبراطورية كيانا واحدا، كان هناك إثنان من الأباطرة، أحدهما يحكم الغرب من إيطاليا، على حين يحكم الثانى الشرق من القسطنطينية، وبذلك أصبح هذا الأخير الحاكم الوحيد لشطرى الإمبراطورية نظريا على الأقل بعد خلع الإمبراطور الغربى لقد أقام الجرمان ممالكهم على أرض الولايات الغربية حقا ولكنهم لم يهتموا باستمرار السلطة الإمبراطورية على الأراضى التى استوطنوها. إذ كان ملوك الجرمان قادة للشعب الجرمانى: وكان أولئك القادة يتطلعون إلى الإمبراطور الشرقى لكى يمنحهم الألقاب التى تعطيهم السلطة على المواطنين الرومان. فقد أصبح ثيودوريك القوطى حامى روما، وتم منح كلوفيس الفرنجى لقب أغسطس. واستخدموا صورة الإمبراطور على عملاتهم ، واستمروا فى فرض القانون الرومانى (وليس القوانين الجرمانية التى كانت شعوبهم مرتبطة بها) على السكان القدامى فى الولايات. ولم يحدث أبدا أن انتهت الإمبراطورية بالمعنى الدقيق للكلمة؛ وعلى الرغم من تباعد نفوذها باستمرار، فإن الوحدة التى كان من المفروض أن تحتويها الامبراطورية ظلت تحظى بالاحترام العريق .

هذه الخلفية يجب أن تكون ماثلة فى الذهن إذا ما أراد المرء أن يرى تتويج شارلمان سنة ٨٠٠م فى سياقه الحقيقى. وقد لاحظ أحد المعاصرين أنه «هكذا تم نقل الإمبراطورية التى كانت عاصمتها بين الإغريق إلى الفرنجة». وعلى الرغم من أن الشعار الذى نقش على خاتم شارلمان الإمبراطورى كان Renovatio Romani imperii – أى إحياء الإمبراطورية الرومانية– فإن الناس لم يروا أى انقطاع فى استمرارية الإمبراطورية . وبمعنى آخر شديد الأهمية، كان هناك حقا إحياء للإمبراطورية . لقد كان هناك فرق كبير بين تاج إمبراطورى يلبسه إمبراطور بيزنطى لايعرفه الكثيرون ، وتاج آخر يلبسه ملك الفرنجة، الذين كانوا أقوى وأنجح القبائل الجرمانية. لقد اكتسى الإحترام والشعور بالوحدة الذى ارتبط به اسم روما قوة جديدة ولم تعد وحدة الإمبراطورية مجرد ذكرى حنين للماضى ، ليس لها سوى الوجود الإسمى، وإنما صارت شيئا يستحق النضال لإعادته إلى كامل معناه.

وثمة عوامل أخرى تجسد أهمية هذا التتويج. ففى الشئون الدينية والعلمانية على السواء كانت الفجوة العميقة قد اتسعت بين الولايات الشرقية والولايات الغربية فى الإمبراطورية القديمة. ولم يكن الأمر قاصرا على أن الطقوس كانت تجرى فى الشرق بلغة لاتعرفها أوروبا

الغربية: وإنما كانت الأفكار الدينية فى المنطقتين منفصلة بفعل المستويات المختلفة للثقافة . فالمشاكل اللاهوتية الدقيقة، والتى لم يفهمها الغرب، لأنه لم يملك المفردات التى تنقلها إليه، هى التى تهيج الكنيسة فى الإمبراطورية الشرقية. وكذلك كانت هناك مشكلة السلطة الدينية. ففى زمن الإمبراطورية الكلاسيكية المتأخرة كانت توجد خمس بطريركيات هى روما وأنطاكية والإسكندرية والقدس والقسطنطينية. وكانت روما باعتبارها كرسى القديس بطرس الرسول أمير الحواريين، قد حازت اعترافا بالأولوية . وبنهاية القرن السابع ، كانت ثلاث بطريكيات قد فقدت أهميتها، لأن القدس وأنطاكية والإسكندرية سقطت بأيدى المسلمين. ومع اضمحلال الإمبراطورية فى الغرب، صار بطاركة روما أكثر استقلالا عن ذى قبل وزعموا بأن أولويتهم لم تكن أولوية شرفية فحسب ، وإنما هى أولوية فى السلطة على الكنيسة المسيحية بأسرها فقد زعم البابا جريجورى الأول أن «الكرسى الرسولى هو رأس كل الكنائس» أما فى الشرق فإن الأباطرة ادعوا نفس السبق العالمى لبطاركة القسطنطينية، لأنهم كانوا يرأسون الكرسى الكنسى فى عاصمة الإمبراطورية. وفى الغرب زادت أهمية الزاعم البابوية نتيجة تخلى اللومبارد فى إيطاليا والفيزيقوط فى أسبانيا عن مذهبهم الآريوسى واعتناقهم المذهب اللاتينى إلى جانب العلاقات الوطيدة التى كونها جريجورى وخلفاؤه مع حكام الفرنجة أقوى حكام الجرمان، وكان تتويج البابا لشارلمان بالتالى يربط بين منصبه الإمبراطورى الجديد ووحدة المسيحيين فى الغرب. كما أوضح أن هذه الوحدة قد تخطت الشئون الدينية الخالصة إلى ماهو أكثر.

ولكى نقدر المعنى الكامل لهذا ، لابد للمرء أن يضع فى ذهنه ماذا كانت الإمبراطورية الرومانية تعنى بالنسبة للمتعلمين فى عصر شارلمان وبعده. ومن الضرورى هنا تقديم شرح موجز لأفكار معينة لونت النظرة التاريخية التى حكمت العصور الوسطى بأسرها ولم تقتصر على معاصرى شارلمان فقط.

كان مؤرخو العصور الوسطى يربطون بين إنجازات العصور الكلاسيكية وتاريخ الكتاب المقدس. وكان هذا التناول واحدا من أهم ما خلفه الآباء الباكرون للفكر المسيحى فى العصور الوسطى. فقد ظهرت الديانة المسيحية فى البداية وكأنها مذهب دينى شرقى غامض ، استندت أهميتها على تفسير بعض الحوادث التاريخية (قصة الإنجيل) فى ضوء الكتابات اليهودية. وسرعان ما وجد المسيحيون الأوائل أنفسهم مضطرين للدفاع عن التعاليم المسيحية إزاء النقد الموجه إليها من العالم الوثنى المتعلم والقائل بأن هذه التعاليم ليست مقبولة. وقاموا بهذه

المهمة بشن الحرب فى معسكر العدو. لقد زعموا أن كل إنجازات العالم الكلاسيكى لم تكن أكثر من جزء فى نفس قصة إنجازات شعب الله المختار، والتى سجلها العهد القديم ، فضلا عن أنها كانت أقل أهمية وأقل عراقة. وكتب ترتوليان مستخفا بالآخرين **«نحن الذين اعتدنا قراءة التواريخ السماوية سادة الموضوع، منذ ميلاد العالم نفسه. إذا كنتم قد سمعتم عن موسى الذى عاش قبل سقوط طراوده بألف سنة: فإن أنبيا ءنا الآخرين، بل آخرهم ، قد عاشوا قبل أول فلاسفتكم ومشرعيكم».**

إن أفلاطون يدين بأفكاره للتراث العبرى المحفوظ فى مصر*، كما يدين المشرعون الرومان بأفكارهم للوصايا العشر. وهكذا أجاب المسيحيون على النقد بتأكيد صارم على تفوق كتابتهم المقدسة، أى العهد القديم والعهد الجديد، على تاريخ الوثنيين وفلسفتهم كلها. وقد دافع القديس أوغسطين فى كتابه **مدينة الله** عن رأيهم بقوة فى أيام الإمبراطورية الكلاسيكية الأخيرة بقوله :

«على الرغم من أن تعاليم اليونان ما تزال تدفىء العالم حتى يومنا هذا ، فانهم لايحتاجون للمفاخرة بحكمتهم ، لأنها ليست فى عراقة أو امتياز ديانتنا السماوية والحكمة الحقة».

وربما كان كتاب مدينة الله أكثر كتاب مقروء فى العصور الوسطى فى الغرب بعد الكتاب المقدس . وفى الوقت نفسه تقريبا ، جمع أوروسيوس Orosius ، تلميذ أوغسطين ، كتابا عن تاريخ العالم القديم منذ الخليقة حتى أيامه، وكان هذا الكتاب مع كتاب تاريخ الكنيسة الذى ألفه يوزيبيوس فى فترة سابقة، يعتبران حجة فى التاريخ العالمى أثناء العصور الوسطى.

ودراسة العهد القديم والعهد الجديد باعتبارهما تاريخا تستوجب تفسيرا تاريخيا محددا. ففيهما تبدو قصة اليهود جزءاً من المشروع الربانى وتمهيدا للحدث المركزى فى التاريخ الإنسانى، أى تجسد المسيح . ومن هذه النقطة يعود التاريخ بناظريه القهقرى إلى قصة الخلق ، ويتطلع ببصره الأول أماما صوب المجىء الثانى للمسيح فى نهاية الزمان. وهذا القدوم الثانى مثل قدومه الأول، تنبأ به وأخبر به الأنبياء الملهمون . كان هذا هو الإطار الذى وضع فيه تاريخ الإمبراطورية الرومانية فى العصور الوسطى. وعلى الرغم من أنه لم يجد مكانا فى العصور السبعة التى اعتقد الناس أن التاريخ الإنسانى مقسم على أساسها (والتى انتهى العصر

---

* هذه مسألة فيها مغالطة كبيرة لأن العبرانيين هم الذين تأثروا بالفكر المصرى القديم. ومن الثابت أن التوراة الحالية حملت كثيراً من مفاهيم الديانة التوحيدية المصرية القديمة . (المترجم)

الخامس منها بقدوم المسيح كما أن العصر السادس سوف ينتهى بعودته) فإنهم قد اعترفوا بدور التاريخ الرومانى فى هذا الترتيب. ويقول الأستاذ كوبلاند Copland: «فى إشارات الآباء إلى سلطة الرومان وسيطرتهم نرى فخر المواطنين الرومان، مواطنى تلك الإمبراطورية التى اختيرت لكى تجلب السلام والوحدة إلى العالم، والتى كان عليها أن تقدم المجال المناسب لنشر العقيدة المسيحية، وهو مجال كان لابد فيه من توافر السلام وسهولة السفر والأمن لكى يقوم الحواريون برحلاتهم.

لقد تقبلت العصور الوسطى رؤية الآباء للإمبراطورية الرومانية دونما مناقشة . إذ أن الكتاب المقدس قد تنبأ بسيطرة الإمبراطورية الرومانية مثلما تنبأ لغيرها من الأحداث البشرية. لقد كانت رؤيا دانيال تتعلق بأربع ممالك: الثلاث الأولى منها هى بابل وفارس ومملكة الإسكندر فى مقدونيا التى كانت قد سقطت بالفعل. وكانت روما هى المملكة الرابعة التى قبض لها أن تستمر حتى آخر الزمان. وهكذا رأى الناس فى العصور الوسطى أن الإمبراطورية التى تم إحياء دورها النشط فى الغرب على يد شارلمان كانت مرتبطة بمهمة الكنيسة المقدسة لنشر العقيدة المسيحية، كما كانت مرتبطة باستمرار العالم الذى قبض له أن يضم قساوستها.

لقد كانت التعاليم التاريخية التى ورثتها العصور الوسطى عن الآباء المسيحيين ذات أهمية كبرى، بغض النظر تماما عن ما علمته للناس آنذاك عن دور الإمبراطورية ذلك أنها كانت كامنة فى الجذور التى أنبتت مواقف جيدة كثيرة ميزت تلك الفترة . وإذ كان الناس فى العصور الوسطى يرون أن العصر السادس وقبل الأخير قد بدأ بالفعل ، فإنهم لم يجدوا سببا فى استمراره لفترة أطول. فقد كتب المؤرخ فردجار Fredegar الفرنجى «إن العالم تعتريه الشيخوخة، فنحن نعيش آخر الزمان». وعلى مدى العصور الوسطى كان الناس يترقبون علامات القيامة فى قلق : فالأوبئة، والانهيارات ، والزلازل ، والمعارك ، كلها أو أى منها ، كان يعتبر من هذه العلامات. وليس من الواضح لدينا مدى تأثير هذا على تصرفات الناس. وهى تساعدنا على أية حال فى فهم السبب الذى جعل كتاب الحوليات والمؤرخات فى العصور الوسطى لايقدمون لنا روايات وافية عن الدوافع الإنسانية والأسباب التاريخية . ذلك أنهم كانوا يبحثون فى الحوادث عن الدليل على الفعاليات الإلهية لا الإنسانية. وكانت دراسة العهد القديم باعتباره مصدرا تاريخيا ذا مغزى خاص هى الأمر الأكثر أهمية من حيث تأثيرها المباشر على أفعال البشر. فقد كان بوسع الناس أن يقرأوا فى العهد القديم عن الرب الذى كان رب المعارك، وعن كبار الكهنة الذين كانوا يصدرون أوامرهم نيابة عن الرب بقتل الرجال. وعن

الملوك الذين قادوا شعب الله المختار إلى النصر . لقد كان المجتمع الذى يصفه العهد القديم يشبه مجتمعهم أكثر مما يشبه مجتمع الإمبراطورية الرومانية، كما أن أفكاره وعواطفه كانت أكثر ألفة بالنسبة لهم .

ويذكرنا هذا أن الناس فى عصر شارلمان وبعده، كانوا ينظرون بعيون جرمانية بربرية إلى تراثهم الكلاسيكى والمسيحى الذى كانت له أهمية فى عيونهم. وعلى المرء أن يتذكر عندما يتحدث عن شوقهم لإعادة قدر من السلام والوحدة التى ميزت الإمبراطورية الرومانية، أنهم لم يفهموا من الأمور التى قامت الإمبراطورية والوحدة على أساسها سوى النزر اليسير . إذ أن كثيرين ممن خضعوا للإمبراطور الفرنجى كانوا يعيشون فى أراض لم تعرف الحكم الرومانى أبدا. لقد أدت غزواتهم إلى الإسراع بعملية تدهور التجارة والاتصالات وتفسخ الحكومة كما سبق القول. لقد كانت أوروبا التى عرفها معاصرو شارلمان أوروبا مقسمة إلى مجتمعات صغيرة يغلب عليها الطابع الريفى ولم تكن تعرف الكثير عن بعضها البعض، ناهيك عن العالم خارجها . وإذا كانت أفكارهم الدينية والسياسية تدين للماضى الرومانى، فإن مواقفهم الاجتماعية وتنظيمهم الاجتماعى يدين بقدر مماثل لبلادهم الأصلية .

لقد كانت معظم القبائل الجرمانية قد تأثرت بالفعل بفضل اتصالها بروما قبل الدخول إلى رحاب الإمبراطورية، وغالبا ما يصعب التفرقة بين ما هو جرمانى وما هو رومانى فى أصله . وربما يكون أكبر الفروق وضوحا فى الرؤية العامة هو أن الجرمان لم يكونوا قادرين على التفكير فى مصطلحات مجردة . فالأفكار التى من قبيل السلطة أو المجتمع لم تكن تعنى الكثير بالنسبة لهم كما هى: ولم يكن بوسعهم أن يستوعبوها سوى حين يرونها فى ضوء العلاقات الشخصية المحدودة . ويساعدنا هذا على شرح مسألتين أساسيتين فى فهم وجهة نظر أولئك البرابرة وأبنائهم وهما أهمية رابطة القرابة بينهم، وفكرتهم عن السيادة .

وربما تكون أسهل وسيلة لشرح أهمية القرابة لدى الجرمان هى أن نشرحها فى ضوء مصطلحات الثأر . ذلك أنه إذا نال أى فرد جرمانى أذى فى شخصه أو أملاكه، أى إذا جرح أو سرقت ماشيته ، كان سبيله إلى التعويض يمر من خلال أقاربه، الذين يحصلون عليه من أقارب الرجل الذى ارتكب الجرم. وكان يمكن الحصول على التعويض بوسيلتين ، إما عن طريق التسوية بين العشيرتين وإما عن طريق القتال. وعادة ما كانت الوسيلة الأولى هى المفضلة، ومن ثم روعيت العناية فى وضع بنود التسوية فى القوانين الجرمانية للتعويض عن قائمة متنوعة تفوق الحصر من الأضرار ، مثل خسارة الأرض أو فقدان القدم، أو الزوجة: وكانت تلك

القوائم بمثابة دليل يستخدمه الموظفون الملكيون لتقرير التعويض المناسب . ولكن التهديد باستخدام القوة كان ماثلا على الدوام . لقد كانت رابطة الدم هى الضمان لدرجة من الأمن والنظام فى مجتمع لايخضع للسلطة المركزية إلا قليلا؛ إذ كان الخوف من الانتقام ، ليس من جانب رجل واحد وإنما من أقاربه جميعا ، هو القوة التى اعتمد عليها الناس لكبح جماح الشر. لقد كانت تلك طريقة بدائية لتحقيق هذا الهدف وهى أيضا طريقة يمكن أن تؤدى بسهولة إلى شيوع الفوضى . وكانت جريمة القتل هى أخطر الجرائم على الإطلاق : إذ لم يكن من حق أقارب القتيل أن يستريحوا حتى يأخذوا بثأره أو يأخذوا الدية. ولم يكن من السهل إيقاف نزيف الدم الذى يعقب مثل هذه الجريمة. ومهما كانت الخطورة فى هذا فإن جذوة المسئولية الاجتماعية التى يجسدها الثأر كانت هى الأهم والأبقى. فبالنسبة لرجل القانون الفرنسى بومانوار Beau-manoir ، الذى عاش فى القرن الثالث عشر، كان من حق الناس ذوى الأصول الكريمة، وواجبهم، أن يحملوا السلاح دفاعا عن ذوى القربى. وفى فرنسا القرن الخامس عشر، كانت الحرب الإقطاعية الرهيبة بين دوقات برجندى وأورليانز وأتباعهم دليلا على أن روح الثأر كانت ما تزال قوية .

وسيكون من الخطأ أن نفكر فى القرابة التى نصت عليها القوانين الجرمانية فى ضوء مصطلحات روابط الدم الخالصة. فلاشك فى أن الغزوات قد بعثرت الكثير من الأقارب. إذ كان بوسع الرجل أن تكون له عشيرته ويلحق بعشيرة أخرى .

والواقع أنه لم تكن ثمة تفرقة واعية بين أقرباء الزعيم وأتباعه الذين لايمتون له بصلة القربى . وكانت أهمية القرابة تتمثل فى أنها تؤكد على الروابط الشخصية الحميمة، لأن هذا كان أمرا يميز العلاقات الاجتماعية طوال العصور الوسطى. فعلى مدى قرون طويلة بعد الغزوات الجرمانية، كان رجال الكنيسة يظنون أنفسهم أفرادا فى «عائلة » القديس الذى كرست كنيستهم له، كما كان الفرسان يرون أنفسهم «إخوة» فى تنظيمات الفروسية التى كانوا ينضمون إليها .

وتساعدنا القرابة والثأر على تفسير الفكرة الجرمانية عن السيادة وشرحها . ففى مجتمع يهتم كثيرا بهذه القيم، كانت نبالة المولد والكفاءة العسكرية هى المؤهلات الطبيعية للزعيم أو القائد . وليس من السهل القول بأن أيهما كان أهم من الآخر، ولكن ربما كانت الكفاءة العسكرية هى الأهم؛ إذ أن الحروب المستمرة جعلتهم من متطلبات البقاء. ومن ثم كان هدف كل زعيم أن يضم عددا من المحاربين البواسل بين أتباعه . ويقول تاكيتوس عن الجرمان «ومن

علامات المكانة والقوة أن يكون محاطا على الدوام بعصبة كبيرة من الشباب المختار، مما يمنحه المجد فى حال السلم، ويوفر له الحماية فى الحرب». والانضمام إلى قائد من هذا النمط كان يتطلب أن تكون للراغب مكانة ما لكى يصبح من أقربائه كما جرى بذلك العرف . فإذا ما قتل التابع ، يكون على الزعيم أن يطالب بديته من القاتل. كما كان على التابع أن يقف بجوار سيده حتى ضد ذوى قرباه. وكان على السيد الذى يرغب فى إبقاء أتباعه سويا أن يكافئهم بالهبات السخية ، وهى العلامات الخارجية الدالة على مكانتهم وقوتهم . ومن ثم حسبما يقول تاكيتوس :

«لايمكنك أن تحافظ على حاشية كبيرة العدد سوى بالحرب والعنف، لأنهم ينتظرون من الزعيم حصان الحرب، ويتطلعون إلى منطقة نفوذ قاتلة ومسيطرة؛ وكانت الغنائم والولائم تحل محل الرواتب». وكانت مادة هذا الكرم تتوفر من خلال الحرب والغزوات.

وعلى الرغم من أن تاكيتوس كتب فى القرن الثانى، فإن وصفه ينطبق إلى حد كبير على الصورة التى رسمت للملك الجرمانى هرثجار Hrothgar فى الملحمة الأنجلو- سكسونية بيوفولف Beowulf : إذ إنه حضر الاحتفال فى قاعته الخشبية مع الأبطال الذين كافأهم بالكنوز. كان الجرمان يتوقعون من الحاكم الكرم والحماية اللذين يسبغهما على أتباعه ، وليس الإدارة السليمة؛ وفى المقابل كان من حقه أن يطالبهم بالمساندة والولاء الشخصى ، وكان من الطبيعى أن يسود الاعتقاد بأن أقارب مثل هذا الحاكم لهم خصال خاصة تميز دماءهم. فقد كان يفترض أن الملوك الفرنجة ينحدرون من نسل إحدى الأميرات التى تزوجت واحدا من آلهة البحر، كما ساد الظن بأن الملوك الأنجلو- سكسون انحدروا من نسل الإله فودين Woden ونحن لانعرف أصولهم الحقيقية رغم أهميتها.

لقد كانت الطباع المميزة للغزاة الجرمان عسكرية وأرستقراطية . فالشجاعة والكرم والولاء، لاسيما فى ميدان القتال، هى الفضائل التى تحظى بالمديح الفائق . وكانوا يتوقعون إبراز مظاهر العظمة فى القوة والثروة على حد سواء. هذه الرابطة التى كانت تجمع بين البأس فى القتال والشرف الدنيوى ضربت بجذورها فى الأعماق ؛ ومن المؤكد أنها استمرت فى الوجود أطول من العصور الوسطى نفسها. فهى الآن ليس عارية من القوة، ولكنها كانت أشد قوة. فقد كتب جان البويلى Jean de Beuil مستشار الملك الفرنسى فى القرن الخامس عشر: «إن نداء السلاح يضفى على الإنسان نبالة أيا كان، وأولئك الذين يخاطرون بحياتهم فى معارك دائمة سوف ينالون الخلاص مثلهم مثل أولئك الذين يعيشون حياة التأمل ويقتاتون بالجذور»

وربما لايكون الإعجاب بالفضائل العسكرية من التعاليم المسيحية الأساسية، ولكن المواءمة تمت بسهولة. ولم يهتم أحفاد الجرمان فى العصور الوسطى المسيحية بمناقشة مدى صلابة هذه المواءمة. وفى مجتمع تحظى القوة العسكرية فيه بهذا التقدير الاجتماعى الراقى لايحتمل أن يسود السلام فترة طويلة. ومن ثم ، فإن من الخطأ أن نظن أن الأحوال السلمية كانت هى الأحوال الطبيعية فى العصور الوسطى ؛ إذ لم يكن ذلك هو الحال. وكان لهذا نتائج بالغة الأهمية. فقد كانت الحاجة للحماية المادية حاجة اجتماعية مستمرة. وكانت الوظيفة الاجتماعية لأولئك الذين كان من المفروض أن يقدموها هى المبرر الكافى لمكانتهم وامتيازاتهم . كان اتجاه الأحداث طالما ظلت فى نطاق الفعاليات البشرية، يتوافق مع الملوك والنبلاء، والسيوف التى بأيديهم .

هذه الروح العسكرية التى سادت العصور الوسطى تطرح بعض التحفظات الأساسية الخاصة بالمسائل التى سبق ذكرها فى هذا الفصل . إذ لايسهل الحفاظ على الإحساس بالوحدة فى ظروف الصراع المستمر. فقد ظلت الوحدة خلال العصور الوسطى مثالا ذا تأثير مستمر، وقد أظهر تاريخ الإمبراطورية الرومانية أنه لم يكن مستحيل التحقيق. ولكن النسيان حجب الوسيلة التى تم تحقيقه بها. فقد كان الناس لايمكنهم تصوير العالم الرومانى سوى فى ضوء المصطلحات الخاصة بهم، فيوليوس قيصر وبومبى بالنسبة لهم فارسان يركبان إلى الحرب ويحققان المعجزات الخارقة بالبسالة الفردية مثل أبطال الأساطير التيوتونية . ولم يكونوا يعرفون شيئا عن الوحدة التجارية للإمبراطورية الرومانية أو نظامها فى الإدارة الاستعمارية. فقد كانت الثقافة اللاتينية المشتركة والعقائد الدينية المشتركة ، الموروثة عن الماضى ، هى التى جمعت الناس حقًا ، بيد أن غريزة القتال والولاء الشخصى والمحلى هو الذى فرق بينهم بصورة أعمق . فالأفكار يمكن أن تنتشر بسرعة ، وغالبا ما تكتسب قوة إضافية أثناء العملية. وعلى المدى الطويل كانت المصالح التجارية المشتركة والجوار الإقليمى وراء توحيد الناس بصورة أكثر فعالية. إذ أن كليهما يتطلب قدرا من الاستقرار اللازم لإكسابهما قوة التوحيد، وفى سنة ٨٧٠٠م، عندما توج البابا شارلمان إمبراطورا فى روما، كانت أوروبا الغربية تقف معزولة بسبب تدهور اقتصادها منذ العصور الرومانية وبسبب الغزوات الجرمانية والحروب الداخلية التى خاضها الجرمان ضد بعضهم البعض . فأيهما كان مقدرا له أن يبقى ويسود : الروح العسكرية الجرمانية وحقائق الجغرافيا ، أم وحدة المثل العليا الرومانية والمسيحية؟

القسم الأول

٨٠٠ - ١٠٤٦ تقريبا

إحياء الإمبراطورية فى غرب أوربا ودورها
فى الحفاظ على وحدة أوروبا المسيحية فى
عصر سادته الغزوات وانعدم فيه الأمن
بشكل عام

٢- إحيـاء الإمبـراطـورية
من شارلمان حتى هنرى الثالث

كانت إمبراطورية شارلمان، باستثناء الأجزاء غير الهامة مثل الجزر البريطانية وبعض مناطق إسبانيا، مرادفا للعالم المسيحى اللاتينى، بيد أن حدودها لم تكن لها علاقة بتتويجه إمبراطوراً. إذ أن هذا التتويج قد أضفى على حكمه أهمية فى المناطق التى كان يمارس الحكم فيها فعلاً، ولكن الوحدة السياسية التى كونت الإمبراطورية كانت من إنجازاته هو نفسه وأسلافه من ملوك الفرنجة. وإذا فهمنا طبيعة إمبراطوريته ومصيرها ، فإنه ينبغى أن نضع هذه المسائل فى اعتبارنا.

لقد استطاع الفرنجة، تحت حكم زعيمهم الكبير كلوفيس Clovis (مات سنة ٥١١م) وخلفائه من الملوك الميروفنجيين، أن يقهروا كل الأراضى التى كانت تشكل غالة الرومانية. فقد استقروا بسرعة فائقة فى الشمال الشرقى، فى البلاد الواقعة بين نهر الراين وباريس ؛ وفى الجنوب حيث أطاحوا بكل من البرجنديين والفيزيقوط فى تولوز، ومارسوا نفوذهم باعتبارهم سادة مؤسسين لسلالة جديدة. وكان الفضل لنجاحهم راجعا فى أساسه إلى أمرين هما: قوتهم العسكرية، وتقبلهم للمذهب المسيحى اللاتينى، وهو ما جلب لهم الطاعة من جانب الغالورمان فى الجنوب بصورة أشد إيجابية مما قدموه للقوط الآريوسيين. وقد حافظ الملوك الميروفنجيون الأوائل على تقاليد الحكم فى الإمبراطورية الرومانية المتأخرة، بقدر ما استطاعت عقولهم أن تستوعب هذه التقاليد، بيد أن هذا النظام الذى ورثوه كان قد شاخ وهرم بالفعل. ومع اختفاء

معرفة الكتابة فى الدوائر العلمانية، اختفت من الوجود طبقة الموظفين بالمعنى الرومانى للكلمة. أما من بقى من الرجال الأقوياء. فكان الكثيرون منهم يستخدمون لقب كونت Count الرومانى، ولم يكونوا يتقاضون مرتباتهم نقدا، وإنما يأخذون مساحات من الأرض، وصار مستشارو الملك المتعلمون من رجال الكنيسة بمرور الوقت، وكانوا ينالون مكافآتهم بالطريقة نفسها، لأن الأرض كانت أفضل أنواع المكافأة فى عصر كانت التجارة تتقلص فيه باستمرار حتى كادت أن تتوقف . وكانت تلك هى الموارد التى عول الملوك عليها لمكافأة موظفيهم فى الخزانة العامة، أى أملاك الدولة التى كانوا يسيطرون عليهم بوصفهم حكاما من قديم الزمان. وهنا يتبدى الفرق بين أفكارهم وأفكار الرومان واضحا جليا. إذ أن الحاكم الفرنجى لم يكن ينظر إلى الخزانة العامة باعتبارها أملاك الدولة، وإنما بوصفها أملاكه الخاصة، التى يجب تقسيمها عند وفاته بين أبنائه وفقا لقانون الإرث الفرنجى. وكان هذا هو نفس الوضع بالنسبة لملكته؛ إذ كان أبناؤه يصيرون ملوكا على الأجزاء التى اقتسموها من مملكته . هذه الظروف أدت إلى ظهور اتجاهين . فمن ناحية، كانت صدفة الميلاد والبقاء فى العائلة المالكة سببا فى إعاقة استمرار الحكومة . ومن ناحية أخرى ، كان الملوك أقرب إلى الفقر لضآلة ملكيتهم من الأرض وكان نبلاؤهم أغنى منهم.

وأخيرا تم خلع آخر سلالة الميروفنجيين على يد والد شارلمان بيبن القصير Pippin the short الذى كان مؤسس واحدة من أكبر أسر الفرنجة الشرقيين النبيلة . وقد نتجت عن تغير الأسرة الحاكمة نتيجتان : أولا انتقل مركز السلطة شرقا بسبب وجود أراضى بيبين إلى الشرق من أملاك الأسرة السابقة؛ إذ كانت باريس هى المركز الطبيعى لسلطان الميروفجيين ، وحلت محلها إكس لاشابل فى عهد الأسرة الجديدة. وثانيا ، وهو الأهم ، أن بيبين كان بحاجة إلى نوع من الإقرار الرسمى بتصرفه التعسفى، رغم أنه كان تصرفا ذكيا . وقد حصل من البابا على هذا الإقرار. ومعنى هذا أن الروابط القوية التى ربطت تقليديا بين الحكام الفرنجة والبابا، قد ازدادت قوة . كما أنها كانت تعنى ما هو أكثر من ذلك؛ لأن البابا تقاضى الثمن. وكان الثمن هو التعهد بأن تدافع الجيوش الفرنجية عن سيطرة البابا السياسية على روما والمناطق المحيطة بها ضد غارات ملوك اللمبارديين.

وفيما عدا ذلك كان التغير الذى طرأ ضئيلا. فيما عدا أن مكافأة من يسدى خدمات لأسرة بيبين كان ينال مكافأته من أملاك العائلة. كان نقص المؤسسات الحكومية الثابتة وقوة النبلاء، واستنزاف موارد أراضى التاج بالهبات الممنوحة لأولئك النبلاء، بغية الحفاظ على إخلاصهم ،

وتقسيم الإرث بين الورثة- كلها كانت أخطاء تتهدد الحكم الفرنجي، هذه الحقائق تركت أثرا عميقا على عهد شارلمان فقد كانت مملكته في الواقع عبارة عن إمبراطورية تم الحفاظ على تماسكها بفضل الحروب المستمرة والناجحة أساسا، وقد كسبت أراض جديدة ضمتها للخزانة العامة ووفرت للنبلاء وأتباعهم عملا يتناسب مع مكانتهم وذوقهم.

لقد لخص إينهارد Einhard ، قس شارلمان الخاص ، إنجازات سيده السياسية بقوله : «بفضل حروبه وسع من نطاق مملكة الفرنجة التي كانت عظيمة وقوية عندما ورثها عن والده ، بحيث أن ما أضافه للملكة قد ضاعف من مساحتها تقريبا». هذه الحروب ، التي شغلت السنوات السبع والأربعين من حكمه الطويل. يمكن أن نفكر فيها تحت عنوانين : أولهما سلسلة الحروب التي نتج عنها أن جيران الفرنجة المسيحيين الذين كانوا في الماضي يعترفون بسيادتهم أحيانا ، قد صاروا تحت سيطرتهم بالفعل. وهكذا اجتاح شارلمان الأقطانيين (٧٦٩) والبريتون (٧٨٦، ٧٩٩م) والبافاريين (٧-٧٨٨) وقد توج إبنه لويس ملكا على أقطانيا، وعين زوج أخته حاكما على بافاريا. وثانيهما والأهم من ذلك كثيرا، هي تلك الحروب التي خاضها ضد الشعوب التي كانت تعيش بعيدا عن فرنكيا Francia، والذين لم يخضعوا أبدا للحكم الفرنجي .

لقد كانت الرابطة بين البابوية وملوك الفرنجة والتي ازدادت قوة بتتويج بيبين هي التي جعلت شارلمان يأتي بجيوشه لقتال اللمبارديين الذين كان ملوكهم يحاولون أن ينتزعوا من البابوات السيطرة على وسط إيطاليا، وهي المنطقة التي شكلت فيما بعد قلب الدولة البابوية . ففي سنة ٧٧٤م استجاب شارلمان لطلب المساعدة الذي تقدم به البابا هادريان ؛ فقد أطاح بالملك ديزيديريوس Desiderius وتم تتويجه مكانه في بافيا Pavia . ولم يكتف بمد حكمه إلى داخل الشمال الإيطالي ؛ وإنما كسب تاج اللمبارديين باعتباره حاميا للبابا ، كما أن البابا هادريان أراد أن يذكر شارلمان بأن دوره هو حماية روما فمنحه اللقب لكي يوضح هذه الحقيقة. وقد كانت تلك الخطوة الأولى نحو إحياء الإمبراطورية المسيحية في الغرب على نحو ما . وهناك حربان أخريتان خاضهما شارلمان كانت لهما أهمية مماثلة، إن لم تكن أكبر. إذ يقول اينهارد إن الحرب ضد السكسون كانت «هي الأطول والأكثر قسوة» بين كل حروب شارلمان؛ فقد حاربهم أول مرة سنة ٧٧٢م، ولم يتم إحراز النصر النهائي قبل سنة ٨٠٤م. ولقد كان السكسون قوما متوحشين وأعدادهم غفيرة ، وقد حافظوا على عاداتهم الحربية وكانت لهم ديانة جرمانية هي الوثنية القديمة في المناطق التي سكنوها فيما بين نهر الإلب Elbe ودلتا نهر الراين؛ وقد كان لابد لشارلمان أن يخضعهم إذا ما أراد أن تكون له أية سيطرة فعالة على

بافاريا وأراضى الفريزيين الواطئة. ولأن هذه كانت حربا ضد الوثنيين فإنها كانت مصحوبة بالمذابح الجماعية، كما اقترن النصر فيها بإجبار المهزومين على اعتناق المسيحية . كما أن حروبه ضد الآفار ، الذين كانوا شعبا بدويا من السلالة الفنلندية سكنوا السهل الهنغارى وعاشوا على نهب جيرانهم، كانت أكثر وحشية : ويعلق اينهارد الذى كان شاهد عيان بقوله «إن الناحية التى كان قصر خان الآفار قائما بها قد صارت الآن خرابا بحيث لايوجد أثر يدل على أن البشر قد سكنوها». لقد بينت هذه الحروب الروح العسكرية التى ميزت مسيحية الفرنجة، والقوة المسلحة للحاكم الفرنجى بوصفه حاميا للمسيحيين . وبسخرية لاذعة، ترد ذكرى دور شارلمان حامى المسيحية مرتبطة بحملاته ضد مسلمى إسبانيا والتى كانت حملات قليلة الأهمية غير ناجحة . ولكن فيما بعد صورته الملاحم الشعبية وهو يقود جيوش العالم المسيحى ضد الوثنيين، ولم يكن ذلك خطأ هذه الملاحم.

كان تتويج شارلمان إمبراطوراً فى عيد الميلاد ٨٠٠م تركيزا على هذا الجانب من جوانب حكمه، وقد تم التتويج بفعل رمزى جذب انتباه المعاصرين والأجيال التالية على السواء. وينبغى أن نلاحظ أن المبادرة جاءت من جانب البابا ، وهكذا ارتبطت الإمبراطورية التى أعيد إحياؤها إرتباطا شديدا بالمهمة الدينية للكنيسة الرومانية . وكان بوسع البابا ليو أن يهنىء نفسه على هذا ، لأن حماية الملك الفرنجى لم تكن مبعث ارتياح لكبرياء البابوية. إذ كان شارلمان قد كتب من قبل للبابا هادريان «عليك أن تساند جهودنا بصلواتك»، وكان يعنى ضمنا أن القرارات الحاسمة من إختصاص الملوك . وقد أوضح التتويج أن الأدوار متعارضة، وأن دور شارلمان هو مساندة الكنيسة بسلاحه . حتى لو كان فى تصرف البابا جانب مراوغ وغير أمين، فقد كشف عن حقيقة الأوضاع ، لأن إمبراطورية شارلمان كان لها وحدة بالمعنى الدينى أقوى من وحدتها بأى معنى آخر إذ لم يكن لها نظام إدارى ثابت يمكن أن يؤدى إلى تماسكها ، وهو ما يتضح من حقيقة أن حاكمها كان يقضى فى الصيد فترة أطول مما يقضيه فى أى عمل آخر باستثناء الحرب. وكانت جيوش الإمبراطورية مؤلفة من النبلاء المحليين وأتباعهم، الذين كان يتم استدعاؤهم لموسم الحملات العسكرية صيفا. وربما لم يكن شارلمان يدرك المغزى الدينى الذى أسبغه لقب الإمبراطور على حكمه إلا بقدر ضئيل، وربما لم يكن يدرك كذلك أن هناك تغييرا قد طرأ على وضعه نتيجة لقبه الجديد. وفضلا عن ذلك كله، كان شارلمان سنة ٨٠٠م رجلا مسنا بالفعل . ومن المؤكد أن تقسيم أراضيه بين أبنائه بالشكل الذى خطط له حسب العادة الفرنجية يشى بأنه لم يكن مدركا لأى تغيير. ولكن لويس، الإبن الوحيد الذى عاش بعده ، كان واضحا أنه أدرك الحقيقة بشكل ما.

وقد أكدت الإمتيازات التى منحت فى أوائل عهده هذه الحقيقة . إذ أنها تؤكد الوحدة الدينية للإمبراطورية وتسعى إلى مد نطاقها وبمساعدة صديقه رئيس الدير بندكت الأنيانى Benedict of Aniane ، أصدر صيغة جديدة من قاعدة بندكت النورسى القديمة لكى تلتزم باتباعها كافة الأديرة فى إمبراطوريته . وقد أسبغ عليه بندكت الأنيانى بدوره لقب «إمبراطور جميع كنائس أوروبا ». هذه الملاحظة تعكس رغبة الإمبراطور ومستشاريه لتحقيق وحدة تتعدى الحدود الكنسية على الرغم من جذورها الدينية. وإذ كان لويس فى سنة ٨١٧م بعيد النظر فى مشكلة أراضيه بعد موته تحاشى فى صرامة الاستجابة السريعة للعاطفة الأبوية وتقسيم ميراثه «حتى لاتثور الفضيحة فى كنيسة الرب المقدسة» عن هذا الطريق . وجعل أولاده الأصغر ملوكا بالاسم ولكن تحت السيطرة الحازمة للإمبراطور. وهناك رجل آخر من مستشاريه هو أجيلبرت الليونى Agilbert of Lyons ، كان يتطلع إلى اليوم الذى يوجد فيه نظام قانونى موحد ومتسق يربط كل شعوب الإمبراطورية سويا؛ اللمبارديين، والفرنجة والسكسون والبافاريين جميعا يجب أن يظهروا وحدة الإمبراطورية . ولكن على الرغم من هذا كله، كانت الإمبراطورية ، التى شادها شارلمان، تتمزق أشلاء قبل أن يموت لويس، الذى اشتهر بلقب التقى، بفترة طويلة.

* * *

لقد كان من سوء حظ لويس التقى أن ثلاثة من أبنائه عاشوا بعده. وعندما مات سنة ٨٤٠م كان أولئك الثلاثة قد بدأوا فعلا فى التحارب ضد بعضهم وضده بدافع من قلقهم وحرص كل منهم على أن يؤمن لنفسه نصيبا جيدا من الميراث العام الذى كان على وشك أن يؤول إليهم. وقد جاهد لوثار Lothar ، الإبن الأكبر أن يحافظ على وحدة الإمبراطورية لصالحه قدر الطاقة، على حين ناضل أخواه لويس وشارل لكى يؤسسا مملكتين مستقلتين فى أقاليم الإمبراطورية الشرقية والغربية على التوالى وبرزت من صراعاتهم سلسلة من معاهدات التقسيم، كانت أهمها وأكثرها حسما معاهدة فيردن التى تم الاتفاق عليها سنة ٨٤٣م، بعد سنوات قليلة من موت أبيهم . وقد أدى هذا إلى تقسيم المملكة الفرنجية إلى أقسام ثلاثة: فرنكيا الغربية، التى صارت الآن فرنسا، وتمتد من جبل البرينيس حتى خط السوم Somme، وكان إقليم الميس والرون Meuse and the Rhone من نصيب الأخ الأصغر شارل الأصلع؛ أما فرنكيا الشرقية وسكسونيا وبافاريا ، وغيرها من الأراضى الفرنجية وراء نهر الراين، فكانت من نصيب الأخ الأوسط لويس المعروف باسم الألمانى. وكان لقب الإمبراطور (الذى لم

يعد له معنى) من نصيب الأخ لوثار ومعه مزيج غريب من الأراضى عرف باسم المملكة الوسطى. فقد كانت تضم الأراضى الواقعة شرق نهر الراين وغربه بين مملكتى لويس وشارل، وهى برجندى والبروفانس فى وادى نهر الرون وكل الأراضى التى كان شارلمان ولويس التقى يحكمانها فى إيطاليا. كما ضمت معظم المراكز الهامة فى العصر الكارولنجى؛ روما مركز البابوية والمدينة التى جرت التقاليد على تتويج الأباطرة بها؛ وبافيا عاصمة المملكة اللمباردية، وآيكس التى كان شارلمان يسعى لجعلها روما جديدة فى شمال مملكته مثلما فعل قسطنطين عندما بنى القسطنطينية فى الشرق. وأخذ إبنه الأكبر لويس إيطاليا ومعها لقب الإمبراطور، وأخذ شارل البرفانس وبرجاندى، كما أخذ لوثار الثانى الأراضى الشمالية التى سميت لوثرنجيا Lotharingia نسبة إليه بسبب الحاجة إلى اسم أفضل. وعندما مات شارل حفظ الإمبراطور لويس ميراثه؛ ولكن عندما مات لوثار الثانى كان مشغولا بالحرب ضد المسلمين بحيث لم يستطع التدخل، وفى النهاية عقدت معاهدة أخرى هى معاهدة ميرسين Merusen لتقسيم المملكة بين عميه شارل الأصلع ولويس الألمانى.

وثمة عوامل بعينها أبرزت تأثير هذه التقسيمات التى جرت فى القرن التاسع على المملكة الفرنجية. فقد كانت إيطاليا منفصلة عن الأراضى الشمالية بحكم الجغرافيا، وبحكم الإتصال التجارى مع الشرق. وفى سنة ٨٤٣م، كان الفرنجة فى المملكتين الشرقية والغربية يتكلمون بالفعل لهجتين متمايزتين؛ بل إن كلا من المملكتين كانت تضم شعوبا غير فرنجية ولايجمع بينها تراث مشترك، كالاقطانيين والجاكسون فى الغرب، والبافاريين والسكسون فى الشرق. ولم تكن حدود المملكة الوسطى تعنى الكثير جغرافيا، أو جنسيًا، أو لغويًا. ويبدو أن المبدأ الرئيسى فى توطنهم كان هو حدود الضياع التى سيطر عليها النبلاء الذين كانوا أتباع لوثار الأول. وهكذا لم يكن هناك حل طبيعى، سواء فى المستقبل المنظور أو على المدى الطويل، للمنافسة بين الحكام الشرقيين والحكام الغربيين على الفوز بنصيب الأسد فى لوثرنجيا. ولأن ملوك فرنكيا الشرقية والغربية كان يرون النجاح ولايرونه متمثلا فى مد حدودهم إلى مدى طبيعى فى جذب المزيد من النبلاء إلى فلكهم، فإن منافستهم أدت إلى تفويض دعائم السيطرة الملكية فى ممالكهم المختلفة. وكان ولاء النبلاء، أو انعدامه قد صار عاملا فاصلا فى السياسات فى أخريات القرن التاسع.

* * *

ومنذ منتصف القرن التاسع فصاعدا، جاءت ضغوط خارجية جديدة على الحدود التى كانت يوما ما حدودا إمبراطورية لتسرع من تحللها وتفككها. وكما حدث فى القرن الخامس كانت أوروبا مرة أخرى تحت وطأة التهديد بالغزو، وربما بصورة أكثر خطورة، لأن هذه الغزوات جاءت آنذاك من ثلاثة إتجاهات مختلفة.

ففى الجنوب، شهدت السنوات الباكرة من القرن التاسع نموا هائلا فى القوة البحرية الإسلامية فى البحر المتوسط، وصعود أسرة الأغالبة القوية فى شمال أفريقيا. بل إن شارلمان نفسه اضطر فى أيامه الأخيرة إلى اتخاذ إجراءات للدفاع عن شعبه ضد الغزاة المسلمين القادمين من البحر. وفى سنة ٨٢٧م شن الأغالبة هجوما قويا على صقلية؛ وبحلول سنة ٨٤٣م كانوا قد استولوا على معظم أنحاء الجزيرة من البيزنطيين ووطدوا أنفسهم بها سلطنة مستقلة. ومن مواطىء الأقدام التى أقاموها على أرض إيطاليا، وبالأساطيل الصغيرة المتمركزة فى الموانىء الصقلية، بدأوا يغيرون على طول الساحل وعلى وسط إيطاليا: ففى سنة ٨٤٦م هاجموا ضواحى روما ذاتها. وبدا لوهلة أن إيطاليا كلها يمكن أن تسقط تحت الحكم الإسلامى، كما كان قد حدث لإسبانيا بالفعل. ومنذ ارتقى الإمبراطور لويس الثانى العرش، انغمس فى الدفاع عن مملكة إيطاليا نتيجة لذلك، ولم يكن لديه أسطول يواجه به عدوا قادما عن طريق البحر وأخيرا، وفى سنة ٨٧١م، قرر أن يغزو بارى بمساعدة أسطول صغير من البندقية وبعدها بسنوات قليلة سقطت بارى فى أيدى البيزنطيين، ومنذ ذلك الحين فصاعدا احتوت الجيوش البيزنطية التهديد على الرغم من أن العرب ظلوا يواصلون غاراتهم على الساحل. بيد أن الخطر كان كبيرا. فلو أن روما مدينة القديس بطرس سقطت لربما تغير تاريخ العصور الوسطى فى الغرب تماما. وما حدث هو أن دفاع الإمبراطور الكارولنجى عن المدينة زاد من وشائج الروابط بين الإمبراطورية والكنيسة اللاتينية.

وقبل نهاية عهد شارلمان، كان غارات عدو آخر، هم الفايكنج Vikings المتوحشة تزعج المناطق البحرية الشمالية للإمبراطورية، وكانت الهجرة الكبيرة للتجارة والمغامرة من سكندنافيا خلال العقود اللاحقة واحدة من أكثر الظواهر لفتا للنظر فى تاريخ أوروبا العصور الوسطى، وظاهرة لم تفسر أسبابها بشكل كامل أبدا. إن سر نجاحهم فى سعيهم وراء النهب، وتجارة المقايضة، والحصول على الأرض يكمن فى مهارتهم فى بناء السفن والملاحة، وهى مهارة لم يتفوق عليهم فيها أحد فى زمانهم، وبعده بوقت طويل. ويبدو أن واحدة من عصابات الفيكنج على الأقل قد وصلت حتى حدود أمريكا الشمالية. كما أن عصابات أخرى أبحرت من

المستعمرات التى أسسوها فى روسيا، فى نوفجورد Novgorod وكييف Kiev ، فى نهر الفولجا ، لتصل إلى البحر الأسود وبحر قزوين ، وتقيم علاقات تجارية مع القسطنطينية وفارس . وفى الغرب غزوا أيسلندا واستقروا بها، كما غزوا أماكن من أيرلندا ، وكونتيات شرق إنجلترا . وعلى أية حال ، كان على مملكة الفرنجة الغربية أن تتحمل وطأة هجماتهم على مدى أكثر من ستين سنة. وإذ أبحروا فى أنهار اللوار والسين والجارون تمكنوا من التوغل فى داخل أعماق فرنسا. وحاصروا باريس أكثر من مرة، ونهبوا عددا لايحصى من المدن والأديرة . وعندما أحرزت عصابات الفيكنج مواطىء أقدام مؤقتة لها عند مصبات أنهار الراين والسين واللوار، بدأت ظلال الشك تخيم على مستقبل مملكة الفرنجة الغربية بأسره .

والحقيقة، أنه بحلول سنة ٩٠٠م كانت مرحلة الخطر قد انقضت . ولم تستمر المستوطنات التى بناها الفيكنج على الشواطىء البريتونية والفريزية. أما مستوطناتهم عند مصب نهر السين فقد استمرت فى الوجود . وفى سنة ٩١١م أو فى وقت قريب منها، منح شارل البسيط، ملك الفرنجة الغربيين وحفيد شارل الأصلع ، منطقة روين Rouen والأراضى التى عرفت فيما بعد باسم نورماندى إلى رولو Rollo زعيم الفيكنج . ومن خلال أولئك النورمان ، كان تأثير روح المغامرة لدى الفيكنج ملموسا بعد ذلك بفترة طويلة فى مناطق بعيدة مثل تركيا وبلاد الشام.

وجاءت مجموعة ثالثة من الغزاة من ناحية الشرق. وهم المجريون الذين كان أول ظهورهم على حدود المملكة الشرقية سنة ٨٦٢م، فى عهد لويس الألمانى ، وعلى الرغم من أنهم لم يكونوا خطرا حقيقيا حتى نهاية القرن، فإنهم منذ ذلك الحين فصاعدا صاروا الهمّ الأول لخلفاء لويس . ولأنهم وصلوا متأخرين إلى مسرح الأحداث فسيكون من الحكمة أن نؤجل النظر فى أحوالهم لحظة. وفى الوقت نفسه فهناك أمر لابد من ذكره عن التأثير العام للمنازعات الداخلية والأخطار الخارجية التى أمسكت بخناق الإمبراطورية الغربية التى أعيد إحياؤها فى القرن التاسع .

ففى ظل الظروف السائدة كانت لابد لأية محاولة للحفاظ على الوحدة السياسية فى الإمبراطورية، مثلما حدث فى السنوات الباكرة من حكم لويس التقى ، أن تبوء بالفشل. وكانت السلطة التى أسبغها اللقب الإمبراطورى على لويس الثانى لاتزيد عن سلطته الحقيقية بوصفه ملكا على إيطاليا. أما الأمراء الصغار الذين كان البابوات يرون أنهم يصلحون لأن يتوجوا أباطرة فى القرن العاشر، مثل لوثار أمير البروفانس وبرنجار ، فقد كانت سلطاتهم ضئيلة تماما. وكان حكام فرنكيا الشرقية والغربية يملكون ما يكفى وزيادة للحفاظ على

سيطرتهم على أتباعهم بحيث يستطيعون مواجهة الأخطار الخارجية. وظهر أن كل العناصر كانت متضافرة لكى تزيد التباعد بين أقاليم الإمبراطورية المنفصلة ، كما أن الغزوات التى رسخت قد ولدت الصراع داخل الأسرة الكارولنجية .

والصورة تبدو حقيقية عند مستوى واحد فقط . إذ أن الغزوات نفسها قد ساعدت على دعم الإحساس بالوحدة فى العالم المسيحى الغربى وبالمثال الإمبراطورى. فقد كان لدى الغزاة دافع واحد مشترك ، هو الرغبة فى السلب والنهب. ففى أوروبا التى كان اقتصادها زراعيا ، والتى ندر فيها وجود المعادن النفيسة ، كان هناك مكان واحد يبحث الناس فيه عن تلك المعادن. ففى كنوز الكنائس والأديرة كانت توجد الصحون وكئوس العشاء الربانى وصناديق حفظ الذخائر الفضية والذهبية التى تضم رفات القديسين ومتعلقاتهم ، إلى جانب الصور المصنوعة من المعادن النفيسة التى غالبا ما كانت ترصعها الجواهر والأحجار الثمينة العتيقة. فضلا عن أن الكنائس والأديرة غالبا ما كانت بدون دفاع، وبسرعة تعلم الغزاة أن يذهبوا إلى الأديرة للحصول على ما يريدون . وبالتالى ظهر وكأن غاراتهم هجوم مباشر على المسيحية نفسها وعلى قساوستها. ومن ناحيتهم استنجد القساوسة بكل المسيحيين لكى يتحدوا ويقاوموا الغزاة، وكان من الطبيعى تماما أن يلجأوا إلى فكرة الحاكم المسيحى باعتباره حامى الكنيسة ، وهى الفكرة التى أوحت بأحداث عيد الميلاد سنة ٨٠٠م وكانوا يرون أنه لم تكن هناك حاجة لمجهود موحد تقوم به الإمبراطورية المسيحية بأسرها ، مثلما كان الحال آنذاك. ولم يكن رجال الكنيسة قادرين على تحمل فكرة ترك الإمبراطورية تموت. فبالنسبة لهنكمار الريمسى Hincmar of Rheims كانت منازعات شارل الأصلع ولويس الألمانى هى «سبب انشقاق الكنيسة المقدسة» ولم تكن مجرد منازعات سياسية. وعندما مات لويس الثانى، انطلق البابا حنا الثامن باحثًا عن ملك محارب آخر لكى يحمل لقبه ولكى يتأكد من قبوله ملكا على إيطاليا. ومات شارل الأصلع الذى وقع عليه اختياره بعد ذلك بعامين فى نهاية حملته الثانية الفاشلة على إيطاليا. وبعد ذلك بسنوات قليلة، تم الاعتراف بشارل السمين ملك ألمانيا إمبراطوراً نتيجة للجهود البابوية، وتم توحيد إمبراطورية شارلمان مرة أخرى، ولفترة قصيرة تحت حكمه. وأدت عدم كفايته إلى خلعه سنة ٨٨٧م. وتم تتويج أرنولف Ar-nulf ملك الفرنجة الشرقيين القوى، فى روما ٨٩٦م على يد البابا ، ولكن الفرنجة الغربيين لم يعترفوا بزعامته أبدا . ومنذ ذلك الحين فصاعدا ، لم يكونوا بغير ملك منهم. وكان آخر من حمل لقب إمبراطور من أسرة شارلمان هو لويس الطفل ابن أرنولف . ومع ذلك استمر التهديد يحيق بالعالم المسيحى. وكل ما كان مطلوبا لإحياء الإمبراطورية هو ظهور إمبراطور ينتصر على أعدائها بحيث يستحق لقب إمبراطور .

والآن حان الوقت لكى نعود إلى الهنغاريين (المجريين) فقد كانوا قبيلة من البدو الفينو- أوجريان Finno- Ugrian من مناطق الاسبتس فى آسيا . وإذ دفعتهم قبائل بدوية أخرى خارج إقليم الإستبس ، عبروا روسيا واستقروا فى الأراضى التى كانت مهجورة منذ دمر شارلمان الآفار ولم يعرفوا الزراعة، واضطروا للاعتماد على النهب والإتاوات فى معيشتهم. ووقع عبء هجماتهم على المملكة الفرنجية الشرقية التى هاجموها بشكل متكرر منذ حوالى سنة ٩٠٠م فصاعدا. بيد أن المسافات فى أوروبا كانت تبدو قريبة بالنسبة لقوم ساقهم الرحيل من آسيا الوسطى. إذ أنهم هاجموا إيطاليا مرارا، كما هاجموا فرنكيا الغربية سنتى ٩٢٦م، ٩٣٧م، بل إنهم بلغوا شمال أسبانيا فى إحدى غاراتهم. وكانت غاراتهم مدمرة. وكان الهنغاريون، الذين يتحركون فوق خيولهم باستمرار، ينتشرون فى مجموعات صغيرة على مدى جبهة قد يصل اتساعها أحيانا إلى خمسين ميلاً ، ولكنهم كانوا يستطيعون أن يركزوا بسرعة فائقة عندما تتهددهم المقاومة. ولم يحدث أبدا أن هاجموا مدينة مسورة ولكنهم كانوا يخربون الأرض الزراعية، وينهبون الأديرة والأماكن غير الحصينة، ويأخذون معهم عدداً لايحصى من الأسرى بحيث يطلبون فدية عنهم أو يبيعونهم فى أسواق الرقيق . وتعلمت أوروبا الغربية كلها الخوف من أولئك القوم.

وربما كان الهنغاريون على المدى الطويل يمثلون لأوروبا المسيحية تهديدا أقل من التهديد الذى جاء مع الفيكنج أو المسلمين، بيد أن تأثيرهم كان أشد إثارة للحذر. ذلك أن عادتهم البدائية ، ومظهرهم الآسيوى الغريب والسرعة الخارقة التى كانوا يتحركون بها- كل هذا نشر الرعب والقصص المفزعة عنهم فى أقصى أنحاء أوروبا وأدناها : إذ قال البعض إنهم من آكلى لحوم البشر أو من مصاصى الدماء، وقال البعض الآخر إنهم الأحفاد الشيطانية للسحرة القوط الذين تزوجوا من الشياطين فى متاهات آسيا.

وكان تدهور الروح المعنوية فى مواجهة عدو غير مألوف مشكلة أضيفت إلى المشكلة العسكرية التى واجهت حكام المملكة الفرنجية الشرقية فى تنظيم المقاومة. فقد كانت تواجههم صعوبات أخرى أيضا. ففى سنة ٩١٩م انتقل تاج ألمانيا إلى هنرى دوق سكسونيا التى كانت أحدث دوقية بين الدوقيات الأربع الكبرى (وكانت الدوقيات الثلاث الأخرى هى بافاريا ، سوابيا ، فرنكونيا) التى كونت المملكة، ولم تكن لها حدود طبيعية تصد عنها الهجوم من جهة الشرق. وكان الكبرياء المحلى للدوقيات القديمة يمنع هنرى من أن يحصل من زعمائها سوى القبول على مضض . وفضلا عن ذلك ، كانت علاقة سكسونيا بالأراضى التى كانت ضمن

المملكة الوسطى أقل من علاقات أية دوقية أخرى بهذه الأراضى . وكان من المحتم أن تؤدى الفوضى السياسية التى سادت شمال إيطاليا إلى تدخل زعماء البافاريين والسوابيين الطموحين. إذ كان هناك خطر حقيقى بأن تنجذب هاتان الدوقيتان إلى فلك محاولة ما لإعادة مملكة لوثار، ويترك هنرى لكى يقاوم الهنغاريين بقوات سكسونيا وفرنكيا فقط. هذه الظروف لم تترك للملك السكسونى أى خيار سوى التدخل بنفسه فى إيطاليا التى كان المنصب الإمبراطورى مرتبطا بحكمها تقليديا. بيد أن مثل هذا التدخل لم يكن ليؤتى ثماره قبل احتواء الهنغاريين.

وقد ألحق هنرى بالهنغاريين هزيمة نكراء فى أنستروت Anstrut سنة ٩٣٣م. وبعد ذلك باثنتين وعشرين سنة أحرز ابنه وخليفته أوتو Otto إنتصارا فى ليخ Lech بالشكل الذى وضع حدا نهائيًا لغزواتهم وغاراتهم . وكانت معركة ليخ معركة هامة بالنسبة لأوروبا . وقد سجلها كتاب المؤرخات فى شتى أرجاء الغرب الأوروبى، وظلت عالقة بالأذهان فترة طويلة. وكتب بونيرو سوترى Bonizo of Sutri بعدها بمائة سنة أو يزيد قائلاً : «لقد حرر الغرب بأسره من المجريين». وفى هذه المعركة كان أوتو يحمل حربة قسطنطين المقدسة. وتذهب إحدى القصص إلى القول بأن قواته قد رفعته بعد النصر على دروعهم ورفعه الجنود إلى مرتبة الإمبراطور. وسواء حدث هذا أم لم يحدث ، فلاجدال فى أن النصر قد رفع لقبه إلى الدرجة الإمبراطورية، باعتباره مخلص العالم المسيحى من الأعداء الوثنيين. وفى سنة ٩٦١م قاد جيشا إلى داخل إيطاليا وتم تتويجه ملكا على اللمبارديين، وفى السنة التالية تم تتويجه إمبراطوراً على يد البابا جون الثانى عشر.

وإلى جانب هذه المكانة الجديدة، كان النصر الذى تم إحرازه فى ليخ مصدر مزايا أخرى ملموسة لأوتو وأسرته. ذلك أن المكان الذى احتلوه ، بصفتهم قادة مقاومة ناجحين ، فى عيون الناس ووجدانهم ، وضعهم بشكل حاسم بعيداً عن العائلات الدوقية الأخرى. وكان خطر تفكك المملكة الألمانية قد تلاشى فى تلك الآونة. كما أن هذا النصر ساعد أوتو فى تعامله مع الكنيسة التى كانت تكن له تقديراً خاصًا وكان قد رأى أن الحل لمشكلة الحد من استقلال الدوقات يكمن فى موازنة قواتها بالثروة الطائلة من الأراضى التى تمتلكها الكنيسة الألمانية. وكانت المشكلة هنا تتمثل فى وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب، أى اختيار الأساقفة ومقدمى الأديرة المناسبين لتولى المناصب فى الأديرة التى تملك أراضى كثيرة. وبعد النصر الذى تم إحرازه فى ليخ ، كان بوسع أوتو أن يعين رجالاً اختارهم بنفسه ، لافى ألمانيا فقط وإنما فى

إيطاليا لوثرنجيا ، التى كانت منذ سنة ٩٢٩ قد اعترفت بالسيادة الإسمية للملوك الألمان. وعلى مدى السنوات المائة التالية، كان تأييد كبار رجال الكنيسة الذين عينهم الإمبراطور، والذين يتحكمون فى ثروة طائلة من الأرض ، ويعهد إليها بمناصب إدارية مثل الكونت – هو مفتاح الحكم الإمبراطورى الناجح .

كان أوتو مثل شارلمان قد جاءته «الإمبراطورية» فى أخريات حياته، ويحوم الشك حول مدى فهمه للمغزى الذى كان يتضمنه لقب جعله الزعيم الدنيوى للعالم المسيحى الغربى . هذه المعانى أتضحت تمامًا فى عهد حفيده أوتو الثالث Otto III . وقد ارتقى أوتو الثالث العرش وهو ما يزال طفلاً لأن أباه مات مبكراً. وكان التأثير الأقوى فى تربيته هو تأثير أمه ثيوفانو Theophano، التى كانت أميرة بيزنطية جاءت من القسطنطينية حيث كانت تقاليد الحكم الإمبراطورى الرومانى متصلة بلا انقطاع منذ العصور الكلاسيكية، إلى جانب تأثير مجموعة من رجال الكنيسة الأقوياء الذين كانت تحكمهم أفكار الدور المسيحى للإمبراطورية التى تحملت العبء مع الكنسيين منذ أيام لويس التقى. وكان أبرز هؤلاء هو معلم أوتو الثالث، جربرت Gerbert أبرز المتخصصين فى الكلاسيكيات فى زمانه ، والذى تولى العرش البابوى سنة ٩٩٩م تحت اسم سلفستر Sylvester تيمنًا باسم البابا زمن قنسطنطين ، وهو الرجل الذى حول أول إمبراطور رومانى إلى المسيحية. وأمامه وأمام الشاب أوتو، الذى كان يخطو خطواته الأولى نحو الرجولة، تجلت رؤية مؤثرة للإمبراطورية الكلاسيكية وقد أعيد إحياؤها بفضل مشاركة الزعماء العلمانيين والكنسيين . وبدأ الإمبراطور فى تشييد قصر إمبراطورى جديد فى روما القديمة على الأفنتين Aventine. كذلك تعمد البابا أن يشرك أوتو معه فى الحكم على القضايا الكنسية التى تؤثر على الأراضى التى لم يكم حكم الإمبراطور مقبولاً فيها . بيد أن أفكارهما لم تكن عملية فى ظل الظروف السائدة آنذاك، بل أدت إلى الكارثة، فعندما اعترف أوتو بكل من ملك بولندا والمجر، وعين سلفستر أساقفة مستقلين فى جنسين Gnesen وجـــران Gran، لم يدر بخاطرهما أن ذلك يضعف من مركزيهما : فقد كان الملكان الجديدان تابعين للإمبراطور صاحب السلطة العالمية ، كما كان الأساقفة خاضعين للبابا فى روما؛ ولكن تصرفاتهما أبعدت زعماء الكنيسة الألمانية بشكل مدمر ، لأنهم كانوا دائما تواقين لمد سلطتهم على المسيحيين فى أوروبا الشرقية. فقد كان المال والرجال الذين تملكهم الكنيسة الألمانية دائما بمثابة مفتاح أوتو للسيادة على إيطاليا : وإذ تعين عليه أن يواجه الثورة هناك انقطعت المساعدات وصار كل من أوتو وسلفستر بلاقوة.

ومات أوتو الثالث سنة ١٠٠٢م وعمره إثنان وعشرون عامًا فقط، ولحق به سلفستر بعد

عام واحد . وأمضى خليفة أوتو، هنرى الثانى دوق بافاريا ، عدة سنوات فى محاربة قوة بولندا الجديدة التى كان أوتو قد ساعد على بنائها. وخلال تلك الفترة انفصلت لمبارديا عن الإمبراطورية بشكل يكاد يكون تامًا . ولكن قبل نهاية عهد هنرى، اشتبك البولنديون مع جيرانهم الآخرين فى روسيا وبوهيميا واستطاع هنرى أن يعيد فرض سلطانه على لمبارديا. وقبل وفاته سنة ١٠٢٢م بسنتين ، استطاع هو والبابا بندكت الثامن أن يعقد مجمعًا كبيرا فى بافيا حيث أصدرت المراسيم الخاصة بإصلاح أحوال الكنيسة. وهكذا تم تجديد تقاليد المشاركة الحميمة بين البابا والإمبراطور والتى كان قد تم التأكيد عليها من خلال أعمال كل من أوتو وجربرت . وسار كونراد الثانى، خليفة هنرى على نفس سياسته ، وبرهن على أنه حاكم قوى وناجح فى إيطاليا وألمانيا، حيث نجح فى استعادة تأييد كبار رجال الكنيسة مرة أخرى . وعندما مات تم استيعاب آخر الجيوب الباقية من المملكة الوسطى داخل الإمبراطورية .

وعندما مات كونراد، كانت قد تمت استعادة كافة المناطق التى تعرضت للمخاطر من جراء أحلام أوتو الثالث المفرطة فى الطموح ، باستثناء السيطرة على روما نفسها. فقد كانت المدينة التى استمدت إمبراطوريتهم إسمها منها بمنأى تمامًا عن مركز قوتهم الحقيقية ، بحيث لم يكن بمقدور الأباطرة الألمان أن يسيطروا بسهولة وفاعلية على الارستقراطية الرومانية المدنية التى اتصفت بالكبرياء والتقلب. ومن ناحية أخرى كان من السهل على أولئك المدنيين الارستقراطيين أن يبسطوا سيطرتهم على المملكة . وكانت تلك مشكلة خطيرة لأولئك الحكام الذين اعتبروا أنفسهم حماة الكنيسة والمدافعين عنها. ففى سنة ١٠٤٤م هب الرومان ثائرين ضد البابا بندكت التاسع ، الذى كان قد حصل على التاج البابوى من خلال نفوذ عائلته وهو فى سن السادسة عشرة ، وعينوا بدلاً منه بابا مضاداً هو سلفستر الثالث. وكان بندكت قد باع حقه لطرف ثالث هو جريجورى السادس عندما بلغته التحذيرات الأولى، ولكن سرعان ما ندم وزعم أن المنصب الذى هجره من حقه . وهكذا كان هناك ثلاثة بابوات يتنازعون العرش البابوى. وكان هذا موقف لايستطيع الإمبراطور هنرى الثالث، ابن كونراد ، أن يتجاهله . وعبر جبال الألب على رأس جيشه. وتم عقد مجمع كنسى فى سوترى فى ديسمبر ١٠٤٦م حيث تم خلع اثنين من البابوات ، واستقال الثالث بعد مجمع كنسى آخر عقد فى روما بعد ذلك بوقت قصير . وكان سيدجر البامبرجى Suidger of Bamberg، الذى عينه هنرى خليفة له والذى صار كليمنت الثانى، هو الأول فى سلسلة البابوات الذين جلبوا معهم الطموح العالى والمقدرة الإدارية، التى ميزت رجال الكنيسة الألمان، إلى المقر البابوى.

لقد لعب هنرى الثالث فى سوترى وروما سنة ١٠٤٦م دور الإمبراطور الحقيقى لكنيسة أوروبا. فعلى الرغم من أنه كانت له متاعبه مع جيران من السلاف ومع جودفرى دوق اللورين الأدنى المشاغب. فإن حكمه كان علامة على صعود جديد فى قوة الإمبراطورية؛ إذ أن انتصارات شارلمان العسكرية والسياسية البابوية كانت قد أحيت نمطًا من الإمبراطورية «الرومانية» فى الغرب. وعلى الرغم من أن الغزوات البربرية فى القرنين التاسع والعاشر كانت قد قربتها من النهاية، فإن انتصارات أوتو الأول باعتباره زعيما مسيحيًا فاقت كفاءته معظم خلفائه ، ضمنت الاستقرار لهذه الإمبراطورية . ويبدو هنرى الثالث أقوى هؤلاء الخلفاء، ذلك أن مؤيديه المخلصين كانوا يتحكمون فى المواقع القيادية فى الكنيسة ، كما كان هو ملك لمبارديا ، ويبدأ أن استقلال الدوقيات الألمانية القديمة قد أخذ يضعف فى زمانه . وكان من الواضح أن البابا هو رجله. بيد أن هذا جانب واحد من جوانب الصورة فقط، فقد كانت هناك ملامح أخرى أيضا تحمل فى طياتها مشكلات تتعلق بالمستقبل . لقد كانت الإمبراطورية التى حكمها هنرى الثالث لاتستطيع التباهى بأن نظام الحكم بها أكثر تقدما مما كان عليه زمن شارلمان: بل إن نظام الحكم فيها كان أقل تقدما. إذ لم يكن لها عاصمة ، أو نظام إدارى رسمى، كما أن مواردها الرئيسية كانت تأتى من الضياع الخاصة للإمبراطور نفسه. وكانت قوتها الحقيقية ترتكز على ألمانيا ، وهناك كانت تعتمد على قدرة الإمبراطور على التحكم فى التعيينات فى المناصب الكنسية العليا. وهنا مكمن الخطر الحقيقى. حقيقة أن ثروة الكنيسة الطائلة من الأراضى جعلتها فى مركز يسمح لها بأن تعوض قوة الأرستقراطية العلمانية وطموحاتها العائلية ، بيد أن زعماء الكنيسة كانوا هم أنفسهم من نفس عائلات النبلاء فى معظمهم ، وكانت الطموحات المماثلة تبدو أمرا طبيعيًا فى عيونهم. وعندما بدا أن الغزوات الوثنية تهدد المسيحية نفسها، كان زعماء الكنيسة على استعداد لأن يجتمعوا حول أى فرد يمكنه أن يقدم لهم الحماية الفعالة. وكان هذا هو اللقب الإمبراطورى الحقيقى الذى حصل عليه أوتو الأول. ولكن فى زمن هنرى الثالث كان التهديد الوثنى قد انقضى، ولم تعد حاجة الكنيسة الأولى هى إيجاد من يحميها بالسلاح ، حتى فى ألمانيا . وفى سوترى ، ظهر هنرى فى دور أكثر تمجيدا باعتباره حاميا وحاكمًا فى الوقت نفسه، ولكن من الواضح أنه كان يكفى لرجال الكنيسة أن يكون لديهم مثل هذا الحامى والحاكم.

وحتى مع قدرته على الإمساك بزمام الأمور فى ألمانيا، فإن سلطة هنرى كانت أقل تأثيراً من سلطة شارلمان. ولم تكن حدود إمبراطوريته هى حدود العالم المسيحى اللاتينى . ففى الشرق كانت السيادة الإمبراطورية التى اعترف بها السلاف المسيحيون فى بولندا وبوهيميا

إسمية تماماً. وفى الجنوب فى أبوليا وكلابريا ، كان المغامرون النورمان مشغولين فى أربعينيات القرن الحادى عشر بتأسيس الإمارات التى لم تعترف بالسيادة الإمبراطورية . أما فى الغرب فقد ظهر فى لحظة ما كما لو أن الأباطرة الألمان سيعيدون حدود إمبراطورية شارلمان إذ أن حكام القرن العاشر الكارولنجيون فى المملكة الفرنجية الغربية زعموا أن من حقهم أن يحكموا لوثرنجيا أيضا، وهى المنطقة التى كانت ذات مرة نصيبهم فى المملكة الوسطى، وأدى هذا إلى تدخلات عديدة من جانب حكام ألمانيا فى شئونهم . ولكن آخرهم، لويس الخامس سقط من فوق حصانه سنة ٩٨٧م أثناء الصيد ومات. واختار النبلاء المجتمعون من الفرنجة الغربيين مكانه هيوكابيه Hugh Capet ، الذى كان أقواهم والذى كانت أراضيه مركزة فى المنطقة المحيطة بباريس Ile de France. ولم يكن هو أو خلفاؤه يهتمون باللورين، وحكموا مملكتهم بشكل مستقل تماماً عن الإمبراطورية .

وكان الموقف الناجم عن هذا موقفاً شاذاً . فثمة إمبراطور رومانى ، ترتكز قوته الحقيقية على مملكته الألمانية، ويبدو أنه صاحب السلطة العليا فى العالم المسيحى اللاتينى الذى جمعته وحدة حقيقية ، ولكنه لم يكن الحاكم لهذا العالم. إذ كانت وحدته دينية مثالية، ولم تكن وحدة سياسية. وكما قال بيرين كان اللقب الإمبراطورى سبباً فى الحد من الطابع القومى للمملكة، ولكنه أضفى عليها صفة العالمية التى لم يكن لها أساس من الواقع.

٣- العبودية والإقطاع

كان تفسخ الإمبراطورية الكارولنجية وغزوات القرن التاسع هى التى أعطت القوة للضغوط الاجتماعية والاقتصادية التى كان لها تأثير عميق ، ليس فى زمانها فحسب وإنما على مدى فترة طويلة بعد ذلك . بيد أن تلك الضغوط لم تكن جديدة؛ إذ أنها تولدت من نفس الظروف التى ولدت فيها الإمبراطورية الكارولنجية نفسها ، أى من خلال التدهور المستمر والمطرد فى أحوال العالم الرومانى المتأخر.

وكان العامل الرئيسى هنا هو اضمحلال التجارة وتدهور المدن، وهو الأمر الذى كان قد بدأ منذ القرن الثالث الميلادى، وكان قد وصل إلى منتهاه زمن شارلمان. وبطبيعة الحال لم تكن التجارة قد توقفت ؛ كما لم تختف النقود التى هى الوسيط فى عمليات التبادل التجارى ولكنها فقدت أهميتها . إذ لم تكن أية مدينة من مراكز الحكومة الكارولنجية مركزاً تجارياً هاماً، سواء آخن، أو ميتز، أو فيردن. حقيقة أن القطيفة والحرير كان يباع فى أسواق بافيا فى ثمانينيات القرن الثامن ؛ وبعد ذلك بمائة سنة، فى ذروة الغزوات الجرمانية ، كان بوسع الراهب أبو الفليرى Abbo of Fleury أن يصب احتقاره على رؤوس أولئك الذين «نعمت عاداتهم برفاهيات الشرق، فلبسوا الثياب الغالية من الأرجوان الصورى ، والجواهر، وجلود أنطاكية». وتمدنا الفترة الكارولنجية بأدلة كثيرة، مثل هذه ، على أن التجارة كانت مستمرة؛ ولكن ما ينقصنا هو الدليل على وجود تجارة فى أى من أساسيات الحياة . لقد استمرت التجارة

منتعشة فى مواد الرفاهية ، والتوابل والمواد اللازمة لثياب البلاط وملابس رجال الكنيسة؛ ولابد أن نلاحظ أنها كانت بضائع لاتواجه مشكلات كثيرة فى الشحن والنقل. وهذه علامة على وجود سبب رئيسى آخر تزامن مع انهيار التجارة والمراكز الحضرية، وهو انهيار وسائل الاتصال ، مع تداعياتها الحتمية التى تمثلت فى تحجر الحكومة المركزية.

هذه هى الحقائق الحاكمة التى توضح حالة الاقتصاد أيام شارلمان . فقد كانت المدن قليلة للغاية وبالغة الصغر بحيث لايمكن اعتبارها سوقًا استهلاكية؛ كما كانت التجارة محدودة فى إطار الرفاهية؛ أما بالنسبة للأساسيات فإن سكان الريف كانوا مضطرين للاعتماد على أنفسهم. وهذا ما تشهد عليه الوحدات التى كان يتم بها قياس الأرض؛ فلم يكن الناس يفكرون فى ضوء مصطلحات حسابية مثل الياردة أو الفدان، ولكن فى مساحة الأرض التى يمكن أن تعول عائلة واحدة وهى المانسيو mansio فى فرنسا أو الهايد hide فى إنجلترا ، وهى وحدة قياس كانت تختلف فى حجمها بحسب خصوبة الأرض . وكان هناك شيئان على وجه الخصوص يمكن أن يهددا التوازن الدقيق للمعيشة فى هذه الظروف : المحصول الضئيل الذى تعقبه ندرة فى الغذاء، والحرب التى يشنها عدو يدمر المحاصيل . وبرزت إلى الوجود «الضيعة الكبيرة» التى كانت هى الوحدة الاقتصادية النمطية التى جمعت ما بين الاعتماد على الذات والقدرة على مواجهة هذين الخطرين.

كانت الضيعة تتكون من مزرعة أو عدة مزارع. وعلى رأسها مالك الأرض يتحكم فى النظام كله. وربما كان مالك الأرض ملكًا ، أو أحد الأديرة، أو واحداً من النبلاء. وكانت أرض الضيعة تقسم إلى قسمين غير متساويين: أحدهما هو الأصغر يخصص لحاجات المالك؛ بينما يقسم القسم الآخر إلى حيازات للمستأجرين . وبما أن النقود لم تكن تستخدم كثيرا ، فإنهم لم يدفعوا له نقوداً ولكن كانوا يدفعون له أجرة عينية إلى جانب عملهم فى زراعة أرضه . وكانت خدمة العمل هذه تصل إلى يومين أو ثلاثة أيام أسبوعياً خلال السنة. وربما وصلت إلى أكثر من ذلك فى أوقات الحصاد . وعادة ما كانت الحيازات على شكل أنصبة فى الحقول الكبيرة المحيطة بالقرية، وكانت زراعتها تتم بالجهد المشترك على أساس من نظام تبادلى غاية فى البساطة فى المحصولات ، ففى سنة يتم حرث الأرض وزراعتها ، ثم تترك لتستريح فى العام التالى. ومع الإيجار والحيازة كانت حقوق استخدام أراضى الغابات والمراعى فى الضيعة تتحدد بالتناسب مع عدد الوحدات (هايد أو مانسيو) التى كان المستأجر يحوزها. وكان يمكن أن تحتوى الضيعة الكبيرة على قرى عديدة يشرف على كل منها ناظر أو وكيل الضيعة ،

يتولى الإشراف على حقوق السيد وشئون الجماعة ؛ وقد أصدر شارلمان لأولئك الرجال تعليمات دقيقة حول إدارة المزارع الملكية فى مرسومه الدورى الشهير الذى أصدره سنة ٨٠٢م. وهو يعطينا صورة ممتازة عن كيفية عمل النظام فى زمانه. فقد كان من ضمن واجباتهم أن يشرفوا بحرص على جمع وتخزين نصيبه من محصول الأرض، ثم نقله إلى أحد مقار إقامته، إذا ما كانت هناك ضرورة لذلك. وكان من الأسهل على المالك أن يأتى ليقيم بالضيعة هو وأتباعه لكى يستهلك نصيبه فى مكانه بدلاً من إرساله إليه، إذا ما حسبنا مصاريف النقل وصعوباته. وبالتالى فإن الحكومة صارت حكومة متجولة، إذ كان طاقم الكتبة والموظفين يتبعون الملك من مكان لمكان. وكان من المحتم أن يؤدى هذا إلى التقليل من فعالية الحكومة المركزية ، ويزيد من اعتمادها على ممثليها المحليين.

لقد تحدثت هنا عن القرى، بيد أنه ينبغى أن نتذكر أن الوحدة الاجتماعية الحقيقية لم تكن هى القرية وإنما المزرعة. فغالبا ما كانت قرية بأسرها تدخل ضمن نطاق الضيعة ، ولكن الأراضى المحيطة بالقرية ربما كانت تتضمن حيازات تشكل أجزاء من عدد من المزارع، فقد كانت أساليب الزراعة بدائية وبسيطة آنذاك: أما العلاقات الاجتماعية والقانونية فيمكن أن تكون معقدة بشكل مُحير ومُربك . فقد كانت أبعد ما تكون عن كونها نتائج الظروف الاقتصادية: إذ أنها مثل أشياء أخرى كثيرة فى ذلك العصر تطورت بصورة عضوية من خلال أحوال مختلفة سادت فى فترة سابقة.

لهذا السبب وغيره سيكون من الخطأ أن نصور العلاقة بين السيد والمستأجر فيما بعد العصر الكارولنجى ببساطة على أنها علاقة بين مُسْتغِل ومُسْتغَل . إذ يجب على المرء أن يتذكر أن الضيعة كانت وحدة اجتماعية مكتفية ذاتيا. فقد كانت تنتج لاستهلاكها الخاص، وليس للبيع. وفى أوقات الشدة كان المخزون فى مخازن غلال السيد هو الذى يحمى الناس من الموت جوعا. وربما لم يكن من صالح السيد أن يترك الرجال الذين يعملون فى أرضه عرضة للموت جوعًا، لأن الأرض كانت متوفرة والزارعون أقل من المطلوب . ومع هذا كان السيد هو محور الحياة فى الضيعة. ولأنها كانت مكتفية ذاتيا ومنغلقة على سكانها فإن العلاقة مع الناس خارجها لم تكن ذات أهمية كبيرة على حين كانت العلاقات داخلها محكومة بقوانينها الخاصة ، وهى العادات القديمة السائدة فى الضيعة . وكان لابد من وجود من يراعى هذه القوانين حتى يمكن استخدامها بفعالية للسيطرة على خصوماتهم ومشكلاتهم. وكان السيد فقط هو الذى يمكنه القيام بهذا الدور بفضل مكانته الاجتماعية والأتباع المحيطين به. وكان

الأمر مماثلا بالنسبة للمشكلات الخارجية: ذلك أن الناس الذين كانت معيشتهم تعتمد على مساحة من الأرض لإعالة عائلة بالكاد كانوا عاجزين مالم يوجد أحد يتمتع بقوة أكبر ليتولى حمايتهم ورعاية مصالحهم . وفى المجتمع الزراعى الذى كانت الضيعة تمثله، كان السيد يلعب دوراً رئيسيًا باعتباره المسئول عن حكمه وحمايته. وقد أعطاه هذا فرصة التحكم فى الأمور. وعلى أية حال، فإن هذا لايعدو أن يكون أمراً معتاداً؛ فطاعة الفرد لسلطة غير قادرة تماما هى الثمن الذى لابد منه مقابل قدر من الأمان والنظام والاجتماعى .

فبالنسبة للمزارع العادى كانت الفوضى التى سادت فى القرن التاسع تستدعى وجود حماية وتتطلب وجود سلطة يمكن اللجوء إليها. وبالتالى فإن هذه الفترة شهدت إرساء الخطوط العامة للنظام الذى كان ما يزال يتطور. وقد نشأ هذا النظام بصورة طبيعية من طيات الأحوال الاقتصادية للإمبراطورية الرومانية المتأخرة، كما أن الضيعة الكارولنجية لها جذورها التى تضرب فى أعماق الزمن القديم. إذ كان بعض المستأجرين هم أحفاد العبيد الذين كان عملهم الجسدى فى منزل السيد غير كاف وغير مفيد فنقلهم للعمل فى الأرض الزراعية. كما كان آخرون من نسل فلاحين صغار كانوا ينتجون للسوق المحلى، ثم اضطروا ، بسبب ظروف تدهور الطلب على منتجاتهم وحاجتهم لنوع من السلطة لحمايتهم، إلى البحث عن الحماية لدى أحد السادة، مقابل أن يعملوا فى زراعة أرضه. ولكن الأكثر شيوعًا كان هو القن Colonus الذى يظهر ونحن نقلب صفحات الضياع الكارولنجية مثل ضيعة الراهب إيرمينون Irminon مقدم دير سان مور- لى- فوسيه St. Maur - les- Fossés إذ كان القن Colonus من حيث وضعه، من سلالة فلاح تم منحه مساحة من الأرض فى العصور الرومانية المتأخرة من الخزانة العامة، بشرط أن يزرعها هو وذريته ولايغادرها أبداً. كان مثل هذا الرجل يسمى حراً ، بيد أن حريته كانت محدودة بشكل صارم؛ إذ كان هو وذريته مقيدين بشكل أبدى إلى الأرض التى يعيشون فوقها. وهذا هو ما جعل القن فى العصور التالية غاليًا بالنسبة للسيد الذى كان مركزه يعتمد على الناس الذين يعملون فى أرضه لإعاشته هو وأتباعه. كانت هناك مساحات واسعة من الأرض، وسادة آخرون كثيرون يتنافسون للحصول على الرجال المزارعين، ولكن الأقنان لم يكونوا قادرين على ترك أراضيهم التى ارتبطوا بها بقانون عرفى ترجع جذوره إلى الزمن القديم.

ففى الزمن القديم ، كان هناك تمييز واضح بين القن Colonus، بحيازته الوراثية للأرض، والعبد الذى منحه سيده مساحة من الأرض له ولأسرته، بشرط أن يساعد فى زراعة أرضه.

وما أن جاء زمن شارلمان حتى كان هذا التمييز قد تشوش على حساب الرجل الذى كان حراً (أى القن) . وربما اعتبرت الأرض التى كان يحيا فوقها أرضًا عامة. ومنحت لدير من الأديرة أو لرجل من النبلاء، كما أن السلطة العامة (أى الملك) كانت مواردها محدودة بالقدر الذى يمنعها من توفير الحماية ضد هيمنة مثل هذا السيد. ومن المرجح أن الإيجار الذى كان يدفعه القن قد تحول إلى اتفاق يقضى بأن يعمل القن فى أرض السيد. ويبدو من عمليات المسح التى تمت فى القرن التاسع أنه كان ما يزال هناك عدد كبير من الرجال الأحرار، ممن كانوا يحوزون أراضى زراعية مقابل الخدمات التى كانوا يؤدونها ولكنهم لم يكونوا مربوطين إلى الأرض؛ كما كان هناك عدد كاف من المزارعين الصغار لم يكونوا ملتزمين بأداء أية خدمات مقابل حيازاتهم، أيا كان نمط ارتباطاتهم الشخصية. وقد تسببت الأزمة التى عانت منها الأجيال القليلة التالية إلى حدوث ثورة اجتماعية اختفت فى طياتها طبقة من المزارعين أشباه المستقلين.

• وفى غمار الهبّات والانتفاضات التى شهدها القرن التاسع والقرن العاشر كانت الصرخة الاجتماعية المدوية تطلب الحماية التى لم يكن يستطيع توفيرها سوى الأقوياء ، وهؤلاء بدورهم كانوا بحاجة إلى عمل الرجال لكى يطعموا أنفسهم ومحاربيهم، أى أتباعهم الإقطاعيين (Vassals) . وبسبب الإنهيار النهائى للدولة، تصاعد خوف المستضعفين من غياب الهوية الشرعية والاجتماعية، وهو المصير الذى يخشاه البشر أكثر من غيره. وكان السبيل الوحيد أمام الواحد من صغار القوم هو مقايضة أحد السادة: بأن يقدم له ما يملكه فى مقابل توفير الحماية: أى جهده، وحريته فى الحركة، وحرية أبنائه فى العمل. أى أنه كان يوافق على أن يصير القن المتوارث لسيده باختصار. ومن ثم، فإن قصة وليم شقيق ريجنالد الذى «وهب نفسه قنًا للقديس مارتن فى مارموتييه St. Martin of Marmoutier ولم يهب نفسه فقط وإنما وهب ذريته أيضا «بحيث يبقون إلى الأبد فى خدمة مقدم الدير والرهبان فى المكان فى حال من الخنوع والمذلة»- هذه القصة تكررت مرات ومرات فى سجلات الضياع التى ترجع إلى تلك الفترة . لقد كان وهب حرية أحفاد رجل ما على مدى الدهر عاملاً حاسمًا فى مثل تلك الصفقة، لأنه كان يوفر للسيد الضمان باستمرار الخدمة الزراعية. ومنذ ذلك الحين برزت إلى الوجود عادة فرض السيد غرامة Merchet عندما تتزوج ابنة القن: إذ كان يجب تعويض السيد عن هذا، لأنها إذا تزوجت خارج الضيعة فإنه سيفقد عمل نسلها جميعا. وكان هذا أيضا هو السبب فى أن القنية، بوصفها نظامًا اجتماعيا، قد بقيت طويلاً بعد العصر الكارولنجى .

وصار الإلتزام بدفع غرامة التعويض Merchet، فى معظم أنحاء أوروبا، هو المحك الذى يميز بين الرجل الحر وغير الحر فى المجتمع، واستمر كذلك على مدى عصور طويلة. ولم يكن الأقنان غير الأحرار عبيداً حقا، بيد أنهم لم يكونوا أفضل منهم حالاً سواء فى الواقع أو من حيث التقدير العام. وكان واجبهم، فى النظرية الاجتماعية، أن يحرثوا الأرض التى كانوا مربوطين بها، والتى كانت تترك أثرها على أيديهم وتحط من قدرهم، لصالح أولئك الذين كانوا يعيشون حياة أكثر قبولا، حياة الذين يصلون أو الذين يحاربون (أى رجال الكنيسة والنبلاء) لقد صارت الوظيفة الاجتماعية للرجل العامل محدودة فى نطاق توفير الإعاشة لسادته، كما تحددت آفاقه العقلية داخل نطاق الضيعة التى يعيش فيها.

وفى الإضطرابات التى سادت ذلك العصر المأزوم، كانت الضغوط التى تؤثر على الحر وغير الحر واحدة. ومرة أخرى كانت العوامل الحاسمة هى انهيار آلة الدولة والحاجة الماسة إلى الحماية. وعلى أية حال، فإن الأحرار وذرياتهم صاروا هم المستفيدين من فترة الفوضى، ولم يكونوا من ضحاياها. كان الموظف المحلى المعروف زمن شارل الكبير هو الكونت الذى كان معروفاً تماماً فى الإمبراطورية الرومانية المتأخرة بوصفة الحاكم المدنى والعسكرى فى جهة ما. ولم تكن وظائفه فى العصر الكارولنجى تختلف كثيراً عما كانت عليه فى الأصل. وعلى الرغم من أنه ربما كان من النبلاء، فقد كان ما يزال من الناحية الفنية موظفًا إمبراطوريا، يعينه الملك أو الإمبراطور. وكان يجمع الضرائب والرسوم المقررة على المواطنين المحليين لصالح الإمبراطور. وفى المحكمة الكونتية التى كان يرأسها، والتى كانت تجتمع ثلاث مرات سنويا، كان يحكم فى كل القضايا المدنية والجنائية الكبرى فى الكونتية (أما القضايا الأقل شأنا فكان يفصل فيها أتباعه الذين كانوا يشرفون على الوحدات المئوية Vicarii التى كانت تمثل أقسام الكونتية). أما فى الحرب، فإنه كان يقود قوات كونتيته. ومن حين لآخر كان يزوره المبعوثون missi القادمون من البلاط الإمبراطورى، والذين كانوا يتولون التفتيش على الطريقة التى أنجز بها مهامه، ويكتبون تقريرهم إلى سيده.

وهكذا لم يكن الكونت مسئولا من الناحية الإدارية عن خدمات رسمية هامة. وكانت خدمات الأفصال الملكيين أهم من خدمات الكونت، فى هذه المملكة الفرنجية التى كانت القوة هى الوسيلة الوحيدة لإبقائها متماسكة والتى كانت الحرب هى أهم مشاغل حاكمها. وهذا النظام يدين للجرمان أكثر مما يدين للرومان. وأصل كلمة Vassal ربما تعنى نوعا من الخادم التابع: وفى عصر شارلمان كان معناها الرجل الحر فى عصبة الحرب التابعة للملك أو لواحد من

كبار النبلاء. وكان أولئك الرجال مرتبطين بزعيمهم من خلال يمين الولاء الشخصي الذي أقسموه له ، شأنهم في ذلك شأن أعضاء عصبة الحرب comitatus الجرمانية القديمة؛ وكان هو بدوره قد وعدهم بحمايته الخاصة . لقد كانت الرابطة حميمة راسخة؛ وتخلق علاقة تشبه علاقة القربى، ويصعب إنفصامها، إذ كان الفصل يأخذ على عاتقه مهمة الحفاظ على حقوق السيد، وكان على السيد أن يقابله بالمثل. ولأن الفصل كان رجلا حرا ، فإنه إذا ربط نفسه بقسم الولاء لسيد ما ، لم يكن يربط ذريته بهذا القسم مثلما كان حال القن. ولكنه كان يقسم أنه طالما بقي على قيد الحياة **«أن أخدمك وأدافع عنك قدر طاقتي»- حتى لو مات في سبيل ذلك. «فليبعد عنك جنون الكفر إلى الأبد ، ولايجد الشر مكانًا في قلبك بحيث يجعلك غير مخلص لسيدك في أي أمر كان»** هكذا كتبت السيدة ثيودا Thuoda إلى ابنها وليم، التابع الإقطاعي لشارل الأصلع سنة ٨٤٣م، لقد كانت مثل هذه العواطف هي التي تجعل الأفصال المخلصين مفتاح القوة الحربية لأي حاكم كارولنجي . إذ كانت قدرة الحاكم على الحفاظ على مملكته تتوقف على قوته الحربية وهذا هو ما جعل أفصاله على هذا القدر الكبير من الأهمية.

والواقع أن الفصل الإقطاعي في الفترة الكارولنجية كان أكبر من مجرد رجل محارب بكثير، إذ كان يحتاج إلى معدات غالية الثمن ، مثل الفرس والسلاح، لأن الفروسية كانت في ذلك الوقت تتحول إلى سلاح حاسم في المعركة. وكان من المحتمل تمامًا أن يمتلك الفصل ضيعة خاصة به، أي أرضا موروثة يمكنه التخلص منها كيفما شاء. وسواء كان الأمر كذلك أم لم يكن، فإنه كان يتوقع بالتأكيد أن يحصل في مقابل خدماته على ضيعة باعتبارها «إقطاعا»؛ يستمتع بعوائدها طوال حياته . وكان مثل هذا الإقطاع يؤخذ عادة من الأملاك الملكية، أو من أملاك الكنيسة، وفي هذه الحالة كان يدفع للكنيسة نوعًا من الإيجار. وقد ضاعف منح الإقطاع من قيمة الفصل، لأنه في هذه الحال كان يمكنه أن يعول أفصالاً تابعين له من ناتج الإقطاع وهو الأمر الذي زاد من قيمته الحربية الشخصية . كما كان للإقطاع ميزة إضافية أنه لم يكن منحة دائمة، ولكنه كان حيازة مؤقتة: أي أنه كان يعود عند الوفاة إلى المالك الأصلي، كما كان يمكن إعطاؤه لفصل جديد ، وهكذا كان يختلف عن الضيعة الوراثية، التي كانت تضيع إلى الأبد إذا أعطيت لأحد. لقد كان منح إقطاع من الخزانة الملكية يجرد الملك من ملكيتها بشكل مؤقت فقط بعكس الضيعة الوراثية allod ومن ثم كان الكارولنجيون كرماء في منح الإقطاعات، وصار أفصالهم رجالاً ذوي نفوذ. وكان طبيعيا تمامًا أن يتم اختيار عدد كبير جداً من كونتاتهم من بين أفصالهم، ومنحوهم إقطاعات في الدوقيات التي عهد بها إليهم. وهكذا ، بدأ نظام الإدارة الكونتية، ونظام الخدمة الإقطاعية ينصهران سويًا .

ومن الإنصهار برز ما أطلق عليه اسم النظام الإقطاعى الذى أخذ شكله الأصلى من موطن ملوك الفرنجة الغربيين، وهى الأراضى الواقعة غرب نهر الراين وشمال نهر اللوار. ففى غمار غزوات الفيكنج وغيرهم باتت الحاجة إلى الحماية المحلية ماسة ومُلحة بحيث لم يكن بوسع الملك المتجول أن يوفرها . وكان إخضاع المرء نفسه وممتلكاته للحماية التى يوفرها أحد أفصال الملك، يمتلك الضياع المحلية وتحت إمرته الرجال المستعدون، فرصة توفر الأمن للغالبية . ومثل هذا الفصل ، لم يكن ليقبل أن يوفر الحماية سوى بالشروط التى تحقق مصلحته على الرغم من مشكلاته الخاصة. فقد كان يحتاج أولا إلى عدد كاف من الأتباع لكى يدافع عن نفسه وعن أراضيه . وكان الحال بالنسبة للتابع يتمثل فى أن يجعل نفسه تابعًا لفصل ، أى أن يسلم ضياعه الخاصة إلى سيده الجديد الذى اختاره ، ثم يتلقاها منه على شكل إقطاع. ولأن الكونت يتمتع بالقوة والمكانة التى أضفاها عليه مركزه الرسمى، فإنه كان الإختيار المفضل للباحثين عن سيد يحميهم. فمن وجهة نظر التابع، كانت قوة الكونت هى الأهم من منصبه ، وهكذا وجد الكونت مركزه يزداد قوة. إذ أنه لم يكن قاضيا ينوب عن الملك فى حكم الناس فى كونتيته فقط، ولكن جميع الرجال البارزين تقريبا فى الكونتية كانوا يتحولون إلى أفصال تابعين له، ويقسمون على أن يخدموه ويحوزون أراضيهم منه بشروط «بصورة مؤقتة» . ولقد كان يتحول إلى ملك صغير. ومن الطبيعى ، أن التمييز بين سلطته بوصفه «الكونت» وسلطته بوصفه من كبار ملاك الأرض وسيداً على عدد من الأفصال، قد تلاشى فى طى النسيان، إذ اعتبر كلاهما وجهين لشىء واحد. وهكذا بدأت الحدود القديمة للكونتيات تتغير؛ فقد صار الكونت قاضيًا وسيداً ليس فقط فى الناحية التى حددها الملك له ولذريته، ولكن فى جميع الأراضى التى كان هو وأفصاله يمدّون سلطانهم عليها.

والعملية التى وصفناها هنا بإيجاز هى العملية التى تمت من خلال ولادة أرستقراطية جديدة ذات قوة هائلة. وكان قبول مبدأ وراثة الإقطاعات هو الذى أضفى على هذا النظام الجديد طابع الاستمرارية. وكانت تلك خطوة طبيعية وتكاد تكون حتمية. وينبغى أن نتذكر أننا نتعامل مع مجتمع كانت رابطة القربى فيه هى أهم الروابط الاجتماعية، وكانت حماية حقوق ذوى القربى واجبًا اجتماعيًا له الأولوية. ولم يكن الرجل يُخضع نفسه وأرضه للسيد طلبًا للحماية الشخصية فقط، ولكن لحماية عائلته وأتباعه أيضا. أما السيد (سواء كان ملكًا أو كونت) الذى كان يصر بصرامة على حقه فى منح إقطاع الفصل المتوفى لمن يشاء ، فلم يكن يجتذب الكثيرين للعمل فى خدمته . ولم يمر الأمر دون نضال حتى تخلى الملوك عن حقهم فى استعادة الكونتيات والإقطاعات وإعادة منحها، لأن ذلك كان مفتاح سيطرتهم على أتباعهم ولكن

النضال كان بلا جدوى . وقد اتضح كيف كانت الأمور تسير فى المنشور الدورى الذى أصدره شارل الأصلع كويرزى سنة ٨٧٧، عندما كان على وشك الرحيل إلى إيطاليا : إذ أنه أعلن، وهو بعيد، أن أى كونت يموت يخلفه ابنه بلا مشاكل . فقد كان يعرف أن أية محاولة لمنع هذا سوف تتسبب فى ظهور المتاعب التى لم يكن يأمل فى أن يسيطر عليها وهو بعيد. وبعد ذلك بقرن صار حق الإبن فى أن يخلف أباه أمراً لايثير أية مناقشة، أى صار جزءاً مقبولاً فى النظام.

وبقيت آثار واضحة من النظام القديم حقًا. إذ أن الفصل الجديد ظل غير قادر على دخول إقطاع أبيه حتى يجدد لنفسه يمين الولاء الذى كان أبوه قد أقسمه لسيده، ويدفع للسيد مبلغا من المال (rachat) أو ضريبة لكى يُسمح له بخلافة الأب. وكان تجديد يمين الولاء عملية مهيبة للغاية. فقد كان الوريث يركع، ويؤدى فروض الطاعة والولاء ، واضعًا يديه بين يدى سيده ويعلن : «سيدى ، إننى أصبحت رجلك» . وبعد هذا كله يقسم أن يؤدى خدماته بإخلاص طوال حياته. وعندما يفعل ذلك كان يمتلك إقطاعه (feudum) وهو الاسم الذى صار يطلق على الأرض الممنوحة منذ القرن الحادى عشر .

وكان يمكن أن تتضمن هذه العملية فعلاً رمزيًا أيضا، إذ كان السيد يمنح الفصل راية علامة على أنه وأتباعه يجب أن يخدموه فى الحرب. وفى عصر لم تكن الاتفاقات بين الناس تدون فى غالب الأحوال، كانت هذه الطقوس المهيبة والرسمية بحضور الشهود تؤدى غرض التسجيل القانونى، كما أنها كانت توضح حقوق السيد على تابعه وعلى خدم تابعه وأرضه، لتُذكر الحاضرين بأنه إذا مات التابع دون وريث، أو إذا أخفق فى خدمته، يكون من حق السيد استعادة الأرض التى منحها له. وعلى أية حال ، فإن هذه التحفظات لاينبغى أن تخفى الحقيقة الأساسية القائلة بأنه فى النهاية لم يكن من حق السيد رفض منح الإقطاع ما دام يمين الولاء قد تم. وبحلول القرن الثاني عشر، كان المبدأ الوراثى قد كون ارستقراطية من الأتباع كما شكل طبقة معدمة من الأقنان.

كانت هناك شرائح اجتماعية عديدة فى المجتمع الحر الذى شكله الأتباع . فقد كانت بعض الإقطاعات مسجلة أكثر من البعض الآخر، كما أن حيازاتها تضمنت حقوقًا أكبر. وهكذا، فإن الإقطاعيات التى كانت فى أصلها كونتيات قديمة منحت حائزيها حقوقا قضائية أوسع كثيراً على الرعايا مما كان الأتباع يتمتعون بها فى ضياعهم . إذ كانت مكانة الرجل آنذاك تقاس بالحقوق التى يتمتع بها فى إقطاعه، وطبقة السيد الذى تلقى منه هذا الإقطاع . وكان من

الطبيعي أن يوجد قدر كبير من الشد والجذب لأن العائلات كانت تحاول الحصول على أكبر قدر من الفائدة من تقلبات حظوظ بعضها البعض. وكان هناك عدد قليل من حائزى الإقطاعات، فى القرن الحادى عشر، يمكنهم أن يعودوا بأصل حيازتهم إلى أيام شارلمان. وعلى أية حال، فإن الظروف الأكثر استقراراً قد جعلت قواعد الوراثة راسخة بحيث يصعب خرقها بالقوة أو الإحتيال. وهكذا فإن الإمارة المحلية برزت باعتبارها الوحدة الحكومية الرئيسية، التى كانت تسمى الكونتية أحيانا والدوقية أحيانا أخرى. وكانت نوعًا من المملكة فى صورة مصغرة. وقد امتدت المسافة بين الملك وحاكم الكونتية ، الذى كان تابعه الشخصى ذات مرة ، بلاحدود: وكل ما تبقى من الرابطة القوية التى جمعتها هو حق الملك فى أن يطلب من ابن الكونت أن يؤدى له يمين الولاء حين يخلف أباه. وكانت قوة ملوك الفرنجة الغربيين الحقيقية قد تحددت على هذا النحو داخل أملاكهم، أى الأراضى التى حكموها دونما وسيط. وكان الملوك الكارولنجيون الأواخر يملكون عدداً ضئيلاً من الضياع بحيث كانوا فى حقيقتهم غير قادرين على كفاية أنفسهم: أما خلفاؤهم الكابيون فلم تكن لهم سلطة أكبر من سلطة الكونت العادى.

والواقع ، أنه نتيجة للفوضى التى سادت القرنين التاسع والعاشر ، كانت الحكومة قد توقفت عن أداء الكثير من مهام الدولة حتى فى صورتها البدائية. فقد صارت جزءاً من ميراث الرجال الأقوياء. وما كان يربط هذا المجتمع سويًا لم يكن الإحساس بالإلتزام تجاه كيان عام ، ولكن يمين الولاء الشخصى الذى أقسمه أفراد تجاه سادة بصفتهم الفردية. واعتمد سلام المجتمع على مدى استعداد أولئك الأفراد للحفاظ على وعودهم، وهناك كانت القوة هى العامل المحرك. لقد نشأ النظام من غمار الضرورات التى فرضها الموقف العسكرى، وحمل الكثير من سمات أصله . وكان المركز الحقيقى لسلطة السيد يتمثل فى قلعته ، حيث كان يمكنه من خلف أسوارها أن يقاوم جميع القادمين: وحيث كان يعقد أيضا محكمته ويحاكم رعاياه. وكان الإلتزام الأساسى للفصل هو الخدمة فى الحرب: إذ كانت ضيعته تُقَيِّم حسب عدد الجنود الذين توفرهم الضيعة. وإذا ما اعتدى منافس على حق أحد الرجال، وإذا ما نقض سيده، أو تابعوه الإتفاق الذى تم بحلف اليمين بينهما ، فإن الملك والكونت والفصل جميعا كانوا يلجأون إلى الثأر ، الذى كان من حق الرجل الحر فى الزمن القديم. إذ كان يتصدى لمنافسه فى لغة رصينة ويشن الحرب عليه. ولم تترك حروب النبلاء الإقطاعيين سوى قدر ضئيل من السلام فى أنحاء عديدة من أوروبا خلال القرون الأربعة التى أعقبت سنة ١٠٠٠م.

وغالبا ما يتم الحديث عن النظام الإقطاعى كما لو كون نظامًا واحداً فى أوروبا كلها: ولذا

ينبغى أن يكون واضحًا أن الأحوال التى عرضنا لها هنا لاتنطبق سوى على شمال فرنسا فقط. فنتيجة للغزوات الفرنجية والنورمانية ، أقيمت نظم شبيهة فى إنجلترا، وجنوب إيطاليا وصقلية، وفى المملكة الصليبية ببيت المقدس. أما فى غير هذه الأماكن فقد وقعت تطورات موازية، ولكنها لم تكن فى إطار مماثل . ففى شمال إيطاليا وجنوب فرنسا، التى لم تتأثر كثيرا بالغزوات ، كان كثيرون من حائزى الضياع الوراثية التى ترجع فى أصلها إلى العصر الرومانى ، بعيدين تمامًا عن أن يتحولوا إلى أتباع إقطاعيين (أفصال) ، ولم يحدث أبداً أن كانت للدوقات والكونتات درجة السيطرة المحلية التى عرفتها فرنسا فى الشمال. وفى ألمانيا بصفة خاصة كان مجرى الأحداث مختلفًا عنه فى فرنكيا الغربية. إذ أن معظم ألمانيا لم يخضع على الإطلاق للإدارة الرومانية، كما أن الأساليب الكارولنجية لم تكن راسخة عندما أنشبت الأزمة مخالبها فى هذه المناطق فى أواخر القرن التاسع بسبب إنطلاق الغزوات الاسكندنافية والهنغارية . ولم يكن بحوزة الدوقيات القبلية الكبرى فى ألمانيا، مثل بافاريا وسوابيا، نفس الحقوق الواسعة الواضحة فى شئون الإدارة التى تمتع بها الكونتات الفرنسيون. ومن ثم فإنهم لم يكونوا يحرزون نوعًا من الهيمنة على غيرهم من ملاك الأراضى فى دوقياتهم، خاصة رجال الكنيسة، مثلما كان يفعل الكثيرون من الكونتات الفرنجة . وكان الحكام من أسرة أوتو Otto وخلفاؤهم قادرين على الحفاظ على عروشهم بفضل سيطرتهم على المناصب الكبرى فى الكنيسة، وبفضل تعيين رجال الكنيسة من أقربائهم فى الكونتات والدوقيات. وكان كونتاتهم الكنسيون يلقون المساعدة من الفرسان الأقنان Ministeriales، وهم رجال تابعون لا أرض لهم من طبقة الأقنان أصلاً ، وقد ارتبطوا بسادتهم على نحو أشد قوة من الأفصال الأحرار. وكان هذا هو السبب فى بروز الملوك الألمان من غمار الأزمة على هذه الدرجة من القوة، وهو ما تناقض بشكل حاد مع فرنكيا الغربية الذين نزلت بهم الغزوات إلى درجة العجز.

بيد أن هذا التناقض بين فرنسا وألمانيا ينبغى ألا نبالغ فى مداه. ذلك أن سلطة الأباطرة الألمان كانت تعتمد فى النهاية على النفوذ المحلى للرجال الذين ارتبطوا بهم رابطة القسم والولاء الشخصى ، شأنهم فى ذلك شأن ملوك غرب فرنكيا. ولم يكن بوسع أى من البلدين أن تنشىء شيئًا يمكن أن نسميه حكومة مركزية منظمة : ففى كل من البلدين كانت السلطة فى التحليل الأخير بحوزة أولئك الذين باستطاعتهم بناء القلاع وجمع عدد كاف من الرجال لحماية الجوار. ومن المؤكد حقًا، أنه فى القرن الحادى عشر الذى سادت ألمانيا فيه ظروف اجتماعية مختلفة، كان الرجال القادرون مجموعات مختلفة: أى أنهم لم يكونوا الكونتات، ولكنهم كانوا السادة العلمانيين والكنسيين الذين سيطروا على الضياع الوراثية الحرة الكبرى. ولأنهم

ـم تكن لهم خبرة السلطة التفويضية، مثل الكونتات الفرنجة الغربيين، فإنهم لم يعرفوا مع هذا مقدار قوتهم ، ولكنهم تعلموا تقديرها فى سياق أزمة جديدة وقعت فى نهاية القرن الحادى عشر، قبل أن يعثر الأباطرة الألمان على وسيلة فعالة ومنظمة لإبقائهم تحت السيطرة . وما أن علموا مقدار قوتهم حتى برهنوا على أنهم ليسوا أقل قوة وجموحًا من بارونات فرنسا.

ترى أى نوع من الرجال كان أولئك البارونات الذين كانت بأيديهم سلطة محلية على هذا القدر من القوة؟ وعلى هذا السؤال الهام والبالغ الصعوبة تكمن الإجابة فى سيرة ثلاثة كونتات من أنجـو Anjou وهم: جيوفرى جريمانتل Geoffrey Greymantle (حـوالى ٩٦٠-٩٨٧) وفولك نيرا Fulk Nerra (٩٨٧-١٠٤٠) وفولك رشان Fulk Rechin (١٠٦٧-١١٠٩). فقد سجل التاريخ أن جيوفرى جريمانتل ، باعتباره الفصل المخلص لآخر الملوك الكارولنجيين فى فرنكيا الغربية، هو بطل شبه أسطورى من زمن الغزوات أنقذت نصائحه المخلصة المملكة من المخاطر التى تهددتها أكثر من مرة . أما فولك نيرا المؤسس الحقيقى لمستقبل أسرته، فقد دام حكمه طويلاً وبنى ثلاث عشرة قلعة. وقد استولى على مساحات واسعة من الأراضى من جيرانه بالقوة وهى ساومور Saumur ومعظم أراضى تورين Touraine . ويذكره الكثيرون فى صورة الرجل الذى «**كان فى حرب دائمة، وهو رجل جشع قاسى القلب**» بيد أنه حج أيضا إلى القدس ثلاث مرات، وأسس ديرين ومنح الهبات لأديرة كثيرة . وفى ظلها بدأت المدن الصغرى تقوم وتزدهر. وكان فولك رشان رجل أدب وعلم، وكان هو حامى العالم المنشق برنجار التورى Brenegar of Tours الذى كتب مؤرخه تسجل تاريخ أسرته. كما كانت له أربع زوجات ، وكان يتشاجر مع أفصاله بشكل مدمر، وسيكون من الصعب أن نقول أن أيا من هؤلاء الرجال الثلاثة يعد الأفضل والأكثر استنارة.

وباختصار ، لم يكن البارون الذى أفرزه النظام الجديد شخصًا نمطيًا. ولاشك فى أن ظروف القرنين التاسع والعاشر قد وضعت سلطات مؤثرة بأيدى النبلاء الإقطاعيين مع زيادة قوتهم ومكانتهم فى عالمهم المحلى. وقد أدت قوة الوارثة إلى دوام سلطتهم ومكانتهم المتميزة. وقد اعتمدت تصرفاتهم فى سلطاتهم وامتيازاتهم إلى حد كبير على الخصائص والسجايا الفردية. وكما يحدث دائما، عندما يهبط التاريخ إلى المستوى الفردى، لن يكون بوسع المرء أن يضع نموذجًا للسلوك سوى بشكل غامض وربما بشكل مضلل. ومع هذا فإن ما فعله أولئك الرجال كان هامًا دائمًا، لأن القرارات المصيرية فى أوروبا الإقطاعية كانت بأيديهم.

٤- المُثُل العليا الدينية والسياسية

إن أى مسح للأحوال الاجتماعية والاقتصادية زمن الكارولنجيين والأباطرة الألمان الأوائل يكشف لنا عن عالم اضطر إلى الإنكفاء على موارده المحلية. إذ كانت الأجزاء التى كونت الدولة العلمانية فى أواخر العصور الرومانية وما بعدها قد انقسمت إلى وحدات صغيرة مستقلة ذاتيًا. وطالما فكر المرء فى هذه التطورات بالمصطلحات العلمانية ، فإنه قد يقع فى منزلق الإغراء بالمبالغة فى هذه الاتجاهات الهدامة. لأن الناس فى ذلك الزمان لم يعتبروها كذلك ولم يكن بوسعهم أن يفعلوا . إذ أنهم كانوا عاجزين عن عزل الشئون الدنيوية عن سياقها الغيبى . فبالنسبة للناس الذين رأوا أن وراء الحوادث الطبيعية؛ مثل العواصف والمجاعات والأوبئة ، عملاً مباشراً من أعمال الألوهية- بالنسبة لهؤلاء الناس كانت أية محاولة للفصل بين العالم والغيب ستبدو أمراً منافيًا للواقع. لقد كان الإيمان الدينى يحكم موقفهم تجاه كل الإطار الاجتماعى لحياتهم، كما تغلغل فى نسيج كافة مؤسساتهم. وكان يمين الولاء يؤدى على الأناجيل أو على الذخائر المقدسة. وكان فى ظنهم أن الأقنان طبقة خلقها الرب لكى يوفر العيش لعامة الناس . والأعمال التى حفظتها الأديرة ، والتى تسجل دخول الناس فى القنانة (عبودية الأرض)، تتحدث عن أنهم قد «أعطوا» أنفسهم وعملهم للرب وللكنيسة ، وذلك لكى «يرعاهم الرب». وهكذا، فإنه فى نفس الوقت الذى كانت الضغوط الاجتماعية وصدمة الغزوات تباعد بين الناس كانت روابط الإيمان الدينى العام والرؤية المشتركة تجمعهم سويًا، بنفس القوة تقريبًا .

حتى بالمصطلحات العلمانية ، من السهل أن نبالغ فى درجة العزلة. ذلك أنه إذا كانت الظروف المعاصرة قد حالت دون التجارة على نطاق واسع ، فإنها لم تحل دون سفر الأفراد. وكانت تكاليف حمل البضائع بالجملة حتى لمسافات قصيرة نسبيًا تمنع التجارة بشكل يكاد يكون شاملاً ، بيد أن مثل الإعتبار لم يكن ليمنع حاجًا من السفر لزيارة أحد الأضرحة المقدسة، أو ليعوق دارسًا من الإرتحال فى طلب العلم والحكمة بين يدى أحد الأساتذة المرموقين. ولم يكن هؤلاء يعودون خاويى الوفاض: إذ كانوا يجلبون معهم فى العودة الذخائر المقدسة لكى يضعوها فى الكنائس المحلية، ونسخًا من الكتب نسخوها من المخطوطات التى تحوى مؤلفات غير معروفة فى بلادهم ، فضلاً عن قصص لاتنتهى عن المعجزات المدهشة ، وعن التعليم على أيدى المدرسين الأجانب، أو عن حياة القداسة التى يحياها الرهبان فى البلاد البعيدة، ومثل هذه المواد لم تكن تسبب مشكلات كبيرة فى حزمها أو نقلها . ومن ثم لم يكن تبادل الأفكار (وهو مثل التجارة فى سرعة الحركة) فى حال من الخمول. لقد درس جربرت، الذى ولد فى أقطانيا لأبوين فقيرين ، فى أسبانيا وإيطاليا قبل أن يعتلى عرش البابوية تحت اسم سلفستر الثانى . ومع تزايد شهرته عينه أوتو الثانى مقدمًا على دير بوبيو Bobbio الإيطالى الكبير ، ثم عينه هيوكابيه ، ملك فرنسا فيما بعد كبيراً لأساقفة رِيمس؛ وبعد ذلك كان هو معلم أوتو الثالث الذى عينه كبير أساقفة رافنا. وفى كل هذه الأماكن كان يقابل الناس ويؤثر فيهم، ويؤثرون فيه أيضا، لقد كان ذلك عالمًا واحداً بالمقاييس التعليمية والدينية. لأن الأفكار الدينية صبغت كل وجوه الحياة ومن ثم فإن الثقافة المشتركة التى تولدت عن ذلك كان لابد لها أن تمس حتى أولئك العاملين فى الحقول .

ولاشك فى أن أقوى قوة دينية فى تلك الفترة كانت تتركز فى الأديرة. وكان تأثيرها مباشراً على حياة الناس بقدر أكبر من تأثير أية مؤسسة أخرى فى الكنيسة. وقد يبدو هذا غريبًا، عندما يتذكر المرء الغرض الذى وضع به دستور سان بندكت (أى القاعدة الديرية التى كانت متبعة بشكل أو بآخر فى معظم الأديرة فى شتى أنحاء الغرب الأوربى)، لكى يكون مرشداً للرجال الذين هجروا الدنيا تماما من أجل حياة الروح. ولكن تلك الأسباب لم تعد كافية لكى تبرر الهروب من العالم. إذ أن الدنيا كانت قد تغيرت كثيرا منذ الأيام التى كتب فيها سان بندكت النورسى دستوره فى القرن السادس . ففى عصر كان الناس يرون بوعى أن وراء كل نظام اجتماعى معنى دينيًا ، يكون الهرب من العالم بلا مغزى أو معنى. وفى مقابل المثال القديم الداعى إلى الإنسحاب من العالم، برز مفهوم جديد عن الدير باعتباره قلعة للصلاة والشفاعة عند الرب من أجل المسيحيين . ويُعتبر تخصيص الأطفال للأديرة والصلاة قبل

بلوغهم سن الرشد من الأمور ذات الدلالة والمغزى. ويبدو هذا فى رأينا نفيًا للمهنة الدينية: بيد أنها كانت تبدو آنذاك الطريقة المؤكدة لأن يحيا الطفل الموهوب حياة مفيدة .

وإذا نظرنا للأمور بهذا المنظار، لرأينا أن أهم وظيفة للدير كانت الإنجاز الدقيق لحلقة متزايدة من الواجبات الكنسية. وكان لابد من توفر أمرين لإنجاز هذه الوظيفة هما : وجود مساحة كافية من الأرض الموقوفة على الدير، ووجود الرجال الذين يعملون فى زراعة هذه الأرض. وهكذا كانت هناك فجوة بالضرورة بين حياة الأديرة وبين المجتمعات المحلية . وكان الدير الجديد يعتبر انعكاسًا واضحًا للمشاعر التقية للسيد الذى أسسه وللمجموعة الأرستقراطية التى يشكلها أتباعه الإقطاعيون: وهناك سلسلة طويلة من الوثائق الخاصة بالتأسيس تشهد بأن هبة أى سيد كانت أشبه بإشارة لأتباعه لكى يترسموا خطاه فى كرمه . ولم تكن هباتهم لأنفسهم فقط، بل إنها كانت تحقق لهم ولأجدادهم، ولرخائهم رابطة حميمة وشخصية بالصلوات التى يؤديها الرهبان . إذ كانت أسماؤهم تسجل فى سجلات الأديرة ne-crologies لكى تذكر فى القداس الذى يقام تكريمًا للميت، وربما يحدوهم الأمل فى أن يدفنوا أيضا داخل الحرم المقدس للدير، وبذلك يكتسبون فى يوم القيامة بعض الفضائل من خلال الإرتباط بنزلائه المقدسين . وليست مصادفة أن عيد أرواح الموتى feast of All Souls ، الذى تتذكر فيه الكنيسة جميع المؤمنين الراحلين ، يرجع فى أصله إلى تلك الفترة .

وبالنسبة للفلاح أيضا كان الدير يقدم شيئا على الرغم من أن الدير كان يبدو فى صورة صاحب العمل القاسى فى معظم الأحوال . فقد كان مرتبطًا بشكل مباشر وشخصى بالنشاط الذى يقوم به الدير : إذ أن الرجل الذى كان يجعل من نفسه، أو يتم تحويله إلى قن تابع لأحد الأديرة، كان يدخل فى عائلة القديس (أو القديسة) الذى تم تكريس الدير له . ومن ثم يكون تحت حماية القديس الخاصة. وكان هذا يعنى بالنسبة لهم ما هو أكثر من خدمات القسيس الذى يعينه السيد فى الضيعة. إذ كان إسلوب حياة هذا الرجل لايكاد يختلف عن إسلوب حياة الفلاح، كما كانت كنيسته الصغيرة العارية لاتصمد للمقارنة ببيت الرب المهيب الذى يسكنه الرهبان، إذ كانت الدير يبنى بالأحجار ويضم بين جنباته كتبا وذخائر مقدسة كثيرة، ورجالاً كرسوا حياتهم لإنجاز الطقوس المقدسة المؤثرة، فقد كانت الحياة فى الدير تتعدى حدود الوجود الفقير والبائس غالبًا. وعلى مستوى الحياة فى الدير كانت تتوقف رفاهية كل من حاميه والذين يعتمدون عليه فى حاضرهم ومستقبلهم. ولم يكن هناك شىء آخر يمكن أن يكون منبعًا لإلهامهم غير عظمة الدير وفخامته.

ولأن رجالاً كثيرين فى ذلك الزمان كانوا يسافرون طلبًا للمكاسب الروحية أكثر من المكاسب المادية ، فإن مستوى الطقوس الخاصة لأحد الأديرة كان يمكن أن يحقق له نفوذاً سريعًا. وكان هذا هو سر نجاح دير كلونى Cluny . فقد تم تأسيسه فى أرض واقعة بين تلال برجندى على يد الكونت وليم أمير أوفرينى Count William of Auvergne سنة ٩١٠م ، وبسبب فخامة طقوسه وشخصيات رهبانه ذاعت سمعته بسرعة فى أقاصى أوروبا . ففى إنجلترا واللورين ، وفى أسبانيا وألمانيا بعد ذلك ، بدأت الأديرة تعدل طقوسها وفقًا لما هو قائم فى كلونى، وأخذت تتبع خطواته بالإضافة إلى طقوسها؛ ومن الأمور ذات الدلالة أن الاحتفال بعيد أرواح الموتى تم للمرة الأولى فى دير كلونى . وكان الإمبراطور هنرى الثانى مجرد واحد من الرجال العظماء الذين زاروا الدير وسجلت أسماؤهم فى السجل necrology . وقام الرجال الذين عاشوا حياة التقوى من أمثال وليم الديجونى William of Dijon وجيرارد البروجنى Gerard of Brogne بتعديل قواعد الأديرة التى أصلحوها حسب دستور دير كلونى. وهكذا صار دير كلونى قوة أخلاقية كبرى . وقدم إثنان من رؤسائه ذوى الشهرة الذائعة ، وهما سان أوديلو St. Odilo (٩٩٤-١٠٤٩) وسان هيو (١٠٤٩-١١٠٩) نصائح حاسمة للملوك والأباطرة، لقد كانوا فى حركة يصحبهم رجال يستحقون أن يكونوا ملوكا وفى أيامهم ، كان نفوذ مقدم دير كلونى أعظم كثيرا فى المجالس الأوروبية من نفوذ البابا وأى رجل كنيسة آخر .

وعلى أية حال ، فإننا يجب أن نوضح طبيعة هذا النفوذ ونفوذ الأديرة كلها . إذ كانت الأديرة تمارس نفوذا أخلاقيا، ولم يكن نفوذاً سياسيًا . فقد كان حتميا أن يتطلع الرهبان إلى السلطة العلمانية فى الأمور السياسية والقانونية . لأن الفضل فى أملاكهم كان يرجع إلى كرم النبلاء العلمانيين . وفضلاً عن ذلك فإن ما تبقى من الفكرة القديمة عن الإنسحاب من العالم كان كبيراً بالقدر الذى جعل اتصالهم بالعالم الدنيوى غير مباشر. وكانت حياة الراهب محصورة داخل رواق الدير، كما أنه لم يكن يهتم مباشرة بخلاص الأرواح الفردية مثل قس الأبرشية. ولم يكن المثال الديرى فى أساسه كهنوتيًا ، كما أن السلطات الكهنوتية فى الاعتراف ، والتنازل وفرض الكفارة عن الذنب لم تلعب دوراً فى علاقات الراهب بالعلمانيين، وهى علاقات يمكن أن تكون حميمة . فقد كانت لصلواته قوة فى عالم آخر: ففى هذا العالم كانت سلطة أى رئيس لدير كلونى محدودة فى إطار ما هو مكتوب فى الوثائق التى تسجل ما منحه العلمانيون له.

هذه الحقائق أثرت تأثيرا عميقًا وشاملاً على مفهوم دور الحاكم العلمانى فى هذا العصر الديرى. فلم يكن الزعماء الديريون يعتبرون سلطته سلطة منافسة بأى معنى من المعانى . إذ كان يدير علاقات الناس القانونية فى العالم المسيحى بشكل سليم. فقد كان من واجبه أن يحسن المعيشة بفرض العدالة والقوانين الجيدة، باعتباره حامى كنيسة الرب وراعيها . وإذا فشل، كان عليهم أن يلجأوا إلى الصلاة لهدايته وتنويره . وكان يقبلونه سيداً فى مجاله الصحيح، باعتباره الحارس وسيد أرض الكنيسة المجاهدة ضد قوى الشر.

* * *

كان منصب الحاكم العلمانى وسلطته فى المجتمع المسيحى تجد المبرر فى المصطلحات الدينية شأن النظم والمؤسسات الاجتماعية الأخرى . وكان لهذا المبرر تداعيات هامة: ولكى نفهمها سوف نحتاج إلى أن ننظر إلى ما قاله الرجال المتعلمون حول هذه المسألة ، وكذلك إلى الطقوس وفن الأيقونات التى أوصلت هذه الأفكار إلى الناس الأميين. ولكن يجب بداية أن نقول شيئا عامًا عن القالب الذى صبت فيه آنذاك.

وهناك نجد أن فضلا كبيرا يعود إلى عصبة قليلة من العلماء الذين جمعهم شارلمان فى مدرسة القصر . فقد جلبهم من شتى أنحاء الإمبراطورية ومن خارجها . فقد جاء بولس الشماس من لمبارديا ، ووفد حنا سكوت من أيرلندا، أما ألكوين الذى كان أشهرهم جميعا على ما يبدو، فقد جاء من يورك. هذه المجموعة الصغيرة من المتعلمين Literati الذين كانوا على وعى بذواتهم هم الذين أسسوا ما صار يعرف باسم **النهضة الكارولنجية** . وبالمقارنة مع نهضة القرن الخامس عشر كانت تلك نهضة مختلفة . فقد أنتجت أفكارا أصلية قليلة. إذ أن العلماء الكارولنجيين وضعوا لأنفسهم هدفا أكثر تواضعا من نشر أفكارهم وهو الحفاظ قدر الإمكان على التعليم اللاتينى القديم وتعليم عصر الآباء. وغمسوا أنفسهم فى النصوص الكلاسيكية (فقد عرفنا أعمال كثيرين من الكتاب الرومان الكبار من خلال مخطوطات تلك الفترة فقط) . وكانوا يطلقون على بعضهم البعض أسماء أولئك الأساتذة . بيد أن دراسة النصوص التى كتبها الآباء ونصوص الطقوس كانت أهم لديهم كثيرا من الأدب الكلاسيكى. وتكشف جهودهم فى هذا المجال عن موقف المعاصرين بشكل عام . فقد كانوا تماما مثل الفنانين الكارولنجيين الذين يزخرفون المخطوطات والذين حرصوا على تزيين المخطوطات الجديدة، ونسخوا بإخلاص (قدر طاقتهم) النماذج الكلاسيكية، إذ كان هدفهم أن يعيدوا إنتاج سلطة الآباء والطقوس القديمة بدقة متناهية . وكانت النصوص القديمة تستولى على

ألبابهم باعتبارها نتاج حضارة أرقى، وباعتبارها ميراث عصر قريب من زمن الأنجيل . ويفسر هذا ما كان شارلمان راعيهم الذى تجسد فى شخصه إحياء الإمبراطورية الرومانية يتطلع إلى أن يفعلوه، أى أن يساعدوه فى استعادة بعض المستويات القديمة. وقد أضفت سلطته الإمبراطورية على ثمار عملهم أهمية دائمة . ذلك أن نسخة ألكوين من Sacramantum Gregorianum (الأسرار الكنسية الجريجورية) قد صارت هى أساس الطقوس اللاتينية فى العصور الوسطى، كما أن نصوص القوانين الكنسية التى أرسلها البابا هادريان إلى شارلمان صارت أساسا لقوانين الكنيسة الرومانية ، فضلاً عن أن الدستور البندكتى صار بعد التعديل والإضافات التى وضع معظمها بندكت الأنيانى، هو الدستور القياسى لحياة الرهبان فى كافة أنحاء الغرب.

وإلى جانب آثارهم العلمية أورث الكارولنجيون العصر الذى جاء بعدهم مفهوما عن سلطة الحاكم ارتكز أساسا على الكتاب المقدس وكتابات الآباء، ولكنه أيضا كان يدين بشىء لروما الكلاسيكية . فقد كتب القديس بولس : «**والسلاطين الكائنة هى مرتبة من الرب**» فى العالم المؤقت ؛ أى أن الحاكم هو وزير المسيح أو نائبه . وقصة العهد القديم فى الكتاب المقدس، والتى تحكى كيف أن الرب اختار شاول فى البداية ثم اختار داود لكى يحكم شعبه ، تؤكد هذا الموقف. وفى موضع آخر تحدث الكتاب المقدس عن ملكى صادق ملك سالم الذى كان «ملكا وكاهنا» . وقد أوضح هذا أن سلطة الملك لم تكن سلطة علمانية فحسب، كما أن طاعته لم تكن مجرد واجب دنيوى . كانت تلك هى نوعية الأفكار الكامنة وراء مزاعم جريجورى كاتينو Gregory of Catino فى القرن الحادى عشر، إذ قال «إن النص المقدس ينذرنا بأننا يجب أن نفهم أن الملك هو رأس الكنيسة». وقد أوضح العهد القديم تمامًا أن الملوك كانوا أكثر من مجرد حكام علمانيين .

ولم يحدث أن برز العنصر الدينى فى الملكية بوضوح أكثر مما برز به فى طقوس التتويج التى استخدمت للمرة الأولى حينما صار والد شارلمان ملكًا على الفرنجة . وفى هذه المرة أيضا اعتمدت عملية التتويج على سابقة مكتوبة. فحسب الطريقة التى وصفها العهد القديم، قام القساوسة بمسح الحاكم الجديد «بهذا الزيت المقدس الذى مسحت به القساوسة والملوك والأنبياء». وكانت هذه علامة على أن الملك قد اختار الرب ليحكم شعبه ، مثلما حدث لداود وسليمان فى الزمن القديم. لقد كانت رمزية الاحتفال ، والخاتم والعكاز اللذان يوضعان فى يديه، والرداء والنعل اللذان يلبسهما كلها مماثلة لما كان يستخدم فى رسامة الأسقف ، ومن ثم

تؤكد على أن الملك مثل الأسقف يشغل وظيفة روحية وعلمانية فى آن واحد. ويبدو نفس النوع من الرمزية فى زخرفة المخطوطات المعاصرة لصور الحكام. وهكذا نجد فى نسخة من الأناجيل أهديت إلى دير مونت كاسينو سنة ١٠٢٢م، صورة لهنرى الثانى وهو يجلس متوجًا على عرش العدالة وقد ارتدى زيًا فخمًا يشبه عباءة كبير الأساقفة ، بينما الروح القدس تتنزل من السماء على هيئة حمامة لكى تلهمه. وقد رُسم أوتو الثانى فى أناجيل آخر وقد استقرت قدماه على شكل الأرض ، ولكن رأسه علا فوق حجاب من السحب كان يفصل بين السماء والأرض . وكانت السلطة التى تمتع بها أمثال أولئك الملوك مقبولة باعتبارها سلطة أكبر من مجرد السلطة الدنيوية ؛ فقد كانت لها خصائصها الكهنوتية إلى جانب خصالها الملكية.

وهكذا كانت السيطرة المباشرة التى مارسها الملوك والأباطرة على رجال الكنيسة والوظائف الكنسية مقبولة بشكل أكبر مما لو كانت نابعة من سلطة علمانية مجردة، والواقع أن أحداً لم يفترض أن الملك يمكن أن يقوم بالطقوس الكنسية مثل القسيس؛ بيد أن هذا المنصب الدينى أعطاه حق تعيين الرجال فى مناصب السلطة الكنسية، وأن يزودهم بالشارات المناسبة ، مثلما كان يفعل مع الموظفين العلمانيين فى مملكته. ويجب هنا أن نتذكر أن سلطة الأسقف أو رئيس الدير على الأفصال والأقنان فى ضياعه الإقطاعية لم تكن تختلف عن سلطة الكونت: بل كان يمكنه فى الواقع أن يتصرف باعتباره كونت . هكذا نما النظام الذى عرف باسم «**الكنائس الإمتلاكية**»، والذى كان يمكن فى ظله أن يتصرف الحاكم فى أى وظيفة كنسية إذا كانت الكنيسة أو الدير ضمن أملاكه الإقطاعية. وكما رأينا ، كان هذا النظام أحد الأسس التى قامت عليها قوة الأباطرة الألمان .

وبالنظر إلى ما سبق ذكره لايبدو مركز الإمبراطور الألمانى مختلفًا عن مراكز الملوك الآخرين. إذ كانوا هم أيضا ملوكًا «بفضل الرب»: إذ تم مسحهم بالزيت المقدس وكانوا مثل الإمبراطور الألمانى فى حرية تصرفهم بحمايتهم للكنيسة . بيد أنه كان هناك اختلاف هام. ففى سنة ٨٠٠م تم تتويج شارلمان إمبراطوراً على الرومان وليس على الفرنجة . ولم يكن لهذا اللقب تأثير على التقسيمات الإقليمية الأوروبية المعاصرة؛ ويمكن فهم هذا المغزى ومكانته فى ضوء ظروف الماضى فقط ، لا فى ضوء ظروف الحاضر. ولم يكن هذا المغزى أقل وضوحا بالنسبة للكتاب زمن أسرة أوتو والأسرة السالية منه بالنسبة لرجال الكنيسة الكارلونجيين. فبالنسبة لهروتسويذا الجندرشيمى Hrotswitha of Gandersheim كان أوتو الأول اكتافيوس جديداً؛ أما أوتو الثالث وجربرت فقد اتخذا قنسطنطين وسلفستر مثالين يحتذيان

خطواتها. ولاشك فى وجود نوع من السلفية الواعية هنا، بيد أنها كانت سلفية حملت الناس إلى الماضى كما جذبتهم إلى عصر آباء الكنيسة ومفهومهم عن المهمة الدينية للإمبراطورية الرومانية. وكان مقدراً للتفسير القديم لرؤيا دانيال الذى وضع الإمبراطورية الرومانية ضمن إمبراطوريات العالم الكبرى، أن يستمر حتى نهاية الزمان، ولم ينسه كُتّاب القرن العاشر من أمثال أدسو مونتيه ان- دير Adso of Motier - en- Der . والأسطورة المنقوشة على خاتم كونراد الثانى تعبر بوضوح عن الدلالات السياسية لهذه الرؤية التقليدية : فان «روما رأس العالم تمسك بأعنة الأرض الكروية» . ويحمل مشهد التتويج الإمبراطورى الدليل على أهميته: إذ لم يكن ممكنًا تتويج أى رجل إمبراطوراً سوى فى روما، وعلى يد البابا، نائب بطرس وزعيم الكنيسة العالمية .

وقد أسبغ هذا على الإمبراطور مكانة فريدة بين حكام العالم الغربى. حقا لقد عرف ذلك العالم حكامًا آخرين كرستهم الكنيسة مستقلين عن الإمبراطور ، لكن ملكياتهم الإقليمية لم تكن لتقارن بسلطته العالمية . وقد كتب الكاردينال بينو، قرب نهاية القرن الحادى عشر «لاتتحدث كما لو أنه ليس هناك فرق بين القيصر ومجرد ملك إقليمى». ولاشك فى أن ما كان يعنيه لم يكن أن للإمبراطور سلطة على جميع الأحكام. بل كان يعنى أنه أبرزهم جميعا. وفى ظل الظروف المعاصرة ، لم يكن هذا التمييز هامًا كما قد يبدو اليوم. إذ لم يكن الناس يفكرون فى الحاكم باعتباره مانح القانون وإنما باعتباره حارسًا له. كما أن القانون ذاته لم يكن قائمًا على أساس من تشريعات الحاكم، وإنما كان قائمًا على العادات التقاليد التى اكتسبت قدسية بمرور الزمن باعتباره هبة الله للناس فى قديم الزمان. وكان من الممكن أن يختلف القانون العرفى من إقليم لآخر فى التفاصيل إلى أبعد مدى، ولكن أسسه بقيت هى فى كل مكان. وكان من واجب كل حاكم أن يحافظ على هذه المبادىء. وكان لقب الإمبراطور الرومانى، الذى يتجاوز الحدود القومية والإقليمية المعاصرة، يكسبه الأولوية والمكان الأول بين الحكام فى المجالس التى كان يعقدها أولئك الذين عهد إليهم بمهمة إرشاد شعبه والحفاظ على كنيسته .

وبالنسبة لمجتمع كانت عقائده الدينية وممارساته مشتركة ، كانت روما قلب الكنيسة والإمبراطورية تقدم علامة واضحة على أن وحدته كانت اجتماعية ودينية فى آن واحد. وقد أضفى هذا معنى ودلالة على بقاء الإمبراطورية واستمرارها ، ولم تكن لها علاقة بالحدود الفعلية التى شملها حكم الأباطرة بصفتهم الفردية إلى حد كبير .

القسم الثانى

١٠٤٦ - ١٢١٦م تقريبا

الصراع بين الإمبراطورية والبابوية على
السمو باعتبارهما سلطتين عالميتين فى عصر
اتسم بالتطور والنمو وشهد انتصار البابوية

٥- البابوية والإمبراطورية
بـــدايـــة الـــصـــــراع

قيل إن الإمبراطور هنرى الثالث خلع البابوات الثلاثة الذين كانوا يتنازعون كرسى بطرس سنة ١٠٤٦م. وليس هذا صحيحا تمامًا، ولكن من المؤكد أنه قد تم التخلص من الثلاثة جميعا، أو أنهم استقالوا . وعين بدلاً منهم رجل كنيسة ألمانيًا هو سويدجر البامبرجى Suid-ger of Bamberg ، الذى صار هو البابا كليمنت الثالث . وكانت فترة حكم كليمنت ودماسوس الذى خلفه قصيرة للغاية، وكان الرجل الذى خلفهما- ألمانيًا آخر من اختيار هنرى، هو برونو التولى Bruno of Toul الذى عُرف باسم البابا ليو التاسع، وشهدت بابويته بداية ثورة كبرى فى الحكومة والسياسة البابوية، وكان الإمبراطور هو مفجر هذه الثورة دون أن يقصد .

ولاشك فى أن مقاصد هنرى كانت مقاصد دينية لحاكم ورع يعيش فى عصر شهد تأجج الحماسة لإصلاح الكنيسة . ففى السنوات التى سبقت ١٠٤٦، كانت الأرستقراطية الرومانية قد دأبت على استخدام أسقفية روما مثل الدمية فى منازعاتهم وخلافاتهم . وبالنسبة للناس الذين كانوا يأخذون وصف الكنيسة بأنها عروس المسيح حرفيا لم يكن هذا بالنسبة لهم مجرد شذوذ سياسى مهترىء؛ وإنما بدا لهم أن كنيسة أمير الحواريين كانت تُغتصب وتفتض بكارتها على الملأ . ولم يكن هذا موقفًا يمكن لحاكم مثل هنرى الثالث- الذى وصفه المعجبون بأنه «رأس الكنيسة فى أوروبا » وهو وصف أخذه هنرى مأخذ الجد- أن يتسامح إزاءه . وفى سنة

١٠٤٦م سار على رأس جيشه إلى داخل إيطاليا لكى يحرر كنيسة الحواريين من أولئك الذين اغتصبوها ، ومن ذلك الحين فصاعداً كانت قوته هى الضمان لحرية الكنيسة المستعادة.

وكان الرجال الذين تولوا المنصب البابوى تحت إشرافه تحركهم الأفكار التى خلفها تراث طويل من التقاليد فى ألمانيا . فقد برزوا من بين رجال الكنيسة وقد تشبعوا بالمثل العليا التى نشرها المصلحون من كلونى واللورين فى خضم رغبة عارمة لنشر الحياة الروحية بين العلمانيين والكنسيين على السواء. وقد علمتهم غريزة المعاصرين فى التطلع إلى الماضى بحثًا عن المستويات الراقية أن يتخذوا من القانون الكنسى القديم والقواعد القديمة التى تحكم رجال الكنيسة وعلاقاتهم بالعلمانيين مرشداً لهم وهاديًا ، وقد شهدت بواكير القرن الحادى عشر إحياء عظيمًا فى دراسة هذه القوانين الكنسية ، لاسيما فى إقليم اللورين، إذ أن مجموعات القوانين الكنسية ، مثل مجموعة الأسقف بوركهارد أسقف وورمس ، حققت رواجًا حقيقيًا . وكانت تلك المجموعات تركز على المستويات الأخلاقية التى يتوقع من القسيس تحقيقها ، بحيث ينبغى تكريس حياته لها، ولاينبغى له أن يتزوج من إمرأة فانية. ولكن يتزوج من الكنيسة التى يخدمها وكان الإصرار على واجب القساوسة (وحقهم بالتالى) فى تحرير حياتهم من أية معوقات دنيوية نغمة دائمة ومستمرة فى تعاليم رجال من أمثال بوركهارد ووازو الليبجى Wazo of Liege .

كيف كان يمكن توقع تخلى القساوسة عن الدور الوسيط إذا كانت الترقية إلى المناصب الكنسية العليا محكومة بالسياسة المحلية؟ لقد كان أمراً طبيعيًا بالنسبة للأساقفة الألمان فى حماستهم وغيرتهم الحقة أن يتطلعوا إلى الامبراطور فى طلب المساعدة، ليس فقط لفرض مستويات أعلى على قساوستهم ، ولكن أيضا لحماية استقلالهم فى مواجهة الأرستقراطية المحلية التواقة إلى فرض نفوذها بتقديم الأصدقاء والأقارب لتولى مناصب السلطة فى الكنيسة . وهكذا تولد تقليد السعى والنضال لتأكيد استقلال رجال الكنيسة عن العالم الدنيوى وفى غمار هذا التقليد برز ليو التاسع ومستشاروه .

هذه الأفكار بدأت تكتسب أهمية جديدة بفضل السلطة البابوية المساندة لها وكان سمو كنيسة روما على كنائس الغرب أمراً مقبولاً منذ أمد طويل ولذا كان الهدف الطبيعى لليو التاسع ومساعديه أن يستغلوا هذا السمو لكى يؤسسوا فى الكنيسة الغربية مستويات الحياة الكنسية والإستقلال اللذين كانوا هم أنفسهم قد تمرنوا عليهما . وقد أتاحت لهم تصرفات الامبراطور استخدام السلطة البابوية باستقلال لم يتمتع به أحد من البابوات على مدى القرون.

ومن ثم كانت بابوية ليو حافلة بطاقة هائلة. ففى ريمس وميتز وفرساى عقدت المجامع تحت رئاسته لإصدار مراسيم الإصلاح. كما أرسل المندوبين فى الأقاليم لعقد المزيد من المجامع الكنسية، ولكى يحكموا بسلطته المفوضة لهم فى أية قضية تخص رجال الكنيسة. وفى سنة ١٠٥٤م، وهى السنة التى مات فيها ليو، كان مبعوثوه فى القسطنطينية يطلبون أن يعترف مسيحيو الشرق يسموه مثلما اعترف المسيحيون فى الغرب. وقد أنكر البيزنطيون مطالبهم بمرارة ، ولكن هذه المطالب فى حد ذاتها كانت مؤشراً على التأكيد الجديد على سلطة أسقف روما، بوصفه شريكا للإمبراطور فى حكم العالم وبوصفه القاضى الأعلى فى كافة المنازعات الروحية .

وعندما مات هنرى الثالث سنة ١٠٥٦م كان على البابا ومستشاريه أن يدافعوا وحدهم عن نظامهم الجديد وعن مزاعمهم . وكان خليفة الإمبراطور، ابنه هنرى الرابع طفلاً فى السادسة من عمره. وتردت ممتلكاته فى خضم فوضى سياسية سببتها أقلية من رعاياه . وعندما مات البابا ستيفن التاسع سنة ١٠٥٨م واجه الإصلاحيون أزمة. إذ أن الأرستقراطية الرومانية وبعض الكرادلة اختاروا بندكت العاشر خليفة له، ولكن غالبية الكرادلة، ومعظمهم من رجال ليو التاسع ؛ رفضوا تعيينه. ورشحوا بدلاً منه جيرهارد أسقف فلورنسا . وبفضل موافقة الإمبراطورية التى حصل عليها الكاردينال هلدبراند وبفضل جيش جودفرى كونت اللورين ، ارتقى جيرهارد العرش البابوى تحت اسم نيقولاس الثانى. وبدا وكأن تذبذب الأقلية مستمر، على حين كان هو وأصدقاؤه راغبين فى تجنب أية مخاطرات جديدة. وفى سنة ١٠٥٩ اتخذوا خطوتين هامتين ، لحماية أنفسهم، ففى ملفى دخلت البابوية فى تحالف مع زعماء المغامرين النورمان، الذين كانوا فى ذلك الوقت يحكمون سيطرتهم على جنوب إيطاليا. وفى مجمع كنسى عقد فى اللاتيران فى السنة نفسها أرسى البابا نيقولاس قواعد جديدة لانتخاب البابا. جعلت للكرادلة الصوت الحاسم . أما الحاجة إلى موافقة الإمبراطور أو النبلاء الرومان ، التى كانت حتى ذلك الحين تقرر شخص البابا المنتخب، فقد جاء ذكرها عابراً.

وينبغى التأكيد على أهمية الأحداث التى جرت سنة ١٠٥٩م . فالتوجه صوب النورمان كان خطوة ثورية : إذ لم يحدث من قبل أبداً أن سعت البابوية للحفاظ على حريتها فى التصرف بمنأى عن الإمبراطور الرومانى، سواء كان من الفرنجة ، أو من الألمان أو فى القسطنطينية. ومع ذلك فإن المرسوم الخاص بالانتخاب كان أكثر أهمية، لأنه كان يشكل بالنسبة للبابوية إعلانًا بالاستقلال. وكان ذلك مقياسًا للمدى الذى تقدمت به أفكار الناس منذ

سنة ١٠٤٦م. ففى تلك الآونة كان هنرى الثالث قد ظهر فى صورة المنقذ القادم ليحرر كنيسة روما من عبوديتها للعلمانيين من نبلاء المدينة ؛ بيد أن الإمبراطور نفسه كان رجلاً علمانياً. ومن حيث المبدأ يمكن أن تثور نفس الاعتراضات ، التى تثور ضد اختيار عائلة محلية للبابا ، ضد اختيار الإمبراطور لمن يتولى البابوية . وعلى الرغم من أن قليلين صرحوا بشكواهم فى ذلك الحين، فإن هذه نقطة لم يكن من المحتمل أن تغفلها مجموعة من المصلحين الذين كان أحد أهدافهم الرئيسية منع التدخل العلمانى فى شئون المناصب الكنسية.

أما الرجل الذى صعد هذه المسألة حقا فكان هو الكاردينال هومبرت مونيموتييه Hambert of Moyenmoutier . ففى مؤلفه الذى يحمل عنوان «**ثلاثة كتب ضد السيمونيين**» وصل بالمسألة إلى نتيجتها المنطقية . فالسيمونية ، وهى خطيئة شراء المنصب الكنسى بالمال ، كانت هدفا طبيعيا للنقد الموجه من المصلحين الساعين إلى تحرير الكنيسة من المعوقات. وقد أشار همبرت إلى أن أصل السيمونية لايكمن فى أن المال قد لوّث الأيدى، ولكن فى أن المنصب الروحى قد منح بناء على اعتبارات مادية خالصة. وحينما يفرض التدخل العلمانى الوظيفة يكون هناك بالتالى شك فى وجود السيمونية ، وكان هذا الرأى يمثل هجومًا مباشراً على النظام كله، حيث كان اختيار المرشحين للوظائف الكنسية يعتمد على الحاكم العلمانى . وحتى منذ عصر أسرة أوتو كانت قوة الأباطرة الألمان تعتمد إلى حد كبير على قدرتهم على السيطرة على الثروة الشاسعة من الأراضى والنفوذ الإدارى فى الكنيسة فى مملكتهم من خلال الرجال الذين يختارونهم بأنفسهم. ومن ثم ، فإن آراء هومبرت كانت تهاجم ضمنيًا الأسس التى قامت عليها الإمبراطورية نفسها.

ومن المحتمل أنه كانت للكاردينال هومبرت يد فى صياغة مرسوم الإنتخاب البابوى سنة ١٠٥٩م. وثمة مرسوم آخر صدر عن المجمع نفسه يمنع العلمانيين من تعيين رجال الكنيسة فى المناصب الروحية وكان يتوافق تمامًا مع آراء هومبرت . وكان التحدى واضحًا ، ولكن فى غمار فوضى الأقلية لم تكن الإمبراطورية فى وضع يسمح لها بالرد . بينما كان هنرى الرابع يتقدم فى السن ويتعلم أن يمسك بزمام السلطة التى أمسك بها أبوه من قبل ، كان نظام الإصلاحيين الجديد يوطد نفسه، فى إيطاليا على الأقل. لقد كانت تلك بداية ثورة عظيمة ، هدفت إلى تحويل الكنيسة إلى سيدة للسلطة التى كانت هى من رعاياها مؤخراً .

وفى ظل هذه الظروف كان لابد وأن يحدث صدام بين سلطة البابوية الجديدة والسلطة الإمبراطورية إن عاجلاً أو آجلاً . وكان الرجل الذى قُيض له أن يجابه الأزمة على الجانب

البابوى هو الكاردينال هلدبراند الذى انتخب لتولى العرش البابوى تحت اسم جريجورى السابع سنة ١٠٧٣م، وهو واحد من أعظم القادة الذين عرفتهم الكنيسة فى العصور الوسطى. وكان سبب الحرب Causus Belli (أى النزاع) أسقفية ميلانو القديمة الفخورة والتى كانت يومًا ما كنيسة سان أمبروز ، ولكنها كانت أيضا أسقفية هامة بالمفهوم السياسى ، لأنها كانت تتحكم فى الممرات التى كانت تربط بين ألمانيا الإمبراطورية ولمبارديا . وكان الموقف هناك قد صار معقدا للغاية بالفعل عندما تولى جريجورى البابوية، إذ أن كبير الأساقفة جويدو Guido الذى مات سنة ١٠٧١م كان يريد أن يستقيل من منصبه ، وفى حياته تم تنصيب خليفة له فى بلاط هنرى الرابع هو جودفرى الذى أخذ الخاتم والعكاز. بيد أن جودفرى لم يكن مقبولاً سواء لدى البابا أو لدى أهالى ميلانو ، وعندما مات جويدو قام الأهالى، فى حضور المندوب البابوى، باختيار قس يدعى أوتو Atto لخلافته ، وأعلن البابا إسكندر الثانى موافقته على هذا الإنتخاب ، وبذلك كان على جريجورى (من بعده) أن يتمسك به، وفى سنة ١٠٧٣ وفى لحظة ضعف تملكت الإمبراطور هنرى الرابع عندما واجهه التمرد الذى نشب فى سكسونى ، وضع المسألة كلها تحت «العدالة الرسولية للبابا». وهكذا بدا أن هدف البابا قد تحقق ولكن بعد سنة تراجع هنرى عن موقفه بعد أن انتصر على رعاياه المتمردين . وكان جريجورى على أعتاب إفتتاح مجمع كنسى كبير فى اللاتيران، وعليه أن يختار بشكل واضح . إذ كان عليه إما أن يستسلم للإمبراطور، أو أن يسعى للحفاظ على مبدأ حرية الكنيسة فى اختيار قادتها مستعينًا بأية موارد يجدها .

كانت المعضلة خطيرة ، فإذا استسلم سيكون خضوع البابوية للإمبراطور واضحًا للجميع ، وسوف تكون كافة المساعى التى جرت فى السنوات العشرين الأخيرة عرضة للضياع . وإذا صمد فإن التداعيات لن تكون أقل خطورة كما أن التحالف مع الإمبراطورية، التى كانت الحليف الوحيد تقليديا والسلطة الوحيدة القادرة على حماية البابوية فى إيطاليا المضطربة ، ربما ينفصم إلى الأبد. كذلك فإن الصمود كان يعنى التأكيد على نغمة ثورية خالصة . فلم يكن منصب كبير أساقفة ميلانو مجرد منصب روحى : وإنما كان منصبًا ذا قوة سياسية كبرى، كما أن الأراضى التى ارتبطت بالمنصب كانت تتيح لشاغله التحكم فى ممرات ذات أهمية استراتيجية. وإذا ما وقف إلى جانب أوتو، فإنه (أى البابا) لم يكن يستطيع أن يتجاهل هذه المضامين السياسية لمنصبه، وكان هذا الفعل يعنى ما هو أكثر من ذلك ، حيث كان المنصب الروحى موضع المشكلة، إذ كان يعنى أن يكون الاعتراف بسمو المنصب الروحى حاسمًا . كما أنه يعنى أن قرارات البابا ، بوصفه السلطة العليا فى العالم الغربى، يجب أن تدحض قرارات

أى حاكم علمانى، حتى لو كان هو الإمبراطور الرومانى. وفى أيام جريجورى لم يكن التمييز الذى تقرر فيما بعد بين الشئون الروحية والعلمانية واضحًا : إذ لم يكن الناس يتصورون السلطة السياسية دون أساسها الدينى. ومن ثم كان على جريجورى أن يزعم أن القرارات النهائية فى العالم الرومانى ينبغى أن تكون بيديه بوصفه نائب القديس بطرس وليس بيدى الإمبراطور حسبما جرت التقاليد.

والحقيقة أنه لم يتردد إطلاقًا أمام البدائل التى واجهته . ففى المجمع الدينى الذى عقد سنة ١٠٧٥ أصدر مراسيم تحرم بصرامة غير مسبوقة **«تعيين الكنسيين فى المناصب الروحية بيد العلمانيين»**. وعندما أجاب هنرى باتهام جريجورى نفسه باغتصاب البابوية، وقع جريجورى عليه عقوبة الحرمان الكنسى. وكانت تلك خطوة بالغة الخطورة والأهمية. إذ أن الحرمان الكنسى وضع هنرى خارج حدود الكنيسة التى توجته ملكًا: وهكذا تم نزع الأهمية الدينية عن سلطته. فلم يكن يستطيع أن يزعم أن له حقوقا على أى رجل **«بفضل الرب»** : والواقع أن هذا كان بمثابة خلعه من منصبه . وتمت المصالحة باختصار سنة ١٠٧٧م، ثم وقع البابا قرار الحرمان الكنسى ضده مرة أخرى سنة ١٠٨٠م. وفى هذه المرة أوضح جريجورى الموقف تماما ، إذ أصدر قرار العزل والحرمان ضده.

وهكذا أكد جريجورى بثقة سمو الحكم البابوى على الحكم الإمبراطورى . وعلى الرغم من أن هذا لم يمنع هنرى من التصرف باعتباره ملكًا ، فإن تلك كانت خطوة ثورية لم يكن بوسع أحد أن يتجاهلها. فقد فصلت بين الكنيسة، أو كل الذين أسلموا قيادهم للبابا ، وبين التقاليد التى سادت على مدى القرنين الأخيرين. ومع هذا ، فإن مركز البابا بدا وكأنه قد توطد تماما فى القانون الكنسى. وقبل أن يتخذ جريجورى الخطوة الحاسمة بتوقيع عقوبة الحرمان مباشرة، قرر لنفسه عدة مواد مستمدة من القانون الكنسى عن السلطة البابوية عرفت باسم الإملاء البابوى Dictatus papae وكانت صياغتها لافتة للنظر «لايمكن لمجمع كنسى (أو مرسوم) أن يكون عامًا بدون موافقة البابا» «إن أسقف روما ، إذا تم اختياره حسب القانون الكنسى يكون مقدسًا بخصائص بطرس نفسه» «إن من حقه أن يستخدم الشارات الإمبراطورية» و«من حقه قانونًا أن يعزل الإمبراطور» كانت معظم هذه المواد مستمدة مباشرة من مجموعة معاصرة من مجموعات القوانين الكنسية عنوانها «الكتاب ذو السبعة وأربعين عنوانًا». وكانت المادة الأخيرة (حق البابا فى عزل الإمبراطور) ، والتى لم تذكر من قبل بهذا الوضوح نتيجة منطقية للمواد الأخرى. وكانت القوانين الواردة فى الكتاب تشى بأنها تحمل ثقل سلطة قديمة، إذ أن

بعضها كان يرجع فى تاريخه إلى الفترة التالية على عصر الحواريين والرسل مباشرة . والحقيقة أن الكثير مما وضعه مؤلف الكتاب قد جاء من وثائق زيفت فى القرنين الثامن والتاسع ، ووجدها فى مجموعة القوانين الكنسية التى تعرف حاليا باسم «إيسيدور المزيف Pseudo- Isidore». وبين هذه الوثائق كانت الوثيقة المزيفة عن هبة قنسطنطين التى تزعم أنه أعطى السلطة الزمنية فى إيطاليا للبابوات ؛ كما تضمنت مجموعة «إيسيدور المزيف» عدداً من القوانين الكنسية الباكرة جدا التى كانت تضفى نوعًا من الإقرار المزيف بحق البابا فى الحكم النهائى فى أية منازعات تخص الكنيسة أو رجال الكنيسة . ولم يكن جريجورى ومعاصروه يعرفون أن هذه الوثائق مزيفة، وأخذوها بأمانة ، باعتبارها دليلاً إيجابيًا على أن الهيمنة الإمبراطورية فى القرن الحادى عشر كانت مجرد إغتصاب مؤقت . وهذه الوثائق المزورة صارت قوة بحسب حسابها فى عصر كان ينظر إلى الماضى للاقتداء بمستوياته .

ومن الناحية السياسية كان واضحًا أن موقف جريجورى أضعف كثيراً مما بدا من الناحية القانونية. بيد أنه كان إلى جانبه حلفاء طبيعيون أقوياء فى قلب الإمبراطورية ذاتها. إذ كانت السيطرة الإمبراطورية صعبة وقاسية باستمرار على نبلاء ألمانيا العلمانيين: ذلك أن عدم بلوغ هنرى الرابع السن القانونى قد وفر الفرصة للكثيرين لكى يؤكدوا استقلالهم الذى سعوا له كثيراً. كما أن تصميم هنرى على أن يحكم كما حكم أسلافه كان تهديدا للامتيازات التى حصلوا عليها مؤخرا ، وخلق قرار الحرمان الكنسى ضده عذرا لهم كانوا بحاجة إليه لكى يتحرروا من ربقة الطاعة المفروضة عليهم. ورفع جريجورى عقوبة الحرمان سنة ١٠٧٧م، بعد أن وقف هنرى على مدى أيام ثلاثة ، حافيًا تائبًا ، فى الثلوج بكانوسا Canossa حيث كان يقيم البابا ، ولكن كان الوقت قد فات للحفاظ على حلفائه. إذ تقابل عدد منهم فى فورشيم سنة ١٠٧٧ واختاروا رودلف دوق سوابيا ليكون ملكًا بدلاً من هنرى . وفى سنة ١٠٨٠ عندما ظهر من أفعال هنرى ومواقفه أن إظهاره للتوبة كان مجرد ذريعة سياسية، حبّذ جريجورى اختيارهم وعزل هنرى رسميا واعترف برودلف ملكًا وإمبراطوراً معينًا .

وبعد كانوسا ، لم يضطرب هنرى ثانية؛ إذ لم يعر انتباهًا لأية مصالحة بغير شروطه الخاصة. فقد وقف بصرامة إلى جانب التقاليد التى جرت عليها الأمور حتى عصره ، مثلما وقف البابا بجانب تراث الزمن القديم المزيف. ولم يبذل أى من الجانبين محاولة للتمييز بين السلطة الروحية والسلطة الدنيوية، فقد زعم هنرى أنه يعتبر أن أسلافه قد تمتعوا بالسلطة على جميع رجال الكنيسة . على حين زعم جريجورى أن هذا لم يحدث. وبالنسبة لهنرى وكل من

اتبعوه كان جريجورى مغتصباً «إذ لم يكن بابا ولكنه راهب مزيف»- وسبباً فى انشقاق كبير فى العالم المسيحى . وفى سنة ١٠٨٤م اقتحم جنود هنرى روما، وبناء على أوامره تم تنصيب جيوبرت الرافنى باسم البابا كليمنت الثالث، وأعلن عزل جريجورى. وما تم هذه المرة كان أقل رصانة مما جرى سنة ١٠٤٦، ولكن الفرق الأساسى الوحيد كان هو أن بابا واحداً فقط تم استبداله ، وليس ثلاثة ، على أسنة الرماح الإمبراطورية. وثمة فارق عملى آخر هو أن هنرى الرابع كان يفتقر إلى القوة التى تمكنه من الحفاظ على مركزه فى روما، بينما ألمانيا تزأر بأصوات الحرب الأهلية. وهذا هو السبب فى أن كرادلة جريجورى لم يتملكهم الخوف، عندما مات سيدهم فى السنة التالية، بشأن انتخاب خليفة له، ولم يتحولوا إلى كليمنت بولائهم.

* * *

والحقيقة أن خلفاء جريجورى وصلوا ببرنامجه إلى مدى أبعد من هذا. ففى سنة ١٠٩٥ لم يكتف أوربان الثانى Urban II بمنع رجال الكنيسة من قبول التقليد العلمانى مع الشارات الروحية، ولكنه منعهم أيضًا من تقديم فروض الولاء لأى علمانى فى مقابل الأرض التى يتلقونها منه، أيا كانت الظروف ، وهكذا تعمق الصراع. وكانت الإمبراطورية كلها قد انغمست فى الفوضى التى سببتها الحرب الأهلية والانشقاق اللذان نشبا فى وقت واحد. وغيّر الناس ولاءاتهم التى ربما لم يفهموا لها سببًا، حسب الظروف . وبينما تقدم الإمبراطور فى السن، وطال عمر الحرب الأهلية والإنشقاق ، ورأى ابن هنرى ووريثه أن ميراثه معرض للمهالك . وبدلاً من أن يفقد كل شىء، قرر أن ينفصل عن أبيه وأن يسعى للاتفاق مع البابا. كانت هذه الحركة من هنرى الخامس حركة ماكرة؛ إذ أن أباه لم يعمر طويلا بعد عقوقه ، وبذلك وجد أعداؤه أنفسهم مجردين من أية ذريعة لمقاومته. وعلى أية حال، فإن صعوباته ومشكلاته لم تنته بدخوله فى مجتمع كنيسة روما . وربما لم يزعم لنفسه كل ما زعمه أبوه، بيد أنه لم يكن ليستطيع التخلى عن ولاء أفصاله الكنسيين ، بما يمثله يمين الولاء الذى أقسموه له من أهمية حيوية والخدمة التى كان يقدمها له الأتباع العديدون فى ضياع أولئك الأفصال . وكان معنى هذا تحويل الكنيسة إلى هيئة مستقلة داخل مملكته، داخلها وليس بعيداً منها ، وهو مصدر للاحتكاكات اللامتناهية فى المستقبل ودليل واضح على الضعف فى الحاضر. وكانت ضياع الكنيسة مبعثرة على مدى واسع للغاية، ومتداخلة جدا مع ضياع النبلاء العلمانيين، بحيث لايمكن لأية مملكة أن تحقق الاستقرار حول مثل هذه الخطوط. وهنا كان الوقت فى صالح هنرى بشكل أفضل مما كان بالنسبة لأبيه. إذ أن مزاعم أوربان وباسكال الثانى الكاسحة كانت

تهدد مراكز حكام آخرين إلى جانب الإمبراطور، ولم يكن بمقدور البابوات أن يستغنوا عن مساندتهم فى الأزمة. ففى إنجلترا، حيث ورطوا الكنيسة فى صراع مع الملوك النورمان الأقوياء، تم التوصل إلى حل وسط حدد معالم الطريق أمام هنرى الخامس فهناك اختار الكنسيون زعيمهم، سواء كانوا رهبانًا فى دير أو قساوسة فى كاتدرائية، بحضور الملك: وحينئذ أعلن الزعيم المنتخب ولاءه للملك مقابل الأراضى التى منحها للكنيسة ، ثم كُرس فيما بعد وأعطى الخاتم والعكاز الدالين على المنصب الكنسى من زملائه القساوسة . وهكذا تم الفصل بين كونه من رعايا الملك سياسيًا ، وكونه من رعايا الكنيسة روحيًا . وفى سنة ١١٢٢م استخدم هذا الحل الوسط فى الإمبراطورية بمقتضى اتفاقية ورمس التى توصل الطرفان إليها فى النهاية.

ولاينبغى أن نسمح لكلمة حل وسط أن تقلل من قيمة هذه الاتفاقية . إذ أنها لم تنه الحرب الأهلية التى ضاعت فى غمارها الأهداف الأصلية فحسب؛ بل إنها أرست مبدأ ذا أهمية جوهرية؛ وهو أن ثمة فرقًا بين الرجال الموالين للسلطة السياسية والرجال الخاضعين للسلطة الروحية. ولم يكن هذا واضحًا فى الماضى. إذ كان بوسع الحاكم أن يعتمد على رجاله، العلمانيين والكنسيين على السواء، باسم السلطة وباسم الدين. أما فى ذلك الحين فلم يكن هذا باستطاعته . فمنذ ذلك الحين ظهر إلى الوجود ولاء مزدوج؛ وإذا كان للاعتبارات الدينية أن تدعى لنفسها أولوية رسمية ، فإن كثيرين من الناس المتشككين فى القرن الثانى عشر كانوا يفضلون المكاسب الحاضرة والمادية على المكاسب المستقبلية والروحية- كما كان هناك عدد كبير من الحائرين المشوشين. هكذا غرست فى تربة العالم المسيحى بذور الشقاق التى أثمرت فيما بعد. على أية حال، كانت البابوية هى الرابحة من الصراع والصلح لأنها حققت الكثير من أغراضها الملحة . ومن المؤكد أن هنرى الخامس قد نجح فى أن ينقذ أكبر قدر ممكن من سلطاته . فقد كان ما يزال قادراً على أن يحظى بولاء أساقفته ، كما أنه كان ما يزال إمبراطور الرومان . بيد أن هذا الولاء لم يكن يضمن خضوع الأساقفة له وحده، أو خضوعهم له أولاً. وفضلا عن ذلك ، فإنه كان إمبراطور الرومان، لابوصفه ابن أبيه وخليفته، ولكن لنفس الأسباب التى جعلت دوق سوابيا ملكًا، أى لأن رجالاً أقوياء اعترفوا به ووافق البابا على اختيارهم. لقد سارت الملكية الألمانية خطواتها الأولى فى سبيل أن تصبح ملكية إنتخابية، وهو ما أضعفها مقارنة بالملكية الوراثية. والحقيقة أن هنرى الخامس مات دون أن يخلف ذرية أو ولداً، وانتقلت أراضيه إلى أبناء أخوته دون اللقب الإمبراطورى (إمبراطور الرومان)؛ وكان أولئك هم الأعداء اللدودين للوثار الذى خلفه على العرش الإمبراطورى، والذى لم يكن من

أقاربه. والأسوأ من هذا كله أن الصراع ضد البابوية كان قد أوضح بجلاء إلى أى مدى كان اللقب المدوى، إمبراطور الرومان، قد بات بلامضمون . فعلى الدوام، كان ملوك فرنسا وإنجلترا يتصرفون بشكل مستقل : إذ أنهم عقدوا الصلح وأرسوا السلام مع البابا . وكانت كلمة «الرومانى» ما تزال تحمل معنى عالميا، بيد أنه كان من الواضح أنه لم يتحقق .

وعلى النقيض من ذلك كان البابوات قد استغلوا المثل العالمية نفسها. ولم يحققوا كل المكاسب التى سعوا إليها، أى الحرية الكاملة للكنيسة تحت قيادة الكرسى البابوى فى روما: إذ كان الأساقفة ومقدمو الأديرة المنتخبون ما يزالون يقدمون ولاءهم للعلمانيين ، بيد أنه كان قد تم الاعتراف بسلطة دينية سامية للبابوية فى كافة أنحاء العالم المسيحى الغربى ، كما تم الاعتراف بكونها سلطة لاتحدها أى أمور دنيوية . كما إن سمو الاعتبارات الدينية على الاعتبارات المادية بات أمراً مقرراً ، وقد أسس البابوات مزاعمهم بشأن سلطتهم فى هذا العالم على هذا المبدأ، كذلك فإن التناقض بين السلطة الفعلية لكل من الإمبراطور والبابا كان قد صار واضحا تمامًا. ففى سنة ١٠٩٥م، عندما كان هنرى الخامس يناضل لإعادة النظام إلى مملكته الألمانية، كان أوربان الثانى يعقد مجمعا دينيا فى كليرمون ، وفى هذا المجمع دعا كافة المؤمنين من شتى أنحاء الغرب المسيحى لكى يحملوا السلاح لتخليص الأرض المقدسة من الخضوع للأتراك * وفى سنة ١٠٩٩م كان الجيش الذى جمعه قد دخل مدينة بيت المقدس، واختار جودفرى أمير اللورين حاميًا للكنيسة فى الأراضى التى استولوا عليها من المسلمين ، وبينما كان الإمبراطور الرومانى يحارب لكى يحافظ على مملكته الألمانية محليا، كان الأسقف الرومانى شاخصا باعتباره زعيم العالم المسيحى كله فى مشروع مادى كبير.

لقد كانت الإمبراطورية ، والمثال الذى جسدته ، ما يزالا قوتين فاعلتين، على نحو ما أظهرته الأحداث فيما بعد، أى فى زمن فريدريك بربروسا وخلفائه. بيد أن الأمور لم تعد أبدا إلى ما كانت عليه قبل أن يتحدى جريجورى السابع هنرى الرابع ، ولم يكن من الممكن أبداً أن تعود إلى نفس الحال. ذلك أن قوى جديدة كانت قد بزغت ، ولم تكن قوة البابوية الإصلاحية بمزاعمها الثورية عن وجوب إمتثال العالم «الرومانى» كله لطاعتها باسم القديس بطرس هى الوحيدة فى هذا المجال. إذ كانت التغيرات الاجتماعية والاقتصادية تطلق قوى جديدة من عقالها، ولابد أن نتابع نتائجها وتداعياتها باختصار ، كما أن أساليب فكرية جديدة كانت قد بدأت تتحدى الكثير من المواقف التقليدية .

---

* هذه صياغة المؤلف للأحداث التى أدت إلى الحملة الصليبية الأولى. والحقيقة أن المشروع البابوى للحملة الصليبية قد ضم فى طياته الأطماع الاستيطانية المعروفة. (المترجم)

٦- التوسع الأوروبى

فى القرنين التاسع والعاشر ، كما رأينا ، كانت أوروبا الغربية كثيرا ما تتخذ موقع الدفاع ضد قوى الإنسان والطبيعة . وفى منتصف القرن الحادى عشر كانت هذه الظروف قد باتت تنتمى إلى الماضى. إذ أن عصرا جديداً من التوسع كان قد بدأ بتداعياته الثورية التى كان مقدراً لها أن تؤثر فى حياة الناس ومواقفهم فى كافة أنحاء العالم المسيحى . فقد بدأ إحياء المدن والتجارة ؛ كما بدأ استزراع أراضى جديدة ، وتمددت حدود أوروبا. والأهم من ذلك كله أن عدد السكان كان يتزايد . وكان ظهور المراكز الحضرية الجديدة مرتبطا بهذا؛ ففى هذه المدن بلغت الزيادة السكانية مداها. ولكن بعد نهاية العصور الوسطى بزمن طويل كان عدد كبير من الناس ما يزالون يعيشون على الأرض الزراعية ومن ناتجها ، وكان عددهم أكبر من عدد الناس فى أى مكان آخر، وفى الريف أيضا كانت نفس الزيادة السكانية . ببساطة كان عدد الناس أكثر، أى كانت هناك أعداد أكبر من الأفواه التى تحتاج الطعام. وفيما بين سنتى ١٠٠٠ و ١٣٠٠ تقريبًا كان عدد السكان قد تضاعف على أقل تقدير، بينما زاد عن ذلك فى أماكن أخرى .

ومن الصعب معرفة سبب هذه الزيادة فى العدد أو قياس مداها بالضبط . وقد اهتم بعض المؤرخين بالكشف عن التحسن الذى طرأ على أساليب الزراعة وتطور لجام الخيل المستخدمة فى حرث الأرض ونظام دورة المحاصيل الزراعية فى الحقول (الحبوب، الخضروات ، ثم ترك الأرض بدون زراعة لراحتها) ، وهو الأمر الذى جعل من الممكن استخدام مساحات أكبر من

الأراضى على نحو أكثر إنتاجية . بيد أن هذا يوضح كيف تم توفير الطعام لمزيد من الناس ولايفسر لنا السبب فى زيادتهم . ولأن كل الأرض القابلة للزراعة لم تكن تزرع فعلاً فى الماضى، فسوف يبدو أن ضغوط المجاعة لم تكن السبب فى إنخفاض عدد السكان فى الفترة السابقة. ولكن التغذية (نتيجة الغذاء الأكثر تنوعًا والذى قام على أساس تنوع كبير فى المحاصيل) ربما كانت عاملاً من العوامل التى ساهمت فى النمو، ولكنها لاتقدم لنا تفسيراً كاملاً للظاهرة. فهى لاتعد سببًا من أسباب الزيادة السكانية حتى فى المناطق التى لانجد فيها أثرا لتحسن نظام دورة المحاصيل الزراعية. ويبدو من المستحيل أن نقدم أى تفسير كامل لما كان يحدث فى كل مكان تقريبًا. وعندما يحاول المرء قياس الزيادة نجد مرة أخرى أن الأدلة غير كافية؛ ذلك أن سجلات الضياع الهزيلة، والتى غالبا ما كانت تحفظ بلاانتظام ، لاتقدم لنا المعلومات التى يمكن إخضاعها للتحليل الإحصائى . وعلى أية حال، فإن وجه الأرض يروى القصة التى لايمكن أن نخطىء فهم معناها . فمن شتى أنحاء أوروبا يأتينا الدليل على وجود أراض تُركت بلا زراعة على مدى عدة قرون، وبعضها لم يزرع من قبل على الإطلاق، ثم استخدمت بطريقة إنتاجية فى الفترة التى نتحدث عنها . والظاهرة شائعة كما أن مغزاها واضح؛ وهو أنه كان على الأرض أن تطعم المزيد من البشر.

وهكذا كان الناس فى إقليم الفلاندرز فى عهد الكونت بلدوين الخامس (١٠٣٥- ١٠٦٧) ممن جلبوا من الضياع فى أراضى الداخل المزدهرة ، يبنون السدود ويشقون القنوات لضمان زراعة الأرض التى كانت تغمرها مياه البحر على فترات دورية . وفى نفس الوقت تقريبًا تشهد الإشارات الواردة فى وثائق كبار أساقفة كولونى Cologne إلى العشور المستحقة من الأراضى «الجديدة» على أن نفس العملية كانت تجرى فى إقليم الراين، حيث قامت القرى الجديدة فوق الأراضى التى تمت إزالة الغابات والأدغال منها . كذلك كانت عملية إزالة الغابات والأحراش قائمة فى إيطاليا؛ فى الغابات الكبيرة على طول ضفاف نهر البو؛ وهناك وفى وديان تسكانيا شُقت القنوات والترع لتصريف مياه المستنقعات . وبطبيعة الحال تنوعت العمليات من هذا النمط ، سواء فى تاريخها أو مداها، من منطقة لأخرى . ففى القرن الحادى عشر وبواكير القرن الثانى عشر يقوم دليل واضح من ألمانيا على استصلاح الأراضى التى كانت أحراشا وغابات . وفى انجلترا تشهد السجلات على أن القرن الثالث عشر كان ذروة عصر إزالة الغابات وتجفيف المستنقعات ، وعلى الرغم من الاختلافات المحلية، كانت العملية عامة، كما كان الحافز إليها واضحًا. إذ لم يكن هناك مزيد من العمل فحسب ، وإنما كان هناك المزيد من العمال الذين عملوا فى زراعة الأرض.

ومن الواضح أن معظم عمليات الاستصلاح هذه كانت بفضل مبادرات الفلاحين غير الموجهة. وفى بعض الأحيان كان تشجيع السادة قليلاً لأولئك الذين انتزعوا الأرض بالفأس والمحراث من الغابات التى كانت تقدم للسادة مجالاً لتسليتهم المفضلة، أى الصيد. وقد فرض وليم الأول ملك إنجلترا الذى «أحب ذكور الظبيان الطويلة كما لو كان هو أباهم » قانونًا شرسًا للغابات لكى يتأكد من أن الزراعة لاتحد من حرية ظبيانه فى أن تجوب الغابات كما تشاء . وكان لابد وأن يتفق تمامًا فى الرأى مع كونت فندوسم Vendosme الذى أحرق بيوت الرجال الذين أزالوا بعض الأشجار فى غاباته دون تصريح منه. ومع هذا ، فإن بعض السادة الأخرين كان لهم رأى مختلف ، وعلى رأس أولئك السادة المتعاونين جميعا كانت الأديرة. والواقع أن الرهبان السترشيان، وهو النظام الديرى الجديد الذى أسسه روبرت المولسمى Robert of Molesme فى السنوات الأخيرة من القرن الحادى عشر، كانوا هم أنفسهم قادة هذا المشروع . وفى بحثهم عن حياة أكثر نقاء، ألزموا أنفسهم بقواعد صارمة؛ إذ كان لابد من بناء أديرة السسترشيان فى المراكز النائية غير المأهولة، ولم يكن مسموحًا للرهبان أن يقبلوا أى أرض جاهزة، وإنما كان عليهم أن يعملوا من أجل قوتهم بأيديهم . وكان الإخوة العلمانيون فى النظام السسترشيان قومًا بسطاء، معظمهم من الريف وجاهلين بحيث لايصلحون لحياة الديرية ولكنهم كانوا مهيئين تمامًا لأن يعبدوا الله من خلال عمل أيديهم. وفى سهول شرق ألمانيا وفى الأراضى البور فى يوركشاير جعلوا نظامهم يزدهر على أراض لم يكن أحد قبلهم قد استخدمها.

ولم يكن الأخوة السسترشيان العلمانيون ، الذين أقسموا على حياة الفقر والطهارة، يؤسسون أسراً أو ينشئون بيوتا. وهكذا فإن استصلاحهم للأرض لم يف سوى بالقليل فى مواجهة الجوع إلى الأرض. ولم تكن تلك هى الحال بالنسبة للأديرة البندكتية الأقدم وجوداً. فعندما أعطى كونت ماين الأرض لكنيسة سان فنسان فى لومانس St Vincent de le mans لبناء كنيسة تابعة لها، أعطاهم «أيضا التصريح ببناء بلدة Bourg؛ أى تصريحًا بأن يبنوا حول الكنيسة بلدة صغيرة وأن يؤجروا البيوت للفلاحين وأن يوافق على زراعة الأرض حولها. وقد كان ممكنًا لهذه البلدة Bourg أن تزدهر بفضل سوقها الصغير وبفضل الحماية التى وفرتها أعداد السكان فى مواجهة عمليات النهب التى تقوم بها العصابات الإقطاعية. ولاغرو أن بدأ السادة العلمانيون على الفور فى تقليد الكنائس . فقد صار كل من لويس السادس ولويس السابع ملك فرنسا مشهورين بتأسيس المدن الجديدة الصغيرة Villeneues التى أسساها فى أملاكهما الإقطاعية فى القرن الثانى عشر. ولأنهما كانا ملكين ثريين فقد كان بوسعهما أن يقدما شروطًا جذابة للمستوطنين .

وتقوم المدن الجديدة التى أسسها الملوك والكنائس دليلاً على النتائج الاجتماعية الشاملة لعمليات استصلاح الأراضى. فقد كان السادة يمتلكون الأرض التى يقدمونها ؛ وتعلموا أن يشجعوا الفلاحين لأنهم اكتشفوا أن زراعة الأرض تجعلهم أكثر ثراء. بيد أنه كانت هناك مساحات وافرة من الأرض متاحة، وكان عليهم أن يجعلوا شروطهم مغرية لمن يعمرونها . وكانت أكثر الإغراءات التى يمكنهم تقديمها للمزارعين هى منحهم مزيداً من الحرية. أى أن الريفى الذى يأتى للإقامة فى بلدة جديدة كان يتمتع بالحماية والإمتيازات التى تقدمها وثيقة مؤسس هذا البلدة . وهنا لم يكن مضطرا لأن يعمل فى أرض السيد ؛ وإنما كان يدفع إيجاراً ، نقداً أو عينًا ، كما أنه لم يكن مربوطًا بالأرض ؛ فقد كان بوسعهم أن يبيعوا ممتلكاتهم ، وأن يبحثوا عن ظروف أفضل فى مكان آخر. ومن ثم فإن المبدأ الشهير القائل بأن **«هواء المدن يصنع الحرية»** عرف منذ ذلك الحين . وكانت هناك ميزة أخرى أيضا ، فى العيش داخل مثل هذا المجتمع . ففى عصر ميزه العنف كلما كان المجتمع أكبر ، كلما كانت فرصته فى الدفاع عن نفسه أكبر. وفى القرن الثانى عشر كانت هجمات النبلاء تشكل تهديداً خطيراً على وجود الفلاحين ويمكن أن ينتج عنها تدهور المحاصيل والمجاعة .

وأخذت الزراعة الأوروبية تتمركز أكثر فأكثر فى القرى الكبيرة والمدن. وفى أنحاء عديدة من ألمانيا ، كان الناس يتركون قراهم الصغيرة لكى يعيشوا فى رحاب قرية كبيرة آمنة، حيث كانوا يخرجون يوميًا لفلاحة حقولهم القديمة. وفى إيطاليا كانت العملية أشد وضوحًا. ففى سنة واحدة ١٢١٧ ، خرجت أربع وتسعون عائلة من قرية واحدة لتعيش فى مدينة جيسى Jesi الصغيرة. لقد كانت الرغبة فى المزيد من الحريات وقدر أكبر من الأمان قوية بحيث لايمكن كبتها بالقوة؛ ومن ثم كان على ملاك الأراضى أن يصوغوا شروطهم وفق هذه الرغبة. وبهذه الطريقة بدأ نظام الضيعة الذى عرفه العصر السابق فى الإضمحلال ؛ وفى الوقت نفسه كانت الهوة ما بين الذين يملكون الأرض والذين يفلحونها تتسع عن ذى قبل.

* * *

وبينما كان الناس أصحاب المشروعات يصلحون الأرض البور ويستوطنون لزراعة الأراضى الجديدة داخل حدود أوروبا القديمة، كان هناك آخرون أكثر ميلاً للمغامرة يبحثون عن حظوظهم وراء الحدود القديمة . وكانت الحملات الصليبية المتوجهة إلى الأرض المقدسة جزءاً من هذه القصة، بيد أنها لم تكن الجزء الوحيد. ففى أسبانيا القرن الحادى عشر كان المسيحيون يحرزون تقدما على المسلمين. وفى الأراضى التى استولوا عليها من المسلمين بُنيت مدن جديدة fueros

وجلب السكان إليها، حيث أخذوا على عاتقهم مهمة زراعة الريف من حولها مثلما حدث في المدن bourgs الفرنسية. ومنذ منتصف ذلك القرن فصاعدا ، نجد الدليل على أن عدداً كبيراً من الذين استوطنوا هذه المدن جاءوا من أنحاء بعيدة وراء جبال البرنيس . وبحلول سنة ١١٠٠ كان ألفونسو السادس ملك ليون قد وطد مركزه في طليطلة؛ كما أن أرملة السيد*Cid كانت تحكم في فالنسيا . ومنذ ذلك الحين فصاعدا استمر التوسع المسيحي صوب الجنوب بصورة ثابتة .

وفي ألمانيا كان هناك توسع مماثل قائم على قدم وساق . فقد كان زعماء السكسون قد شنوا حروبًا طويلة المدى ضد السلاف الوثنيين فيما وراء نهر الألب؛ أما في ذلك الحين فإن نموذج النضال قد تغير. بينما كان الهدف الألماني الأساسي قديما هو السيادة والحصول على الإتاوات ، بدأ الاستيطان في الأراضي التي تم غزوها يصبح هو الهدف الأول. وفي سنة ١١٤٧، وبينما كانت الاستعدادات تجري لإرسال حملة صليبية ثانية إلى فلسطين، حصل سادة شمال ألمانيا على تصريح بأن يعفوا من قسمهم الصليبي لقاء حروبهم ضد السلاف بدلاً من المسلمين ، ويبدو أن الحملة المدمرة التي حدثت في هذه السنة كانت هي الضربة القاصمة للمقاومة السلافية . فقد أعلن أمير السلاف نيكولت Nicolt لهنري دوق سكسوني ما نصه **«لنجعل الرب الذي في السموات ربنا وسوف يكفينا هذا ولتعبد أنت من تشاء ؛ أما نحن فسوف نعبدك أنت»** . وفي غمار الجيوش جاء «جيش من الرجال من أوطان مختلفة» ؛ فقد جاءوا من سكسوني ووستفاليا والفلاندرز . وسرعان ما آتى التجنيد المنظم والإستيطان ثمارهما ، إذ أنهما لعبا دورا هامًا في تجارة البحر البلطي قبل نهاية القرن. وفي الوقت نفسه، عاد الاستيطان الألماني إلى الزحف شرقًا ، وأيضا نحو الجنوب في النمسا وبوهيميا .

وربما نجد مثالاً أكثر وضوحًا من هذه التطورات التي جرت في ألمانيا وأسبانيا في توسع مقاطعة واحدة في شمال فرنسا ، وهي نورماندي . وكما يتضح من قصتها لم يكن الفلاحون فقط هم الذين أحسوا بضغوط الزيادة السكانية واستجابوا لها. فقد كان لتنكرد بارون هوتفيل إثنى عشر ولداً؛ ولم يكن ممكنا أن تعولهم ضياعه الإقطاعية. وفي سنة ١٠٣٨ كان دروجو ،

---

* السيد كامبيادور Cid Campeador بطل أسطوري من صغار النبلاء القشتاليين، عمل في خدمة الملك ألفونسو السادس الذي نفاه. ثم عمل في خدمة حاكم سرقسطة المسلم وأحرز شهرة واسعة وعرف باسمه هذا وهو اشتقاق من كلمة «السيد» العربية. وقد خلده الأدب الشعبي الأسباني في «ملحمة السيد» حيث أضفت عليه هالة أسطورية وجعلت منه مقاتلاً مسيحيًا مخلصًا (المترجم).

وهمفرى ، ووليم جميعًا فى جنوب إيطاليا، حيث كانت التجربة قد علمت الحجاج النورمان أنهم يمكن أن يحققوا مآربهم فى خدمة البيزنطيين واللمبارديين الذين كانوا ينازعون المسلمين السيطرة على الأرض . وسرعان ما لحق بهم أخواهم روبرت وروجر . وكانوا قد تعلموا من مواطنهم هوتفيل أنهم يمكن أن يكسبوا الأرض هذه المرة لأنفسهم. وفى سنة ١٠٥٩ كان روبرت جويسكارد أكبر الأخوة قد حاز على اعتراف البابا نيقولاس به فى منصب كونت أبوليا وكلابريا . وفى سنة ١٠٦١ استولى أخوه الأصغر روجر بمساعدته على مسينا، وكانت تلك هى الخطوة الأولى فى غزو صقلية الذى استغرق السنوات الباقية فى عمر روجر. وقبل أن يموت روبرت جويسكارد سنة ١٠٨٥ كان هو وابنه بوهيموند يشنان غزواتهما فى أراضى بعيدة فى داخل الإمبراطورية البيزنطية شرق البحر الأدرياتى. وعندما انتقلت كافة الأراضى النورمانية فى إيطاليا وصقلية إلى روجر الثانى. ابن روجر ، الذى اتخذ لقب ملك صقلية ، ورث معها أيضا تلك الطموحات الواسعة.

وكان الإنتصار الكبير الثانى للنورمان هو غزو إنجلترا سنة ١٠٦٦ . وهناك مثلما حدث فى إيطاليا، كان الغزاة من الأرستقراطيين القلقين الذين جعلوا نفوذهم ملموسا. ولم يأت فى ركابهم جمهور من المهاجرين الفلاحين . ومع هذا فإن الغزوات النورمانية والاستعمار الألمانى فى الشرق جزء من القصة نفسها. إذ أنها تعكس ، فى مستويات اجتماعية مختلفة، الاستجابات للضغوط الواضحة . لقد كانت أوروبا تتوسع فى الخارج وفى الداخل على حد سواء.

* * *

والحقيقة أن أهم ملامح هذا التوسع ما يزال بحاجة إلى مناقشة ، وهو تنشيط التجارة وإحياء حياة المدن. ففى المدن التى كانت آخذة فى النمو بإقليم الفلاندرز وإيطاليا ، كانت الزيادة السكانية أكثر تأثيرا منها فى الريف . فقد هاجر المزيد من الناس إلى المدن، وربما كانت أعدادهم أكبر ممن هاجروا إلى أية أراض جديدة تم غزوها ولم يكن عدد السكان الكبير فقط هو الذى كان ينمو فى هذه المراكز الحضرية. إذ ولدت قوى جديدة فيها قيض لها أن تؤثر تأثيراً شاملاً على الأفكار وعلى أسلوب الحياة فى العالم المسيحى فى العصور الوسطى.

وكانت التجارة والصناعة شريكين طبيعيين فى عملية إحياء الحياة الحضرية. وكان سر نجاح التجار كامنًا فى معرفتهم أين يجدون البضائع التى يمكنهم بيعها فى أماكن نائية؛ وأين يمكن تركيز الإنتاج بحيث يتجمع التجار. وهكذا كان مشهد السوق الجاهز حافزا كبيرا على تركيز

الصناعة فى المدن: وكما كان الحال دائما فى تلك الفترة المضطربة كانت حاجة الضياع للأمن حافزاً آخر. وينسحب هذا الأمر نفسه على التجار أيضا. فقد كانت المدينة التى يتخذونها وطنا توفر لهم القاعدة والروابط الممكنة. وقد قلل ارتباط التجار فى رابطة أو شركة من المخاطر وجعل من الممكن توفير رأس المال اللازم للمشروعات على نطاق أوسع. فقد كانت حاجة التجار للأمن أكبر من حاجة الصناع . إذ كان التاجر لايحتاج الأمن فى وطنه فحسب، وإنما كان بحاجة إليه أيضا فى أسفاره، وفى الأماكن التى كان يفد إليها لكى يشترى ويبيع .

هذه المبادىء كانت كامنة تحت نموذج التجارة الأوروبية النامية، عندما بدأت تظهر بوضوح فى مطلع القرن الثالث عشر. وكانت البضائع المستوردة التى لاقت إقبالاً فى أوروبا تأتى من الشرق ، مثل الحرير والتوابل التى كانت تأتى عن طريق البحر الأحمر والخليج العربى من الصين وبلاد الهند. ولم يكن غريبًا أن التجار الإيطاليين قد حملوا معظم هذه البضائع، التى كانوا يشترونها من أسواق شرق المتوسط، إلى أوروبا . أما البضائع التى كانت تصنع فى أوروبا وتلقى إقبالاً كبيراً فكانت هى الملابس . وكانت المراكز الكبيرة لصناعة الملابس هى مدن الفلاندرز ، حيث كان يتم نسج الصوف المجلوب من إنجلترا وأسبانيا وسكتلنده بأيدى عمال مهرة. وعلى الرغم من أن الإيطاليين كانوا يفدون بالفعل إلى إقليم الفلاندرز بأنفسهم فإن المكان الكبير الذى كان يلتقى فيه الإيطاليون والفلمنج (سكان الفلاندرز) كان فى المعارض التى تقام فى شمبانى . وهناك أيضا كان يفد تجار من إقليم البحر البلطى، أى من ليوبك وغيرها، ومعهم سلع قيمة مثل الفراء والعسل والقطران. ولم تكن المعارض وروادها فقط تحت الحماية الخاصة لملك فرنسا وإنما تمتع بهذه الحماية أيضا كل القادمين إلى هذه المعارض والمغادرين، وكان ذلك إمتيازاً يتم دفع المقابل له من أرباح المعارض. لقد كانت الفلاندرز وإيطاليا وشمبانى هى النقاط المتفق عليها للتبادل التجارى. ونتيجة لهذا ازدهرت مدن الفلاندرز وإيطاليا بشكل يفوق المدن الأخرى جميعًا .

والحقيقة أنه على مدى العصور الوسطى كان سكان مدن إيطاليا يفوقون الآخرين جميعا فى الثروة وفى المشروعات التجارية. وعلى هذا يجب على المرء أن ينظر إلى إيطاليا بحثا عن أصول هذا الازدهار الحضرى. ففى العصور الباكرة كانت معظم البضائع القادمة إلى أوروبا من الشرق تمر عن طريق القسطنطينية؛ وفى هذه التجارة كان تجار البندقية الذين تحميهم الأخوار أمام شاطئهم من هجمات اللمبارديين وغيرهم قد كونوا بالفعل ثروة فى القرن العاشر. وقد تدهورت قوة البيزنطيين وقدراتهم فى القرن الحادى عشر؛ وبدأت البندقية وغيرها اتصالاتهم

بالتجار المسلمين . ولاشك فى أن الإنجازات الباكرة كانت راجعة إلى المبادرات الفردية. إذ كان التاجر أو النبيل الموسر يقدم المال ، بضمان أراضيه أو مكانته ، لكى يساعد شريكًا له على شراء البضائع : وكانوا شركاء فى المخاطرة وفى الربح . بيد أن الأرباح كانت كبيرة بالقدر الذى شجع المدن على أن تساهم بنصيب فى التجارة منذ وقت مبكر باعتبارها كيانات متضامنة . وقد أسست المدن العملاقة مثل البندقية وجنوا وبيزا فنادق لمواطنيها فى مدن شرق المتوسط قبل عصر الحروب الصليبية. وكانت تلك قفزة هائلة إلى الأمام وكان ثمن الخدمات التى قدمتها هذه المدن للصليبيين على شكل أموال، ونقل القوات والإمدادات ، هو منحها أحياء كاملة للإيطاليين فى المدن التى تم الاستيلاء عليها . وهكذا بنت كل من بيزا وجنوة والبندقية إمبراطوريات تجارية واسعة، على الرغم من الحقيقة القائلة بأن هذه المدن نفسها كانت مدنًا مستقلة تمامًا .

وكانت للمغامرة والنجاح فى الخارج أصداء قوية فى الداخل . إذ أنها زادت من حجم الطلب على البضائع التى يمكن تصديرها ، وحفزت دورة العملات التى هى وسيلة التبادل. وبدأ النبض المتسارع للحياة الاقتصادية فى المدن يجتذب إليها رجالاً من شتى المشارب من الريف المجاور. ذلك أن النبلاء الذين رأوا إمكانيات التجارة تركوا منازلهم الريفية وقدموا للعيش داخل أسوار المدن، وكان هذا أحد أسباب قدرة المدن الإيطالية على التحكم فى الريف Contado من حولها. ويساعدنا هذا أيضا على تفسير المنازعات المريرة بين عائلات المدن، لأن النبلاء جلبوا معهم من الريف عاداتهم السيئة. وتشهد أبراج مدينة مثل سان جيمجنانو San Gimignano على أساليب تلك المدن الحربية؛ إذ إنها بنيت لكى تكون قلاعًا ومكانًا للسكنى فى آن واحد. أما الناس الأدنى منزلة فإنهم كانوا يسعون لأن يعملوا فى المدن كتبة وجزارين وخبازين : أى فى هذه الحرف التى لايمكن للحياة فى المدن أن تقوم بدونها؛ ووجد آخرون فرصتهم فى العمل صناعا ، لأن الصناعة المحلية غالبا ما كانت تزدهر فى ركاب التجارة، مثلما حدث فى فلورنسا وميلانو . وفى الوقت نفسه أدى نمو المدن السريع وازدهارها إلى ازدهار الريف ورخائه ، حيث وجد الريفيون فى المدن سوقا جاهزة لمنتجاتهم.

وتكررت القصة نفسها فى إقليم الفلاندرز . إذ أن المدن الفلمنكية الكبرى مثل يبرس Ypres وغنت Ghent ، وبروج Bruges بدأت بلا مميزات لأن مواقعها لم تكن قديمة مثل موقع مدينة فلورنسا مثلاً . ولكن المدن نمت حول مواقع حصينة مثلما كان الحال فى إيطاليا. وكما كان الحال فى إيطاليا أيضا، كان السكان فى معظمهم قادمين من الريف بحثًا عن فرص

أفضل ، وتظهر بروج التى وصفها جلبرت فى مؤرخته فى بواكير القرن الثانى عشر أثناء عملية نموها؛ فمع وجود البلدة bourg القديمة الحصينة فى مركز المدينة الجديدة، لم يكن يحميها آنذاك سوى جدار من ألواح الخشب السميكة. بمرور السنين وتزايد الإزدهار اختفت كل آثار الفاصل الذى كان بين البلدة وضاحية التجار. ولكن ثراء مواطنى بروج وغيرها من مدن الفلاندرز لم يكن ليدانى ثراء مواطنى فلورنسا أو البندقية. وفضلاً عن ذلك فإنه فى الفلاندرز كان عدد النبلاء الذين قدموا للعيش فى المدن بشكل دائم ضئيلاً للغاية. ونتيجة لذلك لم تحرز المدن الفلمنكية أبداً نفس درجة الاستقلال التى نالتها المدن الإيطالية. وعلى المدى الطويل كانت ثقافتها أقل ثراء وفردية، كما زاد اعتمادها على حماية الحكام والنبلاء.

كان لظهور المدن ونمو التجارة نتائج هامة بشكل عام. ذلك أن طبقة من المواطنين المشتغلين بالتجارة الذين لم يكن لهم مكان فى الإطار الاجتماعى للسادة الإقطاعيين والفلاحين قد ظهرت بعد الغزوات التى اجتاحت أوروبا فى القرنين التاسع والعاشر. وقد كانت المدن الصغيرة والمراكز الأسقفية القديمة التى نمت حولها مثل هذه المجتمعات الحضرية خاضعة لحكم الأساقفة أو النبلاء الإقطاعيين الذين لم تكن لهم دراية أو فهم المشكلات اليومية الملحة التى كانت تواجه التجار، مثل الفصل فى مشكلات التعاقد والديون ، وتنظيم الأجور والأسعار ، وشروط العمل والبيع. وفى ظل الغياب الحقيقى للدولة لم يكن هناك سوى طريقة واحدة يمكن بها تناول الأمور بشكل فعال، وهو أن يتولاها المواطنون بأنفسهم . و من ثم كان حق الحصول على قدر من الاستقلال الذاتى أمرا حيويا بالنسبة لهم . وقد حصلوا عليه بفضل النضال الطويل المدى والسعى المشترك للمواطنين الذين كانوا قد أقسموا على أن يعملوا سويًا لكى ينالوا حق «اختيار قوانينهم الخاصة» . هذه القوميونات communes صارت هى حكومات المدن، عندما تقبل سادتها السابقون التغير ومنحوا المواطنين الامتيازات التى كانوا يسعون إليها، والواقع أن امتيازات الحكم الذاتى التى منحت لهم أضفت اعترافًا بوجود قوة جديدة فى المجتمع المسيحى، هم البورجوازيون bourgeoisie .

وكان الاستقلال هو المحور الأساسى لهذا النفوذ الجديد. إذ كانت المدن هى قلاع الحرية ؛ فقد كان القن الهارب يحصل على حريته إذا عاش فى المدينة سنة واحدة ويوما واحدا، وبذلك يستبدل قانون الضيعة التى كان يعيش بها بقانون المدينة فى تنظيم حياته . بيد أنه يجب التأكيد على أن تلك الحرية كانت بالنسبة لكل مدينة أمرا خاصًا بها حصلت عليه نتيجة لجهود سكانها وحدهم . وهكذا كان التاريخ يحكم النظرة العامة للمواطنين . فالمبانى الفاخرة

والكنائس والكاتدرائيات وقاعات النقابات التى بنوها تشهد على الروح العامة التى ولدت من غمار الفخر بالإنجاز ؛ ولكن النزعة الوطنية فيها كانت تتسم بالمحلية والعاطفية . إذ لم يكونوا يفكرون فى المدن الأخرى باعتبارها حلفاء، ولكن باعتبارها منافسين . إذ كان أى امتياز تجارى تحصل عليه جنوه يعتبر لعنة بالنسبة للبندقية ؛ وكانت المدن الفلمنكية تتنازع بنفس الطريقة. وربما كانت المدن تتحالف فى مواجهة خطر مشترك وعام ، كما فعلت القوميونات اللمباردية ضد الإمبراطور بربروسا ؛ فإذا ما تركت فى حالها شنت الحرب ضد بعضها البعض. وحتى داخليا كانت لحريتها جانبها الاستثنائى . ففى غمار الصراع كان الزعماء قد حققوا الثروات لأنفسهم. وكانت هذه الارستقراطية المدنية لاتحبذ مشاركة الآخرين الإمتيازات التى أحرزها لأنفسهم وعائلاتهم . لقد كان البورجوازيون منذ البداية استثنائيين وأصحاب إمتيازات: وكان الاتجاه الطبيعى لحكومة المدينة يميل نحو الأقلية (الأوليجاركية) المشاغبة.

وينبغى أن نلاحظ تأثيرين آخرين لإحياء المدن والتجارة ونركز عليها. إذ أن التبادل التجارى المتزايد قد حفز دورة النقود بدرجة كبيرة. وكانت النتيجة التى ظهرت على المدى الطويل لهذا هى الإنخفاض المستمر لقيمة النقود، وهو ما صار كابوسًا لحكومات العصور الوسطى. ذلك أن تحرير تداول النقود لم يكن يهم التجار وحدهم. **«إذ كانت قوة الأمراء تعلو وتهبط حسبما كانت ثرواتهم المنقولة تزيد أو تنقص»**. هكذا كتب ريتشارد فيتزنيل فى بلاط هنرى الثانى ملك إنجلترا (حوالى سنة ١١٨٠) فبالمال كان يمكن للأمراء أن يؤجروا الجنود والسفن ، ويدفعوا رواتب خبراء الإدارة لكى يرعوا شئونهم . وصارت الحكومة أشبه بإدارة الأعمال عندما صارت النقود أهم من الأرض. وأخذت الملكية المتجولة التى عرفتها العصور السابقة والتى كان يمكن أن تتخذ من أحد أكواخ الصيد الملكية مقرا للإدارة ، تفقد فعاليتها فى الحكم.

وفضلاً عن ذلك ، لم تكن النقود فقط هى التى يتم تداولها بحرية أكبر. ذلك أن التجارة الخارجية قد جعلت العالم المسيحى يتصل بمجتمعات أخرى وأساليب تفكير مختلفة؛ كما أن التبادل الداخلى قد ساعد على الإنتشار السريع واستيعاب الأفكار الجديدة. لقد كانت المدن أماكن لقاء طبيعية للتجار وغيرهم، وصارت لندن، عاصمة إنجلترا التجارية ، عاصمتها الإدارية أيضا فى القرن الثانى عشر. كذلك صارت باريس فى نفس الوقت عاصمة كما صارت بولونى Bologna مركزاً لجامعة امتدت شهرتها فى كافة أنحاء أوروبا . ولم تكن أى منها مدينة تجارية . لقد تولدت عن الإحياء التجارى عملية أوسع ، فيها كان النشاط الإنسانى

مدينة تجارية . لقد تولدت عن الإحياء التجاري عملية أوسع ، فيها كان النشاط الإنساني يتحول عن مراكزه القديمة. أي الضياع الإقطاعية والأديرة في الريف، إلى المدن. وعلى المدى الطويل كانت القوى التي تولدت على هذا النحو إنقسامية على ما يرجح. أما على المدى القصير فقد نتج عن هذا أن الناس من شتى أرجاء العالم المسيحي ارتبطوا بروابط أكثر توطداً وإنتظاماً بحيث أنتجوا مستوى أكثر عمومية للثقافة، مما زاد من حدة إدراك الناس للمشكلات التي كانت تبدو مشكلات عامة لمجتمعهم . وهكذا ، كان هناك أساس أكثر صلابة للوحدة التي اعتقد الناس بوجودها في العالم المسيحي ، عندما بدأ العالم المسيحي في التوسع.

٧- حركات جديدة فى الفكر والأدب

حدثت فى نفس الفترة التى شهدت إحياء التجارة والمدن التى عرضنا لها، نهضة كبيرة فى مجال الفكر والأدب أيضا هذا الإنطلاق الجديد للنشاط الفكرى والأدبى فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر تمثل فى حركة متعددة الجوانب، كما أنه ولد قوى عديدة. وهنا سيكون من الممكن فقط أن نذكر جوانبها الأكثر أهمية وتأثيرا.

فثمة روح من حب الاستطلاع ، تسأل عن تفسير القيم القديمة والتقاليد السائدة ومصدرها كانت هى العلامة المميزة للحركة الجديدة فى الفكر. وإذا ما أردنا أن نتتبع أصول هذا الموقف فى المجال العلمى، فإنه يجب علينا أن نغض النظر عن مراكز التعليم القديمة، أى الأديرة، لننظر إلى المدارس التى ازدهرت منذ القرن الحادى عشر تحت عباءة الكاتيدرائيات خاصة فى شمال فرنسا . فعلى الرغم من أن الحياة الروحية فى الكاتيدرائيات كانت أقل نشاطا بشكل عام، فإنها امتازت على الأديرة بعدة ميزات بوصفها مراكز للدراسة . إذ كان مجلس الكاتيدرائية هيئة متضامنة مثل الدير، كما كان منغمسا مثله فى شئون الخدمة الكنسية، وفى إدارة شئونه الخاصة. وفى كل من الدير والكاتيدرائية كانت هذه الأنشطة بحد ذاتها تتطلب قدراً من التعليم بين أعضائه . بيد أن القاعدة التى كان يعيش قس الكاتيدرائية بمقتضاها كانت فضفاضة أكثر من القاعدة التى تحكم حياة الراهب، كما كانت حياته أقل استغراقا فى حياة الجماعة التى ينتمى إليها. وهكذا كانت الكاتيدرائية وقساوستها بمثابة بؤرة يمكن أن يتمركز حولها النشاط الدراسى، بدون أن تعوقها بالمطالب الصارمة التى تتطلبها الحياة الديرية المنتظمة. وهذا ما أتاح الفرصة لحرية تطور الكاتيدرائيات داخل إطارها العام .

هذا القدر الأوفر من الحرية أتاح للتعليم بالكاتيدرائيات هامشًا أوسع للتأمل. وكان المنطق هو الموضوع الذى جعله مدرسو الكاتيدرائيات موضوعهم الخاص ، وهو موضوع لم يكن ليناسب الفكر الديرى الدينى التأملى. ولم يكن المنطق موضوعًا اهتم به آباء الكنيسة أو الكتاب المقدس . والواقع أن كل ما كان متاحًا منه هو ما ورد فى ترجمة بوئثيوس لأعمال بورفيريوس وأرسطو الفيلسوفين الوثنيين اللذين ينشران تعاليم دنيوية واضحة. ولم يكن من السهل على عقل تدرب فى أروقة الأديرة أن يحيط بالإمكانيات الهائلة لمؤلفاتهما على نحو ما فعلت المدارس الكاتيدرائية . ولم يكن لمؤلفاتها مكان طبيعى فى المجرى الذى كانت تسير فيه القراءة داخل الأديرة . ومع ذلك فإن أرسطو وبورفيريوس قدما المنهج الذى يمكن به اختبار هذا القدر الهائل من المعارف الموروثة عن الماضى الذى تركزت عليه الاهتمامات الديرية . فقد كشفا عن وسيلة يمكن بها تصنيف الأقوال ، والمعانى ، والمناقشات، وتبويبها وتقييمها. ودراسة عرض بوئثيوس للمنطق القديم فى أواخر القرن العاشر جعلت الدارسين، ولأول مرة خلال قرون عديدة، يعتادون مستويات فكرية علمانية وعقلانية تمامًا وليست غيبية .

وإذا ما دُرس المنطق لذاته، فإنه سوف يبدو فى النهاية ممارسة عقيمة؛ ولكنه يوفر أداة تحتاج إلى التطبيق . وهذا هو ما تدين به المدارس الكتدرائية للماضى، وللأديرة، ولعلماء العصر الكارولنجى. فقد جاهد العلماء الكارولنجيون لإنقاذ التعليم، خاصة التعليم الذى خلفه آباء الكنيسة فى العصور الكلاسيكية. وخلفوا وراءهم للأجيال التالية زادًا من الفكر يتأملون فيه. إذ أن الكتب الشائعة بين الرهبان كانت قد أخذت من كتابات آباء الكنيسة ومن الكتاب المقدس ما ظن الرهبان أنه أكثر الكتابات المقدسة دلالة ومغزى . وقد انصب اهتمام علماء المنطق على هذه المجموعات من النصوص المقدسة ، على أمل أن يستخلصوا منها معانى جديدة بالمناهج الجديدة. ولم يستغرق الأمر منهم وقتًا طويلاً لكى يكتشفوا أن النصوص نفسها كانت أبعد ما تكون عن الاتساق .

هذه المحاولة لرؤية الحقائق المقدسة فى ضوء العقل البشرى العادى كان من المحتمل اعتبارها تجديفًا وانتقاصًا من قدر الدين . فبالنسبة للعقول المحافظة بدا وكأن الأمر تشكيك ، بمقاييس غير ملائمة ، فى كافة التعاليم الدينية التى كان المجتمع المسيحى قد اتخذها مرشدا وهاديًا له. إذ أن الاستفسار العقلى لم يكن ليناسب المثال الديرى عن الطاعة والتأمل والتركيز على حياة الروح، وهو المثال الذى يعتبر التعبير الأسمى عن النضال الإنسانى وكان ما يزال قوة حيوية فى القرن الثانى عشر. ويوضح النمو السريع لحركة الرهبان السسترشيان مدى انتشار

الدوافع التى كانت الحركات الرهبانية استجابة لها، فقد أسس السسترشيان أكثر من ثلاثمائة دير جديد فيما بين سنة ١١٠٠ ، وسنة ١١٥٢م، وقد فصل الرهبان السسترشيان أنفسهم عن الدنيا والتعليم المدنى بصرامة تفوق كل الأنظمة الديرية التى سبقتهم، على الرغم من أنهم فتحوا أبواب الحياة الديرية حتى أمام العلمانيين الأميين. وربما ظهر أن المجهودات المتناقضة لكل من الرهبان والمدرسين كانت تجذب المجتمع فى اتجاهين متعاكسين .

هذا التوتر يكمن خلف النزاع الشهير بين سان برنار St. Bernard وأبيلار Abelard وهو النزاع الذى وصل قمته فى مجمع سانس Sens ١١٤١م. فقد كان أبيلار أعظم مدرس فلسفة فى زمانه . ولم تكن إدانته فى مجمع سواسون سنة ١١٢١، ولا النهاية المرعبة لقصة حبه مع إلـواز Heloise، لتنجح فى الحد من شهرته، أو لتحول بينه وبين الطلبة الذين وفدوا من كل بقاع أوروبا لسماعه . أما برنار، مقدم دير كليرفو، فقد كان أشهر راهب سسترشيانى وأكثرهم نفوذاً فى التاريخ. وقد أضفت قصة المواجهة بين هذين الرجلين مغزى رمزيًا بالنسبة للمؤرخين الذين رأوا فيها مواجهة بين بطل الديرية وممثل المدرسة القديمة من ناحية ، والمد المتصاعد للتفكير الثورى من ناحية أخرى.

هذه المواجهة الخيالية مواجهة زائفة فيما أعتقد. فليس عدلاً بالنسبة لكل من برنارد وأبيلار أن نتخيل هذه المواجهة بينهما. ذلك أن نسك السسترشيان والصرامة العقلية للمدارس لم يكونا عالمين منفصلين على هذا النحو. ومن الظلم لأبيلار أن نرسمه فى صورة العبقرى الشكاك: إذ أنه كان عبقريًا، ولكنه كان مسيحيًا مخلصًا أيضا. كما أنه ظلم لبرنار، طالما أن التركيز منصب على أخطائه البشرية. لأنه بوازع من قناعته الدينية، سعى إلى إدانة أبيلار للمرة الثانية وكسر رجولته إلى الأبد. وقد تصرف لأنه رأى فى منطق أبيلار خطراً على العقيدة . ومع هذا فإن حمايته للفكر ساعدت على صنع مستقبل رجال أفادوا كثيراً من تعاليم أبيلار. ولم يكن الراهب وعالم المنطق فى شجار دائم أساسًا ، ولكن الأساس كان أن كلا منهما قد أساء فهم الآخر بصورة فردية.

ويعتبر أبيلار مسئولا إلى حد ما عن إساءة الآخرين فهمه. إذ لم يكن قادراً على مقاومة غريزة المدرس الموهوب فى تقديم نفسه بصورة تأثيرية تمثيلية. وكان كتابه الخالد الذكر هو كتاب «نعم Sic et Non» ، وهو على شكل مجموعة من النصوص المتناقضة من الكتاب المقدس ومن كتابات آباء الكنيسة . وإذا ما أخذناه بقيمته الظاهرة، يبدو هدفه كشف عدم الاتساق المطلق للتعاليم الراسخة . بيد أن هذا لم يكن هدف أبيلار، كما أوضح هو نفسه فى مدخل كتابه. ففى هذا الكتاب أبرز الوسيلة التى يمكن بها تحقيق التوافق بين المتناقضات

الظاهرة. إذ ينبغى على المرء أن يبحث خلف كلمات النصوص عن المعانى الكامنة فى أذهان مؤلفيها . فالكلمات غير دقيقة، وعدم دقتها يُعطى إنطباعا زائفًا بالتناقض. والمنطق سوف يكشف عما لايمكن تحقيق التوافق فيه: فالتحليل فى ضوء المعنى الحقيقى ، وليست الكلمات وحدها، هو الذى يفتح السبيل أمام التوفيق. ولم يكن أبيلار يوضح أن الكتاب المقدس ليس متسقًا أو متوافقًا، ولكنه كان يبين أن إتساقه يمكن أن يتحقق فقط من خلال البحث والدراسة الجادة الصارمة . لقد كان يؤكد على أن أسمى الحقائق تحتاج إلى ترسيخها من خلال أعلى مستويات البحث.

لقد كان أبيلار مولعًا للغاية بأن تسلط عليه أضواء الشهرة الأكاديمية لكى يحقق الفائدة القصوى من مناهجه . وكان ينبغى عليه أن يترك هذا لرجال متوسطى القيمة العلمية، مثل بطرس اللمباردى Peter Lombard ، تلميذ أبيلار الذى عرفه الناس باعتباره أستاذ الأحكام. فكتاب الأحكام Sentences ، وهو مؤلفه الكبير، قدم بشكل منظم النصوص الرئيسية فى الكتاب المقدس وكتابات آباء الكنيسة على مدى ظهور العقائد المسيحية. وعندما يكون الأمر مجديًا كان يستخرج ما هو صحيح من التناقضات الظاهرة فى النصوص، متبعًا فى ذلك منهج أبيلار؛ وعندما لايكون الأمر كذلك كان يوضح الخطوط الرئيسية للمناقشة الممكنة بحيث يترك المسألة مفتوحة للنقاش . وكانت نصوصه مأخوذة من مصادر ثانوية أساسًا، واستخدم كتاب «نعم ولا » بشكل مكثف ، كما استخدم مجموعات النصوص التى جمعها علماء اللاهوت والقانون الكنسى السابقون، مثل إيزيدور الأشبيلى وإيفو الشارترى . ولكن كتابه كان شاملاً إلى حد كبير، ومن المؤكد أنه لمس كل نقطة يمكن أن ينشأ منها الجدل أو قد نشأ منها بالفعل ، وبذلك لم يكن هناك كتاب ينافسه. وصار الكتاب، إلى جانب الكتاب المقدس، هو كتاب النصوص اللاهوتية المعتمد فى العصور الوسطى. وبهذه الطريقة ترك نفوذ اللمباردى وأبيلار بصماته على المناهج التعليمية فى كل جامعات العصور الوسطى. إذ أن كتاب «الأحكام» الذى هو ثمرة فكرهما ومنهجهما ، صار هو نقطة الإنطلاق لكل الدراسات والمناقشات اللاهوتية على مدى ثلاثمائة سنة تالية.

* * *

كانت مدرسة باريس هى التى تلقت تعاليم أبيلار وبطرس اللمباردى . إذ أن منهج أبيلار ساهم إلى حد كبير أيضا فى إنجازات عالم آخر، فى مكان آخر. فقد كان جراتيان Gratian الذى عاصر اللمباردى تقريبا، يلقى دروسه فى بولونا فى القانون الكنسى، وكان هذا موضوعًا

لايقل حيوية عن المنطق ؛ بل وربما كان أكثر حيوية ، إذا ما وضعنا فى اعتبارنا المناقشات التى تولدت عن المنازعات بين الإمبراطورية والبابوية والتى ركزت على القانون الكنسى .

وقد واجهت الطلاب الذين كانوا يدرسون القانون الكنسى مشكلة ذات شقين . فقد كانت المشكلة الأولى بالنسبة للطالب هى أن يميز بين ما هو موثوق به وما هو ليس كذلك من ذلك الكم الهائل من المواد المأخوذة من مجموعات القوانين الكنسية القديمة. ولأن هذه المجموعات قد جمعت فى زمن لم تكن فيه الكنيسة سلطة مركزية حقيقية، فإنها تضمنت أحكامًا مبهمة صدرت عن المجالس المحلية والأساقفة المحليين؛ بل إن بعضها صدر عن الحكام العلمانيين. وهنا أرسى رجال القانون الكنسى فى العصر الجريجورى ما صار هو المقياس المقبول : أى الإقرار بالموافقة البابوية، إما تعبيراً أو تطبيقًا. وكانوا قادرين على تبرير هذا الرأى بالتأثير الحاسم للسلطة البابوية باستخدام النص الوارد فى الإنجيل مخاطبًا القديس بطرس: **«فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا فى السماء»**، كما برروه من خلال مذاهب السمو البابوى التى وجدوها فى الوثائق المزورة المنسوبة إلى إيزيدور .

أما المشكلة الثانية فكانت مشابهة للمشكلة التى واجهت علماء اللاهوت، وهى التوفيق بين التناقضات الظاهرة داخل ما تبقى من التشريعات الموثوق بها. وكان هذا هو ما انطلق جراتيان لتحقيقه، مستخدما منهج أبيلار، فى كتابه **«تنسيق غير المتناسق فى القوانين الكنسية»** . وقد أدى نجاحه إلى تصنيف كتابه ، الذى عرف باسم Decretum بأنه مصدر موثوق به . وقد لعب دورا فى دراسة القانون الكنسى يشبه الدور الذى لعبه كتاب بطرس اللمباردى فى دراسة اللاهوت .

وكان لدراسات القانون الكنسى فى تلك الفترة تأثير هائل. ذلك أن المعرفة الصحيحة بالقانون الكنسى قد صارت من متطلبات النجاح فى المجال الكنسى. ومن ثم أفرز المقياس الذى اتخذه القانونيون الكنسيون قوة هائلة فرضت احترام المزاعم البابوية بشأن التحكم فى شئون العالم المسيحية وتوجيهها فى سائر أنحاء أوروبا. ففى ذلك الحين كانت حالة التفكير العلمى فى المدارس الكتدرائية قد جعلت من الممكن تبرير هذه المزاعم فى مصطلحات مستقلة تمامًا عن تفسيرات القانونيين الكنسيين للنصوص الواردة فى مجموعة الوثائق المزورة المنسوبة إلى إيزيدور. فقد استطاع كل من حنا السالزبورى وهيوسان فيكتور أن يطرحا فى كتاباتهما رؤية علمية للمجتمع المسيحي ككل، وارتكزت هذه الرؤية على تقصى طبيعة الأجزاء المكونة له، والوظائف الخاصة بكل من هذه الأجزاء.

فقد كان الغرض النهائى للعالم المسيحى ، فى تحليلهم، هو الخلاص العالمى فى العالم الآخر، وينبغى أن توجه إلى هذه الغاية كافة الأمور الموجودة فى المجال الأرضى وظيفيا. فقد رأوا فى رجال الكنيسة، الذين نشطت من خلال وظائفهم قوة الرب الخلاصية، الروح التى أحيت الكيان السياسى . أما هذا الكيان الكنسى نفسه فقد كان بدوره يتلقى التوجيه على الأرض من نائب المسيح، أى أسقف روما. وكما تتحكم الروح فى الأعضاء الجسدية للإنسان وتبث فيها النشاط، فينبغى للسلطة الروحية أن توجه الأسلحة العلمانية للعالم المسيحى. وإذ أخذ هؤلاء المفكرون ينقبون وراء أسماء المؤسسات لكى يكتشفوا طبيعتها وغرضها. فقد برروا مزاعم برنار، زعيمهم الذى لاذ بالصمت، مستخدمين فى ذلك أسلوب أبيلار فى البحث والتقصى : فقد زعم برنار:

«إن ملوك ألمانيا وإنجلترا وفرنسا وأسبانيا وبيت المقدس، ومعهم جميع رعاياهم ورجال الكنيسة يتشبثون بالسيد البابا، مثلما يتمسك الأبناء بآبائهم ، ومثلما ترتبط الأعضاء بالرأس».

وتكشف كتابات كل من حنا، وهيو أن الدراسة المنهجية التى قام بها أساتذة المدارس ساعدتهم على أن يسبغوا نوعًا جديداً من الاتساق والنظام على التعليم القديم، فضلا عن أنهم حاولوا أن يعرضوا مجتمعهم ومؤسساته بطريقة علمية وعقلانية . وكان عملهم بمثابة دعاية فعالة لمزاعم البابوية بشأن السمو على جميع الحكام العلمانيين . بيد أن الوسيلة التى وصلوا بها إلى استنتاجاتهم كانت أكثر أهمية من كل هذه الاستنتاجات . فقد كان منهجهم يتيح حل أية مشكلة؛ نظرية كانت أم عملية . ومن هنا أخذ الفكر فى القرن الثانى عشر دفعته القوية للأمام. وفى تلك الآونة كان المندينون يركزون على اتجاهات معينة فى التعليم ، ولكن آفاقًا رحبة كانت مفتوحة أمامهم. وقد انطلقت البداية فى بولونا فى حياة أبيلار فهناك كان إيرنيريوس Irnerius وتلاميذه يدرسون القانون المدنى القديم لروما من وجهة نظر مبدأ العدالة المستقر ، فى مصطلحات بشرية خالصة تمامًا. وهنا كان التعليم قد بدأ يتحرر من الإطار الذى يسيطر عليه اللاهوت .

* * *

وفى وسط يختلف تماما عن المدارس ، كان الناس فى القرن الثانى عشر يقومون باكتشافات لاصلة لها بالقانون أو المنطق. فلم يكن ثمة مصدر موثوق به للمادة التى ألف منها جيوفرى مونموث Geoffrey of Minmouth كتابه عن تاريخ الملك آرثر وملوك

بريطانيا . فمن هذه المادة التى كانت مأخوذة من الأساطير الكلتية الخيالية. كان كريتيان التروى Chretien of Troyes فى بلاط كونت شمبانى ينسج رواية خيالية عن نظام جديد، أساس القصة فيها التيارات المتقاطعة للعواطف الإنسانية المتعارضة مثل الحب والولاء والضمير. وهناك أمور أخرى ساهمت فى تحقيق هذا الإنجاز أكثر من ألوان الأسطورة الكلتية الزاهية . فقد كانت أغانى الحب التى أنشدها شعراء التروبادور فى لانجدوك ، والتى تصل المبالغة فيها حد العبث ، على الرغم من أنها أحيانًا كانت تكشف عن بعد جديد من أبعاد المشاعر فى مجال الأدب. ذلك أن فكرتهم عن المرأة قد اختلطت فى الرواية بالفكرة التقليدية عن القوة العسكرية بحيث شكلت مبدأ أخلاقيا خاصًا بالبلاط ، وكان هذا مبدأ أرستقراطيًا متحذلقًا يتخذ من قلاع النبلاء موطنًا ومستقراً . إذ أن كتاباتهم البلاطية التى كانت تفوح بعواطف جياشة تعلم الناس أن يؤمنوا بها، أدت بهم فى نهاية الأمر إلى استمرار شعلة الإبداع، وكان هذا تحديًا آخر للأفكار والمثل القديمة، أكثر خطورة من التحدى الذى طرحته المدارس . يقول أوكاسين Aucassin فى الرواية الشهيرة **«إننى أفضل أن أتبع كل السيدات الجميلات والفرسان اللطاف إلى الجحيم بدلاً من أن أذهب إلى الجنة بدونهم»**.

وقد لقى هذا التحدى استجابة مماثلة . ويتضح هذا من تطورات ملحمة الملك آرثر . إذ أن قصة «البحث عن الكأس المقدسة» تخبرنا كيف أن جلاهاد، الذى أحضره الرهبان البيض من أرض نائية، جاء إلى بلاط الملك آرثر واجتاز اختبار الحصار المميت. وفيما بعد كان هو الذى وجد قلعة الكأس المقدسة وعالج الملك العاجز الذى كان يرقد هناك فى انتظار الموت، فى لحظة الرؤيا السارة التى كشفت له عن السر فى الكأس الذى استخدمه المسيح فى العشاء الأخير. ومن ثم فإن شهرته فاقت شهرة كل فرسان الملك آرثر . على نحو ما تحكى القصة ، الذين كانت حياتهم الآثمة حائلاً بينهم وبين العثور على الكأس المقدسة، وعلى رأسهم لانسلوت رمز المحبين. هذه هى الإجابة المسيحية على المبدأ الغرامى الشائع فى مجتمع البلاط. ولسنا نعرف من الذى كتب هذه القصة ولكننا نعرف أنها كتبت داخل الأديرة المسيحية، وعلى يد راهب غاص فى أغوار التعاليم الدينية التى نادى بها برنار.

لقد صارت قصة البحث عن الكأس المقدسة جزءا من الأصول المقبولة فى ملحمة الملك آرثر. وهذا أمر له مغزاه . ذلك أنه يذكرنا ، مرة أخرى ، بأننا يجب أن نكون حذرين فى الكلام عن التحدى والاستجابة، فى مقابلة القوى الجديدة فى تلك الفترة بالقوى التقليدية. إذ أن الناس الذين استمتعوا بالقصص الأخرى، بل وجدوا صدى لمشاعرهم فى مغامرات لانسلوت وجونيفر

الجنسية، لم يرتابوا فى أن القيم التى كانت تنقلها قصة الكأس المقدسة هى القيم الأكثر سمواً. الحقيقة أن المرء يمكن أن يرى فى القرن الثانى عشر ومضات توتر كان مقدرا لها أن تكون هامة فى المستقبل ، وتصدمنا التناقضات الكامنة الآن بقوة أكثر مما كانت تصدم الناس آنذاك. ومثلما أوضح المنطق السبيل إلى التوفيق بين التعاليم المتناقضة ، فإن الحساسية تجاه الأبعاد الجديدة للمشاعر فتحت الطريق أمام التعبير عن التجربة الدينية والعلمانية على السواء. ويبقى اتساق الممارسة الدينية والتعليم والمقاييس المعيارية فرضًا أساسيًا (على الرغم من أنه لم يكن دائمًا منسجمًا مع حقائق الحياة) بالدرجة التى أثر فيها فى كل تطور جديد وحكم توجهاته . لقد كانت الأفكار الجديدة فعالة وحملت الناس بعيدا عن نقاط البداية التقليدية. ومع ذلك فإن أسس التعاليم المسيحية المؤثوق بها ، حافظت على الروح الكلية للمجتمع وصانت وحدة الهدف.

٨- ثورة القرن الثانى عشر فى نظم الحكم

شهدت فترة أواخر القرن الحادى عشر والقرن الثانى عشر ، كما رأينا ، حركة إحياء فى حياة المدن والتجارة أضفت أهمية جديدة على النقود باعتبارها وسيلة يومية للتبادل . وقد شهدت الفترة نفسها أيضا ، فى المدارس ، تطور التناول المنهجى للمشكلات الفكرية . هذه التطورات مجتمعة يسرت السبيل أمام تطور ثالث، ربما كان أكثر أهمية. وكان هذا التقدم فى مجال الحكم وأساليبه. وكان الرجال ذوو الاتجاه العلمى والذين تلقوا تعليمهم فى المدارس بمثابة هيئة يمكن أن تقدم الإداريين المحترفين . كما أن المدن كانت بمثابة مراكز يمكن أن تكون مقراً للإدارة الدائمة الثابتة. كذلك فإن الرواتب النقدية ساعدت الموظفين على اتخاذ مواقف أكثر حرفية تجاه عملهم مما كان عليه أسلافهم الذين كانوا ينالون مكافآتهم على شكل ضياع تسبب مشاكل جمة فى إدارتها.

وهنا كانت روافد ثورة اجتماعية وسياسية ذات نتائج حاسمة على تاريخ الغرب فى الفترة اللاحقة. وكما هو الحال دائما كان حصاد هذه الثورة نتاجا لتفاعل القوى الجديدة مع الضغوط التقليدية، ولم يكن من نتاج هذه القوى الجديدة وحدها. ولهذا السبب، من المهم أن نذكر أنفسنا بالظروف السياسية التى بدأت الإمكانيات تظهر فى رحابها.

ذلك أن التباعد الإجتماعى الذى ساد فى العصور السابقة قد حقق نوعًا من «تشرذم» سلطة الدولة، أو تفتتها . وبالنسبة للرجل الحر العادى، لم تكن الحكومة التى تهمه هى تلك

التى يرأسها ملك بعيد، وإنما الحكومة التى يرأسها سيد محلى قوى. وكان هذا السيد، فى ضياعه الإقطاعية، يعول أفصاله الذين كانوا محاربين مخلصين ارتبطوا به بيمين الولاء الإقطاعى وكانت قلاعه تتحكم فى الطرق ؛ كما أن بلاطه كان يضمن لرعاياه قدرا من العدالة. وقد توطد مركزه بمرور الزمن بحيث أصبح وراثيا. وعلى الرغم من أنه ربما كان هو نفسه يدين بالولاء لسيد آخر، فإن العادة السائدة آنذاك وسعت من نطاق حقوقه بحيث سمحت له أن يشن الحرب دفاعًا عن مصالحه الخاصة أو عن مصالح رجاله. وقد استندت قوة مثل هذه الدويلة الإقطاعية الضئيلة، التى هى واحدة من الكونتيات والبارونيات التى برزت من غمار الفوضى السائدة فى العصور السابقة، على ثلاثة أشياء بشكل أساسى: ثروة السيد الإقطاعى، وقلاعه ، وقدرته على فرض قيادته على أفصاله بحيث يجعل الولاء علاقة ذات مغزى . فإذا ما تحقق ذلك ، حتى لو كان فصلا لفصل آخر (أى تابع إقطاعى) مرتين، فإن السيد الإقطاعى المحلى كان بوسعه أن يكون حاكما مستقلا بمعنى الكلمة.

إن القوى الجديدة التى انطلقت من عقالها فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر قد جعلت من الممكن أن يحدث تحول حاد فى موازين القوى داخل هذا الإطار. إذ أن جهود البيروقراطية النامية لإرساء قدر من النظام فى إدارة الضيعة الإقطاعية وفى نشاط المحاكم الإقطاعية قللت من ضرورة الاعتماد على تدخل الحاكم شخصيا فى غالب الأحوال كما ساعدته على التحكم فى ضياع أكثر اتساعًا بكفاءة أكبر. فقد كانت الضياع الأكبر تعنى مزيداً من المال الذى يدخل خزانته، وبهذا المال كان يبنى مزيداً من القلاع ويدفع للمزيد من الرجال للدفاع عنه. وبالموارد المالية والعسكرية الكبيرة التى تتاح له عن هذا الطريق، ربما كان بوسعه أن يحول الخدمة المظهرية التى يسديها أتباعه الإسميون البعيدون عنه إلى خضوع حقيقى. وكان هذا يمكن أن يحدث خاصة إذا كان السيد الإقطاعى ملكًا ، اكتسب من خلال المسح بالزيت المقدس مغزى دينيا لسلطته بحيث يلتزم الناس باحترامها .

هكذا كان الموقف واحتمالاته إذا ما نظرنا إليه فى ضوء المصطلحات الآلية الخاصة . وإلى هذا المدى يبدو أن الأمور كانت لصالح السيد الإقطاعى الأعلى، سواء كان ملكًا أو كونت أو أى شخص آخر من النبلاء. ومع هذا، فإنه لايمكن فهم أى موقف إنسانى فى ضوء المصطلحات الآلية على الإطلاق. ذلك أن أى امتداد لسلطة أى سيد إقطاعى أعلى كان يتم على حساب استقلال الآخرين، أى السادة الإقطاعيين التابعين . ولم يكن من المحتمل أن يتخلى الرجال الذين كانوا يفخرون بمكانة عائلاتهم العريقة، والقوة والسلطة التى حققها جدودهم بجهود

فردية، عن حرياتهم الموروثة دونما صراع. فقد كان استقلالهم يعنى بالنسبة لهم حقًا نالوه مع مولدهم . وهكذا خلقت التطورات الجديدة توتراً زادت من استفحاله عوامل أخرى.

فى مجال واحد كانت هذه العوامل الجديدة فعالة فى مستويات مختلفة للسيادة الإقطاعية: إذ كان من الممكن لرجلين تجمعهما علاقة إقطاعية اسمية باعتبارهما سيداً وتابعا، أن يجد نفسيهما يتمتعان بمكاسب من نفس الظروف وفى نفس الوقت . كذلك كانت أفضل وسيلة يلجأ إليها الإقطاعى الأعلى لكبح جماح قوة أحد أتباعه المتنامية - مثل حقوق منح الأراضى والامتيازات لآخرين- هى نفسها الوسيلة التى تزيد من قوة تابع آخر تكون إقطاعيته ملاصقة لإقطاعية الأول. وكان من الممكن لهذا الحل المؤقت أن يؤدى بسهولة إلى أن يواجه أبناء السيد الإقطاعى الأعلى عدوين قويين بدلاً من عدو واحد. وغالبا ما كانت عوامل أخرى تجبره على أن يسير فى هذا الاتجاه الخطير. فقد كانت للرجال الذين يستخدمهم فى الحفاظ على قلاعه وتسيير إدارته طموحاتهم الخاصة ؛ ففى مجتمع كان كبار التابعين الإقطاعيين فيه بمثابة مجموعة اجتماعية تتمتع بالأمن الذى لايتمتع به آخرون ، كانت تلك هى المكانة التى يتطلع إليها الرجال الجدد بطبيعة الحال. فقد كانت الحماية تفرض نوعًا من تقليل الكفاءة الإدارية والقوة العسكرية. فقد كان هناك نوع من التعويض المستمر للطبقة التى تتحقق الكفاءة الإدارية والقوة العسكرية على حسابها.

وفى أية حال سيكون أى تفسير للعلاقة بين الحاكم وكبار رعاياه فى ضوء الخصومة والتباغض تفسيراً مضللاً ، فقد كانوا أكثر رعاياه احتراما؛ إذ أنه كان قد تربى بينهم يشاركهم أذواقهم وانحيازاتهم؛ وإذا امتنعوا عن الحضور إلى بلاطه لن يكون هذا سوى تدمير لمكانته . كما أن توليه الحكم كان يعتمد فى جانب منه على موافقتهم ، لأن مبدأ حق الإبن البكر فى تولى العرش لم يرسخ فى البيوت الملكية إلا بعد زمن طويل؛ لقد كان من المهم أن يكون الشخص ممن تجرى فى عروقهم الدماء الملكية، بيد أنه حتى منتصف القرن الثانى عشر على الأقل، كانت لرغبات الرجال الأقوياء فى المملكة نفس قوة الحسم تقريبا. ومن ثم فإنه غالبا ما كانت السلطة الملكية تتقلص وتتحدد بسبب التنازلات المقدمة إلى جماعات أصحاب الامتيازات.

وبطبيعة الحال، إذا أمكن لأحد الحكام أن يمد من نطاق موارده، لاسيما فى الأرض الزراعية، بدون المساس بحقوق الآخرين، فإن موقفه يكون أفضل. وبما أن حق الحكم على الأرض والناس كان مقبولا باعتباره حقا وراثيًا ، فقد كان من السهل بناء الإمبراطوريات فى مخدع الزوجية

بدلاً من اللجوء إلى السيف . وقد أدى هذا إلى إضفاء أهمية فائقة على الاعتبارات الأسرية الملكية، وهو عامل حكم السياسات العلمانية فى العصور الوسطى وما بعدها . وكانت هناك وسيلة أخرى تؤدى إلى نفس الغاية، وهى حق الحاكم فى الاستيلاء على أراضى التابع الإقطاعى الذى يموت دون أن يخلف وريثًا، أو الذى يخل بالتزامات يمين الولاء الذى قطعه على نفسه . وكانت تلك الوسيلة أكثر صعوبة ، على الرغم من أنها كانت أكثر جدوى على المدى الطويل، لأن الحاكم ربما احتاج إلى السيف لفرض مثل هذه الحقوق .

* * *

إن الطريقة الوحيدة لبيان كيفية استخدام القوى التى شرحناها هى أن نرى كيفية عملها فى الواقع. ويمكن أن تكون البداية بالنظر إلى البلدين اللذين ظهرا بأكثر الحكومات تنظيما فى الغرب حوالى سنة ١٢٠٠، وهمّا المملكتان النورمانيتان فى صقلية وإنجلترا .

ويرجع الفضل فى تقدمهما المبكر إلى حقيقة أن كلا من الأسرتين الحاكمتين فيهما قد أسست نفسها بالغزو فى القرن الحادى عشر. أما أتباعهما الإقطاعيون ، فقد حققوا سلطتهم بفضل هذه الغزوات نفسها، ولذلك فإنهم لم يتمتعوا بنفس الاستقلال الراسخ الذى كان يتمتع به أتباع ملك فرنسا مثلا. كما أن كلا من المملكتين كانت تدين للماضى بقدر كبير وهام، إذ أن الغزوات الإسكندنافية المتكررة كانت قد أجبرت ملوك إنجلترا الأنجلو سكسون على تنظيم مملكتهم تنظيمًا فعالاً يمكنهم من الدفاع عنها. وفى صقلية ورث الملوك النورمان إدارة كان إطارها العام بيزنطيا . كما كانت قائمة بشكل أساسى على الممارسات المعقدة التى شهدتها الإمبراطورية الرومانية المتأخرة*.

وهذا هو السبب فى أن صقلية فى القرن الثانى عشر تبرز باعتبارها المملكة التى تتمتع بأفضل حكومة منظمة فى العالم المسيحى اللاتينى. ولأنها كانت بمثابة مخزن الغلال لشمال أفريقيا، كما كانت محطة طبيعية للملاحة المتجهة شرقًا من الموانىء الأسبانية ، والإيطالية، فمن المحتمل أنها كانت أغنى مملكة فى الغرب كذلك. وقد ورث روجر الثانى، الذى أعلن نفسه ملكا سنة ١١٣٠م، كل موارد الدخل الحكومية مثل الرسوم التى يتم تحصيلها من السفن

---

* هنا يتجاهل المؤلف فضل الحضارة العربية الإسلامية فى صقلية فى كافة جوانب الحياة. ومن المعروف أن جزيرة صقلية كانت إحدى وسائل الاتصال الهامة بين الحضارة العربية الإسلامية المتفوقة ، وبين حضارة أوروبا التى كانت تتلمس طريق التطور والتقدم مستعينة بما حققه المسلمون من تقدم فى شتى النواحى.(المترجم) .

التى تستخدم موانيه، والاحتكارات الغالية فى تجارة الغلال والسمك (والتى أضيف إليها الحرير حينما جعل العمال الذين تم أسرهم ببلاد اليونان ينسجون الحرير فى مصانع بالرمو) هذه الموارد وفرت المال الذى استطاع روجر أن يدفع به أجور جنوده المرتزقة من المسلمين الذين قضت جهودهم على مقاومة البارونات المشاغبين لحكمه فى جنوب إيطاليا. والنغمة الرئيسية فى القوانين التى أرساها روجر لكل مملكته فى سنة ١١٤٠م، بعد أن انتصر على بارونات الجنوب الإيطالى وحليفهم البابا إنوسنت الثانى، كانت هى الاختصاصات الشاملة للسلطة الملكية . فليس هنا أى وجود لتفتيت السلطة : لأن كل الأمور، سواء كانت إقطاعية أو محلية ، كانت خاضعة للسيطرة من جانب البلاط الفائق التنظيم فى بالرمو ، وذلك من خلال الموظفين الملكيين. ومن الأمور ذات الدلالة أن كثيرين من العاملين فى خدمة روجر كانوا من اليونان أو العرب الذين تلقوا تدريبهم فى ظل تراث إدارى أقدم من أى تراث كان يعرفه الغرب. كما أن التركيب السكانى المتعدد الأجناس فى الجزيرة قد ساهم بالمزيد فى قوة التاج الإستثنائية؛ إذ كانت السلطة الملكية هى السلطة الوحيدة التى اعترف بها اليونان والنورمان والعرب جميعًا وكان هذا أيضا هو السبب فى جعل بلاط روجر مركزاً لثقافة راقية وعالمية. إذ كان الكتاب العرب يحفظون سجلات الملكية لأنهم كانوا أكثر دراية بالحساب من أى يونانى أو لاتينى ، كما كانت النماذج البيزنطية إلهامًا لأعمال (الموزايكو) فى الكتدرائية الجديدة التى بناها روجر فى كيفالو Cefalo ، ولكن الأساطير التى صورت عليها كانت لاتينية فى هيئة نورمانية .

ويرجع فضل تطور الإدارة الإنجليزية ، إلى حد كبير، لرجال مثل كاتب هنرى الثانى، الأستاذ توماس براون master Thomas Browne ، الذى كان قد زار بلاط روجر فى صقلية. ولكن فى عهد وليم الفاتح (١٠٦٦-١٠٨٧م) ، كان الإتجاه النورمانى الذى يعمل داخل إطار التقاليد الأنجلو- سكسونية عن الإدارة المحلية قد أنتج كتاب السجل العام المعروف باسم Domesday Book والذى يعد أكمل مسح للناس وممتلكاتهم عرفته ممالك العصور الوسطى. وقد شهد عهد هنرى الأول (١١٠٠-١١٣٥) تقدما جديداً وهامًا فى مجال الإدارة المالية، ومات هنرى فى الوقت الذى وصل فيه صراع روجر ضد أعدائه مرحلة حرجة للغاية. إذ تم تنظيم خزانة الملك (التى كانت حتى ذلك الحين تحت إشراف كبير أمناء البلاط المتنقل) على شكل إدارة حكومية للحسابات بشكل بدائى : هى إدارة المالية (وزارة المالية) وذلك تحت رعاية روجر أسقف سالزبورى وتوجيهه ، فحتى ذلك الحين ، كان حكام المقاطعات Sheriffs، الذين كانوا هم الموظفين الملكيين المسئولين عن إدارة ضياع الملك فى كل من

المقاطعات Shires السكسونية القديمة والذين كانوا يرأسون المحاكم فى مقاطعتهم - كانوا يحضرون مرتين فى العام. وكان يدفعون للملك كل الأموال المستحقة ، ويقدمون أسماء جميع المدينين له لسبب أو لآخر وكانت كل مصروفات حاكم المقاطعة تستخدم للحفاظ على القلاع والضياع الإقطاعية ودفع مصروفات من يعملون فى خدمة حكومة الملك، كما كانت التفاصيل تسجل بأيدى موظفى المالية فى السجل المعروف باسم Gread Roll of the pipe وهكذا كان لدى الملك تقرير سنوى عما كان مستحقًا له وعما تم دفعه ، كما كانت لديه وسيلة لمراجعة أعمال الموظفين الذين لم يكن يقابلهم إلا نادراً .

وقد أعاد حفيد هنرى، وهو هنرى الثانى (١١٥٤-١١٨٩م) ، هذا النظام إلى العمل بعد الحروب الأهلية بين ستيفن وماتيلدا. كما شهد عهده المزيد من الاجراءات إذ بدأ هو ومستشاروه عملية نسج الموارد الحكومية فى إنجلترا لتكون قوة موحدة . ويبرز هذا بوضوح أكثر فى مجال العدالة. فقد كان إرساء العدالة هو الواجب الأول المتوقع من الحاكم فى القرن الثانى عشر (إذ أن معظم ما نسميه نحن رفاهية كان مسئولية الكنيسة والعائلة) . ولم يشهد عهد هنرى جُهدا كبيراً للتحقيق فى الجرائم والسيطرة عليها فحسب ، ولكنه شهد أيضا سعيًا حثيثا لكى يقدم للمجنى عليهم وسيلة سريعة وفعالة لتعويضهم . وقد أمكن تحقيق ذلك من خلال الأوامر الملكية القضائية Writs ، وهى عبارة عن خطابات رسمية باسم الملك، توضح الإجراءات التى يتم اتخاذها بمقتضى القانون لتصحيح الأخطاء التى كان الأفراد قد شكوا منها. وثمة نوع من الأوامر الملكية القضائية ، مثلا كان على شكل خطاب موجه لحاكم المقاطعة ، يأمره إذا رأى أن رجلاً قد أساء لآخر عمداً، بالاستيلاء على أرضه أو بضاعته أو باتهامه زوراً ، بأن يتخذ الخطوات اللازمة لتعويضه أو يحضر إلى بلاط الملك ليشرح السبب فى عدم قيامه بذلك. وكل ما كان على كتبة الملك أن يقوموا به إذا اشتكى رجل من ضرر لحق به هو أن يسجلوا اسمه على الأمر الملكى القضائى المناسب ويرسلوه إلى الموظف المختص . وكان الملك يرسل القضاة من بلاطه بانتظام إلى المقاطعات لتناول القضايا المرفوعة بهذا الشكل، لكى يحكموا فيها باسمه. وعندما كانت الضرورة توجب تأكيد حقائق القضية، كانت الأوامر الملكية القضائية تطلب من حكام المقاطعات أن يحلفوا مجموعات من الرجال (المحلفين) من المناطق المجاورة ممن يعرفون الحقيقة ويحضروهم أمام القضاة للإدلاء بها.

كان مستشارو هنرى من الرجال المتعلمين؛ إذ تبدو من خلال ممارستهم روح المدارس ، أى روح كتاب «نعم ولا Sic et Non » وهى تعمل فى الإدارة الحكومية وكانت الأوامر الملكية القضائية الجاهزة لديهم تصنف الأخطاء الواجب تصحيحها بيد الملك، وتفرق بين الضرر الواقع

على الأفراد، أو الممتلكات ، والإضرار بالسمعة الطيبة وتقدم الوسيلة المناسبة للتعويض في كل من هذه الحالات. وكان استخدام المحلفين تأكيداً على أن الفصل في القضايا يجب أن يتم بمستوى يمكن أن يفهمه الجميع، وهو مستوى المعرفة الإنسانية الذي جعل الوسائل السابقة لتحري الحقيقة (مثل محنة الحديد الساخن، أو المبارزة) تبدو وسائل بدائية. وفضلاً عن ذلك، فإن أحكام الملك كانت تسجل في ذلك الحين، مثل الديون المستحقة له؛ أي لم يكن هناك سبيل لنسيانها. ومن ثم زاد عدد المتقاضين الساعين إلى تحقيق العدالة بشكل أسرع وأضمن مما كان متاحًا قبل ذلك وخاصة بين أبناء الطبقات الدنيا، أي المستأجرين في غير الضياع الملكية. وهكذا بدأت السلطة الملكية تصبح شيئا ذا معنى بالنسبة لقطاع من الناس أكبر عن ذي قبل ؛ حيث كانت الحماية التي يوفرها الملك من خلال الأوامر الملكية القضائية في ساحات المحاكم قد بدأت تشكل قانونًا عامًا للبلاد كلها .

ولو أن هنري كان ملكا على إنجلترا وحدها، فلن نعرف أين سيتوقف النمو المطرد للسلطة الملكية . ولكن الزواج والوراثة جعلاه أيضا سيداً على إمبراطورية كبرى في فرنسا فقد آلت إليه نورماندي من خلال أمه ماتيلدا، أما آنجو Anjou ومين Maine وتورين Tourainc فقد ورثها عن أبيه جيوفري؛ وفرض حكمه على أقطانيا Aquitaine بحق زواجه من إليانور. وقبل موته كان التوتر يتصاعد بينه وبين ملك فرنسا، الذي كان هو سيده الإقطاعي من الناحية الإسمية بسبب هذه المجموعة المتنوعة من الضياع الإقطاعية ، والذي لم يكن يستطيع أن يرقب قوته المتنامية في هذه الأراضي دون أن يحرك ساكنًا . وبينما ازداد إصرار الملك الفرنسي على حقوقه، كان على خليفتي هنري، ولديه ريتشارد وجون، أن يلجآ إلى مواردهما الإنجليزية للدفاع عن حقوقهما. وبحلول سنة ١٢٠٥ كان جون قد فقد كل الأراضي الفرنسية فيما عدا أقطانيا، وفي غمرة جهوده لاستعادة ما فقده استخدم جهازه الإداري في تحصيل الأموال في إنجلترا بشكل ظهر وكأنه يمتد بالحقوق الملكية إلى مدى أبعد مما هو معقول. وفي سنة ١٢١٥ اتحد رعاياه الأقوياء ليجبروه على التوقيع على العهد الأعظم Magna Carta ، الذي تم فيه وضع الحدود المضبوطة لسلطته عليهم. وهكذا فإن نمو السلطة الملكية انتهى بإجبار الملك على الاعتراف بالحدود التي لايمكنه تجاوزها بدون موافقة رعاياه .

أما صعود الملكية الفرنسية مما يشبه العجز إلى ما يشبه السلطة المطلقة ، فقد بدأ قبل ذلك بوقت طويل، في عهد لويس السادس (١١٠٨-١١٣٧م) . فقد قضى لويس الشطر الأكبر من حياته في اجتياح قلاع البارونات اللصوص في الأراضي المعروفة باسم جزيرة فرنسا Ile de France (حول باريس) والتي كانت موطن ملوك أسرة كابيه- وكانت تلك مجرد بداية

صغيرة. وفى الحقيقة أن لويس لم يكن بفعل أكثر مما كان تابعه الكونت جيوفرى يفعله فى نفس الوقت فى آنجو، والذى كانت شارل يسعى لعمله فى الفلاندرز . بيد أن العملية كانت مهمة على الرغم من صغر نطاقها. ولم يكن الملوك الفرنسيون يتطلعون إلى مد نفوذهم وسلطاتهم أبعد من موطنهم إلى أن تم إقرار النظام فى أملاكهم الواقعة حول باريس. وقد ضمن ما أحرزه لويس لخلفائه موارد من الرجال والأموال. وكانت هذه الموارد برغم تواضعها مضمونة وقابلة للتحسن .

وكان أول تحسن ظهر بوضوح هو تنظيم الحكومة على أسس أكثر منهجية فى أراض أكثر تنظيما . والتعليمات التى أصدرها فيليب أغسطس، حفيد لويس ، بشأن إدارة أملاكه عندما ذهب فى الحملة الصليبية الثالثة سنة ١١٩٠م، تكشف عن أنه كان هناك بالفعل نظام إدارى كفء ومحترف ، تمت صياغته وفق نظام الملوك الإنجليز فى ضياعهم الإقطاعية على أرض القارة الأوروبية. فقد تم تقسيم أملاكه الملكية إلى جهات كل منها يشرف عليها ناظر الضياع bailli، وهو موظف براتب يعينه الملك أو يعزله كيفما يشاء. وكان ناظر الضياع يشرف على استغلال ضياع الملك، وجمع الرسوم والضرائب والأموال المقررة فى بلاطه ويسجلها . وشهريا يعقد محكمة ، باسم الملك، يستمع فيها إلى كل القضايا والطلبات التى يقدمها رعايا الملك، كبيرهم وصغيرهم ، فى ناحيته . وكان يفد إلى باريس ثلاث مرات سنويًا لكى يدفع أموال الملك ولكى يقدم تقريرا عما أخذه وعن المصروفات . كما أنه فى تلك الفترة يحيل إلى مجلس الملك أية مشكلات شعر أنه لايستطيع حلها على مسئوليته الخاصة. ومن المستشارين المفوضين للبت فى هذه المسائل حدث فى عهد لويس التاسع، حفيد فيليب، أن ظهرت الهيئة التشريعية التى عرفت باسم برلمان باريس، الذى كان بمثابة المحكمة العليا فى جميع أنحاء المملكة الفرنسية.

والثروة التى جمعها فيليب بفضل جهازه الإدارى الكفء ساعدته على فرض سلطته على كبار الأمراء الإقطاعيين الذين كانوا حتى ذلك الحين مستقلين بشكل يكاد يكون تامًا . فخلال عهده غاب كونت الفلاندرز القوى لفترة طويلة فى إحدى الحملات الصليبية. فقد كانت شمبانى منذ سنة ١٢٠١م بيد أحد أتباعه الصغار ، كما كانت بريتانى بيدى إمرأة منذ عام ١٢٠٣م. وهذا ما أتاح له الحرية فى التعامل مع أقوى الأمراء الإقطاعيين قاطبة، وهو ملك إنجلترا ، الذى كان دوق نورماندى وأقطانيا وكونت أنجو وتورين ومين وبواتو . وفى لوجوليه le Goulet سنة ١٢٠٠م أرغم الملك جون ، الذى كان يتنازع حق حكم هذه الأراضى مع آرثر

ابن أخيه على أن يعترف بسيادته الإقطاعية عليه. وبعدها بسنة واحدة جرؤ على أن يستدعى جون إلى بلاطه باعتباره تابعه الإقطاعى لكى يرد على الشكاوى التى قدمها ضده كونت لوزنيان Lusignan . وعندما لم يحضر جون، أعلنت محكمة الملك الفرنسى أن إقطاعاته قد آلت إلى التاج بسبب احتقاره للمحكمة، وأطلق فيليب جنوده المرتزقة على هذه الإقطاعات . وبحلول سنة ١٢٠٦ كانت آنجو ومين قد صارتا من أملاكه بالفعل وتضاعفت أراضى فيليب أكثر من مرة، وصارت قوته قوة بحسب حسابها من ناحية جديدة.

ففى سنة ١٢١٤م هزم فيليب قوات التحالف بين إنجلترا والفلاندرز والإمبراطور الفلفى أوتو الرابع ، عند بوفين Bouvines، وكان جون قد جمعها سويًا فى محاولة يائسة لاستعادة ميراثه الضائع . ومنذ ذلك الحين فصاعدا كانت سيادة فيليب قد صارت راسخة ، ليس على الأملاك الخاصة بأسرة كابيه فقط، ولكن أيضا على كل ما كانت أسرة آنجو (الأسرة الحاكمة فى إنجلترا) تملكه فى فرنسا باستثناء أقطانيا . كما أن المعركة أنهت التفوق الألمانى بين ممالك شمال أوروبا، كما كانت علامة على بداية التفوق الفرنسى . حقا أن السلطة الملكية كانت كما مهملاً فى الجنوب، أى فى لانجدوك ، كما أنها حقيقة أيضًا أنه حتى فى الشمال كانت الولايات تحتفظ بعادات متمايزة وتتمسك بممارسات إدارية مختلفة. بل إن البرلمان لم يضع أبداً قانونًا عامًا فى فرنسا مثلما حدث فى إنجلترا . ولكن أراضى فيليب كانت تدار بشكل يقترب تمامًا من إدارة أراضى الملك فى إنجلترا، كما أنها كانت أوسع وأكثر ثراء. وبعد معركة بوفين لم تعد مزاعم آل كابيه بأنهم خلفاء شارلمان مجرد شعارات جوفاء .

وفى هذا الوقت، كانت الحرفية الجديدة فى إدارة الحقوق والضياع الملكية القديمة فى إنجلترا وفرنسا قد حولت هذين البلدين إلى مملكتين يمكن اعتبارهما قوتين مستقلتين منذ ذلك الحين فقط. فقد كانت وستمنستر Westminster وباريس قد صارتا مركزين مستقلين للحكم الفعال. إذ صار ملوك انجلترا وفرنسا أغنياء بالقدر الذى يكفى لدعم سياستهم إذا ما دعت الضرورة بقوات المرتزقة المدربة جيدا. فقد تم خلق نوع جديد من القوة السياسية، أكثر صلابة من أى تنظيم علمانى عرفه العالم المسيحى فى العصور الوسطى حتى ذلك الحين . ويكشف نموه عن الإمكانيات السياسية الكامنة فى قوة المال إذا ما اقترنت بمعالجة مشكلات الحكم بكفاءة المحترفين .

وقد فشلت صقلية فى التطور بنفس الطريقة، لأن الزواج بين الأسرتين الحاكمتين ربط مصيرها بمصير الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وكما يبدو من هذا، فإن ما ينبغى علينا فعله

لكى نكمل الخطوط العريضة التى تحدد اتجاهات الحكم فى القرن الثانى عشر، هو أن نرى كيف أثرت القوى الفعالة فى بروز ملكية فرنسا وإنجلترا على مركز كل من القوتين الأقدم والأكثر عالمية، أى البابوية والإمبراطورية.

* * *

وفى ضوء مصطلحات الكفاءة التنظيمية البحتة لم تكن هناك حكومة علمانية يمكن مقارنتها بحكومة الكنيسة (البابوية) . إذ أن النظام التشريعى البابوى ، بوجه خاص ، كان غاية فى التنظيم والكفاءة ، فقد عمل الخبراء على تشكيل القانون الكنسى فى شكل قانون عملى يمكن استخدامه ، يقوم على أساس مبادىء أكثر عقلانية من قوانين الممالك العلمانية، كما أن المحاكم الكنسية كانت قد طورت قواعد منتظمة للإجراءات . إذ أن المندوبين الجوالين الذين كانت روما ترسلهم ، كانوا يزورون المقاطعات بانتظام لكى يعقدوا المجامع الكنسية المحلية ويستمعوا إلى القضايا باسم البابا، ويحيلون إلى روما أية مسائل يرونها شائكة بحيث لايمكن حلها فى الحال . وبمنتصف القرن الثانى عشر كان هناك قدر كبير من الأعمال التى تتم إحالتها إلى السلطة البابوية بحيث لم تعد مثل هذه الوسائل كافية للتعامل معها. ومن هنا ظهر أسلوب حل القضايا عن طريق تعيين لجان صغيرة من رجال الكنيسة المحليين ومنحهم السلطة البابوية للتعامل مع كل قضية على حدة. وقد أدى هذا إلى جعل العدالة البابوية متاحة بشكل أكثر سهولة ، كما أدى إلى تضخم عدد القضايا التى يتم فيها اللجوء إلى السلطة البابوية. وكان الموظفون المطلوبون للتعامل مع كل هذا العمل اليومى يزيدون عدداً ، كما حسنوا وسائلهم فى تسجيل الأعمال البابوية والتصديق على القرارات. وكانت المجامع الكنسية المنتظمة تعقد فى روما، وفيها كانت تتم صياغة المراسيم لإصلاح مستويات التنظيم الأكليروسى، وتنقلها إلى المقاطعات على وجه السرعة.

وكانت طبيعة الأمور التى يتم فيها اللجوء إلى البابا وموظفيه للحكم متنوعة إلى حد كبير، مثل النكوث بالعهود والأيمان، ومسائل الشرعية ، وقضايا الزواج وتنظيم حالات الوصاية ، والهبات الممنوحة للكنيسة- كلها كانت أموراً تعتبر داخلة فى نطاق صلاحيات البابا وموظفيه شأنها شأن الأمور ذات الطبيعة الروحية الواضحة . ومن ثم لم تكن سلطتهم تمتد إلى رجال الكنيسة وحدهم، ولكنها كانت تمتد لتشمل العلمانيين أيضا فى أمور كثيرة. فضلاً عن ذلك كانت سلطتهم سلطة عالمية، لاتحدها حدود أية مملكة الأعراف الجارية فى أية منطقة. ورغم كل الشكاوى من قبول المحاكم الكنسية للرشوة (وكان عددها كبيراً)، فإن حقيقة

أن الكنيسة كانت قوة حكومية واضحة الفعالية فى كل جزء العالم المسيحى قد أدت بالضرورة إلى زيادة هيبة البابوية. وكانت مزاعمها بأن سلطتها تسمو فوق سلطة أى حاكم علمانى تبدو واقعية فى هذه الظروف .

ولم تكن البابوية تفتقر إلى الرجال والوسيلة اللازمة للحفاظ على الجهاز الإدارى المحترف بمقاييس القرن الثانى عشر. وكانت نقطة ضعفها هى القوة المادية لأنها كانت تعتمد فى فرض أوامرها فى المناطق النائية على المكانة الأدبية وعلى تعاون السلطات العلمانية الذى لم يكن متاحًا دائمًا إلا من خلال الصفقات السياسية. فضلاً عن ذلك ففى روما نفسها، كانت اضطرابات مواطنيها والأرستقراطية المحلية تمثل تهديداً دائمًا للأمن. فقد قضى كل من إنوسنت الثانى، يوجنيوس الثالث، وإسكندر الثالث فترات فى المنفى بعيدا عن عاصمتهم، وكان عليهم أن يبحثوا عن مساعدة الأمراء العلمانيين الذين قدموا القوة العسكرية التى كان البابوات يفتقرون إليها للحفاظ على كراسيهم. وتوقع هؤلاء الأمراء أن يحصلوا على ميزات ومنافع لقاء المساعدة التى قدموها ، ولكى تحافظ البابوية على استقلالها السياسى كان عليها أن تتجنب الاعتماد المطلق على حليف واحد. وكان ذلك يقتضى فى بعض الأحيان مناورات دبلوماسية لاتتفق بسهولة مع الأهداف والغايات الروحية التى كانت البابوية ملتزمة بها إسميًا. وهنا كان الخطر كامنًا ليظهر فى المستقبل . وعلى أية حال ، فإن الجهود المضنية التى بذلتها البابوية فى القرن الثانى عشر لرفع المستوى الأخلاقى للعلمانيين والكنسيين على السواء، ولجمع الرجال والأموال للحملة الصليبية المتوجهة إلى الأرض المقدسة، جعلت سمعتها تسمو وترتفع .

ولاتطالعنا صورة بهيجة مثل هذه الصورة عندما نتطلع إلى القوة العالمية الأخرى، أى الإمبراطورية. ومن المؤكد أن مكانة الإمبراطور كانت ما تزال عالية فى القرن الثانى عشر، وأعلى من سلطة أى حاكم علمانى آخر؛ ولكنه كان يفقد بسرعة مقومات المنافس الخطير للبابا بوصفه الزعيم السياسى للغرب المسيحى . وعلى المستوى العملى، كان على الأباطرة الألمان أن يواجهوا ، فى معاملاتهم العلمانية مع رعاياهم مشكلات غاية فى الحدة.

فعندما اندلعت نيران الحرب الكبرى حول التقليد العلمانى ، كان الإمبراطور هنرى الرابع مشتبكا بالفعل فى صراع مع النبلاء الألمان، وكان التهديد القديم من جانب زعماء الدوقيات القبلية قد انتهى منذ زمن طويل فى عهد أسرة أوتو حقا. ولكن ظروفا استجدت آنذاك غيرت من بنية قوة النبلاء ففى الأراضى التى كانت بوراً وغابات والتى لم يقف الأباطرة فيها

المرصاد للسلطة الأرستقراطية التى لم تكن تمارس سوى على وحوش الغابة بشكل أساسى . كانت أعداد المستوطنين فى تزايد مستمر. وكان من الطبيعى أن تثير المحاولات الامبراطورية للتحكم فى العلاقات بين النبلاء ورعاياهم الجدد الامتعاض فى نفوس النبلاء. فلماذا يجب أن تكون سلطتهم التى كانت مطلقة على هذه الأراضى حتى ذلك الحين محل تساؤل، وربما لأنها تحولت إلى مصدر للدخل؟ كانت مشاعر الامتعاض هذه هى التى نشّطت الرجال الذين انتهزوا فرصة توقيع عقوبة الحرمان الكنسى على هنرى الرابع فانتخبوا ردولف دوق سوابيا ملكًا بدلاً منه فى سنة ١٠٧٧م . وقد تأكد خروجهم النهائى على تقاليد الوراثة الملكية عندما مات هنرى الخامس دون أن يخلف ذرية سنة ١١٢٥م . فقد كان خليفته لوثار ينحدر من نسل آباء غير ملكيين كما أن خليفة لوثار ، كونراد ، لم يكن من أقاربه هو الآخر. ونتيجة لهذا، فإن حكام الإمبراطورية فى السنوات المضطربة بين سنة ١٠٧٧ وانتخاب فريدريك بربروسا سنة ١١٥٢م لم يتمكنوا من تكوين مساحة من أراضى العائلة الملكية تكفى للتغلب على أى تابع إقطاعى على نحو ما فعل فيليب أوغسطس فى فرنسا. كما أن الاضطرابات التى سادت الفترة نفسها وفرت فرصة ذهبية لأسر النبلاء لكي ترسى دعائم استقلالها. إذ أن الاضطرابات حققت للنبلاء الإقطاعيين الألمان قدر ما حققته غزوات القرن التاسع للسادة الإقطاعيين فى فرنسا .

وكان هناك شىء مماثل يحدث فى الوقت نفسه فى شمال إيطاليا. إذ أن تراخى السلطة الإمبراطورية فى غمار النزاع حول التقليد العلمانى منح المدن اللمباردية فرصة التحرر من ربقة الأساقفة الموالين للإمبراطور . وبينما جنى النبلاء ثمار فترة التغيرات الاجتماعية الجذرية التى جرت فى ألمانيا ، كانت قوميونات المدن هى الرابحة فى إيطاليا. بيد أن الأثر كان متشابهًا فى الحالين. فعندما صار بربروسا هو الإمبراطور المنتخب ، كانت القوميونات قد صارت مستقلة داخل أسوارها مثلما كان النبلاء الألمان مستقلين داخل قلاعهم . كما أن القوميونات كانت أكثر ثراء من أية مدينة أو أمير فى ألمانيا .

كان بربروسا واحداً من أكثر الشخصيات تأثيراً بين أباطرة العصور الوسطى. إذ كان يتمتع بإحساس حاد بعظمة الإمبراطورية وعراقة ميراثها . فقد قال لمواطنى روما المتمردين وزعيمهم الجمهورى أرنولد البريشى **«إن جيشى هو الجيش الرومانى ومجلسى الاستشارى هو السناتو الرومانى»** . وكان هو الحامى العظيم للقانونيين الرومان فى بولونا : كما أن شاعر البلاط رفعه إلى مكانة قيصر جديد **«قُدر له أن يعيد أحوال روما إلى حالتها الأصلية القديمة»**. بيد أن كل هذا الصخب والتوسل بالماضى لم يكن كافيا بدون إدارة مستقلة وموارد قوية من الرجال

والأموال. وكان هذا هو ما سعى الإمبراطور بجدية لتحقيقه عبر عهده الطويل، ولم ينجح تمامًا في تحقيقه.

وفى إيطاليا حاول بربروسا أن يحول ثراء المدن اللمباردية إلى ميزة لصالحه ، بأن يعيد تأكيد كافة الحقوق القديمة التى كان يتمتع بها الملوك اللمبارد والأباطرة يومًا ما. بيد أن هذا كان يعنى التضحية بقدر من الاستقلال الذى كسبته المدن بصعوبة ، ولم تكن المدن اللمباردية على استعداد لقبول هذا الأمر، وفى مواجهة الأخطار الخارجية رحبت المدن بنبذ منازعاتها فيما بينها. وفى سنة ١١٦٧م شكلت المدن العصبة اللمباردية الشهيرة، وكرست مواردها للدفاع عن حقوقها. وكان تأييد وتوجيه البابا اسكندر الثالث، الذى رأى خطراً كبيراً ماثلاً يتهدد البابوية إذا نجحت الإمبراطورية فى تدعيم مكانتها فى لمبارديا ، عاملاً مساعداً فى الإبقاء على تماسك العصبة. وبعد عدة انتصارات أولية ، لقى بربروسا هزيمة ساحقة فى ليجنانو Legnano سنة ١١٧٦م، وبات واضحًا أن محاولة إنشاء إدارة إمبراطورية مباشرة فى لمبارديا قد فشلت . وقد وافق أخيراً فى معاهدة كونستانس سنة ١١٨٣م على أن يترك للمدن الحرية الكاملة فى إدارة شئونها الداخلية لقاء جزية سنوية. وكانت هذه المعاهدة مثل الميثاق الأعظم Magna Carta الإنجليزى، تحديدا لمدى سيادة الإمبراطور على المدن؛ ولكنها لم تنه هذه السيادة بأى معنى من المعانى . بيد أنها منحت المدن قدراً من الإستقلال فى إدارة شئونها أكبر مما كسبه البارونات الإنجليز من الملك جون، وهو استقلال كان يرقى إلى مرتبة الحكم الذاتى الداخلى.

كان على بربروسا أن يتعامل مع النبلاء الألمان بحذر لكى يكسب تأييدهم لحملاته جنوب جبال الألب لأنه لم يكن بجانبه حلفاء أقوياء فى إيطاليا.ولهذا أقر هنرى الأسد الفلفى فى ميراثه بسكسونيا وبافاريا ، وأنشأ دوقية جديدة فى النمسا لهنرى جاسوميرجوت Henry Jasomirgott ، لكى يوازن قوة هنرى . مثل هذه الأفعال حدت من مجهوداته الأصلية لتقوية السلطة الإمبراطورية فى ألمانيا. ومن خلال التغيرات القانونية والشراء مد نطاق أملاك أسرته ودعمها فى الجنوب الشرقى. وعمل على أن يؤكد فى مجالسه الاستشارية الكبرى العلاقة الإقطاعية الشخصية التى تربط كبار النبلاء بالإمبراطور . وكان أحد تابعيه الإقطاعيين ، وهو هنرى الأسد، قد تمرد على الالتزام بحكم محكمة سيده ، وبذلك استطاع الإمبراطور فى النهاية أن يجرده من كل ضياعه الإقطاعية، وكانت أملاكه التى استولى عليها من السلاف فى الشرق تنمو لتتحول إلى إمبراطورية داخل الإمبراطورية. إلا أنه لم يتمكن من تنفيذ حكمه سوى لأن الأمراء الآخرين، وهو نفسه ، كانوا ينظرون إلى قوة الفلفيين Welfs النامية بعين الحسد،

وكانوا على استعداد لمساندته فى مقابل الحصول على امتيازات جديدة لأنفسهم، وهنا ذهبت أراضى هنرى الأسد إلى حلفاء الإمبراطور، وليس إلى الإمبراطور نفسه. وفى نهاية هذا العصر كان أكبر النبلاء الألمان قد ظهروا باعتبارهم طبقة معترف بها من النبلاء يتمتعون بكل حقوق السيادة على أراضيهم.

ومات بربروسا فى الحملة الصليبية الثالثة سنة ١١٩٠م غرقا فى أحد أنهار آسيا الصغرى. ويبدو حجم إنجازاته من خلال حقيقة أن إمبراطوريته قد انتقلت إلى ابنه هنرى السادس دونما مشاكل. وحتى مع هذا فإن الإمبراطورية لم تكن تمتلك الحكومة المستقرة المركزية المنظمة ولا الثروة التى صنعت قوة الملكية فى إنجلترا وفرنسا . وفى إيطاليا وألمانيا كانت القوى التى دعمت الملوك فى الأماكن الأخرى تعمل لصالح السلطة المحلية وليس لصالح السلطة المركزية. لقد كانت الإمبراطورية تضم أملاكا واسعة متناثرة بالقدر الذى حال بينها وبين الانتفاع بها.

وعند نهاية القرن فتحت آفاق جديدة فى إيطاليا أمام السلطة الإمبراطورية فجأة، نتيجة لواحدة من صدف الميلاد التى كان يمكن أن تكون حاسمة فى عالم كانت فيه السلطة الموروثة جزءاً من النظام السياسى المقبول. إذ مات وليم الثانى ملك صقلية، وانتقلت مملكته الثرية المنظمة جيدا إلى كونستانس زوجة هنرى السادس . وباتحاد صقلية مع الإمبراطورية باتت المواجهة الثانية مع البابوية أمراً محتوماً . كما أنها منحت الإمبراطورية علاقة جديدة بالشرق والحملات الصليبية. ولكى نفهم التداعيات الناجمة عن ذلك لابد من ذكر شىء فى تفصيل أكبر عن هاتين المسألتين الأخيرتين .

٩- الحملات الصليبية

قبل عصر الحملات الصليبية ، كانت الأرض المقدسة معروفة للمسيحيين فى الغرب الأوروبى باعتبارها مكانًا للحج فقط. وحتى منتصف القرن الحادى عشر، كان أولئك الذين يقومون بالرحلة إلى هناك يستطيعون السفر عبر أراض يحكمها المسيحيون باستثناء الشطر الأخير منها. فإلى الشرق من نهر الفرات، وإلى الجنوب حتى أنطاكية ببلاد الشام كان نفوذ أباطرة بيزنطة قائما. ولكن فى خمسينيات القرن الحادى عشر كانت الإمبراطورية قد بدأت تدخل فترة حالكة من تاريخها . ففى القسطنطينية كانت فرق البلاط المتنازعة تقوض السلطة الإمبراطورية . وفى الوقت نفسه كانت الولاية الآسيوية قد بدأت تعانى من غارات الأتراك السلاجقة الذين كانوا يؤسسون لأنفسهم إمبراطورية فى الأراضى التى كانت موحدة ذات يوم تحت حكم الخلفاء العباسيين ببغداد. وفى سنة ١٠٧١م أحرز السلاجقة نصراً مدوياً فى مانزكرت بالأناضول على البيزنطيين وأخذوا الإمبراطور رومانوس ديوجينيس أسيراً. وشهدت السنوات التالية تقدمهم شرقا إلى شواطىء البسفور ، وباتت القسطنطينية نفسها مهددة. وكانت أراضى الأناضول باستمرار منطقة هامة لتجنيد الجيوش ، وكان هناك نقص خطير فى المحاربين إزاء الأزمة العسكرية المتفاقمة . وفى سنة ١٠٩٥ لجأ الإمبراطور أليكسيوس كومنينوس إلى البابا إربان الثانى لمساعدته فى تجنيد قوات مرتزقة من الغرب.

«وعندما سمع أن المناطق الداخلية من روما (الإمبراطورية البيزنطية) قد احتلها الأتراك، وأن المسيحيين خضعوا لغزو مدمر وساحق ، اهتز إربان كثيرا بفضل تقواه وتدينه العميق وحبه للرب. فعبر جبال الألب وجاء إلى بلاد الغال وأمر بعقد مجمع دينى كبير فى أوفرينى

بلكيرمون، وهو إسم المدينة. وتم الإعلان عنه بصورة سليمة بواسطة المبعوثين الذين أوفدوا إلى كافة الأنحاء».

هكذا يلخص فوشيه الشارترى رد فعل إربان، الذى أدى إلى شن الحرب الصليبية . ففى كليرمون، وفى الحقول الواقعة فى تلال أوفيرينى خارج المدينة، دعا البابا فى ٢٧ نوفمبر ١٠٩٥م، جمعًا حاشداً من الأشخاص ، علمانيين وكنسيين ، مناشداً الرجال من شتى أرجاء العالم المسيحى لكى يهبوا لإنقاذ إخوتهم المسيحيين فى الشرق: «**إذهبوا فى هذه الرحلة تكفيرا عن خطاياكم واثقين من مجد مملكة السماء الخالد**» ودوت صيحة هائلة استجابة من الحاضرين «**إنها إرادة الرب**» .

وقد استرعت دعوة إربان الخيال الإحيائى السائد فى زمانه . ففى كليرمون نفسها أقسم عدد كبير فى الحال على القيام «**بالرحلة**» ، وخاطوا على ستراتهم صلبانًا حمراء لتكون شاهداً على قسمهم الذى أقسموه. وأولئك الذين أخذوا شارة الصليب بهذه الطريقة ، أو الذين قدموا الصدقات لتمويل الحملة، تلقوا وعداً بمحو ذنوبهم . أما الدعاة الشعبيون، من أمثال الفرنسى بطرس الناسك، فقد أخذوا دعوة البابا ونشروها فى مناطق بعيدة. وسرت إشاعات بحدوث معجزات غريبة وافقت دعوة الدعاة الشعبيين . وبدأت جماعات كبيرة تحتشد . وكانت تلك مساعدة على نطاق مختلف عن الفرق المرتزقة التى كان أليكسيوس يتطلع إليها. فقد نتج عنها على حد قوله «**حركة كبرى للشعوب التى خرجت من الغرب**». تلك كانت الحملة الصليبية .

كان أول «الصليبيين» الذين وصلوا آسيا هم الفلاحين الذين جمعهم بطرس الناسك والفارس الفرنسى والتر المفلس. وعلى نحو ما تشهد المذابح المرعبة التى ارتكبوها ضد اليهود وهم فى الطريق كان أتباعهما يفتقرون إلى النظام وإلي المفهوم الواضح عن أهدافهم . ولكن حقيقة تجمعهم ووصولهم آسيا الصغرى قبل أن يكتسحهم الأتراك، هى فى حد ذاتها شهادة على الاستجابة التى لقيتها الدعوة إلى الحملة الصليبية فى جميع الأنحاء. أما الجيوش الأكثر قوة، والتى قادها النبلاء فقد تجمعت على نحو أبطأ ، وبدأوا فى الوصول إلى القسطنطينية أواخر سنة ١٠٩٦م . وأحد الجيوش بقيادة جودفرى دوق اللورين الأدنى وأخيه بلدوين، وصل عن طريق البر عبر المجر . وثمة جيش آخر بقيادة ريمون كونت تولوز تم تجنيده فى لانجدوك بشكل أساسى، جاء عن طريق شمال إيطاليا وإيلليريا: ومعهم جاء أديمار المندوب البابوى وأسقف لوبوى الذى عينه إربان لتوجيه الحملة. أما بوهيموند، ابن روبرت جويسكارد ووريثه

فى أطماعه بمد أملاكه داخل حوض البحر الأدرى على حساب البيزنطيين ، فقد عبر البحر مع جيش من النورمان من إيطاليا إلى درازو، ومن هناك سار بحذاء الساحل وعبر تراقيا إلى القسطنطينية. وربما شكلت هذه القوى مجتمعة جيشًا قوامه خمسين ألف رجل.

كانت العلاقة متوترة بين القادة الصليبيين والإمبراطور البيزنطى. وفى النهاية قرر أليكسيوس أن يقنعهم جميعا بأداء الولاء له، وأن يعدوا بالاعتراف بسيادته الإمبراطورية على كافة الأراضى التى يستولون عليها والتى كانت تحت الحكم البيزنطى فى القرن الحادى عشر. وفى مقابل ذلك وعدهم بأن يمدهم بالمؤن وأن يساندهم ، فى حدود قدراته، فى مسيرتهم داخل آسيا الصغرى. وعلى الرغم من المخاطر وطول المعاناة فإن المسيرة قد اكتملت . وبحلول خريف سنة ١٠٩٧م كان الصليبيون قد وصلوا أنطاكية ، التى سقطت بأيديهم فى السنة التالية بعد حصار طويل. وهناك عين بوهيموند نفسه أميراً على المدينة التى كانت يوما تحت الحكم البيزنطى، ناكثًا عهده لأليكسيوس . كما أن ريمون كونت تولوز كان طامعا فى حكمها . وكانت بينهما منازعات طويلة الأمد (كان أديمار الذى تصدى لمثل هذه المنازعات من قبل قد مات أثناء الحصار). وفى نهاية الأمر سار ريمون وجودفرى تحت ضغط أتباعهما بحذاء الشاطىء قاصدين بيت المقدس . وفى ١٥ يوليو ١٠٩٩تم اقتحام المدينة المقدسة. وإذ كان الصليبيون يشهقون من شدة الفرح، وأيديهم ملطخة بدماء المذابح التى ارتكبوها فى الشوارع، أدوا صلاة الشكر فى تلك الليلة بكنيسة القيامة .

وبعد مشاورات طويلة تم اختيار جودفرى أمير اللورين ليكون حاكم مملكة بيت المقدس الجديدة. وتم استرضاء ريمون المحيط بكونتية طرابلس؛ أما تنكرد ابن أخت بوهيموند ، فقد صار أمير الجليل. وكان بلدوين شقيق جودفرى قد جعل نفسه فى تلك الأثناء كونت الرها فى شمال بلاد الشام على نهر الفرات. وعندما مات جودفرى سنة ١١٠٠م ارتقى عرش مملكة بيت المقدس. وفى غضون سنوات قليلة كانت حدود «الدويلات الصليبية الجديدة» قد صارت واضحة . إذ سيطر اللاتين على شريط ساحلى ضيق من أرسوف جنوبا حتى حدود قليقلة، ويمتد فى الداخل. وكانت كل المدن الهامة على شاطىء البحر المتوسط الشرقى، مثل عكا، وصور وطرطوس وأنطاكية بأيديهم.

كان النجاح السريع للصليبيين فى بدايتهم حاسمًا بالنسبة لتاريخهم فيما بعد . إذ أن النصر قد ترك بصمته على الحركة التى بدأها إربان. وتبلورت الحملة الصليبية فى حركة نشاط مسيحى له طبيعته الخاصة وهدفه المحدد. وكان للدعوة الصليبية أن تجد استجابة بين

المسيحيين اللاتين طوال ما تبقي من فترة العصور الوسطى. وتدين الحركة الصليبية بقدر كبير للغاية فى نجاحها للروح المعنوية للرجال الذين شاركوا فيها. إذ أن الجنود عامة قد وجهوا بطريقة لاتحتمل أى تردد : فقد كانوا هم الذين أجبروا قادتهم على قيادتهم صوب القدس. لقد نجحت الدعوة إلى الحملة الصليبية، بالنسبة لهم وللآخرين، فى تلخيص كل عوامل الإلهام التى بدت مترابطة تماما فى الكتاب المقدس؛ فى العهد القديم وفى العهد الجديد على السواء*.

ليس واضحًا أن إربان الثانى كان يقصد أصلا أن تكون القدس الهدف الأول للحملة الصليبية. ولكن الدعاة ، الذين لجأوا إلى الكتاب المقدس لتأكيد دعوتهم ، جعلوا منها الهدف الأول . كما أن فصاحتهم قد زخرفت الحملة الصليبية فى رداء الحج، **«البحث عن طريق الرب»**، ومحو الذنوب من خلال الصعاب التى يتحملونها فى سبيل الرب، وهو ما فتح طريقًا نسكيا أمام الرجال الذين يحملون السلاح.

لقد كانت الكنيسة تسعى منذ وقت طويل لتحويل حماسة مثل أولئك الرجال إلى نشاط يجلب رضى الرب أكثر من الحروب الإقطاعية بين النبلاء. فقد باركت الحروب ضد الوثنيين. وسعت بشكل خاص إلى تنظيم الخدمة ضد المسلمين فى أسبانيا . كما جاهدت الكنيسة لتوجيه المشروع المادى بأن ربطت الطقوس الدينية مع الاحتفالات التى اعتادها التبوتون عندما يبلغ مقاتل شاب سن القتال . ومنذ سنة ٩٥٠م كان هناك قداس لمباركة السيف فى مينز . وهذا هو أقدم احتفال أصلى بقى من قداس لمباركة السيف فى مينز . وهذا هو أقدم احتفال أصلى بقى من الطقوس الاحتفالية لتدشين أحد الفرسان، والصلوات المصاحبة له :

«يا أبانا العظيم ، يا من سمحت باستخدام السيف لقهر الشر والظلم دفاعًا عن الحق... فلتجعل خادمك الماثل أمامك هنا لايستخدم أبدا سيفه أو أى سيف آخر للإضرار بأحد ظلما، وليكن على الدوام مدافعًا عن العدل والحق».

إنها كلمات جميلة، ولكن الأمر كان يحتاج إلى ما هو أكثر من الكلمات والاحتفال لكبح جماح الأرستقراطية العسكرية المشاغبة التى كانت ترى فى الحرب الإقطاعية حقا من حقوقها الموروثة. وقدمت الحملة الصليبية بديلاً وهو قضية يمكن أن تستوعب الحماسة المادية والكبرياء الاجتماعى لهذه الأرستقراطية .

---

* يتجاهل المؤلف هنا كافة العوامل الاجتماعية والاقتصادية التى حركت الناس ، كما يتجاهل الأغراض السياسية للبابوية، ويصور الحركة على أنها حركة دينية على عكس الحقيقة التاريخية. (المترجم)

هذا الدمج بين المثال المادى والمثال المسيحى، الذى حققته الحملة الصليبية، لم ينعكس بشكل أكثر وضوحًا مما انعكس فى تنظيم المنظمات الرهبانية العسكرية مثل الداوية والإسبتارية وفرسان التيوتون. وكان الداوية ، أقدم هذه التنظيمات وأكثرها أصالة، قد أسسوا تنظيمهم على يد هيو البايني Hugh de Payns سنة ١١١٩م. وكانوا تنظيما من الرهبان المسلحين فى الفترة الباكرة من وجودهم . وأقسم أعضاؤه على الحياة ، وفقا لقاعدة سان بندكت ، فى فقر وطاعة وطهارة ، وأن «يحاربوا بعقل صاف فى سبيل الملك الأعلى والحقيقى (الرب) » . وكانت رهبانيتهم تخفت فقط بسبب ضرورة أن يكونوا أقوياء فى السلاح عند الحاجة .

«وهكذا كانوا يقذفون بأنفسهم فى أتون المعركة ليس حبا فى الذهب أو الفضة ولكن بالإيمان داخل أنفسهم والدروع خارجها، لكى يبثوا الرعب وليس الجشع، فى نفوس خصومهم».

هكذا كتب سان برنار ، مقارنًا بين قاعدتهم الصارمة وأساليب الرفاهية فى حياة الفرسان العلمانيين . وكانت ملابس فرسان التنظيم عبارة عن ثوب بسيط من القماش الأبيض، رمزاً للنقاء، وعليه صليب أحمر. هذا الثوب الذى كان من نفس لون ثياب الرهبان الشسترشيان الذين يرأسهم برنار، يعكس التزاوج نفسه بين زهد الرهبان وروح الفروسية المادية التى كانت تكمن خلف سطور رواية جالاهاد والكأس المقدسة كما رأينا من قبل*.

وقد جعلت الهبات التى أغدقها المؤمنون من الداوية تنظيما من أغنى التنظيمات الدينية. كما أن هذا التنظيم كان يتمتع بامتيازات أيضا. إذ كانت له كنائسه الخاصة ولايخضع سوى للسيد الكبير Grand Master ، الذى كان مسئولا بدوره أمام البابا نفسه. ويذكرنا هذا بأن نجاح الحملة الصليبية كان بفضل التنظيم الذى وضعته الكنيسة لدعمها. إذ أن الجيش الذى استولى على القدس كان قد تم تجنيده من شتى أنحاء العالم المسيحى الكاثوليكى. فقد تولى رجال الكنيسة الدعوة إلى الحملة الصليبية، كما جمعوا الصدقات من المؤمنين لتمويلها. وقد وضعت الكنيسة تحت حمايتها ، من خلال أساقفتها ، أراضى وممتلكات الذين رحلوا إلى فلسطين، وبدون النظام الإدارى البابوى الموحد، لم يكن ممكنا أبدا تنظيم الحملة الصليبية باعتبارها مشروعا واسع النطاق .

---

* هذه صورة رومانسية أخاذة للداوية تخالف الحقيقة التاريخية إلى حد كبير . فقد اشتهروا بوحشيتهم وعدم الوفاء بعهود الآمان من ناحية، كما أنهم كونوا ثروات طائلة بحيث أصبح تنظيمهم من أهم المؤسسات «المالية» فى العصور الوسطى من ناحية ثانية. ففى النصف الثانى من القرن الثانى عشر تخصصوا فى الأعمال المصرفية. وكانت لهم فى مدن أوروبا الرئيسية مثل لندن وباريس قلاع تحوى كنوزا استخدمت باعتبارها مراكز مالية. انظر : . M. Melville , L'ordre des Templiers, (1948) (المترجم)

والواقع أن الحملة الصليبية قد أوضحت كيف أمست الكنيسة الكاثوليكية قوة توحيدية فى العالم المسيحى . وبالنسبة للقانونيين الكنسيين أصبحت الحملة الصليبية معروفة بأنها «الحرب الرومانية» «لأن روما هى رأس ديانتنا وأمها» . ولم يكن هذا تخمينا باطلا من جانب فقهاء القانون . إذ أن الحملة الصليبية أوضحت كيف اتحد العالم المسيحى الغربى فى جهد موحد ، وكشفت عن مبادرات الفروسية باعتبارها شيئا أكثر من النبلاء المحليين وحدهم، بل باعتبارها نظامًا فى المجتمع المسيحى الكبير، له مقاييسه العامة واهتماماته المشتركة. فقد قاربت ما بين الأرستقراطية العلمانية والأرستقراطية الكنسية فى أوروبا، بطريقة ظلت أهميتها باقية لأن الإلهام الذى حركها كان أصيلاً وباقيا.

* * *

كما أن هناك قوى مادية أخرى عملت على نجاح الحملات الصليبية فى انطلاقها. إذ أن الظروف المعيشية المتعثرة السيئة فى أنحاء كثيرة من أوروبا جعلت المغامرة فى الشرق ذات جاذبية خاصة. فقد كان الكثيرون لاسيما بين الأبناء الأصغر للنبلاء، يأملون فى أن يجدوا «فيما وراء البحر» ميراثا أفضل كثيرا مما يمكن أن يحصلوا عليه فى أوطانهم . وكتب إيكهارد Ekkehard : «كان من السهل إقناع الناس فى الغرب بترك وطنهم لأن غالة (فرنسا) كانت قد عانت الكثير من جراء الحرب الأهلية طوال هذه السنين، ومرة من المجاعة ، ومرة أخرى من الطاعون». كما أن قصص الكتاب المقدس عن خصوبة الأرض المقدسة شجعت أمثال هؤلاء الأشخاص . ويقال إن إربان قد أعلن أن «القدس هى مركز الأرض، وأرضها المثمرة تعلو فوق غيرها مثل جنة من المباهج والمسرات... وكما يقول الكتاب المقدس ، فهى تفيض باللبن والعسل» ونفس القوى التى قادت الناس إلى البحث عن حياة جديدة فى الأراضى التى تم الاستيلاء عليها من السلاف فى ألمانيا ، ومن المسلمين فى أسبانيا وصقلية، هى التى أخذتهم أيضا إلى الأرض المقدسة.

كما أن بحث المدن الإيطالية عن أسواق جديدة فى الشرق كان أمراً هامًا للغاية بالنسبة للحملات الصليبية . ففى أنطاكية والقدس كان وصول الأساطيل الجنوية فى الوقت المناسب نجدة للحملة الصليبية الأولى؛ وفيما بعد ، وأثناء الهجوم على المدن الساحلية، بيروت ويافا وصور عكا كانت مساعداتهم ومساعدة أساطيل بيزا والبندقية حاسمة. وفى مقابل الحصول على أحياء فى المدن التى تم الاستيلاء عليها وعلى امتيازات تجارية، كان الإيطاليون على استعداد لأن يساندوا الصليبيين بالسفن والأموال التى كانت ذات أهمية حيوية فى مشروع

كان فيه الجنود وغيرهم بحاجة إلى أن يقبضوا مستحقاتهم نقداً. ولم يكن غريبًا أن من خصائص الحملات الصليبية أن تمويلها كان عشوائيا وغير مضمون . إذ أن الصدقات التى دفعها المؤمنون والميزانيات الخاصة التى خصصها القادة الأثرياء كانت هى الموارد الرئيسية لتمويل الحملات الصليبية لفترة طويلة من الزمان. وغالبا ما كانت القروض من الإيطاليين تغطى النقص فى هذه الموارد، وهو نقص كان يمكن أن يكون مدمراً .

وكانت الظروف فى الشرق عند نهاية القرن الحادى عشر مواتية للحملة الصليبية الأولى. فلم يكن لدى الأتراك السلاجقة قوة داخلية تجمعهم سويا، شأنهم فى ذلك شأن الإمبراطوريات البدوية الأخرى. فقد كان حكم الفرسان الأتراك مفروضا على شعوب أدنى فى القوة العسكرية ولكنها أرقى منهم كثيرا. وكما كان الحال تحت حكم الخلافة العربية، كان هناك قطاع كبير من رعاياهم فى بلاد الشام وفلسطين من المسيحيين ، ولم يكن لدى الإمبراطورية السلجوقية شىء يوحدها غير شخصية القادة العسكرية. ولذلك فإنها تفككت بسرعة إلى عدد من الإمارات كان حكامها (الذين حملوا لقب أمراء) خاضعين إسميا للسلطان فى بغداد ، ولكنهم كانوا مستقلين من الناحية الفعلية. وكانوا فى شجار مستمر فيما بينهم مثل أمراء الغرب الإقطاعيين. وسرعان ما تعلم الصليبيون أن يستفيدوا من خصومهم إلى أقصى درجة ، ومن قلق رعاياهم المسيحيين. وقد أضعفت منازعات حكام حلب مع حكام دمشق المقاومة الإسلامية فى وقت حصار أنطاكية وما بعد ذلك. وفى الرها استطاع بلدوين أن يجعل من نفسه بطلاً للمسيحيين الأرمن. وكانت فلسطين نفسها موضوعا للنزاع بين الأتراك السلاجقة والخلفاء الفاطميين فى مصر . إذ كانت القدس بأيديهم سنة ١٠٩٩م؛ ولم يفعل الفاطميون شيئا لمساعدة السلاجقة فى بلاد الشام، كما أن السلاجقة بدورهم لم يفعلوا شيئا لمساعدة المسلمين فى الدفاع عن المدينة.

وكانت القوة الكبرى الأخرى فى الشرق هى الإمبراطورية البيزنطية. وكانت إمبراطورية مسيحية، وكان يجب أن تكون الحليف الطبيعى للصليبيين. ويبدو أن إربان الثانى كان مدفوعا فى كليرمون بفكرة إعادة توحيد المسيحيين فى الشرق والغرب ، بنفس قدر رغبته فى رؤية الأراضى المقدسة وقد تم الاستيلاء عليها من المسلمين . وعلى أية حال، كانت هناك صعوبات خطيرة تعترض سبيل مثل هذه الوحدة، بل تعوق تحقيق أى تحالف ناجح بينهما.

كانت تلك الصعوبات راجعة إلى حد كبير إلى اختلاف التجربة التاريخية لكل من مسيحيى بيزنطة والمسيحيين فى الغرب . فمنذ زمن الغزوات الجرمانية لأوروبا ، كانت الإمبراطورية البيزنطية تتعرض للهجوم من كل ناحية. ففى الشرق كان عليها أن تواجه

هجمات العرب والسلاجقة من بعدهم: أما فى البلقان فكانت القبائل البدوية مثل الهون والآفار والبشناق فيما وراء الدانوب تهاجم الحدود الإمبراطورية؛ كما أن أملاكها فى إيطاليا تقلصت ثم اختفت تحت وطأة هجمات اللمبارديين والعرب، والنورمان فى آخر المطاف . وقد تم الحفاظ على مدينة القسطنطينية بفضل بسالة الأباطرة العسكريين ومهارتهم فى استغلال منافسات خصومهم؛ ولكن بما أن أخطر التهديدات كانت تأتى دائما من جهة الشرق. فإن صلات القسطنطينية بروما والعالم المسيحى الغربى تضاءلت فى خضم صراعاتها إلى أدنى مستوياتها. ومن ثم كانت ثقافة بيزنطة وعاداتها تبدو يونانية وأجنبية من وجهة النظر الغربية. وكانت مواقف بيزنطة محكومة بتراثها الدينى والثقافى، الذى تشكل بأفكار العصر الهللنستى وبالجدل اللاهوتى الذى شهده القرن الرابع والخامس الميلادى. ولم يكن فخرها بهذه التقاليد يسمح بمساحة لمزاعم بابوية القرن الحادى عشر بشأن السلطة العامئة فى العالم المسيحى وبحق الحكم النهائى فى أمور العقيدة. وكان هذا هو السبب فى أن الجهود الباكرة لإعادة توحيد الشرق والغرب، مثل محاولة عام ١٠٥٤م، قد باءت بالفشل.

ولم يستطع المفهوم الغربى الجديد عن الحرب المقدسة أن يؤثر على البيزنطيين من قريب أو بعيد، لأن تراثهم اللاهوتى كان مختلفا، ولأنهم كانوا معتادين على التفكير فى ضوء القوى السياسية. وقد علمتهم غارات جويسكارد على أملاكهم فى منطقة البحر الأدرى أن المسيحيين الغربيين يمكن أن يكونوا أعداء ألداء. وكان الإمبراطور اليكسيوس فى سنة ١٠٩٦ قلقًا أولا وأخيرا بشأن إخراج الصليبيين من منطقة عاصمته، ليذهبوا إلى آسيا الصغرى. وفيما بعد كان سعيدا وهو يشاهدهم مشتبكين فى الحرب ضد السلاجقة ، وأن يساعدهم هناك قدر طاقته . ولكن ما أن تأسست الدويلات الصليبية، حتى صارت فى عيون البيزنطيين قوة أخرى يجب المناورة بها فى الإطار المعقد للسياسة الشرقية لبيزنطة. وكان عدم استجابة البيزنطيين لدعوة الحرب المقدسة صدمة للصليبيين وزرعت الشكوك فى صدورهم حول أن البيزنطيين لم يكونوا مسيحيين طيبين. كما أن معاملتهم للمسيحيين اليونانيين فى بلاد الشام وفلسطين أثارت شكوكًا معاكسة فى صدور البيزنطيين.

وكانت الطموحات النورماندية والخداع النورمانى من أهم أسباب تدمير العلاقات الجيدة بين البيزنطيين والصليبيين . وكان الكلام الشائع بالقسطنطينية زمن الحملة الصليبية الأولى أن هدف بوهيموند الحقيقى **«أنه يمكن بوسيلة ما أن يستولى على العاصمة»** . وفيما بعد، فى سنة ١١٠٧م، قاد حملة ضد درازو من إيطاليا ، وتمت مباركة هذه الحملة باعتبارها حملة

صليبية. ولم تمت عداوة النورمان للبيزنطيين بموت بوهيموند . ففى سنة ١١٤٣م دبرت مجموعة من المنفيين النورمان إنقلابًا فى القسطنطينية وحاولوا تتويج واحد منهم إمبراطوراً. وفى سنة ١١٤٧ هاجم روجر الصقلى بلاد اليونان ونهب كورنثة . ولاعجب أن رأى البيزنطيون فى الصليبيين تحذيراً من الطريقة التى يمكن بها «تمريغ مجد روما الجديدة فى وحل الإذلال بالقوة» . لقد خلق طموح بوهميوند هوة كبيرة، اتسعت باستمرار مع مرور الزمن .

وطالما ظلت القوى الإسلامية ضعيفة وغير متحدة ، فإن هذا لم يكن يهم كثيراً وعلى الرغم من أنه بدون مساعدة بيزنطة لم تكن الحملة الصليبية الأولى لتصل أبدا إلى بلاد الشام، فإن هذه الحقيقة قد نُسيت فى غمرة الإنتصارات التالية. وظهرت الحاجة إلى الإمدادات من القسطنطينية واضحة فيما بعد، فى مواجهة مقاومة إسلامية متحدة وأكثر قوة ؛ ولكن مع الشك المتبادل الذى كان قد ضرب بجذوره فى صدور الطرفين فى ذلك الحين، لم يكن هناك أمل كبير فى الحصول على هذه المساعدة .

كانت الدويلات الصليبية بحاجة إلى حلفاء مسيحيين يعتمد عليهم فى الشرق، لأنها كانت ضعيفة داخليا منذ البداية. إذ أن الصليبيين الذين استقروا فى شرق المتوسط شكلوا، خارج المدن، أرستقراطية صغيرة العدد حكمت قوما منهم المسلمين ومنهم المسيحيين، وكانت معيشتهم غريبة عليهم فى طرقها وأساليبها . وفى المدن كانت سيطرتهم ضعيفة على الإيطاليين المقيمين الذين كان ولاؤهم الأول لمدنهم فى وطنهم. وكان رجال الكنيسة اللاتين، هنا وفى أى مكان آخر، مستقلين إلى حد كبير عن السلطات العلمانية . ولذلك أيضا، كانت المنظمات الرهبانية العسكرية مستقلة، وربما على نحو أشد خطورة ، بفضل ثرواتها واحتياطيها من المقاتلين .كانت الملكية ضعيفة فى مؤسساتها. فقد ولدت من طيات المنازعات بين زعماء الحملة الصليبية الأولى، وأولئك الذين خابت آمالهم فى العرش، مثل ريمون كونت تولوز، رأوا أنهم مستقلينَ فى الأراضى التى استولوا عليها بقدر قدرتهم على صون هذا الاستقلال . ولم تكن أنطاكية تشكل جزءاً من مملكة بيت المقدس على الإطلاق . وفى المملكة كانت الأرض مقسمة إلى إقطاعات نظم حائزوها المستقلون مواردهم على أساس الدفاع عن أملاكهم . وكانت القلاع التى بنوها آية فى التصميم العسكرى، ولكن هندستها المعمارية كانت تعكس فكرا استراتيجيًا أساسه دفاعى. وكان مالكوها يعرفون أن بوسعهم الحفاظ عليها، عادة ، حتى تأتيهم النجدة: ولم يكونوا على استعداد لأن يخاطروا بأملاكهم فى مغامرات مهلكة داخل أرض معادية ، بعيدة عن إقطاعاتهم . ولم يكن بوسع الملك القيام بأى

مشروع كبير، أو أى عمل رئيسى من أعمال الدولة أو القضاء، بدون موافقة مجلسه الاستشارى من البارونات ، وهو المحكمة العليا فى المملكة. ولم يكن أولئك البارونات يثقون فى بعضهم البعض؛ فقد جلبوا معهم إلى الأرض المقدسة روح التنافس العائلية والاستقلال الإقطاعى الذى شهدته بلادهم الأوروبية. وبالتالى لم يكن ملوك بيت المقدس قادرين على القيام بالمخاطرات . وكانوا يفضلون البقاء فى سلام مع أكبر عدد من أعدائهم المسلمين كلما أمكنهم ذلك، ولم تكن هذه السياسة لتتوافق بسهولة مع الروح العسكرية للداوية، الذين كانوا أكثر جنودهم كفاءة. كما أنها صدمت الصليبيين القادمين من أوروبا والذين كان من الطبيعى تمامًا أن يتوقعوا أن يقودهم ملوك بيت المقدس قدما إلى الحرب المقدسة.

* * *

وإذ كانت المملكة تعانى من الضعف الداخلى وتكبلها المشكلات الدبلوماسية، فإنها استمرت فى الوجود ثمانين سنة بالضبط . وبدا مستقبلها يبدو أكثر ظلامًا منذ سنة ١١٣٠ فصاعداً ، حينما بدأ عماد الدين زنكى أتابك الموصل وابنه نور الدين محمود يعيدان توحيد مسلمى بلاد الشام تحت راية الجهاد فى مواجهة الصليبيين . وفى سنة ١١٤٤م استعادا الرها. وجردت الحملة الصليبية الثانية لإعادة الاستيلاء عليها، ولكن على الرغم من أن برنارد دعا إلى هذه الحملة كما أخذ شارة الصليب إثنان من الملوك هما لويس السابع ملك فرنسا وكونراد إمبراطور ألمانيا، فإنها لم تحقق شيئا. وتحت حكم إثنين من الحكام الأقوياء هما بلدوين الثالث (١١٤٣-١١٦٣) وعمورى (١١٦٣-١١٧٤) ظلت مملكة بيت المقدس تقاوم إلى حين، ولكن المقاومة الإسلامية كانت تشتد وتتعاظم طوال الوقت. ففى سنة ١١٦٤م تم إرسال صلاح الدين، مساعد نور الدين محمود، إلى مصر مع عمه، وبحلول سنة ١١٧٠ كان يحتل موقعًا مؤثرا هناك. وعندما توفى نور الدين استطاع صلاح الدين أن يأخذ ميراث أبنائه فى بلاد الشام. وفى ذلك الحين أحاطت قوته بالصليبيين من جميع الجهات ماعدا البحر.

فى سنة ١١٨٧م كانت مملكة بيت المقدس منقسمة على نفسها بسبب منافسة الفرقاء لبعضهم البعض؛ فقد كان هناك فريق بقيادة ريمون أمير طرابلس ، الذى كان يشكل قوة على الأرض المقدسة فى الأيام الأخيرة للملك بلدوين الرابع وكان معه معظم البارونات؛ أما الفريق الآخر فكان بزعامة الملكة سيبيلا أخت بلدوين ومعها زوجها جاى لوزنيان ورينالد دى شاتيون (أرناط) حاكم الكرك، أو مونت رويال . عندما خرق أرناط الهدنة مع صلاح الدين، قام جاى لوزنيان، الذى كان تواقا لإثبات ذاته باستدعاء قوات المملكة . وحرضه الداوية، على العكس

من نصيحة ريمون، فخاطر بالقتال ضد صلاح الدين فى معركة حطين بين القدس وطبرية. وهناك تم فى يوم ٤ يوليو القضاء على جيشه كله. ودمرت القوة العسكرية لمملكته عن آخرها . وفى أكتوبر دخل صلاح الدين بيت المقدس قاصداً تحرير المسجد الأقصى الذى أسرى الله سبحانه وتعالى بنبيه محمد (عليه الصلاة والسلام) إليه فى ليلة الإسراء .

وتعتبر حطين علامة على نهاية عصر فى تاريخ الحروب الصليبية. على أن هذا لم يكن واضحًا فى الحقيقة بعد فشل الحملة الصليبية الثالثة التى تم تجريدها لمواجهة نتائج حطين. وقد أظهرت القوات التى تجمعت أن الثقة قد اهتزت ، ولكنها أوضحت أكثر أن مفهوم الدفاع عن القدس قد ترسخ بوصفه رمزاً للعمل الأوروبى المتحد. وكان ذلك الجيش أكبر الجيوش التى رحلت من أوروبا إلى فلسطين قاطبة وأكثرها تأثيراً . فقد تولى الإمبراطور بربروسا قيادة جيش كبير من ألمانيا. وقد وجه ملك إنجلترا وملك فرنسا كافة موارد مملكتيهما الناميتين لتجهيز جيوشهما . وعلى الرغم من هذا كله، فإنهم لم يحققوا شيئا يذكر. والواقع أن موت بربروسا بآسيا الصغرى قد أنهى المجهود الألمانى. أما ريتشارد ملك إنجلترا وفيليب ملك فرنسا، اللذان كانا رفيقى سلاح غير متعاونين ، فقد انفصلا قبل الوصول إلى الشرق بوقت طويل . فبعد الحصار الطويل الذى انتهى بالاستيلاء على عكا مرة أخرى ، شعر فيليب أنه قد بذل جهدا كافيًا . وبقى ريتشارد وقتًا أطول ليهزم صلاح الدين فى معركة أرسوف ويسير برجاله على مرأى القدس. ولكن المخاطرة بالضغط أكثر من ذلك كانت أكبر من أن يتحملها وعقد صلحًا مع خصمه الكبير قبل الرحيل إلى أوروبا سنة ١١٩٢م، ولكنه بهذا ضمن لهنرى شمبانى، الذى حمل لقب ملك بيت المقدس، شريطا من الأرض الساحلية حول عكا و«حرية الذهاب» إلى المدينة المقدسة، ولاشىء غير ذلك .

كانت الكارثة التى حاقت بالصليبيين فى حطين قد أوضحت بشكل مرعب أوجه القصور فى المملكة الصليبية؛ فلم تكن لها الوحدة المؤسسية ولا المسعى المشترك ولاحتى القوة البشرية الكافية للصمود فى وجه عدو قوى. وأظهرت الحملة الصليبية الثالثة أن الاستعراض الكبير للجيوش التى قادها حكام الغرب، لم يكن وسيلة يمكن أن تعلق عليها الآمال فى إعادة الوضع إلى ما كان عليه. وكان الملوك من أمثال فيليب وريتشارد كباراً فى بلادهم بحيث لايمكنهم البقاء بشكل مستمر بعيدا عنها. ومهما كان نوع الحماسة التى تحرك جيوشهم فإنهم بالضرورة كانوا يأتون متأخرين للغاية ويرحلون بسرعة شديدة . ولم يكن ممكنًا على الإطلاق أن تكون مواردهم العسكرية أكثر من عامل مؤقت فى السياسات فى المنطقة العربية شرق المتوسط. ولم

يكن بوسعهم أن يساهموا فى متطلبات الدفاع عن بيت المقدس، أى تكوين حامية قوية مقيمة أو البحث عن حلفاء مسيحيين أقوياء فى المنطقة.

والنجاح الحقيقى الوحيد للحملة الصليبية الثالثة بدا وكأنه خطوة فى الاتجاه الصحيح ؛ وهو غزو ريتشارد لقبرص وأخذها من البيزنطيين، وهناك تم تتويج جاى لوزنيان ملكا. والحقيقة أن قبرص ، بوصفها قاعدة آمنة للحملات الصليبية، كانت لها عيوبها. إذ بدت الجزيرة فى عيون من نجوا من المملكة القديمة والذين تعرضوا لضغوط قاسية تحمل آمالاً أكثر مما تحمله القارة الأوروبية. وقد بدأ الناس ينزحون من صور عكا، وبدأ البارونات الباقون يفكرون فى تكوين ضياع إقطاعية فى قبرص بدلاً من الدفاع عن بيت المقدس. وفى هذا كان غزو قبرص عرضا من أعراض التغير الذى كان قد بدأ آنذاك ينعكس على الخطط الصليبية الجديدة. وبعد تأسيس مملكة لوزنيان الجديدة سرعان ما اعتلى هنرى السادس عرش أبيه الإمبراطورى ليرث طموحاته الصليبية ومعها أيضا مملكة صقلية. وبوجود هنرى السادس حاكما على ألمانيا وصقلية، ووجود جاى حاكما على قبرص تغيرت طبيعة التدخل الغربى السياسى فى شئون حوض البحر المتوسط تغيراً ملموسًا . فقد كان محتمًا أن تكتسب العلاقات بين الغرب والقسطنطينية مغزى جديداً .

* * *

وفى وقت من الأوقات، خلال حكم الإمبراطور البيزنطى الكبير مانويل كومنين (١١٤٣-١١٨٠)، ظهر وكأن الصليبيين يمكن أن يجدوا فى الإمبراطورية البيزنطية الحليف المسيحى الذى يحتاجون إليه. إذ كان متزوجًا من سيدة غربية، متأثرا بالعادات الغربية، كما كان عدد كبير من الغربيين يتولون مناصب رفيعة فى بلاطه. وعندما وصل سنة ١١٥٩م بجيشه إلى أنطاكية، رواد الأمل الكثيرين فى قيامه بقيادة هجوم مسيحى كبير. بيد أن تجارب الماضى علمته ألا يثق باللاتين بحيث يخل بموازين القوى فى المنطقة العربية بإرادته . وعندما تجلى خطر صلاح الدين واضحًا ، لم يكن فى وضع يسمح له بتقديم المساعدة . ذلك أن هزيمته النكراء على يد الأتراك فى ميريوكيفالون بالأناضول سنة ١١٧٦م حطمت جيشه وهيبته. والأسوأ من هذا، أن الهزيمة أخرجت إلى العلن مشاعر العداء الكامنة التى كان رعاياه يكنونها تجاه أية سياسة موالية للغرب.

وبعد موت مانويل نشبت الإضطرابات فى العاصمة وجرت مذبحة مرعبة ضد اللاتين سنة ١١٨٢م راح ضحيتها عدد كبير من البنادقة الذين كان لهم حى مستقل بالمدينة. وقد حمل

تيار المشاعر المعادية للاتين إلى العرش أندرونيكوس قريب مانويل؛ وعندما خُلع هو أيضا جاءت كراهية اللاتين بخليفته إسحق أنجيللوس . وقد تضايق بربروسا من العقبات التى وضعها إسحق والبيزنطيون فى طريقه أثناء مسيره عبر البلقان سنة ١١٩٠م لدرجة أنه فكر مرة فى إعلان الحرب صراحة وتدمير القسطنطينية. وظن كثيرون أن القسطنطينية كانت الهدف الحقيقى للأسطول الصليبى الكبير الذى كان ابنه هنرى السادس يجمعه فى مسينا عندما مات سنة ١١٩٧م.

هذه هى الخلفية التى يجب أن تستند إليها المجريات الغربية للحملة الصليبية الرابعة، كان البابا إنوسنت الثالث هو الذى وجه الدعوة لشن حملة جديدة ، وبدأت القوات تتجمع فى بطء. وكان الكونت بونيفاس أمير مونتفرات واحداً من زعمائها الرئيسيين. إذ كان أخوه رينيه قد تزوج أخت مانويل كومنين، واغتاله مانويل كومنين بالسم. وكان المفروض أن تقدم البندقية وسائل النقل إلى فلسطين : وكان دوج البندقية إنريكو دنديلو قد فقد بصره فى حوادث الشغب ضد اللاتين فى القسطنطينية ١١٧٠ . وعندما كان الأسطول جاهزا للإبحار إلى الأرض المقدسة سنة ١٢٠٢ لم تكن هناك أموال كافية لدفع تكاليف النقل؛ ووافق الصليبيون على أن يعوضوا الدفع بأن يستولوا على زارا لصالح البنادقة على شاطىء دلماشيا وهم فى الطريق. وهناك جاء أليكسيوس ، ابن إسحق أنلجيوس (الذى كان قد خلع فى ذلك الحين) وصهر صديق بونيفاس وسيده الإقطاعى فيليب السوابى لمقابلتهم. واقترح عليهم خطة يعيدونه بمقتضاها هو وأباه إلى الحكم مقابل وعد بالإلتزام البيزنطى فى فلسطين ، وخضوع الكنيسة البيزنطية للبابوية .

كانت تلك نقطة التحول فى الحملة الصليبية . فبالنسبة لبونيفاس وغيره من القادة كانت آفاق السلطة والنفوذ فى الإمبراطورية البيزنطية باهرة؛ أما بالنسبة للبنادقة فقد فتحت إمكانيات تأسيس احتكار كلى للتجارة البيزنطية مع الغرب؛ وربما كان دنديلو يرى فيها إمكانية للثأر الشخصى. أما الآخرون ممن كانوا أكثر سذاجة وإخلاصًا للمثل العليا، فإنهم اعتقدوا أنهم ينبغى أن يواصلوا المسير إلى الأرض المقدسة مع «الفرسان البيزنطيين» لتدعيمها. لقد خرجت الحملة الصليبية كلها عن مسارها. وفى نهاية الأمر حاصرت القسطنطينية مرتين . وقد أدى الحصار الأول إلى إعادة كل من إسحق وأليكسوس. وعندما ثبت من تعليمات البيزنطيين أن وعود آل أنجليوس غير قابلة للتحقيق، أدى الحصار الثانى إلى الاستيلاء على القسطنطينية، وتتويج بلدوين كونت الفلاندرز إمبراطوراً سنة ١٢٠٤م.

كتب الصليبى جيوفرى فيلهاردوان **«لم يكن هناك أبداً هذا القدر من الغنائم والأسلاب فى مدينة واحدة منذ بداية الزمان»** وكان يعبر بسذاجة عن الثروات الهائلة المنهوبة من أجمل مدن الشرق. كان الهجوم على القسطنطينية، العاصمة المسيحية، ونهبها إدانة مأساوية لحملة كانت قد انطلقت بروح مثالية*. وكانت الإمبراطورية اللاتينية التى أسستها هذه الحملة ضعيفة فى مؤسساتها ، وربما أضعف مما كانت عليه مملكة بيت المقدس. وكان نصيب الأسد فى الغنائم والأسلاب، وهو الحصول على حى خاص فى مدينة القسطنطينية، وجزائر أيونيا وأراض كثيرة فى إقليم البحر الأدرى، قد ذهب إلى البنادقة . أما الإقطاعيات الكبرى، مثل مملكة بونيفاس فى تساليا، ودوقية لاروش فى أثينا، وإمارة جيوفرى فيلهاردوان فى آخايا ، فكانت كلها مستقلة عن الإمبراطور بشكل يكاد يكون تاما. وإذ كان اللاتين مكروهين من رعاياهم البيزنطيين ومن رجال الكنيسة المحليين، لم تكن لديهم القوة للتوغل فى آسيا الصغرى حيث قامت إمبراطورية بيزنطية جديدة ضدهم فى نيقية . أمَّا الهجوم على فلسطين والاستيلاء عليها فهى مسألة لم ترد لهم على بال. فضلا عن أن بلاد اليونان كانت تبدو فى عيون الجيل التالى وكأنها تقدم آفاقًا أكثر إغراء ورحابة من الأرض المقدسة بالنسبة للرجال الذين يبحثون عن المغامرة وعن الأملاك الأفضل من أملاكهم فى أوطانهم. وكان عدد القادمين الجدد من الغرب ببلاط دوق أثينا فى ثلاثينيات القرن الثالث عشر يفوق عددهم فى عكا.

هكذا كان انحراف الحملة الصليبية الرابعة وتأسيس المملكة اللاتينية الواهنة من أسباب فشل الصليبيين الأوروبيين فى اقتناص الفرص السانحة بفلسطين ، عندما تدهورت إمبراطورية صلاح الدين بعد وفاته. ولكن ينبغى على المرء أن يحذر من المبالغة فى حجم الضرر الناجم عن التهور الصليبى. لقد أحرزت الصليبيات الباكرة نجاحًا نتيجة لتوافق المصالح العملية لكل من التجار والمستوطنين داخل إطار القيم الروحية التى ألهمت إربان الثانى وغيره من الدعاة سنة ١٠٩٥م. هذه المصالح العملية لم تكن تجد لنفسها تعبيرات مختلفة. أما بلاد اليونان فقد وفرت فرصًا أفضل لأولئك الباحثين عن الأرض. ومع وجود قبرص والقسطنطينية ومنطقة البحر الإيجى كلها بأيدى الغربيين، فقد العنصر التجارى فى سياسة دعم المدن الإيطالية للصليبيين

---

* هكذا يزعم المؤلف، ولكن الحقيقة أن الصليبيين مرغوا مثالهم فى وحل ممارستهم ضد المسيحيين فى البلقان منذ بدايات أحداث الحملة الأولى وبعدها ولكن يبدو أن المؤلف يحب أن يستسلم للصياغات الإنشائية فى مثل هذه الأحوال . (المترجم)

أهميته. ومع ذلك فإن شعلة المثالية الصليبية كانت ما تزال متوهجة . ولم يمضْ وقت طويل حتى كان من الواضح أن الحملة الصليبية الرابعة لن تمضى أكثر من ذلك، وأخذ إنوسنت الثالث يضع خططا جديدة لحملة أخرى تتوجه صوب بيت المقدس. وتوضح الحملات الصليبية التى قادها لويس التاسع والأمراء الآخرون فى القرن الثالث عشر أن الصليبية كانت ما تزال تحتفظ بمكانتها باعتبارها التعبير الأسمى عن مُثل الفروسية لدى الطبقة الأرستقراطية فى الغرب . وظلت هكذا على مدى مائتى سنة على الأقل.

وخلال القرن الثالث عشر استمر الصليبيون يتطلعون إلى المصالح المادية وإلى المثل العليا على السواء، بيد أنها لم تكن هى المصالح التى كانت تحركهم من قبل. فعلى المستوى السياسى بدا وكأن تأسيس الإمبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية قد فتح الطريق أمام احتمالات جديدة. ألم يحقق ذلك حلم إربان الثانى بتوحيد المسيحية الشرقية والمسيحية الغربية ، بطريقة مختلفة؟ كانت تلك طريقة الغرب فعلاً فى النظر إلى الأمور، ولكنها لم تكن طريقة طبيعية سوى بالنسبة لهؤلاء الذين كانوا يرون شئون الشرق من على بعد فقط . وبوجود إمبراطور لاتينى فى القسطنطينية ودوق فرنسى فى أثينا ، وواحد من أسرة لوزنيان على عرش قبرص ، ومع وجود مملكة صقلية المتحالفة مع القوى الإمبراطورية الغربية، كان مركز اللاتين فى عالم البحر المتوسط يبدو مؤثراً وراسخًا للغاية. فمع وجود هذه المناطق الكثيرة بأيديهم كان يبدو من المستحيل ألا ينقلهم أى جهد إضافى من عكا إلى بيت المقدس.

وبدأ مخططو الحروب الصليبية يرون أن السبيل إلى تحقيق هذا الهدف هو تحقيق نوع من الإتحاد بين اللاتين فى حوض البحر المتوسط، وأن يضموا أجزاء المشروع المسيحى المشترك سويًا ، لاسيما هذا المفهوم الذى استحوذ على خيال أولئك الحكام الذين كانت مشاركتهم فى عالم البحر المتوسط تعينهم على رؤية الاحتمالات السياسية غير المحدودة الكائنة أمام من يستطيع أن يجعل من نفسه زعيمًا. كما أن ارتباط الكنيسة وقطاع كبير من الطبقة الحاكمة فى الغرب بالحروب الصليبية عاطفيا كان يمكن أن يجعل منه زعيمًا بارزاً لاتنحصر زعامته فى الشرق وحده، وهكذا كان مستقبل الصليبيين العملى يعتمد بشكل متزايد على العلاقات السياسية والأسرية بين القوى اللاتينية فى عالم البحر المتوسط كما أنه صار مرتبطا بصيغة معدلة من المثال القديم عن الإمبراطورية المسيحية العالمية .

١٠- إنوسنت الثالث: البابوية الظافرة

شهدت العقود التى أعقبت الحملة الصليبية الرابعة امتداد السادة اللاتينية إلى أقصى حدود حققتها فى العصور الوسطى. وفى خلال هذه الفترة أيضا بدا العالم المسيحى متحداً ، باعتباره مجتمعا دينيا وسياسيًا واحداً، بدرجة لم يتعداها أبداً . وكان هذا راجعًا إلى عبقرية إنوسنت الثالث بدرجة كبيرة، إذ كان هو واحداً من أعظم حكام كنيسة العصور الوسطى قاطبة، بعد أن اعتلى العرش البابوى سنة ١١٩٨م.

فقد ولد فى أسرة رومانية نبيلة، ودرس القانون الكنسى فى بولونا ، وتدرب فى أعمال البلاط البابوى curia النشطة، وكان إنوسنت مؤمنًا بالسيادة البابوية والسمو البابوى الذى نادى به جريجورى السابع وإسكندر الثالث ورفعاه أمام عينيه. وبالنسبة له ولهم كانت أسس هذه التقاليد تتمثل فى مفهوم الكنيسة باعتبارها قوة أخلاقية وروحية تعمل من أجل السلام والنظام والخلاص فى جميع أرجاء العالم المسيحى. ولكنه أدرك بوضوح أكثر من أى واحد سبقه ما الشىء الأساسى الذى يجب على الكنيسة التى يتولى قيادتها أن تحققه من أهدافها فى هذا العالم وفى العالم الآخر. إذ أن توفر القوة لدى البابوية لم يكن ليسمح بتقسيم السلطات فى مجالات منفصلة روحية ودنيوية.

«بالنسبة للأمراء السلطة على الأرض، ولكن بالنسبة للقساوسة السلطة ممنوحة فى السموات أيضا... والحكام الأفراد لهم ممالك فردية، ولكن بطرس ، الذى تمتع بغزارة السلطة وامتدادها أيضا، يسمو فوق الجميع ، لأنه نائب من يملك الأرض وكل ما عليها» .

وهكذا، فعلى الرغم من أن البابا قد يسمح بالممارسة المستقلة للحكام العلمانيين إلى حد كبير، فإن هذا لم يكن يعنى أن سطتهم نفسها كانت مستقلة.

«إن البابا معتاد على ممارسة منصب السلطة العلمانية أحيانا، بنفسه فى بعض الأمور، وفى بعض الأمور من خلال آخرين».

كانت مزاعم إنوسنت بشأن السلطة السياسية والسلطة الروحية مؤكدة وبعيدة المدى بشكل واضح.

كان وضوح فكره وأسلوبه فى التعبير يشى بأنه رجل قانون ، فقد رأى أين يجب أن تكون السلطة النهائية، لأنه فى المجتمع المسيحى يجب أن يتوجه الجميع إلى هدف واحد. ولكنه كان يرى أيضا أن من الضرورى أن تبقى للسلطات المختلفة حرية الممارسة داخل نطاق اختصاصاتها، ولذلك فإن تأكيده الحاسم على السمو البابوى قد خفت حدته بفضل التفهم الحكيم بأن أمراء هذا العالم لهم مهامهم التى يجب عليهم إنجازها. ولم يكن قادرا باستمرار على كبح جماح التدخل الحماسى من جانب رجال الكنيسة الذين كانت تحركهم نفس المثل التى تحركه ، ولكنهم كانوا يفهمون حقائق المواقف السياسية برحابة صدر أقل. ومع هذا، فإنه كان دائما يسعى إلى هذا وكانت مؤهلاته كرجل دولة مفتاح نجاحه .

ففى سنة ١١٩٨م عندما صار إنوسنت هو البابا ، كانت أحوال الكنيسة الكاثوليكية فى موقف حرج. إذ كانت مسألة العلاقة بين الإمبراطورية والبابوية ضاغطة أكثر من أى وقت مضى. فقد نمت قوة عائلة بربروسا ، الهوهنشتاوفن . وصار هنرى السادس ملك صقلية وألمانيا ولمبارديا أقوى إمبراطور عرفه الناس على الإطلاق ومات. ولكن لو أن أملاكه بقيت متماسكة فإن البابا فى روما لن يكون إلا صنيعة لخليفته. الأهم من ذلك ظهور علامات فى الخارج تدل على أن كثيرين لم يكتفوا بمجرد التساؤل عن السلطة السياسية للبابوية والكنيسة الكاثوليكية ، ولكنهم أخذوا يتحولون بعيداً عن قيادتها الروحية، إذ انتشر النقد الموجه إلى أخلاقيات رجال الكنيسة المهترئة وجشعهم. وفى أماكن كثيرة كانت قد ظهرت جماعات منشقة عن الكنيسة، ففى جنوب فرنسا على وجه الخصوص كانت المذاهب الدينية المخالفة تنتشر بسرعة كبيرة، وبدت السلطات الكنسية المحلية عاجزة فى نظر الجميع . وكان إنوسنت مدركًا لهذا الموقف .

وفى بداية بابويته كانت مشكلة الإمبراطورية هى الأكثر إلحاحًا ، فقد ظلت تضغط حتى النهاية عندما مات هنرى السادس سنة ١١٩٧م وكان ابنه فريدريك دون سن الثالث. وكان

الشيء الوحيد الذى رفضه سلف إنوسنت كلستين الثالث باستمرار هو الاعتراف بابن الإمبراطور القوى امبراطوراً منتخبًا . وعندما مات هنرى فجأة ، صار اعتلاء فريدريك العرش، الذى بدا أن عناد الرجل العجوز (البابا) لايمكن أن يشكل تهديدا خطيرا له، محل تساؤل . ففى جميع أنحاء إيطاليا كانت هناك حركات عصيان ضد مساعدى هنرى. وكان سادة ألمانيا قد أقسموا فى حياة هنرى على أنهم سوف يتخذون فريدريك ملكا عليهم، ولكن تلك لم تكن لحظة الوفاء بالعهد لطفل فى الثالثة من عمره. إذ كانت الإمبراطورية بحاجة إلى حاكم. واجتمعت مجموعة تضمنت غالبية السادة الإقطاعيين والأساقفة فى مينز واختارت شقيق هنرى ، فيليب السوابى إمبراطوراً . واختارت مجموعة أخرى أوتو أمير برونزفيك -Bruns wick ، ابن الأمير الفلفى هنرى الأسد حاكم سكسونى ، وعملت على تتويجه فى أيكس Aix ثم لجأت كل من المجموعتين إلى إنوسنت للاعتراف بمرشحها . وكان عليه أن يضع فى اعتباره حقوق فريدريك إلى جانب مزاعم كل منهما، لاسيما وأن فريدريك كان تحت رعاية الكرسى البابوى.

كانت المبادىء التى وجهت إنوسنت باستمرار فى معالجة هذا الموقف ونتائجه وتطوراته الشريرة ثلاثة مبادىء . فقد كان يرى، مثل كلستين من قبله، أن الحفاظ على المبدأ الإنتخابى فى تولى العرش الإمبراطورى أمر أساسى، لتأمين البابوية ضد قوة الحاكم الوراثى فى شمال إيطاليا. وثانيًا ، أنه لابد من كسر اتحاد صقلية مع الإمبراطورية والذى أحاط بروما بأى ثمن. وقد كان هذان المبدآن ضد كل من المرشحين من الهوهنشتاوفن . وثالثا، إذا ما وضع المبدأ الإنتخابى فى الاعتبار، فإن من حق البابا أن يدقق فى مدى «صلاحية» أى مرشح منتخب لحكم الإمبراطورية، ويمكن أن يرفضه إذا دعت الحاجة لذلك. وقد صاغ إنوسنت الثالث هذه الدعوى بحيث ينبغى للبابا أن يأخذ فى اعتباره شخصية الرجل الذى سوف يكرسه، عند التتويج الإمبراطورى ، حاميًا للكنيسة ومدافعًا عنها. بيد أن الصلاحية لمثل هذا المنصب لايمكن حسمها بناء على الصفات الأخلاقية وحدها. فليس هناك رجل يمكن أن يكون «صالحًا» للدفاع عن الكنيسة وحمايتها حقا مالم يمتلك القوة والموارد التى تكفل له احترام رعاياه وطاعتهم.

وعلى نحو ما أوضحت الأحداث، أدت هذه المبادىء بالبابا إنوسنت إلى أن يؤيد كلا من المرشحين الثلاثة على حدة فى كل مرة. كان ميله أصلاً نحو أوتو، ولكنه أراد أن يتأكد قبل أن يلزم نفسه بأن باستطاعة أوتو أن يجعل من نفسه قوة فعالة فى ألمانيا . وبحلول سنة ١٢٠٤م

كانت قضية أوتو قد بدأت تخسر، وبدأ اختيار البابا يتوجه نحو فيليب. وبدا وكأن القرار الحرج قد اتخذ بالفعل ؛ ولكن فيليب اغتيل سنة ١٢٠٨ على يد عدو شخصى ، وبين عشية وضحاها بات أوتو هو الرجل المناسب . ووجه البابا كل جهوده لضمان انتخاب بلا مشكلات. وتم تتويج أوتو مرة ثانية فى آيكس وتم الاعتراف به إمبراطورا منتخبًا.

ولم يكن هذا سوى فصل آخر من فصول الصراع الأسرى بين الفلفيين والهوهنشتاوفن ، وطالما بقى فريدريك على قيد الحياة، وهو يدخل سن الرجولة فى صقلية، كان أوتو يعرف أن من يريد معارضته سوف يجد زعيما ينضم تحت لوائه. ومن ثم لم يكن يتحمل أن يكون ضعيفا فى وسط إيطاليا، أو أن يتجاهل نداءات أولئك المعارضين لفريدريك فى صقلية والذين أكدوا له أن «**لا أحد غير من يحمل لقب الإمبراطور وتاجه له الحق فى حكم صقلية**». وفى سنة ١٢١٠ سار أوتو بجيوشه داخل الجنوب الإيطالى. وكان الإتحاد بين صقلية والإمبراطورية تحت حكم الفلفيين، من وجهة النظر البابوية، أمرا لايقل خطورة عن الاتحاد حكم الهوهنشاوفن . ولم يكن أمام إنوسنت خيار سوى أن يتجه أخيرا صوب فريدريك . وإذ تم انتخابه على يد مجموعة من الأمراء من حلفاء إنوسنت الثالث فى نورمبرج ، غادر فريدريك صقلية. وتجنب حلفاء أوتو فى ميلانو فقام بجولة طويلة فى لمبارديا لكى يصل إلى جنوب ألمانيا حيث لقى ترحيبًا حاراً وحيث كان الولاء لأسرته قويا. وبدا أن حربًا أهلية مدمرة على وشك الإندلاع ، وسعى فريدريك إلى التحالف مع فيليب ملك فرنسا لكى يواجه تحالف أوتو الطويل المدى مع جون ملك إنجلترا ، وقبل أن يصل الخصوم إلى حلبة الصراع تم تدمير جيش أوتو وقوته على يد فرسان فيليب أغسطس فى بوفين .

وفى مجمع اللاتيران الكبير الذى جاء القساوسة له من جميع أنحاء العالم المسيحى استمع إنوسنت إلى مزاعم المتنافسين على الإمبراطورية وأعلن حكمه لصالح فريدريك . وتم تنفيذ القرار؛ وعلى أية حال فإن الطريقة التى تم بها اتخاذ القرار كانت استعراضًا عامًا ومثيرا لتفوق السلطة البابوية على الإمبراطورية. وفضلا عن ذلك لم يكسب فريدريك تاجه دون أن يقدم تنازلات هامة. فقبل أن يترك صقلية كان قد توج ابنه القاصر ملكا وبهذا فصل رسميًا بين الجزيرة والأراضى التى انطلق لكى يكسبها . وفى إيجر سنة ١٢١٣ أقسم على ألايتدخل فى إنتخابات الأساقفة ومقدمى الأديرة فى ألمانيا . كما أقسم على مساعدة الكنيسة ضد المنشقين، وفى آيكس سنة ١٢١٥م أقسم على الذهاب فى حملة صليبية. هذه التعهدات كانت برهانا على «صلاحيته» لمنصب الإمبراطور . ومع هذا فإنها كانت مجرد تعهدات لم يكن ثمة

دليل على صدقها. وقد أخفت وراءها أخطار المستقبل. ذلك أن ملكًا كان ابنه القاصر ملكًا على صقلية كان يحتمل أن يكون شخصًا بالغ القوة بحيث لايمكن للبابا أن يتعامل معه، خاصة إذا جعل من نفسه قائداً لحملة صليبية مظفرة.

* * *

كان أحد وعود فريدريك سنة ١٢١٣م أن يساعد الكنيسة ضد المنشقين. في ذلك الوقت كانت الجهود المبذولة لاستئصال هذه المذاهب قد تحولت إلى حملة صليبية داخل العالم المسيحي. وهذا معيار على مدى خطورة التهديد الذى شكله انتشار المذاهب المخالفة فى ذلك الوقت بالنسبة للكنيسة.

كانت الحملة الصليبية الفعلية موجهة ضد المنشقين عن الكنيسة في جنوب فرنسا. وكان الانشقاق والأسباب الرئيسية التى شجعت انتشاره مبثوثة على نطاق أعم كثيراً وأوسع من جنوب فرنسا. ذلك أن ثروة رجال الكنيسة وتدهورهم الأخلاقى كانت تستفز المشاعر المعادية للقساوسة فى كلِّ مكان، وتم عبور الحدود بين الاحتجاج والثورة فى سهولة. كانت المشاعر الدينية بين العلمانيين فى المدن على نحو خاص تسعى غالبا إلى تعبير يتعدى ما تقدمه الطقوس الرسمية فى الكنيسة. وفى بعض الأحيان كانت هذه المشاعر تجد متنفسا فى الحركات الجماهيرية التى تشوبها هستيريا توقع القيامة، مثلما حدث فى صليبية الأطفال التعسة سنة ١٢١٢م (والتى استهجنتها الكنيسة). كما كانت تجد المتنفس فى حركات انشقاقية مثل حركة بطرس والدو Peter Waldo، الذى كان تاجراً ثريا فى ليون والذى تحرك بحكاية من أحد المغنين الجوالين، فأعطى كل ما عنده للفقراء، لينهج نهج الرُسل فى الدعوة والفقر المدقع. ولكى يؤكد تعاليمه جعل اثنين من رجال الكنيسة يترجمان له العهد الجديد إلى لغته المحلية. وقد جلب عليه إنكاره لسلطة القساوسة الإدانة له ولأتباعه. ومن سوء الحظ أن هذا لم يوقف الناس عن قراءة العهد الجديد الذى ترجمه والتأمل فيه، كما أنه لم يوقف تزايد أتباعه.

وكان المذهب الكاثارى (الألبيجنسى) أكثر ابتعاداً عن الكاثوليكية من مذهب بطرس والدو. فقد كان المذهب الكاثارى شكلا من أشكال الديانة الثنائية، خليطا من المسيحية والزراديشتية ومذاهب شرقية أخرى كان مانى Manes قد دعا إليها فى الإمبراطورية الرومانية فى القرن الثانى الميلادى. وكان الكاثاريون يعتقدون أن هناك قوتين عالميتين متساويتين: يهوفاه Jehovah إله النور الخيِّر الذى يحكم الروح الطاهرة الحقيقية، ولوسيفير

Luicifer خالق العالم المادى وحاكمه، فى وادى الدموع والظلام والذى حبس فى أجساد البشر المتخمة أرواح الملائكة النازلة. وقد جاء المسيح لإنقاذ أرواح البشر بإرشادهم إلى طريق العودة للنور. ولكن بالنسبة لم يكن هناك تجسد حقيقى للمسيح على عكس ما تقول التعاليم المسيحية. إذ كان المسيح روحًا خالصة، وجسده جسد شبح ، بحيث أمكن للعذراء أن تحمله بلاعناء ، والطريق الذى أشار إليه المسيح - أى إنجيله- لايؤدى إلى إعادة تجسد وإنما إلى التحرير الكلى للروح الحرة من العالم المادى، والذى ولد من أجساد البشر بفعل الرغبات الجسدية.

من هذه المعتقدات برزت النزعة الزهدية المتطرفة للأطهار الكاثاريين. وكان مذهبهم يمنعهم من قتل أية حياة على الإطلاق . ويمنعهم من أكل أية لحوم أو حتى البيض ، تنتج عن اللقاء الجسدى. كما كانت تمنعهم من اللقاء الجنسى؛ فقد رأوا فى الزواج إتفاقًا نهائيا مع الجسد، وكانت المرأة الحامل بالنسبة لهم شخصًا منبوذًا . وكانت هناك طبقتان فى طائفتهم ، الكاملون Perfecti والعامة Consolamentum . وبدون هذا الطقس لم يكن ممكنا لأحد أن يدخل فى رحاب حياة الروح ؛ وكان الكاملون يتناولون هذا الطقس، ولكن على سرير الموت فقط، وفى الوقت نفسه كانوا يتمتعون بحرية واسعة فى أسلوب حياتهم (لاسيما فى شئون الجنس كما أشاع الكاثوليك)*.

وتكمن قوة الديانة الكاثارية وجاذبيتها فى الحياة الطاهرة للكاملين. إذ أنهم بحياتهم وسط الناس والعمل بينهم كانت حياتهم الطاهرة تتناقض بشكل واضح مع الفساد الأخلاقى لكثيرين من القساوسة الكاثوليك. وبفضل تزايد النشاط التجارى أمكن انتشار هذا المذهب بسهولة، بل إن الكاثاريين الغربيين عملوا على إقامة علاقات مع الكنيسة الثنائية بالشرق. ففى لانجدوك ومدن كثيرة فى إيطاليا ، مثل ميلانو وفلورنسا وفيتربو، تألق الكاثاريون علانية، وفى أماكن أخرى كانوا يعملون فى السر. وفى جنوب فرنسا تسرب مذهبهم فى ثنايا المجتمع كله طولاً وعرضًا .

---

* ينبغى أن نأخذ كلام المؤلف عن الكاثاريين (الأطهار أو الألبيجنسيين) بحذر؛ لاسيما وأن مؤلفاتهم وكتاباتهم عن مذهبهم لم تصلنا . وكل ما وصل إلينا هى كتابات أعدائهم الكاثوليك عنهم، وهى بطبيعة الحال، مليئة بالدعاية الكنسية النزقة ضدهم . ومن الواضح أن المؤلف منحاز إلى الكنيسة الكاثوليكية والبابوية كما يبدو من كلامه فى هذا الموضوع وغيره . (المترجم)

كانت هناك أسباب عديدة وراء ازدهار هذا المذهب هناك (على الرغم من أنه فى مثل هذا الأمر يستحيل بطبيعة الحال تقديم تفسير كامل). فقد كانت الكنيسة الكاثوليكية فى لانجدوك فقيرة ومحلية ومتهاونة فى واجباتها؛ كما أن قساوستها كانوا دنيويين وكانوا من أقارب الأرستقراطية المحلية. وكانت نزعة العداء ضد رجال الدين قوة شديدة زاد من لهيبها عبادة المرأة التى زرعها شعراء التروبادور من خلال ديانة هزلية مؤلفة؛ نصفها جاد والنصف الآخر تأليف أدبى تظاهرى. وكانت السلطات العلمانية ضعيفة مثل السلطات الكنسية. فقد كان كونتات تولوز يملكون أملاكًا شاسعة، ولكن سلطانهم على البورجوازية الغنية والنبلاء المشاغبين كانت غير فعالة. وبالنسبة للبورجوازيين والنبلاء غالبًا ما كان المذهب الكاثارى عذراً لرفض العشور الكنسية ونهب أملاك الكنيسة. لقد كانت القوى القادرة على السيطرة على الكاثارية هنا ضعيفة إلى درجة غير عادية. وازدهرت الكاثارية جنبًا إلى جنب مع الكاثوليكية ، بين النبلاء والمتعلمين وبين عامة الناس على السواء، وبطريقة لم يكن ممكنا أن تحدث فى أى مكان آخر.

«كيف يمكننا أن نطرد الكاملين لكل الأسباب الوجيهة التى لديكم ضدهم ؟ لقد تربينا معهم وأقاربنا بينهم- كما أننا نراهم يعيشون بشرف».

هذه الكلمات التى قالها فارس جنوبى لفولك أسقف تولوز، تشرح بشكل يثير الإعجاب المشكلة التى كان يثيرها القضاء على الكاثارية فى لانجدوك . فعلى مدى ثلاثين سنة قبل أن يتولى إنوسنت الثالث عرش البابوية، كان الكاثاريون يعقدون المجامع الكنسية علنًا ، كما كانوا يفحمون القساوسة الكاثوليك المحليين فى مجادلاتهم . وفى زمن إنوسنت كانت ديانتهم مستقرة بحيث لم يكن بوسع مندوبيه السترشيان أن يؤثروا فيها . أما العلماء الذين تدربوا على إسكات الكاثاريين بالمناقشة على يد دييجو أوسما Diego of Osoma ، ودومينيك (الذى أخذ عنه الرهبان الدومينيكان إسمهم فكان عددهم من القلة بحيث انعدم تأثيرهم . كانت القوة ، والقوة الخارجية فى هذه الحال، تبدو وكأنها الحل الوحيد.

كانت إنوسنت قد عقد العزم على استخدام القوة حتى قبل مصرع مندوبه بطرس كاستلناو Peter of castelnau فى البروفانس سنة ١٢٠٨م. وقد أضفى مرسومه سنة ١٢٠٩م على الحملة التى تم تجريدها ضد الكاثاريين المكانة القانونية والروحية الكاملة للحملة الصليبية فقد نال أولئك الذين انضموا لها نفس الوعود بمحو ذنوبهم إذا ما قاتلوا فى لانجدوك أربعين يومًا شأنهم فى ذلك الذاهبين إلى بيت المقدس. والأهم من ذلك أنهم نالوا وعداً بأن تكون لهم السيادة على الأراضى التى يستولون عليها من الكاثاريين ، كما لو كانوا من الكفار .

هذا الوعد الأخير جعل للحملة الصليبية اتجاهًا لم يكن ضمن أهداف إنوسنت الأصلية وبالنسبة لسيمون مونتفرات، الذى حنكته الحرب فى الأرض المقدسة والذى برز تدريجيا باعتباره قائداً صليبيًا، وبالنسبة للمندوبين البابويين فى المنطقة، كان واضحًا أن النبلاء الجنوبيين لن يقوموا من تلقاء أنفسهم بالعمل على استئصال مذهب تغلغل فى المجتمع الذى تربوا فيه . ولم تكن هناك وسيلة لتحقيق الهدف سوف بأن يحل محلهم صليبيون من شمال فرنسا ، وعن طريق الحرب التى لاتفرق بين الكارثارى والكاثوليكى من سكان الجنوب الفرنسى. وكان الإنتصار الكبير للصليبيين فى موريه Muret سنة ١٢١٣م أكبر من مجرد نصر للكاثوليك على الكاثاريين ، فقد كان انتصاراً للشمال على الجنوب. ولم تكن نتيجته القضاء على المذهب الكاثارى (لم يتحقق هذا سوى فيما بعد ، على يد محاكم التفتيش التى نظمت خصيصًا لهذا الغرض سنة ١٢٣٣م). ولكن النتيجة كانت منح الشطر الأكبر من أراضى كونت تولوز إلى سيمون مونتفرات فى مجمع اللاتيران. وفى النهاية فشلت عائلته فى الحفاظ عليها فى مواجهة الانتقام الجنوبى؛ إذ انتقلت هذه الأراضى إلى شقيق لويس التاسع، ألفونس أمير بواتييه، وعندما مات دون أن يخلف ذرية انتقلت إلى ملك فرنسا وصارت من أملاك التاج.

ومع هذا فإن حصاد الحملة الصليبية كان انتصاراً لإنوسنت ، على الرغم من أنه لم يكن الانتصار الذى رغب فيه. وكان الحكم لصالح سيمون فى مجمع اللاتيران علامة أخرى واضحة، مثل الحكم بين فردريك وأوتو، على أن سلطة الكرسى البابوى تسمو فى كل البلاد وفى كل الأمور. ولم يسأل فيليب أغسطس ، الذى كان سيداً رسميا على الأراضى التى أخذها سيمون، عن منح البابا أملاك مجموعة من رعاياه لمجموعة أخرى، ورضى بأن يعلن سيمون الولاء له.

على أية حال ، كان ذلك انتصاراً له عيوبه. إذ أن الحرب التى شنها البابا تحت راية الحملة الصليبية حرمت الكثيرين من الكاثوليك المخلصين من أملاكهم المتوارثة. وقد أضر هذا بسمعة الحركة الصليبية بشكل خطير. كما أنه أكد على الاعتقاد بأن القوات الضخمة التى وجهتها الدعوة الصليبية يمكن إطلاقها لتحقيق أغراض غير الدفاع عن بيت المقدس. وكان ذلك خطراً على الهيبة الأخلاقية لكنيسة روما التى قامت بتوجيه الحملة الصليبية، وتشهد الصيحة الغاضبة التى أطلقها أحد شعراء التروبادور الجنوبيين **«الرب سوف ينتقم من أولئك الذين أغلقوا بنهبهم الطرق والموانى التى تؤدى إلى عكا وبلاد الشام»** ومثلما كان الحال فى مسألة الإمبراطورية، كان فى مسألة الكاثاريين، فقد بحث إنوسنت عن وسيلة ووجدها ، بيد أنها لم تكن أفضل وسيلة.

ويرى المرء شيئا من نفس النوع فى معالجته للشئون الأخرى أيضا. فعندما وصلته أنباء اقتحام اللاتين للقسطنطينية استشاط غضبًا. فعلى مدى ست سنوات كان يتفاوض مع الإمبراطور البيزنطى لتحقيق اتحاد سلمى بين الكنيستين . ولكنه سرعان ما قبل الأحداث التى سبقته، وانطلق آملاً أن يحقق المهمة المستحيلة فى جعل رجال الكنيسة البيزنطيين فى الأراضى التى تم غزوها يتقبلون الخضوع للسيادة اللاتينية. وقد نجح نضاله الذى طال أمده لإرغام الملك جون، ملك إنجلترا ، على قبول كبير أساقفة كانتربورى الذى عينه، وهو ستيفن لانجتون، بحيث أن جون لم يستسلم فحسب وإنما جعل إنجلترا إقطاعًا للبابوية. ولكن البارونات ورجال الكنيسة الذين تطلعوا إلى إنوسنت لتأييدهم فى صراعهم مع الملك الطاغية وجدوا أنفسهم مخذولين بلانصير وقت الشدة. فقد كان إنوسنت يتدخل فى شتى أنحاء العالم المسيحى بلاخوف وبدون تردد فى السياسات والحياة الخاصة، ولم يحدث أبداً أن فشل فى تحقيق أهدافه. ومن سوء الحظ أن نجاحه كان جزئيا دائما ، أو أن هذا النجاح كان يتحقق على حساب المبادىء. وكان هناك قدر كبير من الحقيقة فى ملاحظة أبداها زائر بيزنطى لروما إذ قال : «**إنه ليس خليفة بطرس، ولكنه خليفة قسطنطين**». إذ كانت بيديه كل الخيوط السياسية الأوروبية: وكان تعامله معها حاذقًا بحيث لايتناسب مع كونه قسيسًا .

* * *

وأفضل بيان لإنجازات إنوسنت الكلية هو نشاط مجمع اللاتيران الرابع، الذى اجتمع بروما سنة ١٢١٥م، فى نهاية بابويته. وقد ذهل كتاب المؤرخات من حجم الاجتماع وتميز أعضائه . فقد كانت كل أسقفية فى الكنيسة الغربية ممثلة فى المجمع، كما حضره ممثلون عن كل تنظيم دينى: كما حضر البطاركة اللاتين لكل من القسطنطينية وبيت المقدس، فضلاً عن كنائس أرمينيا وبلغاريا . وكان الإمبراطور الغربى، وإمبراطور القسطنطينية، وملوك فرنسا ، وإنجلترا وبيت القدس والمجر وبولندا قد أرسلوا مندوبين عنهم ليمثلوهم فى الاجتماع ، لقد كان ذلك أشبه ببرلمان يمثل كل العالم المسيحى اجتمع سويا. وقد رأس البابا الاجتماع فى حضورهم ، باعتباره المرشد المعترف به فى كافة شئون المجتمع المسيحى، الروحية منها والدنيوية. وقد حدد العقيدة، متمسكا بتعاليم بطرس اللمباردى عن الثالوث ضد الراهب بواقيم الفلورى. وكان يصدر الأحكام بين المرشحين المتنافسين على الإمبراطورية؛ كما اهتم بحقوق سيمون مونتفرات فى دوقية تولوز؛ وتدخل بين الملك جون وباروناته المتمردين، وهنا كانت القوة البابوية الشاملة تعمل على مرأى من الجميع.

ومن القرارات التى كان تأثيرها أكثر أهمية على المدى الطويل قرارات المجمع بشأن إجراءات الإصلاح الكنسى . فقد أوضحت أن إنوسنت قد فهم على نحو سليم أشد المخاطر التى واجهت الكنيسة، واتخذ القرارات المناسبة لها. وكانت المراسيم التى أدانت السكر وإدمان الخمر بين رجال الكنيسة، وشجبت احتفالاتهم ، وخروجهم للصيد بالصقور ، وحفلات الرقص ، وحياتهم مع المحظيات ، وتعيين أطفالهم وتقديمهم فى الصلوات بالكنائس مثلهم- هذه المراسيم قد خلفت إنطباعا ما عن الأشياء التى كان هو ضدها . ويمكن أن نرى حلول معالجته لهذه المشكلات فى المراسيم التى كانت تصر على واجب الأساقفة فى التحقق من صلاحية المرشحين للرسامة الكهنوتية عند التعيين فى كل كنيسة كاتيدرائية، بحيث يبحثون عن قس مدرب فى اللاهوت لكى يعلم رجال الكنيسة ، وذلك فى كل مرة كان يعقد فيها المجامع الكنسية بانتظام فى المدن الأسقفية الكبرى. وكان يتم إقرار الإجراءات التى تتخذ للحد من المذاهب الدينية المخالفة بشكل منتظم. أما التزامات العلمانيين بالاعتراف ودفع العشور ومساعدة السلطات الكنسية، فقد كان يتم تحديدها وتوضيحها . وكل مواد المنهج والتعليم كان يتم ربطها مع مواد التقاليد والعقيدة فى هيكل كبير مخطط لرفع مستوى الحياة المسيحية والقساوسة المسيحيين.

كانت المشكلة النهائية التى تمت الإشارة إليها فى المجمع هى مشروع حملة صليبية جديدة إلى الأرض المقدسة. وفى النهاية كان إنوسنت مايزال يتطلع إلى تحقيق هذا المشروع ولم يعش حتى يرى الحملة الصليبية الخامسة تتخبط فى أوحال دلتا نهر النيل. فقد مات سنة ١٢١٦م، تاركا خلفه سجلاً من الإنجازات التى كانت بالغة التأثير، سواء إذا نظر المرء إليها من ناحية النضال الروحى أو الصراع السياسى. كان مجمع اللاتيران الرابع، الذى خاطب فيه إنوسنت العالم المسيحى بوصفه أباه الروحى والموجه لشئونه باعتراف الجميع، هو أبرز علامات «النزعة الرومانية Romanism فى العصور الوسطى » .

وقد لعبت الفرص والحظوظ دورها فى نجاح إنوسنت . ففى الإمبراطورية كانت الوفاة المبكرة لهنرى السادس، والضغوط الداخلية السياسية فى إنجلترا ، ورقة لصالحه. وفى بلاد اليونان ولانجدوك استفاد للغاية من الإنتصارات التى حققها رجال لم يكن هو راضيًا عن دوافعهم. ولكن كانت هناك أيضا أسباب أكثر عمقًا لانتصارات كنيسة روما فى زمنه . هذه الأسباب تستند فى التحليل الأخير على وحدة عقيدة دينية قوية فى الغرب، بغض النظر عن الكاثاريين ، ساندها احتكار الكنيسة للتعليم تقريبا. وكان هذا هو السبب فى أن الكنيسة

استطاعت أن توجه روح المدارس الفكرية الباحثة لخدمتها؛ لدرجة أن إنوسنت الثالث استطاع أن يتخذ من بطرس اللمباردى مرشداً له إلى الدين الصحيح. وكان هذا أيضا هو ما ساعد البابوية على أن تجمع رجال الكنيسة سويًا فى طاعة روما من خلال أفضل جهاز إدارى عرفته أوروبا أيام إنوسنت. ومن ثم كانت الكنيسة التى حكمها تشكل فى حقيقتها قوة دنيوية عالمية داخل العالم المسيحى اللاتينى .

ففى داخل الإمبراطورية، وفى مملكتى فرنسا وإنجلترا اللتين كانتا قوتين بازغتين، كانت الحكومة البابوية المؤلفة من الكنيسة ورجال الكنيسة قوة نشطة. وقد أدى دوران المال بشكل متزايد بسبب التجارة إلى تمكين البابوية من صب ثروة الكنيسة فى أقاليم بعيدة عن روما، وكانت الموارد المادية المطلوبة لجعل السيادة البابوية على «ميراث بطرس» فى وسط إيطاليا سيادة فعالة قد باتت متوفرة. لقد كان الأمن فى الأراضى الإيطالية أمراِ أساسيًا بالنسبة للبابوية ، إذ كان هو مفتاح الحفاظ على استقلالها السياسى. وهكذا تم توجيه الأموال، بل والجنود المرتزقة، فى خدمة مطالب الكنيسة.

وفى أيام إنوسنت الثالث برهنت الكنيسة على قدرتها على احتواء القوى العائلية، والمادية والروحية والفكرية التى كانت فاعلة فى المجتمع المسيحى الأوروبى، بحيث تعيد تشكيل حياة الناس ورؤيتهم العامة. لقد كانت مشكلتها الكبرى فى المستقبل ما تزال هى احتواء هذه القوى التى استمرت فى التطور بقواها الذاتية الدافعة.

القسم الثالث

١٢١٦ - ١٣٣٠ تقريبًا

نضال كنيسة روما للحفاظ على
سلطتها العالمية فى عالم متغير

١١- الجامعات والمنظمات الرهبانية الكاثوليكية
سان توماس وسان فرنسيس والراهب يواقيم

شهد القرن الذى أعقب موت إنوسنت الثالث سنة ١٢١٦م قتال الكنيسة فى سبيل الحفاظ على زعامة العالم المسيحى الغرب التى حققتها فى أيامه. فعلى المستوى السياسى تهددتها أخطار جديدة ماحقة، كما تم استدراجها فى عوائق وعقبات دبلوماسية جديدة. ولكن ما حدث فى النهاية ربما كان أقل حسمًا لو لم تتدخل أمور أكثر عمقا من الأمور السياسية . لقد كانت انتصارات البابوية زمن إنوسنت قد جعلت من الممكن، بفضل قدرات الكنيسة، احتواء القوى الجديدة أو السيطرة عليها. وفى مجالات البحث الفكرى والمشاعر الدينية كان هذا الأمر واضحًا بشكل خاص.

وهنا تجسدت التطورات تعبيرا محسوسًا فى مؤسستين كانتا جديدتين على العالم المسيحى، وارتبطتا ارتباطا حيويًا مع الكنيسة بخيوط قوية: هما الجامعات والمنظمات الدينية المتسولة (الرهبان). وقد ظهرت أولى الجامعات نتيجة لإضفاء الصبغة الرسمية على الدراسة فى تلك المدارس التى جعلتها شهرتها وتقاليدها المستمرة تبز غيرها مثل باريس وأكسفورد وبولونا وسالرنو، وكلمة «جامعة» تعنى فى الأصل الاعتراف بوجود متكامل لمجموعة من العلماء القادرين على العمل جماعة. والمظهر الخارجى لوجود مثل هذه الهيئة هو المدرسة التى

يدرس فيها الطلاب بغض النظر عن المكان الذى جاءوا منه، كما أن شهادة الأساتذة التى تجيز لهم التدريس فى موضوع ما (أى الدرجة العلمية) لابد أن تكون مقبولة فى أية مدرسة أخرى، فى أى مكان بالعالم المسيحى. هذا العامل الأخير صار بمرور الزمن هو العامل الحاسم. وهكذا بدأ البابوات والملوك يؤسسون الجامعات ، بمنحها درجات عن طريق التقويم الرسمى fiat قياساً على المستويات التى حققتها الجامعات الأولى بفضل شهرتها فقط.

هذه الإمتيازات جعلت الجامعات قوية بدرجة كبيرة، وكان الطلاب يفدون إليها من الأماكن القريبة والبلاد البعيدة، لأنهم كانوا يعرفون أن الدرجة التى سيحصلون عليها يمكن أن توفر لهم وظيفة فى أى مكان. ولم يكن الأساتذة الذين يدرسون بالجامعات من أبناء البلد جميعا؛ إذ كانوا يمثلون قطاعًا من أفضل العقول لا فى مقاطعة أو مملكة واحدة، وإنما فى أوروبا كلها. والمؤسسات التعليمية القائمة على هذه الأسس العالمية لايمكن أن تزدهر بدون حرية الفكر. وقد خلق هذا مشكلة لكنيسة روما ، فى دورها الذى اضطلعت به لتحديد الديانة الصحيحة. ولم تكن قادرة على أن تسمح بحرية الرأى بلاقيود فى مؤسسات كانت تترك بصمات تعاليمها على كل أفراد الهيئة الكنسية، ومن ناحية أخرى ، فلو أن الكنيسة تحدَّت الآراء القيمة لهيئة من العلماء ذوى السمة العالية، مثل علماء اللاهوت بباريس مثلاً ، لكان ذلك خطراً على هيبة روما بين جميع القساوسة المتعلمين.

وكانت التنظيمات الرومانية تمثل مشكلة مختلفة. وكان أهم تنظيمين هما الرهبان الدومينيكان والرهبان الفرنسيسكان. وكان الإلهام الذى دفع دومينيك إلى تأسيس تنظيمه يتمثل فى رغبته فى تدريب مجموعة من الدعاة المتعلمين الذين كرسوا حياتهم للدين يمكنهم أن ينافسوا الكاثاريين فى مناقشتهم وفى المثال الذى قدمه الكاملون Perfecti الكاثاريون . وتطلب هذا الهدف مستوى من الطهارة والزهد فى الحياة، كان نادراً خارج الأديرة حتى زمان دومينيك ، ولكنه امتزج بقدر من الحرية لم يكن يتمتع به الرهبان فى أروقة الأديرة. أما أصول تنظيم فرنسيس فكانت مختلفة تماما وسوف نذكر ذلك بمزيد من التفاصيل فيما بعد قليل، ولكن بمرور الزمن تقارب التنظيمان فى مستوياتهما وأهدافهما ، وأقسم الرهبان على حياة الفقر والطهارة والطاعة لكى يتفرغوا لمهمة الداعية المتسول الجوال.

كانت تنظيمات الرهبان المتسولين خاضعة للبابا بشكل مباشر، مثل الرهبان السترشيان قبلهم، وكان الإطار الديمقراطى لمجالسهم العامة مشابهًا أيضا لما كان لدى السترشيان ، ففى هذه الاجتماعات التى كان يحضرها ممثل عن كل إقليم، كان يتم انتخاب الرهبان، كما كانت

تتم مناقشة كافة المسائل المتعلقة بتنظيمهم ، مثل نظام الحكم والأنشطة . وعلى المستوى المحلى كانت المجالس المحلية والقادة المحليون يعيدون نفس العملية على نطاق أصغر . وكانت البابوية تدعم الاستقلال التام للتنظيمات الرهبانية المتسولة عن السلطات الكنسية الاقليمية المعتادة. كما منحت السلطة البابوية للإخوة الرهبان الذين يدرسون فى الجامعات امتيازات خاصة . فقد صدقت احتمالات أن يكون هؤلاء صفوة من الدعاة المتعلمين .

وفى الحرب التى أعلنتها قرارات مجمع اللاتيران سنة ١٢١٥م على رخاوة الحياة المسيحية وتهاونها ، جعل الرهبان الكاثوليك المتسولون من أنفسهم رأس حربة لقوات الإصلاح . ولكن خدماتهم كانت ، مع ذلك ، تنطوى على احتمالات خطيرة لأنفسهم وللبابوية على السواء . فلأنهم كانوا موضع تقدير بسبب قداستهم ، كان كثيرون يفضلون أن يأتوا إليهم بدلاً من القساوسة طلباً للاعتراف ، أو لتزويجهم ، أو لدفن موتاهم . هذا التدخل فى العلاقات الرعوية لقساوسة الكنائس كان من الطبيعى أن يثير امتعاض الأكليروس العلمانى (وهو الإسم الذى أطلق على قساوسة الكنائس) ، لاسيما وأنهم خسروا بذلك الرسوم التى كانت تدفع لهم على الدفن مثلا . وفى الجامعات ، كانت امتيازات الإخوة الرهبان الكاثوليك تثير امتعاض الأساتذة «العلمانيين» أيضا . وكانت امتيازات الرهبان ثمرة العلاقة الحميمة الخاصة بين منظماتهم وكنيسة روما . وتمثلت المشكلة بالنسبة لزعماء الكنيسة فى منع تطور الاستياء من امتيازات الرهبان إلى استياء من السلطة التى منحتها لهم . كما كان عليهم أن يلتزموا الحرص فى محاولتهم لمنع هذا الاستياء . وكان ذلك مبررا جيدا لجعل الرهبان الكاثوليك ينظرون إلى أنفسهم باعتبارهم صفوة ؛ ولذلك كان ينبغى على كنيسة روما ألاّ تظهر فى صورة من يتغاضى عن التهاون والإنحلال .

ولقد منح التنظيم الرسمى ، القائم على أسس ديموقراطية ، الاستقلال لكل من الرهبان المتسولين والجامعات بحيث صاروا أقوياء . كما أن التيارات الفكرية التى ازدهرت فى ظل الأمن السائد فى هذه الأوساط كانت قوية . وقد اخترت مثالين لكى أوضح المقصود فى هذا الشأن : **تطور الدراسات الأرسطية بالجامعات ، وتطور منظمة الرهبان الفرنسيسكان** فى خلال السنوات المائة التى أعقبت موت سان فرنسيس . وكلاهما يعكس تطورات على قدر كبير من الأهمية فى التاريخ الدينى والثقافى .

* * *

فى القرن الثانى عشر كانت أعمال أرسطو قد باتت معروفة فى الغرب عن طريق ترجمة

بوئثيوس لمقالاته فى المنطق بشكل خاص . وقبل سنة ١٢٠٠م بوقت طويل كان الاحتكاك بشكل أكثر تنظيما بالعالم الإسلامى والعالم اليونانى ، فى أسبانيا وصقلية، نتيجة للحروب الصليبية ، يجذب الإنتباه إلى عدد أكبر من مؤلفات أرسطو، لاسيما ما كتبه عن التاريخ الطبيعي والفلسفة . ففى مقالته عن الطبيعة وغيرها من المقالات ، حاول أرسطو أن يفسر بشكل شامل كيفية عمل العالم الطبيعى ، من خلال استنتاج بنى أساسًا على الملاحظات الفعلية لما يحدث فيه . وهكذا وجد الغرب المندهش نفسه وجهاً لوجه أمام تفسير لكيفية عمل الطبيعة أكثر تأثيرا من أى تفسير سمع به من قبل ، وهو تفسير يقوم الدليل على صحته فى الحواس التى تشهد بذلك . وبالإضافة إلى ذلك ، كان هذا التفسير من عمل فيلسوف وثنى ، عاش قبل قدوم المسيح بزمن طويل ، وقد توصل إليه دونما أية إشارة إلى الوحى المقدس .

كان تأثير هذه المعرفة على دنيا العلم فى الغرب هائلاً . وكان لأرسطو أن يترك بصمة سلطته الفائقة على كافة الدراسات الفلسفية والعلمية على مدى بقية العصور الوسطى . ولكن كان فى أرسطو قدر كبير مما لم يتوام بسهولة مع التعاليم المسيحية المستقرة ؛ مثل مزاعمه عن الحكمة الطبيعية باعتبارها الهدف الأسمى للنشاط الإنسانى ، ودفاعه عن الحياة النشطة فى مواجهة الحياة التأملية . والواقع أن مفهومه الأساسى كله عن الطبيعة ، بوصفها قوة جوهرية تعمل فى اتجاه كمالها الذاتى فى التعبير عن ذاتها ، كان يمكن اعتباره تحديًا للعقائد المسيحية عن الخلق والخطيئة الأصلية . كما كانت شروح الفلاسفة العرب وتعليقاتهم على أرسطو ، ومنهم ابن سينا وابن رشد ، قد أثارت المزيد من القضايا المربكة . ومن خلال الترجمات العربية أمكن للدارسين فى صقلية وإسبانيا ، وفى طليطلة بشكل خاص ، أن يقدموا للغرب لأول مرة أعمال أرسطو عن الفلسفة الطبيعية .

وغالبا ما كانت تعاليم أرسطو صعبة التوافق مع القرآن مثلما واجهت صعوبة فى التوام مع الكتاب المقدس . وقد وجد ابن رشد طريقه بأن تحايل على هذه المشكلة بمذهب « الحقيقة المزدوجة » . وقد أكد هذا المذهب الاستقلال المطلق للحقائق التى يصل إليها العقل الطبيعى ، عن تلك الحقائق التى يتم الكشف عنها بالوحى السماوى . ولكونهما مستقلين تمامًا ، فإن من الممكن عدم تطابقهما ، ومع ذلك يبقى كل منهما صحيحاً وفقا لمعاييرهما التى لا تتطابق مع بعضها . وكانت مخاطر مثل هذا المذهب واضحة . لأنها كانت تطلق حرية المنشقين فى أن يعبثوا بعقيدة المؤمنين المخلصين ، وتحافظ فى الوقت نفسه على صيغة شكلية غير عقلانية من الدين الصحيح . وحتى فى بلاط الخلافة الأموية بالأندلس ، بكل ما اتسم به من تحضر

وتسامح ، وجد ابن رشد نفسه مدانًا من قبل السلطات الدينية . أما علماء باريس الذين اتبعوا تعاليمه ، مثل سيجيه البرينتي Siger of Brabant ويوئثيوس الداشي Boethius of Dacia، فقد عانوا مثله . ولكن إسكات المدرسين الأفراد كان شيئا ، على حين كان منع الآخرين من أن يستخرجوا من نفس أعمال أرسطو وشارحيه نفس الاستنتاجات الخطيرة شيئا آخر. إذ كان مستحيلاً منع الناس من قراءة أرسطو لأن كلماته كانت تحمل رنين الحقيقة.

وفيما بين سنة ١٢٦٨ وسنة ١٢٧٢ كان العالم الدومنيكاني توماس أكويناس Thomas Aquinas يجادل بشدة سيجيه البرينتي في مدارس باريس . وكان توماس هو الذي نجح بشكل نهائي في التوفيق بين الفلسفة الأرسطية واللاهوت الأوغسطيني التقليدي في المدارس. هذا التوفيق الذي تم على يديه أطاح تماماً بعدم التوافق المفترض بين العقل والوحي : إذ كان يؤمن أن كلا منهما يشير بطرق مختلفة إلى الهدف نفسه . زعم توماس ، أن رأى أرسطو عن الحكمة الطبيعية التي تدفع الناس لتحقيق الصالح الاجتماعي لايصمد أمام العقائد المسيحية عن الخطيئة الأصلية : « **إن الرحمة الإلهية لا تستأصل الطبيعة البشرية ، ولكنها تأخذها صوب الكمال** » . فالجسد ليس سجنا للروح البشرية ، ولكنه الآلة التي يمكنها أن تحقق التعبير عن نفسها بواسطتها . ومن خلال الوعي الذاتي الذي تحققه الروح من خلال الجسد والاتصال الاجتماعي فقط ، يمكن للروح أن تخرج ساعية إلى الأهداف السامية التي حددها لها خالقها . إن الرفاهية الاجتماعية للبشر في هذا العالم وخلاصهم ليسا هدفين منفصلين، ولكنهما جانبان مختلفان لنفس الغاية العظيمة التي من أجلها خلق الله البشر .

ولم يكن هناك بالنسبة لأكويناس توتر بين الفكرة المسيحية عن الخلق وتحليل أرسطو للطبيعة في ضوء سلسلة من الأسباب العقلية المتفاعلة فيما بينها . فلابد أن تكون هناك بداية للسببية ، لأن النكوص إلى الوراء (بحثا عن السبب) بلا نهاية أمر لا يمكن التفكير فيه : ففي النهاية لابد من وجود سبب أول « **محرك أول لايحركه أحد** ». ويمكن أن نتعلم أسلوبه إما بتأمل الطبيعة ، أو بالإستماع إلى الكلام الذي أوحى به الله إلى أنبيائه ؛ لأن أساليب الله نفسها لاتتغير على أية حال . وعندما كان توماس يرى العقل والوحي في حال ظاهرة ، كان يجيب بأنه يجب التمعن أكثر في المسألة ، بدلا من أن نستبعد واحداً منهما . ولم يكن هناك ما يعوق الإيمان الصحيح في رأى توماس.

وقد أدى هذا بتوماس إلى بعض استنتاجات مذهلة غاية في الخطورة . وهي أوضح ما تكون في فكره الاجتماعي والسياسي ، الذي اعتمد فيه إلى حد كبير على كتاب السياسة

لأرسطو . وجعل نقطة انطلاقه قول أرسطو الشهير « **الإنسان حيوان سياسي** »، بحيث انفصل تماماً عن الرؤية التقليدية التى اعتبرت أن غرض السلطة السياسية العلمانية هو غرض مقيد بحيث يكبح الإتجاهات والميول الخاطئة داخل الطبيعة البشرية. ورأى أن الحكومة ، التى هدفها تحسين الحياة الاجتماعية ، شئ جيد بحد ذاته تبقى فائدته قائمة حتى إذا كان الحكام من الكفار . هذا التأكيد على طبيعة الإنسان الاجتماعية ونشاطه الاجتماعى كان بمثابة الأرضية التى قام عليها تبرير اختيار النشاط الاجتماعى فى مجال القانون ، أو السياسة ، أو الزواج وبناء أسرة على أبسط الأحوال ، بدلاً من الإنسحاب إلى أروقة الدير . كانت تعاليم توماس تحررية متفائلة ، كما كانت بمثابة انتصار كبير لاتجاه توسيع نطاق النظرة المسيحية للحياة . فقد أتاحت ما هو أكثر من التوفيق بين فكر أرسطو واللاهوت التقليدى ، أى التوفيق بين أسلوب الحياة المسيحية وسلسلة هائلة التنوع من الأولويات فى الحياة اليومية فى دنيا البشر .

وبمرور الزمن أدت كتابات أكويناس إلى تعديل وجهة نظر الكنيسة الرومانية بشكل عميق. ومع هذا فإن التأثير المباشر لتعاليمه أفرز صعوبات فى مواجهتها . ولم يكن بين تعاليمه شئ ينتقص من مطالب المثالية المسيحية ، ولكن هذا لم يبد واضحًا فى ضوء تعاليمه . وعلى سبيل المثال ، ماذا كان يمكن للصليبى أن يستنتجه من قوله بأن حكومة الحكام الكافرين تستند إلى غرض قانونى وهدف له ما يبرره ؟ وكانت رحابة آرائه ، بالنسبة لأولئك المعاصرين الذين انغمسوا فى مشكلات الحكم فى كنيسة روما ، التى ألزمت نفسها بمزاعم خطيرة حول ولاء الناس السياسى والدينى ، تنطوى على دلائل غير مناسبة . فضلاً عن ذلك فإن توفيق أكويناس ما بين الدين والتفكير العقلانى ، بحيث جعل حرية الفكر أكثر احترامًا ، زاد من صعوبة كبح الفكر العقلانى. وكانت هناك المزيد من الأفكار الخطيرة والانشقاقية التى يمكن أن تتطور من خلال دراسة أرسطو .

فإذا ما استبعدنا الفكر الدينى المنشق ، يبقى أن دراسة كتابات أرسطو العلمية شجعت على الاهتمام بالعالم الطبيعى لذاته . والحقيقة أنه غالباً ما كان هذا الموضوع فى مؤلفات أرسطو هو الأكثر استحواذاً على اهتمام الناس (وبدرجة اكبر عند الكتاب العرب) . هكذا جعل ألبرتوس ماجنوس ، أستاذ توماس أكونياس ، أرسطو فى مرتبة الأحجار الكريمة التى أسبغ عليها كل الفضائل الباهرة : مثل العقيق الذى يشفى من الاكتئاب ويطرد الأشباح ؛ ومثل الزمرد الذى هو معيار الطهارة . ولكن إذا كانت هذه التعاليم تؤدى أحيانا إلى بث الرعب فى قلوب الرجال المتعلمين وتضللهم ، فإنها تفتح عيونهم على أبعاد جديدة للعالم من

حولهم . هذه الدوافع نفسها ، ودراسة نفس الكتاب والمؤلفين ، هى التى حفزت اهتمام روجر بيكون بالرياضيات والبصريات ، كما حفزت اهتمام ألبرتوس بالمجوهرات . لقد أدت دراسة أرسطو والمؤلفين العرب إلى تركيز الاهتمام على مشكلات الظروف الإنسانية والطبيعية بقدر متزايد ، وهكذا شجعت البحث المستقل عن الاهتمامات اللاهوتية . فقد كان فرض دراسة اللاهوت هو الذى أعان الكنيسة فى الماضى على توجيه الفكر فى المدارس والسيطرة عليه . وبدون ذلك كانت السيطرة تصبح أصعب فأصعب .

* * *

ثمة تشابه مثير بين إنجازات سان توماس وإنجازات سان فرنسيس . فقد حقق توماس الملاءمة بين الدين والآراء التى بدت على لسان سيجيه البرينتى إنشقاقية ومقنعة بدرجة مرعبة، بفضل عقله الأرقى من عقل سيجيه وبفضل فهم أكثر رسوخا لكتابات أرسطو . ولم تكن رسالة فرنسيس تختلف كثيرا عن رسالة منشق آخر ، هو بطرس والدو ، ولكن تواضعه المسيحى كان أقرب للصحة ، كما أنه أدخل إلى رحاب الكنيسة نفس الأرواح التى كان بطرس قد قادها إلى خارجها .

ولد فرنسيس حوالى سنة ١١٨١م فى نفس بيئة بطرس والدو تاجر ليون : إذ كان والده تاجراً ثرياً فى أسيسى Assisi . وعندما كان شابًا يزهو بنفسه وهو راكب للحرب قال فرنسيس لأصدقائه إنه سيكون فى يوم ما أحد كبار البارونات : ولكن صوتا داخليًا حدثه عن مهنة أخرى . وفى سنة ١٢٠٨م كان قد هجر العائلة والثروة من أجل حياة الفقر المدقع ، بين المجذومين والشحاذين. وتجلت له الطبيعة الكاملة لمهمته فى العام التالى ، عندما كان يصلى فى كنيسة صغيرة بورتيونكولا ، عند بوابة أسيسى ، وسمع كلمات إنجيل متى التى تقول إن مملكة الرب فى متناول كل من يسير على طريق المسيح مبشراً وداعية ، وتطلب ألا يحمل المرء ذهبا ولا فضة ولا نقودا ولا معطفين أو نعلاً أو أية ممتلكات ، لأن العامل هو الجدير بمن يستأجره .

كانت تلك أسس الحياة البسيطة التى كرسها البابا إنوسنت الثالث سنة ١٢١٠م وأجازها لعصبة صغيرة من تلاميذ فرنسيس الذين جمعهم حوله . وبعد إثنتى عشرة سنة كان المثال الذى قدموه عن السلوك الرسولى والتدين المسيحى البسيط قد زاد من حجم تنظيمهم بحيث صار تنظيماً كبيراً . وفى سنة ١٢٢٣م ، وافق البابا هونوريوس الثالث على قاعدة جديدة موسعة جاءت استجابة لمتطلبات تنظيم معقد يضم هذا العدد الهائل من الأفراد . وفى ذلك

الوقت كانت مجهودات الفرنسيسكان وإلهاماتهم قد باتت محسوسة فى جميع أنحاء أوروبا المسيحية .

وقد جاء تأثير رسالة فرنسيس إلى حد كبير من روحها التفاؤلية وبساطتها الجذابة. لأن دعوته لم تتعقد باللاهوت لأنها توجهت إلى الروح مباشرة ، لكى تصل إلى خالقها فى أمل وامتنان . إذ أنه أصر على أن جميع أعضاء تنظيمه يجب أن تكون وجوههم بشوشة مبتهجة فى هذا العالم « فرحًا بالرب» فى كل الأوقات وفى جميع الأماكن . وقد أدان الزهد المتطرف: «يجب على كل رجل أن يحصل على الغذاء اللازم له ، حتى يمكن للجسد أن يؤدى خدمة حقيقية ومخلصة للروح» . وهنا اتخذت تعاليم فرنسيس نفس الاتجاه الذى أخذته تعاليم توماس ؛ ومؤداها أن الناس يجب أن يهتموا بالعالم من حولهم لأنه تعبير عن إرادة الخالق وعن كرمه أيضا . وهنا أيضا يكمن المغزى الأخلاقى الحقيقى للقصص التى تتحدث عن فرنسيس وهو يبشر بين الطيور، ويستمع إلى أصوات الطبيعة وهى تعزف الموسيقى الملائكية (وهى قصص تبدو للوهلة الأولى ضربًا من الخيال العاطفى) . إذ أنها تعبر عن الفرح الذى يغمر المرء حين يشعر بعمل الرب من حوله ، وحين يغمره الامتنان لأنه نال نعمة الحياة .

وبتأسيس منظمة الترتيارى Tertiaries ، وهم مجموعة من العلمانيين الذين وعدوا بأن يجعلوا فى قلوبهم مبادئ القاعدة الرسولية التى وضعها فرنسيس ، صار الفرنسسكان على اتصال مباشر بعدد كبير من الناس العاديين الذين كانوا مأخوذين بدعوة فرنسيس للأمل والفرح . أما بالنسبة لمن انخرطوا فى تنظيم الفرنسيسكان فقد حملت قاعدة فرنسيس جانبا آخر ، هو الفقر. وكان فرنسيس قد جعل لهذا الجانب أهمية كبرى . إذ اعتقد أن الفقر كان هو فخر المسيح الحقيقى .

كانت القاعدة التى وضعها للرهبان صارمة جدا فى هذه المسألة . إذ لم يكن للفرنسسكان أن يملكوا المال أو البضائع ولاحتى الكتب . وكانت عاداتهم خشنة وبسيطة ، وكان ممنوعًا عليهم لبس النعال . كما كان الإيمان الكامل بكرم الرب على نحو ما عكسته تلك القواعد أحد أسباب هذا التأثير الذى تركه الفرنسسكان الأوائل على الناس . ذلك أن فقرهم أبرز التناقض الحاد بينهم وبين رجال الكنيسة الذين جهر كثيرون بالشكوى من تهاونهم الأخلاقى . وكان الاعتقاد بأن حياة الإيمان لا يمكن أن تنفصل عن الزهد والتقشف قد بات اعتقادا عامًا راسخًا، كما أنه كان حتميًا فى عصر تأثرت مواقفه الدينية تأثيراً عميقاً بالنماذج الديرية . وبوصفهم أكثر الممارسين للفضائل الخشنة كمالاً ، كان الفرنسسكان على مدى فترة من الزمان بمثابة أعجوبة الدنيا بالنسبة لأبناء الغرب الأوروبى . وكتب جاك الفيترى ملخصا تأثيرهم :

«هذا التنظيم قد أعاد إحياء الدين فى عالم تغرب شمسه ، ويتهدده مجئ ابن الجحيم ، حيث يمكن أن يكون له أبطال جدد فى أيام المسيح الدجال المهلكة» .

وإذا كان كمال فقرهم هو مفتاح نجاحهم ، فإنه أثار المشكلات أمام الفرنسسكان أنفسهم وأمام الكنيسة التى كانوا يخدمونها أيضا . إذ كان أسلوبهم فى الحياة ، بحد ذاته ، إدانة ضمنية للمستويات الكنسية المعاصرة ، وإدانة لأسلوب حياة الآخرين ممن لم يتردد فرنسيس فى إدانتهم علنا . وكانت الإدانات القاسية التى وجهها تلميذه أنطونى البادوى St Antony of Padua بسبب امتعاضه من فساد الكنيسة الذى أدى إلى انشقاق الكثيرين ، إذ قال : **«الكرمل غزتها الصحراء ، وشجرة الكنيسة جدباء لا ثمار فيها ، والعلمانيون فقط هم المؤمنون»**. وقد صور أطراف القساوسة الأشرار **«الذين يشبهون البقرات السمان» معلقة فى دخان الجحيم «مكان اللعنة ، والبؤس والألم الذى لايوصف»** . وكان رجال الرب الغاضبون قد قالوا شيئا من هذا القبيل قبل ذلك ، بيد أنه كان من الطبيعى أن يثير هذا الكلام غضب الذين يوجه النقد إليهم . وفضلا عن ذلك ، فإنه كرس الوضع الخاص للفرنسسكان : أى انفصالهم عن رجال الكنيسة العاديين . إذ كان تنظيمهم وأساليبهم فى التجوال قد كاد أن يجعل منهم قساوسة منافسين .

وما أن بدأوا يحققون لأنفسهم هُوِيَة مؤسسيه ، حتى بدأت حاجات جديدة تظهر بين الفرنسسكان أنفسهم . وعندما بدأت أعدادهم تتزايد بدأوا يبنون كنائسهم وأديرتهم الخاصة بهم ، لإيواء جيش الدعاة الذين لم تعد أماكن الضيافة المؤقتة كافية لهم . وتم اجتذاب الرجال المتعلمين للتنظيم ، ولم يكن بوسع هؤلاء أن يستغلوا مواهبهم تمامًا بدون وجود الكتب فى متناولهم . وفى ظل الظروف الجديدة لم يكن من المناسب الالتزام حرفيا بتعاليم فرنسيس . وفضلا عن ذلك ، تعارضت الظروف الجديدة مع قاعدة الفقر المطلق ، التى كان من المستحيل الإلتزام بها فى تنظيم دينى واسع النطاق . كما بات واضحًا أن مبدأ الاستغناء ، الذى كان يسمح للرهبان بأن يستخدموا البضائع التى ائتمنهم أصدقاؤهم عليها فقط ولايملكوها ، ضرب من ضروب الخيال . ولكن قاعدة الفقر كانت هى القوة الدافعة لإلهام الفرنسسكان ، كما كانت بمثابة الموضوع الأساسى فى الأساطير المتزايدة عنهم . وبدأت التوترات القبيحة تبرز بين أولئك الذين رأوا أن هناك ضرورة لملاءمة الظروف الجديدة (وهم ذلك الفريق الذى عرف داخل التنظيم باسم الديريين Conventuals) وأولئك الذين التزموا بالحفاظ على النقاء المطلق لتراث فرنسيس الشخصى (الفرنسيسكان الروحيون) .

ومع نهاية القرن الثالث عشر كانت صراعات هذين الحزبين داخل التنظيم قد بدأت تستدرج الكنيسة الغربية بأسرها . ولأن مراسيم البابا هي التي خففت من صرامة القاعدة الفرنسسكانية ، كانت روما هدف غضب الحزب « الروحي » كما كانت هدفا لغضب الحزب الآخر . وفي النهاية كان الروحيون هم الخاسرين . ففي سنة ١٢٦٠م هدم الدستور الذي وضعه بونافنتيورا St Bonaventura ، اللاهوتي العظيم الذي كان هو المسئول العام عن التنظيم آنذاك ، الهيكل الإداري للتنظيم ، لكي يوفق بين طاقاته والظروف الجديدة . ومنذ ذلك الوقت فصاعدا ، صارت شكاوى الروحيين أكثر شغبا لأنهم وجدوا أن الأمر يزداد صعوبة أمام محاولة إضفاء الشرعية على مُثلهم وقيمهم ، وفي نهاية الأمر حُسم مصيرهم بمرسومين أصدرهما البابا حنا الثاني والعشرون . كان الأول هو المرسوم الذي عرف باسم Gloriosam Ecclesiam (سنة ١٣١٧) والذي أدان المتطرفين ، الذين كان يحرضون على الالتزام الحرفي بالقاعدة الأولى لفرنسيس دونما إضافة ، باعتبارهم هراطقة . والمرسوم الثاني المعروف باسم cum inter non-ullos (سنة ١٣٢٣) الذي أدان عقيدة الفرنسسكان القائلة بأن المسيح وحوارييه لم يحوزوا أية ممتلكات من أي نوع ، باعتبارها انشقاقًا على الكنيسة . وقد أصدر المرسوم الأول حكماً كان لابد أن يقع عاجلاً أو آجلاً على أولئك الذين كان فخرهم الأساسي هو ثيابهم المرقعة وهجومهم القاسي ضد إخوتهم الرهبان . أما المرسوم الثاني ، الذي كان موجها لضرب عقيدة جوهرية راسخة ، فقد كاد أن يقذف بالتنظيم كله في أتون الإنشقاق . وقبل أن تتم مصالحة وليم الأوكامي ، آخر زعماء الفرنسسكان الذين انشقوا عن روما ، كان قد لحق بهيبة الكنيسة ووحدتها ضرر كبير .

* * *

وربما لم يكن الفرنسسكان الروحيون ليلقون هذا المصير التعس لو لم تشبهم شائبة الفكر الإنشقاقي من زاوية لم يكن فرنسيس يدري عنها شيئا . إذ أن الراهب يواقيم الفلوري (١١٤٥ - ١٢٠٢ تقريبا) كان من مواطني كلابريا في جنوب إيطاليا . وساقه القدر إلى أن يصبح من الرهبان السسترشيان ، ولكن طبيعته كانت طبيعة ناسك: وكانت شهرته راجعة قبل كل شئ إلى ما ذاع عن قدرته على التنبؤ الملهم . وعلى مدى ساعات طويلة كان ينسحب فيها من العالم ، ويعكف فيها على كتابات يوحنا - أي سفر الرؤيا والأنجيل الرابع - وأدى به ذلك إلى الاعتقاد بأنه نفذ إلى الحقائق السرية المخبوءة وراء الكتابات المقدسة . وقادته اكتشافاته مرة أخرى إلى أسفار أخرى في الكتاب المقدس ، وإلى تعاليم المسلمين : وهذه أكدت أنه قد

عرف السر . فالعهد القديم من الكتاب المقدس يحكى قصة العصر الأول من تاريخ الديانة فى هذا العالم ، على حين يروى العهد الجديد بداية العصر الثانى ، أى عصر الإبن : وتنبأ يوحنا بالعصر الثالث ، أى عصر الروح القدس ، وكان يواقيم يعتقد أن هذا العصر قريب وشيك . إذ أشارت المصادر الإسلامية والمسيحية إلى فجر عصر جديد ، يبدأ فى سنة ١٢٦٠ (حسب ما اعتقده يواقيم طبعا) . ولابد أن تكون هناك علامات تبشر بالنظام الجديد ، أى الاضطرابات وحكم المسيح الدجّال . وستكون كنيسة العصر الثالث كنيسة جديدة للرهبان المتحررين من الاهتمامات الدنيوية « **بحيث يحيون فى الروح مشغولين بالصلاة وترتيل المزامير** » . وسوف تتحقق فى معيشتهم مملكة الرب على الأرض *.

وكان يواقيم بطبعه متصوفًا بالقدر الذى لايجعله دقيقًا فى وصف ما سوف يحدث مستقبلا. وكان من السهل على الكثيرين فى أيام الفرنسسكان الأولى أن يفهموا ما الذى تعنيه كنيسة « الرهبان» الجديدة هذه . ففى كتاب جيرارد البورجوى المسمى « مقدمة إلى الإنجيل الخالد » (حوالى سنة ١٢٥٣) يبدو أنه رأى فى عصره العلامات التى كان يواقيم قد أوصى الناس بأن يراقبوها . وقد حقق كتابه ، وكتب أخرى مشابهة ، رواجا هائلاً لكتابات يواقيم . وإذ مرت سنة ١٢٦٠ بسلام ، فقدت مبالغات أتباعه مصداقيتها ، أما هو فلم يتأثر. وبسبب الفرنسسكان الروحيين ، والناس العاديين أيضا ، شاعت نبوءات عن أشياء غريبة جدا سوف تحدث فى المستقبل وصدقها الناس تمامًا . وبدأ نوع من الأساطير الشعبية ينمو بين الفرنسسكان الروحيين يصور رهبنة فرنسيس على أنها نوع من القدوم الثانى للمسيح، أما تفاصيلها فقد شابتها الأحقاد والضغائن الشائعة . وهكذا يصبح التهجد وصلاة الليل التى كان فرنسيس يؤديها فى كهف ريتى Rieti رؤيا لتجلى الكتاب المقدس ، وفيها يصحو ثلاثة من الملائكة ليسمعوه وهو يحادث المسيح نفسه ؛ وفقاً للصورة التى رسمتها كتابات زعيم الفرنسسكان الروحيين أنجيلو كلارينو ، ويتردد الرعد الذى يحمل الصوت الإلهى بكلمات تقول : «**أطع القاعدة حرفيًا ، بدون تعديل** » والمبالغة فى الخيال التى تعكسها قصص من هذا النوع ، كانت بمثابة خميرة لانتشار أفكار أكثر أهمية ، كانت سائدة بين الفرنسسكان الروحيين، ثم تقبلها الآخرون أيضا .

---

* هذا تلخيص لآراء يواقيم الفلورى وليس رأى المؤلف بطبيعة الحال .

ولم تكن مملكة الروح القدس الجديدة التى تنبأ بها يواقيم مملكة تنتمى إلى هذا العالم على النحو الذى كان الناس قد عرفوه حتى ذلك الحين . إذ أن نبوءات يواقيم حولت انتباه الناس عن الكنيسة الأرضية التى يرأسها البابا . وكذلك فعل تبرير توماس أكويناس للحياة النشطة للمسيحيين الحقيقيين ، ودعوة فرنسيس لإحياء المستوى الفردى وإن كانت وسائلهم أكثر حذقاً وجدية . كان مضمون تلك الرسائل الثلاث أكثر مما كانت كنيسة إنوسنت الثالث قادرة على احتوائه . وبدأت فجوة بين المؤسسة المنظمة التى أسماها المؤرخون الكنيسة من ناحية ، وما ظن المعاصرون أنه حياة الروح من ناحية أخرى . ولاشك فى أن مثل هذه الفجوة كان لابد أن تظهر واضحة مع مرور الزمن . ولاشك فى أن المعتقدات المبالغ فيها ، والهستيرية أحيانا ، التى سادت تلك الفترة قد أبرزت وجود هذه الفجوة علنا وجعلتها واضحة .

الحادث الغريب الذى وقع يوم ٥ يوليو ١٢٩٤م يوضح كم كان تأثير مثل هذه التيارات الفكرية قويا . ففى هذا اليوم انتخب الكرادلة ، الذين كانوا يتخاصمون منذ أبريل ويتجادلون حول من يخلف البابا نيكولاس الرابع ، بطرس موررون Peter Murrone الذى كان ناسكًا أميًا مسنًا لتولى العرش البابوى تحت اسم البابا كلستين الخامس . وكانت تلك لحظة بدا فيه وكأن الكنيسة على وشك أن تواجه أزمة : إذ كانت إيطاليا وما بها من أملاك بابوية قد ضاعت بسبب الحروب الطويلة ؛ أما عكا آخر المعاقل الصليبية بفلسطين فكان المسلمون قد استعادوها قبل ثلاث سنوات ؛ واتضح أن الإنشقاق قد أنشب مخالبه فى تنظيم الفرنسسكان . كان الكرادلة رجالاً شديدى العناد وكانت منافساتهم العائلية تؤثر فى الإنتخابات البابوية منذ زمن طويل . وبطبيعة الحال كان اختيارهم لشخص البابا كارثة ؛ إذ لم يكن أحد ممن سبقوا بطرس موررون يأمل فى أن يدير المؤسسة الإدارية التى أوجدها إنوسنت الثالث وأسلافه . وفى أقل من ستة أشهر كان قد تخلى عن التاج البابوى ، وكان ذلك خيبة أمل له ولكل الآخرين . ولكن ذلك كان مقياسا لمدى تأثير روح التنبؤ ونهاية العالم التى كان يواقيم إحدى تجلياتها ، فقد كان الكرادلة يأملون بانتخابهم لناسك فظ ، أمى ، منصرف عن العالم - والذى كان يدين علنا روح الملكية البابوية - أن يتمكنوا من حل مشكلات الكنيسة. كما كانت تلك أيضا علامة على قوة الأفكار الجديدة عما يجب أن تكون عليه الكنيسة .

١٢- الصراع بين البابوات والهوهنشتاوفن

كان فريدريك الثانى هوهنشتاوفن ، الإمبراطور الذى كان إنوسنت الثالث قد أجلسه على العرش واعترف به فى مجمع اللاتيران، هو أقوى خصم سياسى واجهته البابوية فى العصور الوسطى على الإطلاق. وفى ضوء مصطلحات السلطة الدنيوية البحتة كان هو أقوى إمبراطور شهده الغرب منذ العصر القديم . فإلى جانب ألمانيا ولمبارديا والأريلات Arelate* (وهى الممالك الإمبراطورية الثلاث التقليدية) كانت مملكة صقلية النورمانية من أملاكه بالوراثة. والحقيقة أنه كان قد وعد بأن يجعل هذه المملكة الأخيرة لابنه عندما يصير إمبراطوراً ، ولكنه أقنع البابا هونوريوس الثالث سنة ١٢٢٠م أن يستمر هو فى حكمها طوال حياته. وكان زواجه الثانى من يولاندا برين سنة ١٢٢٥م قد جلب له لقب ملك بيت المقدس. وعلى الرغم من أنه لم تكن هناك لحظة كان حكمه فيها مطلقًا بدون تحديات فى كل هذه الممتلكات ، فإن الناس فيها شعروا بوطأة سلطته من حين لآخر. وكان المعاصرون ، الذين سمعوا تنبؤات غريبة عن المستقبل القريب ، مذهولين باتساع إمبراطوريته الذى لم يسبق له مثيل. وكان فريدريك بالنسبة للمؤرخين الذين سجلوا أعماله يبدو أكبر من الحياة؛ لقد كان بالنسبة لهم أعجوبة الدنيا Stupor mundi .

---

* مملكة بورجاندى القديمة فى وادى نهر الرون، وآخر ما بقى من المملكة الكارولنجية فى العصور الوسطى، وانضمت إلى المملكة الألمانية سنة ١٠٣٣م . (المترجم)

وبالتفسير القانونى الصارم لم تكن صقلية جزءاً من الإمبراطورية ؛ إذ كانت منفصلة عنها تماماً . وقد اعترف فريدريك نفسه بهذا رسميا فى الاتفاق مع هونوريوس بأن يستمرفى حكمه لصقلية، ولكن صقلية كانت هى الأرض **«التى ميراثها أكثر مجداً فى عيوننا من كل ممتلكاتنا الأخرى»** إذ كانت هى قلب الإمبراطورية هكذا كان يراها وهكذا خطط سياسته. كانت صقلية أكثر مجداً كما كانت أكثر ثراء . فقد كانت ضرائب صقلية وأرباح الاحتكارات ، مثل الحرير والغلال، تمول حروب فريدريك التى لاتنتهى: وكان الجنود المرتزقة المسلمون فى الجنوب هم جنود الإمبراطورية الذين يثق بهم أكثر من غيرهم. وبعد موت منافسه أوتو سنة ١٢١٨م فى ألمانيا، وتتويجه سنة ١٢٢٠م تحول فريدريك صوب صقلية. وكان يعرف أن الخطوة الأولى لوضع إمبراطوريته على أسس سليمة يجب أن تكون استعادة تقاليد سلطة الملوك النورمان القوية التى كانت ثورات البارونات الألمان والأمراء المسلمين قد زعزتها بعد موت أبيه. واستغرق إخضاعهم خمس سنوات من الحروب الضروس . ولكن منذ ذلك الحين فصاعداً كانت المملكة الصقلية قاعدة ملكه جميعا، وطوال سنى عمره .

وكان هذا ما ميز إمبراطورية فريدريك عن إمبراطورية أسلافه . فتحت حكمه، تحول التركيز عن ألمانيا إلى إيطاليا التى كانت قلب الإمبراطورية تقليديا فى العصور الوسطى، ومركزها فى العصور القديمة. وقد أضفى استغلاله الواعى لهذا الأمر حيوية جديدة على التقاليد القديمة. فقد اكتسبت روما نفسها واسم «الرومان» معنى لم يكن لهما عندما كتب بربروسا **«إن جيشى هو الجيش الرومانى، ومجلسى الاستشارى هو السناتو»** وكان لكلمات فريدريك الثانى جرس مختلف **«لايمكننا أن نجلب الشرف للإمبراطورية، ما لم نشرف هذه المدينة، التى استمدت الإمبراطورية أصولها منها كما نعرف جميعا »**. وعندما أطاح بأهالى ميلانو سنة ١٢٣٧م فى كورتنوفا Cortenuova ، واستولى على الكاروشيو Caroccio (العجلة الحربية الرمزية التى كان تحتشد حولها جيوش المدينة) أرسل هذه الغنيمة إلى روما، لكى يجهز الرومان لأن يسبغوا عليها النصر **«بنفس الطريقة التى كان السناتو والشعب الرومانى يفعلونها للقياصرة فى الزمن القديم لقاء انتصاراتهم»**. وقد رفعه مداحو البلاط إلى مكان يوليوس قيصر وأوغسطس ، أول القياصرة الكبار. وكان هو نفسه يدعو ويبتهل أن **«تشهد أيامى شرف إحياء دماء رومولوس»** مع استعادة السلام الإمبراطورى الذى حقق شهرة روما فى أيام أوغسطس.

كانت تربية فردريك الصقلية سببًا فى خلق بعد آخر لهذا الإيمان بالعالم القديم. فقد كانت صقلية جزءاً من الإمبراطورية البيزنطية حتى فتحها العرب ، ولم تندثر فيها أبداً تقاليد

الإدارة الرومانية فى عصرها الأخير . فقد تم وضع قوانين الملك روجر الشهيرة فى القرن الثانى عشر على أساس من مجموعة جستنيان القانونية . وكانت ثمة إدارة ملكية تحت حكم النورمان تسيطر بإحكام على كافة النواحى القانونية والمالية. وقد شكلت المقدرة الشاملة للإدارة الملكية فى صقلية نظامًا حكوميا يختلف بشكل جذرى عن السيادة الإقطاعية العليا التى فهمت ألمانيا ولمبارديا أنها هى الحكم الملكى . وهناك كان السادة الإقطاعيون والكوميونات تمارس، بشروط الولاء والخدمة والإقطاعية ، ما يمكن أن نسميه السلطة العامة. وكان الألمان واللمبارديون يظنون أن «إعادة» الإمبراطورية يعنى إقامة سلطة يمكن أن تضمن ممارستهم لحقوقهم فى الاستقلال الذاتى بشكل سلمى آمن. بينما كان فردريك يفكر فى هذا الأمر فى ضوء مصطلحات الحفاظ على السلام والعدل من خلال النشاط المباشر لحكومة إمبراطورية على غرار حكومة صقلية. هذا المفهوم عن الإمبراطورية، والذى كان أقرب إلى أفكار العالم القديم منه إلى أى شىء تخيله أسلافه، كان جزءاً مما ورثه عن النورمان. وقد رمز إلى روح هذا المفهوم بصورة قيصر التى سكت على وجه العملات الذهبية الشهيرة التى ضربها فردريك، والتى عرفت باسم الأوغسطيات Augustales. وقد تم نسخ التصميم من عملة أغسطس، العملة التى نظر فيها المسيح نفسه عندما حث المسيحيين على أن يعطوا ما لقيصر لقيصر. وكان هذا رد فردريك على مزاعم البابوات بشأن مهمتهم الموروثة عن القديس بطرس.

وقد ورث فردريك عن نورمان صقلية المزيد من الشوائب المشئومة لمذاهب السلطة العلمانية الشاملة الحاكمة. فقد كانت صقلية المكان الذى تقابلت فيه ثلاث حضارات واختلطت ببعضها البعض؛ وهى الحضارة الغربية، والحضارة العربية الإسلامية، والحضارة البيزنطية : وكان بلاط الملوك النورمان مركزاً لثقافة عالمية بحق . وقد وجدت ثقافة البلاط فى فردريك حاميًا وراعيًا جديداً للأفراد العباقرة الذين جمعوا حوله رجالاً مختلفى المشارب حقًا. وكان روفرد البنفنتوى Rooffred of Benevento ، الذى أحضره من بولونا ليعلم القانون فى الجامعة الجديدة التى أسسها فى نابولى، واحداً من أشهر المشرعين فى أيامه. وربما كان ليوناردو فيبوناتشى Leonard Fibonacci أول غربى يكتشف سر علم الجبر alcataym. وترجم ميخائيل سكوت لفردريك مقالة ابن رشد المعنونة «مقالة فى الروح» ، ومؤلف ابن سينا «تاريخ الحيوان» . وقد أنتج شعراء بلاطه أول أشعار باللغة العامية الإيطالية على غرار أغنيات الشعراء الغنائيين البروفنساليين: ويقال إن بيرو ديلا فينا قد اخترع الصيغة الشعرية المعروفة باسم السونتة Sonnet*. وهكذا كانت الاهتمامات الرئيسية لفنانى البلاط علمانية، على حين كانت

---

* قصيدة شعرية غنائية تتألف من أربعة عشر بيتا (المترجم)

اهتمامات علماء البلاط علمية. والكتاب الذى ألفه فردريك نفسه «فن الصيد بالصقور» يوضح أنه كان مولعًا بالطبيعة، ويصف كل فصيلة من الطيور بدقة، ملاحظًا عاداتها فى بناء أعشاشها وهجراتها . بيد أن أهم اهتماماته كانت موجهة نحو تعلم الموضوعات التى كان العرب قد احتكروها لأنفسهم، وهى دراسة العلوم، وما وراء الطبيعة والفلك. هذه الاهتمامات جعلت الكثيرين من الأوروبيين يرون أنها حملته إلى حافة الشك وربما الكفر.

قال فردريك لميخائيل سكوت «**أخبرنا كم عدد الأغوار الموجودة وما هى أسماء الأرواح التى تسكنها... وهل تعرف الروح روحًا غيرها فى العالم الآخر؟ وهل يمكن للمرء أن يعود لحياته ويطهر نفسه**».

وفى مؤلفه «أسئلة صقلية» طرح على أشهر علماء العالم العربى سلسلة من الاستفسارات الخطيرة: «ما هى الأدلة على خلود الروح؟ » وغيرها . هذا النوع من السعى الدؤوب وراء المعرفة كان يبدو غير صحى . وقد أثارت نغمات الشك مخاوف الأوروبيين. كما أن ثقته فى حكمة العرب جعلتهم يفترضون أن قلبه أميل إلى المسلمين (الكفار) منه إلى المسيح. كذلك فإن حياته الخاصة وسلوكه أكد أسوأ شكوكهم . فعندما كان فريدريك يسافر كان يأخذ معه مجموعته من الحيوانات الغريبة (ومعظمها هدية من أصدقائه العرب)، ويأخذ معه حريمه من النساء المسلمات. وكان هذا بالنسبة للمتدينين الأوروبيين دليلاً على ميله للمعرفة الغريبة والمتعة المحرمة. هذه المشاهد أضفت الصدق على الحكايات التى كانت تروى عن معاملته السيئة لزوجاته المسيحيات المثاليات (ومن المؤكد أن هذه القصص كانت من المبالغات التى روجها خصومه). ولم يكن من الصعب على أعدائه أن يروا فيه ملامح أحد أعداء المسيح؛ بسبب حسيته الواضحة وتفكيره الحر. كان لقب أعجوبة الدنيا لقبًا يناسب فردريك ، فقد صدم الناس بالدهشة والعجب، ولكنه أخافهم أيضا إلى درجة أنهم لم يخضعوا لحكمه فى هدوء.

* * *

لقد حسمت قضايا عهد فردريك فى إيطاليا وليس فى ألمانيا . ولأنه كان قد قرر أن يجعل من صقلية حجر الأساس فى إمبراطوريته ، كان من الضرورى أن يسبق تأسيس السيطرة الإمبراطورية فى وسط إيطاليا ولمبارديا أية محاولة لتوطيد سلطة الملكية الألمانية . وكان فردريك مضطرا لأن يأخذ فى اعتباره مواقف الكوميونات فى المدن الألمانية . وكان فردريك مضطراً لأن يأخذ فى اعتباره مواقف الكوميونات فى المدن اللمباردية، وموقف البابوية، أثناء قيامه بالمهمة الإيطالية. وكان واضحًا منذ البداية أنه ربما واجه المتاعب من كليهما.

وكانت ذكريات الصراع الذى خاضته الكوميونات اللمباردية ضد فردريك بربروسا قد غرست شكًا غريزيًا حول التدخل الإمبراطورى فى شمال إيطاليا. إذ كان العديد من هذه الكوميونات قد انتهز الفرصة التى أتاحتها صراعات الإمبراطورية زمن إنوسنت الثالث لكى تمد نطاق السلطة الكوميونية إلى المناطق الواقعة حول مدنها. وكان من المحتمل أن يشكل أى تدعيم للحقوق الإمبراطورية خطراً على هذه المكاسب. كما أن فترة خلو العرش الإمبراطورى شهدت عودة الصراعات المريرة بين المدن، مثلما كان الحال بين ميلانو وكريمونا. وتلك المدن التى انحازت إلى جانب أوتو الرابع سنة ١٢١٢م، مثل ميلانو ، كانت تخشى طبعا أن يسمح فردريك لنفسه بأن يكون أداة لانتقام خصومها. ولم يكن من المحتمل أن تنحنى مثل هذه المدن أمام فردريك دونما صراع . وعلى أية حال، كانت احتمالات نجاحهم فى المقاومة تعتمد بالضرورة على موقف البابا، إذا برهن على أنه حليفهم مثلما فعل أيام بربروسا .

والواقع أن فردريك لم يستطع حتى الوصول إلى لمبارديا، سوى عن طريق البحر، بدون عبور أراضى وسط إيطاليا التى كانت ضمن أملاك البابا. وكان السماح له بالمرور الحر فى هذه المناطق ضد السياسة البابوية التقليدية كما أنه لم يكن فى صالح البابوية. ولو أن فردريك نجح فى أن يقيم حكمًا إمبراطوريًا فعالاً فى لمبارديا ، على نحو ما فعله فى صقلية، لكان استقلال كنيسة روما قد انتهى، لأنها ستكون محصورة بين المراكز الإمبراطورية فى شمال إيطاليا وجنوبها . وقد ظهر أن هذا الاستقلال السياسى أمر حيوى بالنسبة للبابوية، ليس فقط من أجل المزاعم التقليدية عن السيادة على أملاك الكنيسة، ولكن لضمان استمرار المساعى السامية التى ظلت تعمل من أجلها على مدى قرنين من الزمان تقريبا. فقد أدرك أساقفة روما تمامًا أنهم إذا صاروا مجرد صنائع بأيدى أى إمبراطور إيطالى، فإن أوامرهم خارج إيطاليا لن تجد لها أبدا آذانا صاغية من رجال الكنيسة أو العلمانيين مثلما كانت فى الماضى . ومن وجهة نظر فردريك ، كان من المؤكد تقريبا، أن أى بابا هو شخص عنيد شديد المراس، لأنهم فى علاقتهم السياسية به لم يكن ممكنا فصل حقوق المرور فى أراضى إيطاليا أو حقوق السيادة عليها عن مسائل أخرى أكبر بكثير.

ولم تكن البابوية أو اللمبارديون يرون فى أنفسهم الكفاءة لمواجهة فردريك كلاً على حدة: فى حرب على التراب الإيطالى، ولكن إذا اتحدوا فربما كانوا قوة صلبة حتى بالنسبة لملك صقلى. وكان عليه أن يبقيهم متفرقين ؛ ويناور بحيث يضع البابا فى موقف يصعب عليه أن يساند اللمبارديين . وسنحت أفضل فرصة أمامه للقيام بذلك بأن يجعل القضايا والمهام التى

أعلنتها البابوية لنفسها تبدو كما لو كانت هى قضاياه ومهامه أيضا. وكان الناس قد اعترفوا دائما بأن العلاقة بين الإمبراطورية والبابوية، وكلاهما روماني. وقوة كونية فى العالم المسيحى ، ينبغى بأن تكون علاقة تعاون متبادل ، على الرغم من أنهما غالبًا كانتا فى صراع على المستوى الفعلى. وكانت الحملة الصليبية إحدى هذه الحالات الماثلة فى أذهان الكثيرين . فإذا استطاع فردريك أن يجعل الحملة الصليبية قضيته بشكل واضح ، فربما صار من الصعب تمامًا على البابوية أن تعارض أية خطوة يتخذها فى هذا السبيل. وإذا ما استطاع أن يستولى على بيت المقدس مرة أخرى من المسلمين بجيوشه لكان من الصعب معارضة أية خطوة يقوم بها ، لاسيما ضد اللمبارديين . فقد كانت المدن اللمباردية مراكز مزدهرة للمذاهب الكاثارية والوالدنسية المنشقة. فإذا أمكن لفردريك أن ينجز هناك ما دعا إنوسنت الثالث لإنجازه بحملة صليبية فى لانجدوك ، فكيف يمكن لخليفة إنوسنت أن يشكو؟

وقد تطلب الاستمرار على هذا الخط السياسى، دون أن تنكشف مراوغته، مهارة دبلوماسية عالية ، وكان فردريك يتمتع بقدر كبير من هذه المهارة، وأخذ شارة الصليب رسميا سنة ١٢١٥م؛ وعلى مدى عشر سنوات عمل على كسب موافقة البابا على تأجيل الوفاء بقسمه الصليبى حتى يستعيد النظام فى ألمانيا أولا ثم فى صقلية. وفى سنة ١٢٢٥م، وأخيرا، وافق على الرحيل دونما تأخير إلى الأرض المقدسة، إذ منح مهلة سنتين للإعداد للحملة. وفى هذه السنة تزوج بولاندا مما جعله يحمل لقب ملك بيت المقدس. وكانت الاستعدادات لحملته هى الهدف الظاهرى لاجتماع مجلسه الاستشارى الذى عقد فى كريمونا سنة ١٢٢٦م. وقد راعى جدول أعماله التوازن الدقيق بين مصالح الكنيسة ومصالح الإمبراطورية : فقد تمت مناقشة ترتيبات الحملة الصليبية ؛ ومناقشة استئصال المذاهب الدينية المنشقة؛ فضلاً عن مناقشة الحقوق الإمبراطورية فى إيطاليا. وبدا كأن الموضوع الأول والثانى كانا فى حقيقتهما ذريعتين للموضوع الثالث، وخطة لوضع لمبارديا تحت السيطرة بدعوى إرساء النظام فى الأملاك الإمبراطورية قبل رحيل الإمبراطور إلى فلسطين .

وفشل المجلس فشلاً ذريعًا لأن فردريك اعتمد على ثقته المفرطة بنفسه. ذلك أن اجتماع أتباع الامبراطور المسلحين فى كريمونا بلمبارديا، فى مجلس ينظر فى الحقوق الإمبراطورية فى إيطاليا، كان تهديدا واضحًا تمامًا للمدن اللمباردية. وتم تجديد العصبة اللمباردية بزعامة ميلانو، وأغلقت المدن ممرات الألب فى وجه الألمان القادمين لاجتماع المجلس. كما أن معاملة فردريك القاسية لرجال الكنيسة فى غمرة إعادة النظام فى صقلية أعطى للبابا هونوريوس

العذر الكافى لرفض توقيع عقوبة الحرمان الكنسى ضد اللمبارديين لإعاقتهم الحملة الصليبية حتى يتم استرضاؤه فى المسائل الأخرى. ونتيجة لذلك، لم يكن فردريك جاهزا للرحيل فى اليوم الذى حدده فى سنة ١٢٢٧م. ومات هونوريوس ، وأظهر خلفه جريجورى التاسع تفهمه لأن فردريك لم يف بوعده الصليبى. وهكذا انقلبت الموائد؛ فمنذ ذلك الحين وصاعدا كان واجب الإمبراطور الأول باعتباره مسيحيًا هو التصالح مع الكنيسة . وكان لابد لهذا الواجب أن يسبق ما عداه، سواء استئصال شأفة الهرطقة أو القيام بأية حملة صليبية.

وسار فردريك فى الاتجاه الوحيد الذى كان يمكن الركون إليه فى ظل تلك الظروف . وفى ٢٨ يونية سنة ١٢٢٨م غادر برنديزى صوب الأراضى المقدسة، دونما اعتبار لقرار الحرمان الكنسى. وبعد أن مر على قبرص ، رسا فى عكا فى السابع من سبتمبر . ولم تشهد حملته الصليبية أى قتال. وكان فردريك معتمداً على الصعوبات التى كان يواجهها السلطان الكامل الأيوبى، سلطان مصر وصاحب بيت المقدس ، والذى كان يخشى قوة الخوارزمية حلفاء ابن عمه الناصر، سلطان دمشق . واستطاع الإمبراطور أن يحصل منه عن طريق المفاوضات ، وبدون ضربة واحدة، على هدنة مدتها عشر سنوات للصليبيين، وإعادة بيت المقدس لهم مع شريط من الأرض يصل بينها وبين يافا (ولكن مع حرية المسلمين فى الوصول إلى أماكنهم المقدسة أى قبة الصخرة والمسجد الأقصى) . وهكذا أخذ الإمبراطور بيت المقدس للمسيحيين اللاتين مرة أخرى وأخيرة. وكان هذا نجاحًا مؤزراً ، ولكن الظروف التى تحقق فيها قللت من أهميته كثيراً فى عيون المسيحيين الغربيين. ولم تكن ثمة علاقة لبطريرك بيت المقدس والنظم الرهبانية العسكرية بالمعاهدة التى أبرمها الإمبراطور المحروم من الكنيسة ، كما أن بارونات الصليبيين فى فلسطين علقوا مصادقتهم النهائية عليها على مصادقة البابا. ولم يقبلوها سوى باعتبارها مناورة دبلوماسية ناجحة من جانب الإمبراطور ، لاباعتبارها نصراً مسيحيًا .

ولم يكن بوسع فردريك أن يبقى بالشرق لكى يفيد من مغامرته على نحو أفضل: ففى أثناء غيابه قامت قوات البابا والأعداء الآخرين بغزو أبوليا تحت قيادة حنا بريين والد يولاندا زوجته الذى كان فردريك قد أجبره على التخلى عن لقب ملك بيت المقدس عندما تزوجها . وما أن عاد الإمبراطور حتى تفرق شمل أعدائه ، وبات البابا جريجورى يتحرق شوقا للصلح. وحينئذ وافق البابا على المصادقة على الإتفاقية مع السلطان الكامل الأيوبى ، ورفع قرار الحرمان الكنسى عن الإمبراطور. بيد أن هذا لم يكن فى حقيقته سوى مهلة الالتقاط الأنفاس. ولأن فردريك كان قد خسر بعض أوراق اللعبة الدبلوماسية الحاسمة فى صراع سنتى

١٢٢٦-١٢٢٧م ، فإنه عاد إلى الوضع الذى كان سائداً من قبل Status quo ante أو وضع شبيه به. لقد حقق نجاحًا فى الشرق، ولكنه لم يكن نصراً مؤزرا بالقدر الكافى لجعل البابا يخجل ويمتثل دونما اعتراض. ولم يعد محرومًا ، ولكنه لم يعد ملتزما بالقسم الصليبى الذى كان الوفاء به ذريعة لإطلاق يده فى التعامل مع اللمبارديين . وقد ظهر من وعود اللمبارديين بمساندة ابنه هنرى ضد أصدقائه من الأمراء الألمان أنه لايمكن تجاهل مشكلة لمبارديا.

* * *

وفى اجتماع المجلس الإمبراطورى سنة ١٢٣٥ فى ماينز ، وهو آخر مجلس يعقد فى ألمانيا ، أوضح فردريك نيته فى حسم هذه المسألة إلى الأبد: **«إن الحجاج والشحاذين يمرون هناك بحرية، وأنا فقط، الإمبراطور ، لا أتمكن من المرور فى أملاكى»**. هكذا كانت شكواه للأمراء الذين جمعهم ليتبعوه **«وتعيد ميراث الإمبراطورية»** فى لمبارديا . وكان تقديره بأن المعاهدة التى عقدها بربروسا فى كونستانس (الميثاق الأعظم للمدن اللمباردية) قد بطلت بسبب تمرد هذه المدن وعصيانها العنيد. وكان هذا بمثابة إعلان رسمى للحرب. وكانت تلك حربًا كتب لها أن تستمر حتى بعد نهاية حياته. وإذ لم يستطع البابا دفعه إلى حملة صليبية أخرى، لم يجد بدًا من الانضمام إلى أعدائه . وقد صب الفرقاء المتنازعون فى هذا الصراع كل ما يملكون من قوة. وقد أضفت الدعاية البابوية والإمبراطورية على الصراع خاصية هستيرية باعتباره صراعًا نهائيا. فقد صورت المنشورات البابوية فردريك فى صورة الوحش الذى يجىء فى نهاية العالم على نحو ما يصوره سفر الرؤيا*. أما الدعاية الإمبراطورية فقد صورته فى صورة الإمبراطور المنقذ، والذى جاء به القدر لإعادة السلام إلى روما وإيطاليا ، كما لعبت الدعاية الإمبراطورية على أنغام النبوءات القديمة القائلة بأن المسيح الدجال سوف يجلس يوما على كرسى القديس بطرس، أى العرش البابوى. ولأن سكان إيطاليا كانوا فى حال من الإثارة الشديدة بدعوة الدعاة الذين كانت تلهمهم الرؤى والأحلام المقدسة المنسوبة إلى رجال مثل الراهب يواقيم، فإنهم كانوا مشدودين إلى الاهتمام بهذا الموضوع .

---

* هو آخر أسفار العهد الجديد من الكتاب المقدس ويتكون من إثنين وعشرين إصحاحًا يتحدث عن مشاهد يوم القيامة حتى تصل إلى نهاية العالم الدنيوى، والدخول إلى العالم الآخر حيث يرى يوحنا «... المدينة المقدسة أورشليم نازلة من عند الله مهيأة كعروس مزينة لرجلها... » وتقوم مادة هذا السفر على قصة الوحوش الأربعة التى شاهدها يوحنا فى حلمه. والوحش الرابع هنا بمثابة النذير بقدوم المسيح الدجال. ولهذا استخدمته البابوية فى الدعاية ضد فردريك . (المترجم)

على الورق كانت الموارد المادية للإمبراطورية هى الأكبر. فبعد انتصار فردريك الحاسم على أهالى ميلانو سنة ١٢٣٧م فى كورتنوفا ، ظهر حقًا أنه قد يحقق أهدافه بسرعة عن طريق القوة الخالصة. ولكنه فشل سنة ١٢٣٩م أن يستولى على بريسكيا Brescia بعد حصارها ، وكما يحدث غالبًا ، فإن النجاح فى صد الهجوم مرة بقوّى المقاومة المتعثرة. وكان الوقت ضد الإمبراطور. إذ أن موارد صقلية لم تكن تكفى لتمويل حرب طويلة المدى . وبعد أن ظهر المغول على الحدود الشرقية لألمانيا ، فقد الأمل فى أية مساعدة من هذه المنطقة. وبقيت لمبارديا ميدان المعركة، ولكن الإمبراطور كان مضطراً باستمرار إلى الاعتماد على حلفاء غير موثوق بهم: مثل أهالى كريمونا أعداء ميلانو القدامى : وإكلينو دارومانو الذى واصل نضال عائلته ضد عائلة إيستى تحت غطاء حرب الإمبراطور؛ فضلا عن حزب كامل من «الجبلليين» لم تكن موارده موجهة لخدمة الإمبراطور وإنما لتحقيق مآربهم الخاصة. وكان تأييدهم لفردريك يلزم أعداءهم بمساندة البابا قدر طاقتهم ، كانت الكفاءة القاسية التى تميز بها نواب فردريك فى تسكانيا وغيرها من المناطق اللمباردية التى سيطر عليها قد أوضحت أن ما أسماه فردريك «إعادة حكم العدالة» كان فى الحقيقة هو ما يسميه اللمبارديون الطغيان الصقلى. وفى ذلك الحين أدرك الشمال الإيطالى من خلال الممارسة الفعلية ما الذى كانت تعنيه فكرة فردريك عن السيادة العلمانية ، كما تأكد أن المدن كانت تحارب فى سبيل تراثها وأسلوب حياتها التقليدى بأسره .

لقد مزّق فردريك صورة غريبة رسمها لنفسه باعتباره إمبراطور مسيحيًا عندما كان يقود حزب الجبللينيين ، ويظهر محاطًا بالقوات الإسلامية والحريم ومجموعة حيواناته الغريبة، فقد دعا الناس بقوله **«خلوا القضبان من أبوابكم حتى يأتى القيصر اللى تخرس الأرواح الشريرة عند اقترابه بعد أن اضطهدتكم طويلاً»** وعندما لقى هزيمته الفادحة أمام بارما عام ١٢٤٨، كان قد علّم الناس أن يخشوا هذا القيصر تمامًا، لا أن يحبوه. وفى ذلك الحين بدأ حتى المقربون منه يسعون للقضاء عليه مثلما فعل بيرو ديلا فينا وطبيبه الخاص الذى حاول أن يدس له السم، لقد تمخضت أحلامه ببناء الإمبراطور عن وهم صقلى، يلفه الزمن والخوف والإرهاق من الصراع .

ولأن موارد البابا المادية كانت أقل كثيرا ، خاض البابوات الصراع باستماتة أكثر من الإمبراطور . وعندما كانوا يعجزون هم وحلفاؤهم عن مواجهته فى ميدان القتال كانوا يعملون فى كل مكان لتدميره ويعزلون مؤيديه عن المسيحية نفسها . ففى سنة ١٢٣٩م عاد جريجورى لتوقيع عقوبة الحرمان الكنسى على فردريك من جديد : وفى سنة ١٢٤٠م خلع على الحرب

ضده مكانة الحملة الصليبية . وحاول جريجورى وخليفته إنوسنت الرابع أن يشعلوا الثورة ضده فى كل من صقلية وألمانيا . ولم يكن حظهم من النجاح فى صقلية كبيراً ولكنهم كانوا أكثر حظاً فى ألمانيا . فقد كان لدى البابا الكثير مما يقدمه للأمراء الألمان بماله من سلطة رسولية على رجال الكنيسة المشاغبين ، وسلطته فى أن يزيح عن العلمانيين العقبات التى تعترض المصاهرات السياسية المربحة بين أسر النبلاء، وكان هذا أكثر مما كان فردريك يستطيع تقديمه لهم ، وكان قد قدم لهم بالفعل كل ما يمكنه . وفى سنة ١٢٤٥م كان إنوسنت الرابع مستعداً للخطوة الأخيرة والحاسمة . إذ كان قد هرب من إيطاليا إلى ليون فى فرنسا ، ودعا إلى عقد مجمع كنسى يمكن عقده بسلام هناك بعيدا عن جيوش فردريك . وكان قد بنى حزباً كافيا بين أمراء ألمانيا لكى يكون متأكداً من انتخاب ملك مضاد يكون صنيعة بابوية . وفى حضور المجمع وفى حضور المبعوث الخاص لفردريك ، المستشار الإمبراطورى تاديوس سويسا Thad-deus of Suessa ، أعلن فى هدوء خلع الإمبراطور . وبعد ذلك بوقت قصير ، تم انتخاب هنرى راسب أمير ثورنجيا إمبراطورا بتأييد من الحزب البابوى فى ألمانيا . وهكذا امتدت الحرب إلى كافة أنحاء الممتلكات الإمبراطورية . وبعد ذلك بسنوات ثلاث تم القضاء على جيش فردريك خارج بارما فى لمبارديا . ومات فردريك بعد ذلك بعامين فى فيورتينو وسط إيطاليا ، بعد أن ظل يقاتل حتى النهاية .

ولم تنته الحرب بموت الإمبراطور . إذ كان مايزال هناك ملكان فى ألمانيا : ابنه كونراد الذى انتخب سنة ١٢٣٧م وورث كل إمبراطوريته ، ووليم الهولندى الذى انتخبه أعداء كونراد عندما مات هنرى راسب ١٢٤٧ . وفى إيطاليا لم يكن هناك ما يدعو الجبلليين فى لمبارديا وتسكانيا لإلقاء سلاحهم ، لأن أعداءهم ظلوا على حالهم . وفى صقلية كان الهوهنشتاوفن ما يزالون فى الحكم بعد أن وطد مانفرد ، الابن غير الشرعى لفردريك ، مركزه مساعدا لكونراد . وبعد التجربة التى استغرقت حياة الجيل الأخير بأسرها ، لم يكن بمقدور البابوات أن يستريحوا إذا بقى الحال كذلك . وطالما كان لأسرة الهونشتاوفن أبناء ، فإنهم يمكن أن يدعوا لأنفسهم حق وراثة ممتلكات فردريك كلها ، وربما استطاعوا أن يستعيدوها يوماً ما . ولذلك فإن موت كونراد سنة ١٢٥٤م لم يكن مبعث راحة بالنسبة للبابوات ، لأن مانفرد جعل نفسه ملكاً على صقلية ، كما ترك كونراد ابنا فى ألمانيا هو كونرادين . والواقع أن كونرادين كان صغيرا جدا بحيث لم يعره الناخبون أى اهتمام ، ولكنه كان من «جنس الأفاعى» ؛ وربما استطاع ذات يوم أن يتطلع إلى ميراث جده .

* * *

وعندما مات كل من كونراد ووليم الهولندى ، تركت ألمانيا لتختار لنفسها واحداً من خليفتى وليم المتنافسين ، ريتشارد كورنول وألفونسو القشتالى . وفى إيطاليا كان كل شئ يعتمد على عشور البابا على المساعدة الخارجية لكى يقضى على مانفرد ومؤيدى أبيه الجبللينيين ، لأنه كان على درجة من القوة بحيث لا يمكن للبابوات أن يواجهوه بمفردهم . وكان البابا إسكندر الرابع يأمل فى الكثير من الملك الإنجليزى هنرى الثالث الذى جذبه احتمال أخذ التاج الصقلى لابنه الأصغر إيدموند . وتسببت ثورة البارونات الإنجليز سنة ١٢٥٨م فى انهيار هذا المشروع . واستمر سعى البابوية على حين كان مانفرد يوطد مركزه . وأخيراً وجد البابا إربان الرابع فى تشارلز ، كونت أنجو وشقيق لويس ملك فرنسا أداة أكثر حسمًا من هنرى ملك إنجلترا ، وإن كان أقل منه ثروة .

وكرست البابوية كل مواردها من الثروة المادية والسلطة الروحية ، فى سياق جهدها الأخير لإنهاء حملتها الصليبية ضد الهوهنشتاوفن نهاية ظافرة . ولوح البابا بأكبر المصالح المادية فى إيطاليا خلف تشارلز عندما هدد بإعفاء الدائنين فى بنوك تسكانيا من الأيمان التى التزموا بها. وتم تحذير العالم التجارى كله من أن تقديم الدعم لمانفرد قد يؤدى إلى تدمير الثروات الخاصة . مثل هذه الجهود المحمومة ضمنت لتشارلز القوات والأموال والمرور الآمن فى إيطاليا. ووصل روما سنة ١٢٦٥م وتم تعيينه سناتور . وفى بنفنتم Beneventum ١٢٦٦م حقق نصراً مدوياً على مانفرد الذى مات فى الطريق إلى قواته . وبعد ذلك بسنتين تم سحق محاولة كونرادين المشئومة مع عصبة من أتباعه الألمان ، لإحياء حقوق الهوهنشتاوفن فى إيطاليا فى معركة تاجلياكوزو Tagliacozzo. أما كونرادين الذى كان عمره ست عشرة سنة فقد تم أسره ثم أعدم . كانت هذه نهاية حروب البابوات ضد عائلة فردريك ، كما كانت بداية حكم أسرة أجنبية جديدة فى صقلية ؛ وهى عائلة آنجو .

كانت معركة تاجليا كوزو علامة على نهاية عصر : إذ ماتت الفرص الضئيلة لإعادة إمبراطورية فردريك بموت كونرادين . ولم يحدث أبدا بعد ذلك أن واجهت البابوية منافسًا فى العالم المسيحى الغربى وطوال العصور الوسطى، كانت مزاعم البابا فى السيادة الكونية والسلطة السياسية تصمد للمقارنة مع ما حققه فردريك. لقد أحرزت البابوية وحلفاؤها نصراً عظيما، ولكن نتائج هذا النصر لم تكن كلها لصالح البابوية. فبسبب نقص مواردها، كانت مرغمة على أن تلقى بثقلها للحصول على مكاسب عاجلة؛ مما حتم عليها التضحية بالسيطرة على النتائج النهائية للصراع . ويمكن أن نرى النتائج الحقيقية فى نهاية الصراع واضحة تماماً من خلال فحص ما تركته الحرب فى ممتلكات فردريك المختلفة عندما انتهت سلطة الهوهنشتاوفن .

ففى ألمانيا بقى اسم الإمبراطور ، ولكنه لم يكن أساساً لبناء ملكية قوية من جديد. إذ أن المزايدات المتتالية من فردريك والبابوات لصالح الأمراء قد نقلت السلطة الحقيقية إلى أيدى الناخبين . وكان فردريك يأمل فى أن يجعل قوة الأمراء الإنتخابية سنداً لمبدأ وراثة العرش بالتأكيد على أن الوريث ممن تجرى فى عروقه الدماء الملكية يجب أن يتم انتخابه دائمًا فى حياة أبيه. ولكن إنوسنت الرابع علّم الأمراء أن مصالحهم ليست فى استمرار سلطة عائلة واحدة سوف تسعى ذات يوم إلى تقويض امتيازاتهم التى كانت قد منحتها لهم لكسب تأييدهم . وتمثلت النتيجة فى ضياع خيط استمرارية الحكومة الملكية الذى لم يكن يضمنه سوى حق وراثة العرش . أما ما تبقى فهو استمرار حكومات الأمراء فى أراضيهم المحدودة إلى جانب استمرار المنافسات والخصومات بين عائلات الأمراء . وانكمشت الملكية الألمانية إلى أن صارت جائزة تسعى إلى نيلها العائلات النبيلة التى رأت فيها وسيلة لتحقيق ميزة مؤقتة على خصومها. أما الإمبراطورية الإنتخابية التى كانت فى حقيقتها تجميعا للإمارات نصف المستقلة ، فلم تكن تجمعها وحدة حقيقية تجعل منها قوة فى السياسات الأوروبية . ومنذ ذلك الحين صار تاريخ ألمانيا قصة من قصص الصراع الداخلى حول أمور كانت بالضرورة منفصلة فى غالب الأحوال عن الشئون الخارجية .

وفى صقلية حكم شارل أنجو ، بعد انتصاراته على مانفرد وكونرادين ، نفس الأراضى التى كان يحكمها الملوك النورمان قبله بزمن طويل . ولكن مملكته كانت قد صارت فقيرة بسبب الاستنزاف الهائل لمواردها لتمويل حروب الإمبراطور الكبرى ، ولم يبق لها سوى ظل من رفاهيتها ورخائها السابق . وفضلا عن ذلك ، كانت طموحات فردريك وتحالفات مانفرد فى وسط إيطاليا وشمالها قد نقلت بؤرة الحكم من الجزيرة إلى أراضى الداخل ، واحتلت ميلانو مكان بالرمو باعتبارها مركز الإدارة الملكية . ولم يلتفت أحد إلى ما تعانيه الجزيرة تحت حكم اثنين من الهوهنشتاوفن ، كما أن طموحات شارل كانت كبيرة مثل طموحات سابقيه فضلاً عن أن طلباته لم تكن أقل من طلباتهم إلحاحًا . وهكذا غُرست بذور الثورة التى اندلعت سنة ١٢٨٢ وعرفت باسم صلوات الغروب الصقلية Sicilian Vespers ، عندما حمل البارونات وأهالى المدن فى الجزيرة السلاح للإطاحة بحكم أسرة أنجو واستدعوا أميراً من أرغونة ليحكمهم بدلاً من ذلك* . وعلى مدى سنوات طويلة بعد ذلك اشتبكت المملكتان القائمتان فى

* أنظر التفاصيل الفصل التالى : رقم ١٣ .

صقلية على نحو ما حدث فى ألمانيا ، إذ انتهى الصراع البابوى الإمبراطورى بتحويل سلطات ما كان يوما مملكة موحدة إلى صراع داخلى ضد بعضهما البعض .

وفى شمال إيطاليا ووسطها كانت نتائج النهاية مماثلة . ولكن لأن السلطات والمصالح هناك كانت أكثر تعددا عندما بدأت متاعب فردريك مع البابوية ، كانت الفوضى فى النهاية أكبر وأشمل كثيراً . فقبل البداية كانت الخصومات القديمة قد باعدت بالفعل بين كل مدينة والمدن الأخرى ، كذلك خاصمت كل عائلة إقطاعية العائلات الأخرى . كما كانت هناك منازعات أيضا داخل المدن ، فى لمبارديا وتسكانيا على السواء . وتسببت المنافسات العائلية فى تقسيم الأقليات الحاكمة ؛ ودخلت الأرستقراطية التجارية الممثلة فى نقابات التجار صراعًا ضد النبلاء القدامى ؛ فضلاً عن أن الفرقاء المتنافسين بين الأقوياء من رجال الكنيسة والديماجويين كلهم كانوا يزايدون للحصول على تأييد الشعب الساخط . وكان الجميع يسعون إلى الحصول على ما يمكن من مزايا بالوقوف إلى جانب البابوية أو الإمبراطورية عندما نشب الصراع الكبير بينهما.

وفى غمار الفوضى الناجمة عن هذا الموقف كان تغيير الولاءات أشبه بقطع المرايا الصغيرة التى تعكس ألوانا متضاربة ، ولم يكن لهذا علاقة بالقضايا التى تسببت فى الحرب . وكانت علامة الجلفيين Geulf (الدالة على الكنيسة) وعلامة الجبللينيين (الدالة على الإمبراطورية)* قد صارتا شارتين على ولاءات عائلات بعينها إلى جانب النقابات والأفراد فى مدن معينة .

ومع هذا فإن هاتين العلامتين صارتا فى غاية الأهمية . ومع غياب أية سلطة خارجية (مثل الإمبراطورية) تكبح جماح الفوضى ، صارت الفوضى من الأمراض المستوطنة ، وتأصلت المنازعات والخصومات . وأخذت الجماعات المتنافسة ، التى كان التوازن بينها لايسمح بنجاح أى منها منفردة ، تسعى لتقوية مركزها من خلال التنظيمات الكوميونية . ولأن العائلة كانت هى الوحدة الإجتماعية الأساسية المعترف بها فى القانون العرفى لمعظم المدن ، فقد صارت هذه

* هذه هى الصيغ الإيطالية للكلمة الألمانية ولف Welf والكلمة الألمانية فابلينجن Waiblingen ، اللتين يقال إنهما استخدمتا صيحتى حرب من جانب الفلفيين المنافسين فى سكونى والهوهنشتاوفن (فابلينجن كانت قلعة هامة من قلاع الهوهنشتاوفن . وكان الفلفيين فى ألمانيا وتسكانيا حلفاء للبابوية) (المترجم)

الجماعات وراثية ومستمرة بذاتها. وقد أفضت صراعاتها إلى حالة مزمنة من عدم الاستقرار لفترة من الزمان . وأولئك الذين خسروا واضطروا إلى ترك المدن مؤقتاً ، والذين لم يكونوا أقل تنظيماً من أعدائهم ، أخذوا معهم إلى المنفى ضمن مؤسسات «حزبهم» كادر الحكومات المتنافسة . وكانت النتيجة أن الثورة فى المدن الإيطالية لم تكن تواجه مشكلة تكوين مؤسسات جديدة ؛ لأن التنظيم الحزبى كان يجعل هذه المؤسسات جاهزة وفى متناول اليد . وعلى المدى الطويل فرضت الأحزاب التى تكونت أثناء حروب فردريك وما بعدها شكل الظروف المستقبلية فى إيطاليا . وتدين العائلات التى كان لها أن تسيطر طويلا على شئون فلورنسا و جنوا بسلطتها للتأثير الطاغى لأحزاب الجلفيين والجبلنيين على التوالى. أما فى لمبارديا فإن عائلة بالافيتشينى Pallavicini وعائلة داروماتوس da Romanus ، اللتين تحالفتا مع الجبللينيين فى المدن بمنطقتهما ، بدأتا فى بناء سلطتيهما على أساس أنهما كانتا تحتلان منصب النائب الإمبراطورى العام فى إمارتيهما . وكانتا بمثابة أول شكل من أشكال الطغاة الذين حكموا فى عصر النهضة.

والحقيقة أن هذه الأحزاب قد اكتسبت أهمية فائقة بحيث لم يكن بوسع أية عائلة إيطالية صاحبة نفوذ أن تبقى بمنأى عنهم . وعادة ما كان البابوات أنفسهم من النبلاء الإيطاليين ، كذلك كان كرادلتهم . وكان من المحتم أن تتسرب الصراعات الحزبية إلى البلاط البابوى Curia . وهكذا ، كان كرادلة كولونا أواخر القرن الثالث عشر يمثلون المصالح الجبللينية فى البلاط البابوى ، كما صاروا زعماء المعارضة الجاهزة داخل الهيئة الحاكمة فى كنيسة روما نفسها . والحقيقة أن البابوات لم يكسروا سلطة الإمبراطورية فى إيطاليا فقط ؛ ولكنهم كسروا القوة الوحيدة القادرة على كبح جماح المنازعات الإيطالية المحلية ومنعها من تهديد سلطة البابوية نفسها .

وفى جميع أنحاء الإمبراطورية التى كان فردريك يحكمها ، كانت نتائج صراعات البابوات ضده واحدة ؛ أى تمزيق وتشتيت وحدة السلطة السياسية . وكان هذا ثمناً فادحاً للنصر بالنسبة للبابوية . لقد كان توجيه الاهتمام والجهود فى شطر كبير من العالم المسيحى فى خدمة صراع ضروس هجوماً فى الحقيقة على الأسس التى بنى عليها البابوات مزاعمهم عن زعامة العالم المسيحى . وكان المفروض أن سمو الأباطرة بين الحكام المسيحيين قد بات رمزاً قيماً لوحدة العالم المسيحى فى المصالح العامة والمسعى المشترك فى هذا العالم . وإذ ظهر حينذاك

أن مزاعم الإمبراطورية حول السلطة العالمية مزاعم جوفاء تماما ، ظهر أيضا أن سلطة الكنيسة العالمية أدنى تأثيرا .

والحقيقة ، أنه كانت ماتزال هناك فكرة الحملة الصليبية . وعلى الرغم من أن الأهدلف التى كانت الدعوة إلى الحرب الصليبية تحددها فى الآونة الأخيرة قد لطخت سمعتها ، فإن الصليبية كانت ماتزال قيمة من قيم المسيحية الغربية العامة . وبعد تاجلياكوزو بست سنوات ، دعا جريجورى العاشر لعقد مجمع كنسى عام فى ليون لمناقشة توجيه حملة صليبية جديدة إلى فلسطين . ومثلما كان الأمر بالنسبة لفردريك من قبل ، ظهر أمام هذا البابا أيضا أن الحملة الصليبية هى الوسيلة المثلى لرأب الصدع الذى أصاب معنويات الناس فى أوروبا المسيحية .

١٣- الحروب الصليبية فى القرن الثالث عشر

يختلف تاريخ الحروب الصليبية فى القرن الثالث عشر اختلافًا بيِّنا عن تاريخها فى القرن الثانى عشر. إذ لم تعد مملكة بيت المقدس الفرنجية ومصيرها محور الاهتمام، لأن هذه المملكة كانت قد توقفت عن الأداء الفعال باعتبارها وحدة سياسية . وبدلاً من ذلك حكمت المشهد طموحات ومغامرات القوى الكبرى والأمراء الكبار. فقد قاد الحملات إلى الشرق كل من الإمبراطور فردريك الثانى والملك لويس التاسع ملك فرنسا، وريتشارد الأخ، وإدوارد ابن هنرى الثالث ملك إنجلترا . وربما يكون شارل أنجو قد وجه اهتمامه إلى مشروعات أكبر من مشروعاتهم على الرغم من فشله فى النهاية فى تنفيذ مشروعاته. وكانت اهتمامات كل من هؤلاء بالحملة الصليبية تختلف عن اهتمامات الآخرين ، ولذلك تعثرت بسبب السياسات الداخلية فى أوروبا لدرجة أنها غالبًا ما لم تخرج إلى حيز التنفيذ. بيد أن أفكارها كانت محكومة على الدوام بالظروف السياسية السائدة فى الشرق اللاتينى وبين الجيران البيزنطيين والمسلمين، وربما تتجلى الصورة بوضوح أكثر إذا بدأنا بمناقشة هذه الأمور.

فعلى مدى النصف الأول من القرن كان الفرنج ما يزالون مسيطرين على معظم مدن الساحل ببلاد الشام، من عسقلان حتى بيروت. وكانت عكا عاصمة مملكتهم بعد أن استرد المسلمون بيت المقدس. وفى معظم الأوقات كان ملوكهم إما أطفالاً أو غائبين؛ وكان الأوصياء هم الذين يقومون بواجبات الحكم ، ويعينهم بارونات المحكمة العليا الذين يحكمون السيطرة عليهم. ولم يكن ممكنا فى هذه الهيئة الحصول على موافقة جماعية على سياسات مستمرة. وثمة مصدر

آخر من مصادر ضعف المملكة تمثل فى المنافسة المشتعلة بين أكبر تنظيمين حربيين صليبيين، أى الداوية والاسبتارية، اللذين كانا أغنى ملاك الأراضى فى المملكة وكانا يسيطران على معظم القلاع فى الداخل. وكانت المنافسة التجارية بين البنادقة والجنويين أكثر خطورة ومرارة، لأن تجار المدينتين كانوا أقوى وأغنى عناصر السكان فى المدن الساحلية. فقد وصلت عداوتهم المحلية إلى الحد الذى لم يكن بوسع مدنهم الأصلية أو البارونات أن يسيطروا عليه، كما كانت هناك فترات طويلة خاضوا فيها غمار الحرب ضد بعضهم البعض. ولم تكن هذه المتاعب قائمة فى مدن بلاد الشام فحسب، ولكن فى جميع أنحاء شرق المتوسط.

ولم تكن قوة اللاتين الحقيقية فى الشرق ببلاد الشام، وإنما فى قبرص وأراضى الإمبراطورية البيزنطية. فقد كانت قبرص تحت حكم آل لوزنيان مزدهرة وغنية، كما كانت عاصمتها فاماجوستا تتحول إلى مركز تجارى هام. وكان معظم بارونات الكيان الصليبى ببلاد الشام يملكون إقطاعات فى قبرص، كما كان بعضهم مثل آل إبلين Ibline أقوياء جدا هناك. وقد كشفت نظم الحكم فى مملكة قبرص ، وحماسة أرستقراطيتها، أنها الوريثة الحقيقية لمملكة بيت المقدس القديمة. وطوال القرن كانت بمثابة موقع متقدم تجتمع به الجيوش الصليبية وتضع خططها النهائية. وقد أسهم ملك قبرص وفرسانه فى الحملة الصليبية الخامسة سنة ١٢١٨م، كما حاربوا بجانب لويس التاسع ورجاله الفرنسيين فى الحملة السابعة ٤٩-١٢٥٠م وكانت السيطرة على قبرص ذات قيمة كبيرة بالنسبة للصليبيين: وكانت المشكلة الوحيدة هى أن الفرنج فى الجزيرة لم يكونوا أقوياء بالقدر الذى يمكنهم بالقيام بمغامرات دون مساندة من الخارج.

أما أباطرة القسطنطينية اللاتين الأواخر فلم يكونوا أبداً على درجة كافية من القوة بحيث يساهمون فى الحملات الصليبية فى أى مكان. فمنذ سنة ١٢٣٥ وصاعداً ، بعد أن أعاد البيزنطيون فى نيقية توطيد أنفسهم على شاطىء البسفور الأوروبى، كانت القسطنطينية تحت التهديد البيزنطى المستمر باستردادها من اللاتين، وأمضى آخر الأباطرة اللاتين، بلدوين كورتناى Baldwin II Courtenay ، معظم سنى حكمه الطويل فى الغرب ، ساعيا للحصول على مساعدة عسكرية؛ ولم يحقق نجاحًا كبيراً، لأن البنادقة كانوا الشعب الوحيد الذى يمكن أن يربح الكثير من مساعدته. والواقع أنه بدون أسطولهم لكان اللاتين قد خسروا القسطنطينية بأسرع مما حدث . ففى عام ١٢٥٩ لقيت القوات البرية المشتركة للإمبراطورية اللاتينية هزيمة ثقيلة أمام بلاجونيا . وبعد ذلك بعامين، عندما كان الأسطول والإمبراطور بعيدين عن

العاصمة، دخلها جنود ميخائيل باليوجوس ، بدون حرب تقريبا . وكان اللاتين عاجزين تماماً عن العودة. ومرة أخرى ، عاد الإمبراطور البيزنطى يحكم فى القسطنطينية منذ ذلك الحين فصاعداً .

كان المركز الحقيقى للقوة اللاتينية فى أراضى الإمبراطورية البيزنطية موجوداً فى شبه جزيرة المورة، بعيداً عن القسطنطينية . كان جيوفرى الأول وجيوفرى الثانى ووليم فيلهاردوين حكاماً ناجحين ومقتدرين فى إمارة آخايا Achaea الكبرى؛ وكذلك كان أتباعهم الإقطاعيون دوقات أثينا من عائلة لاروش . وكان بلاط آل فيلهاردوين مشهوراً ، ليس فى الأراضى البيزنطية فحسب، وإنما فى الغرب أيضا ، باعتباره مدرسة للفروسية، ووفد إليه فرسان كثيرون من بورجاندى وشمبانى لكى يتتلمذوا فى فنون السلاح والشرف. كان الفرنج فى الإمبراطورية اللاتينية ، مثل فرنج قبرص يعتزون بتقاليدهم الصليبية، وانضم كثيرون منهم إلى حملة لويس التاسع المشئومة كما أنهم كانوا ، لسوء الحظ، أفضل الأتباع الذين كان يمكن للأباطرة اللاتين أن يعتمدوا عليهم فى الخدمة العسكرية. وتم أسر وليم أمير آخايا فى بلاجونيا سنة ١٢٥٩م ، ولم يطلق سراحه سوى بعد استعادة البيزنطيين للقسطنطينية بشرط أن يسلم للبيزنطيين عدداً من قلاعه من بينها قلعة ميسترا الكبيرة. ومنذ ذلك الحين التزم هو وحلفاؤه موقف الدفاع .

وإذا ما نظرنا فى أية خريطة حديثة إلى موارد الأملاك اللاتينية شرق المتوسط لبدت لنا موارد رائعة. ولكن هذا المظهر خادع؛ من ناحية لأن السيادة اللاتينية فى كثير من الأماكن لم تكن سوى سيطرة مهزوزة على أراض خاضعة لحكمهم إسمياً فقط، ولكن السبب الأكبر فى ذلك كان راجعًا إلى أن اللاتين لم يكونوا متحدين . فقد اعترفت كل من عكا وقبرص بملك غير الملك الذى اعترفت به الأخرى. كما أن أمراء أخايا كانوا أتباعا إسميين لأباطرة القسطنطينية اللاتين ، ولكنهم كانوا بعيدين عنهم بحيث كانوا مستقلين حقيقة. وفضلاً عن ذلك كانت هناك فجوة أعمق تفصل بين الأرستقراطيين من ناحية والتجار وقراصنة البندقية وجنوة من ناحية أخرى، سواء فى الخلفية أو فى النظر العامة ، وكان أولئك التجار والقراصنة يديرون شئون التجارة ببلاد الشام وحاربوا بعضهم بعضا من أجل السيطرة على الأرخبيل اليونانى. ولو أن موارد اللاتين فى الشرق استخدمت لصالح المشروع الصليبى لوجدت قوة توحيدية لكى توجه هذه الموارد فى جهد مشترك.

كان حلم تكوين إمبراطورية بحر متوسطية بتوحيد الأملاك اللاتينية فى الشرق موضوعًا دائمًا فى تاريخ الحروب الصليبية فى القرن الثالث عشر. وكان فردريك الثانى يرى أن هذا أمر

ممكن لأن زواجه جعل تاج مملكة بيت المقدس من حقه كما كان من المفروض أن تكون مملكة قبرص تابعة للإمبراطورية. ولم يكن قادرا على أن يقضى الوقت الكافى فى الشرق ليحقق أى شىء من حقوقه على أية حال. وبقى لويس التاسع هناك مدة أطول. وكان أكثر نجاحًا من فردريك فى كسب الولاء الشخصى من الأرستقراطية الفرنجية ، ولكنه لم يكن يتطلع إلى الحصول على ممتلكات شخصية له فى الشرق. أما شارل أنجو، شقيق لويس الذى حل محل فردريك فى صقلية، فكان يتطلع إلى مثل هذه الممتلكات ، وقد حكمت المشروعات التى أعدها لتحقيق ذلك سياسته على مدى خمسة عشر عاما. وفى نهاية الأمر، كان مصير الحركة الصليبية يعتمد على نجاحه إلى حد كبير . كما كان هذا المصير، بطبيعة الحال، رهنًا بالظروف السائدة بين جيران الفرنج فى الشرق، وهو ما كان باستمرار عاملاً حاسمًا فى تاريخ الحركة الصليبية. وقد حدثت تغييرات غاية فى الأهمية فيما بين زمن فردريك وزمن شارل .

فى خيمة على ضفاف نهر أونون بشرق سيبيريا ، ولد طفل سنة ١١٦٢م قُدر له أن يكون معروفًا للعالم باسم جنكيز خان. وبحلول سنة ١٢٠٦م كان هذا الصبى قد جعل من نفسه إمبراطورا على كل المغول الذين كانوا أقوى مجموعة من قبائل البدو الرحل فى سهوب آسيا الإستبسية. وعندما مات سنة ١٢٢٧م كانت غزواته قد مدت نطاق إمبراطوريته من نهر الدنيبر حتى بحر الصين، ووسعها إبنه أوغطاى إلى مناطق أبعد من ذلك . واجتاح أحد جيوشه روسيا تحت قيادة مساعده باتوخان ، وفى سنة ١٢٤١م، هزم ملك المجر وظهر على حدود ألمانيا. وفى العام التالى جاء الدور على الأتراك السلاجقة فى الأناضول الذين تمزقت قوات سلطانهم فى معركة كوزى داغ بين طرابيزون وسباستيا. وفى ذلك الحين شعر حكام بلاد الشام بوطأة الغزوات المغولية؛ وزاد من وقعها جماعات الجنود الخوارزمية الذين كانوا قد فروا عندما اجتاح جنكيز خان امبراطوريتهم فيما وراء النهر بخراسان. واقترب الخطر المغولى أكثر فى عهد منجو خان الذى صار هو الخان الأعظم على المغول سنة ١٢٥١م. وفى سنة ١٢٥٦م قام مساعده هولاكو بغزو فارس، ثم غزا بغداد ونهبها سنة ١٢٥٨م وتم إعدام آخر الخلفاء العباسيين السنة. وفى سنة ١٢٦٠م، عندما مات منجو خان ، سقطت دمشق وحلب، وبدا كما لو أن بلاد الشام ستصير ولاية مغولية.

والحقيقة أن الغزوات المغولية كانت قد وصلت إلى منتهاها غربا وجنوبا فى ذلك الوقت فلم يحتل المغول بلاد المجر أبدا؛ إذ انسحبت قواتهم بعد موت أوجاتيو سنة ١٢٤١م إلى داخل روسيا التى ظل أمراؤها يعترفون بسلطة الإيلخانات (أى التابعين للخان الأعظم) من أبناء

القبيلة الذهبية سادة عليهم على مدى القرنين التاليين. وصار سلاجقة الروم فى الأناضول أتباعا للمغول مثل الروس، ولكنهم لم يبقوا على ذلك مدة مماثلة. ومن بين أطلال السلطنة السلجوقية ، كان عثمان مؤسس الأسرة العثمانية قد جعل من نفسه أميراً مستقلاً سنة ١٣٠٠م. أما فى بلاد الشام فقد كانت السيطرة المغولية قصيرة العمر. فقد أرغم المغول على التقهقر إلى أعالى العراق والجزيرة بعد هزيمتهم النكراء على أيدى المماليك المصريين بقيادة السلطان قطز فى عين جالوت سنة ١٢٦٠ *.

وقد جلبت الغزوات المغولية ثورة فى نموذج القوة فى المنطقة العربية الإسلامية . ورغم طردهم من بلاد الشام فقد ظلوا قوة يحسب حسابها. ولأنهم حيدوا سلاجقة الروم فى الأناضول فقد ساهموا بقدر كبير فى بعث البيزنطيين الذين أتيحت لأباطرتهم فى نيقية حرية العمل فى أوروبا لكى يستردوا القسطنطينية . والأهم من ذلك ، أن غزواتهم دمرت سلطنة الأيوبيين فى دمشق الذين كانت منازعاتهم ضد أقاربهم الأيوبيين فى مصر تستخدم لتحقيق مآرب الصليبيين. وقد تصادف هذا بشكل ما مع إنقلاب فى القصر أطاح بآخر الأيوبيين، وحل المماليك أنفسهم محلهم. وكان سلاطين المماليك حكامًا أكفاء قادرين ، كما كانوا مسلمين متعصبين فى أيامهم الأولى بحيث كان ذلك أحد الملامح الأساسية لسلطتهم. وكانت المذابح التى راح ضحيتها أعداد لاتحصى من المؤمنين المسلمين فى المدن التى كان المغول قد غزوها ونهبوها فى فارس وخراسان سببًا فى بث الرعب فى كل أنحاء العالم الإسلامى. وتطلع المؤمنون إلى مصر طلبا للمساعدة. وفى القاهرة تم إعلان عودة الخلافة بتنصيب أبى القاسم أحمد الذى قيل إنه من بيت الخلافة العباسية وتمكن من الهرب خارج بغداد**. وهكذا لم يكن المماليك جيرانًا مريحين بالنسبة للفرنج فى عكا؛ إذ أن إحكام السيطرة على بلاد الشام كان أمراً حيويًا لسلاطين مصر لكى يحتووا المغول عند نهر الفرات بدلاً من ضفاف نهر النيل .

---

* ذكر المؤلف أن السلطان بيبرس هو الذى قاد المعركة ضد المغول فى عين جالوت بفلسطين، ولكن الحقيقة أن السلطان آنذاك كان هو المظفر قطز. حقيقة أن صاحب الخطة وصاحب الفضل الأكبر فى السلطان فى النصر كان بيبرس الذى كان مايزال قائدا فى جيش السلطان ، لكنه لم يجلس على عرش السلطنة سوى بعد تحقيق النصر على المغول. وبعد أن قتل قطز فى طريق العودة ودخل القاهرة حيث تولى عرش السلطنة تحت اسم السلطان الظاهر بيبرس. (المترجم)

** مرة أخرى يخطىء المؤلف ويذكر الخليفة باسم الحاكم . (المترجم)

وقد أملى نموذج القوة فى المنطقة العربية، والذى ظهر نتيجة للغزوات المغولية، اختيار التحالفات التى يمكن على أساسها تطوير الدبلوماسية الصليبية. وقد أدى ظهور البيزنطيين مرة أخرى إلى فكرة أن التهدئة يمكن أن تحدث من خلال التحالف معهم، كما أدى إلى تجدد المفاوضات لإعادة توحيد الكنيسة البيزنطية والكنيسة اللاتينية. وكان الأباطرة البيزنطيون مستعدين للإستماع إلى المقترحات ، التى بدت بمثابة ضمان عدم حدوث هجوم من الغرب فى المستقبل . وكان إنوسنت الرابع قد قام بجس نبض الإمبراطور حنا فتاتزيس John Vatatzes قبل موته سنة ١٢٥٤م. وفى المجمع الكنسى الذى عقده جريجورى العاشر فى ليون، أعلن مبعوثو ميخائيل باليولوجوس تبعيتهم رسميًا للكنيسة اللاتينية. كانت عودة الوحدة بين الكنيستين ، على الجانب البيزنطى، حركة دبلوماسية خالصة؛ بل إنها لم تستمر إسميا سوى ست سنوات. كما كانت هناك أيضا لحظات ظهر فيها أن التفاهم مع المماليك يمكن أن يكون سياسة مجدية. ولم يكن لسلاطين مصر مصلحة حقيقية، بطبيعة الحال، فى الحفاظ على المملكة اللاتينية قوة ثالثة ببلاد الشام*. وعلى أية حال، فطالما كان من الممكن وصول جيوش كبيرة من الغرب إلى عكا ، لم يكن المماليك قادرين على تجاهل الخطر . كما أن التحالف بين الصليبيين والمغول، إذا حدث، فربما يشكل عدواً خطيراً أمامهم.

هذا التحالف هو الذى أنعش الآمال الكبار فى الغرب الأوروبى. إذ كان المغول وثنيين وكانت معتقداتهم الدينية غامضة وبدائية . كما أن أعمال النهب والتخريب التى مارسوها فى بخارى وسمرقند وبغداد أوحت بأنهم من ألد أعداء الإسلام. وكان معروفا أن الكثيرين من رعاياهم مسيحيون ، وكان هناك تفكير فى أن اعتناقهم للمسيحية يمكن أن يكون أمراً حسنا ، والحقيقة أن الحكام المغول فكروا بشكل غير جدى فى اعتناق المسيحية؛ ولم يكن واضحًا حتى نهاية القرن أن الإسلام سوف ينتشر بينهم . وقد حضر مبعوثو الخان الأعظم مجمع ليون الكنسى ، وسمعوا هناك البابا جريجورى العاشر وهو يدعو الأمراء إلى تجريد حملة صليبية جديدة. والحقيقة أن المغول وصليبى الغرب كانوا بعيدين عن بعضهم تمامًا ، فى المسافة وفى

---

* هذه صياغة غريبة من المؤلف للحقائق التاريخية ، فقد كانت دولة الأيوبيين ودولة سلاطين المماليك، بمثابة التجسيد الأخير للإفراز السياسى للحركة الصليبية فى المنطقة العربية، وقد ظهرت أهمية المماليك وتولوا الحكم، ممثلين فى السلطانة «شجر الدر» بعد هزيمة الحملة الصليبية السابعة وأسر لويس التاسع ملك فرنسا، بعد ذلك كانت الحملات المملوكية بقصد القضاء عليهم سياسة ثابتة فى عصر السلاطين الأوائل وحتى تم القضاء على الصليبيين بعد استرداد عكا سنة ١٢٩١ . (المترجم)

الثقافة، بحيث لم يفهم أحدهما الآخر. وقد تسلى المغول بالمبعوثين المبشرين الذين بعثهم لويس التاسع إليهم، ولكن الرسالة التى بعثوها رداً على ذلك كشفت عن أن اهتمامهم الحقيقى كان موجهًا إلى الغزو وليس المسيحية: **«نحن ننصحكم بأن ترسلوا لنا مبلغا كافيًا من المال مساهمة سنوية منكم حتى نبقى أصدقاء وإلا فإننا سوف ندمركم كما فعلنا بملوك آخرين».** وعلى أية حال كانت الرحلة عبر سهوب الإستبس إلى عاصمة الخان فى قراقورم تستغرق زمنًا طويلاً بحيث لم يكن التعاون العسكرى معهم مجديًا .

* * *

كان الوقت المناسب لكى يعيد الصليبيون توطيد أنفسهم فى بلاد الشام يتمثل الفترة التى سبقت قدوم المغول ، عندما كانت الإمبراطورية الأيوبية التى أسسها صلاح الدين تتهاوى تحت وطأة المنازعات الداخلية . وكانت الحملة الصليبية الخامسة (١٢١٨-١٢٢١م) قد اقتربت من النجاح كثيراً، فقد كانت تجربة لاستراتيجية صليبية جديدة. إذ أن فشل الحملة الثالثة فى فلسطين أقنع منظميها بأن الهجوم المباشر على مصر، قاعدة السلطة الأيوبية، قد يؤدى إلى نتائج مثمرة أكثر. هذا التحليل كان سليمًا. وتم الاستيلاء على دمياط فى أعالى نهر النيل، وكان سلطان مصر (الكامل الأيوبى) على استعداد لأن يعيد بيت المقدس إلى الصليبيين فى مقابلها . ولكن الصليبيين رفضوا عرضه، وفيما بعد وضعهم تحت رحمته عندما عزلهم عن قواعدهم بفتح جسور النيل وإغراقهم بمياه الفيضان وكان عليهم أن يسلموا دمياط، ورجعوا خاويى الوفاض . وفى سنة ١٢٢٩ فضل فردريك الثانى المفاوضات على الحرب وبرهن على حسن تصرفه : فقد كان السلطان الكامل فرحًا بإطلاق حريته فى التعامل مع أقاربه فى دمشق مقابل هدنة عشر سنوات وتسليم المدينة المقدسة إلى الصليبيين. فشل فردريك فى التعامل مع الصليبيين فى بلاد الشام. إذ أن معاملته المتعالية مع البارونات ببلاد الشام واحتقاره للمحكمة العليا أدت إلى نشوب حرب أهلية بين الأرستقراطية الفرنجية بقيادة آل إبلين فى بيروت، والمندوبين الإمبراطوريين الذين تركهم فردريك لكى يمثلوه عندما رجع إلى أوروبا. وعندما انتهت هدنة السنوات العشر التى عقدها لم تتجدد. وفى ١٧ أكتوبر ١٢٤٤م ألحق المصريون هزيمة فادحة بالفرنج وحلفائهم الأيوبيين حكام دمشق فى غزة. وقبلها بأسبوعين تمامًا، كان الجنود المرتزقة من الخوارزمية العاملين فى خدمة سلطان مصر قد استعادوا بيت المقدس من الصليبيين.

كان هذا هو الموقف الذى كان لويس التاسع يأمل فى إعادته عندما أبحر من إيج مورت Aigues Mortes فى أغسطس ١٢٤٨م. وكان قد ظل يستعد لحملته الصليبية على مدى

أربع سنوات . وتم جمع مبالغ طائلة فى فرنسا لتجهيز الحملة، وكان الجيش الذى اجتمع بقبرص فى الخريف جيشًا كبيراً منظمًا . وأبحر هذا الجيش فى الربيع التالى ، متوجها صوب مصر، وفق خطة مماثلة لخطة الحملة الصليبية الخامسة، وتم الاستيلاء على دمياط فى الصيف. وفى فبراير سنة ١٢٥٠م بدأت قوات الملك تتقدم صاعدة نحو الجنوب فى نهر النيل . وتم عزلها بين الترع والقنوات فى الدلتا مع وجود جيش مصرى قوى. وفى محاولة لشق طريقهم بالقتال للخروج من هذه المصيدة، تم تدمير القوات الصليبية تماما وتم أسر لويس التاسع وجميع الذين نجوا من القتل. وجمعت زوجته الملكة مرجريت الحامية المذعورة فى دمياط حولها، وبفضل ما أظهرته من عزم على المقاومة وافق المصريون على إطلاق سراح زوجها ورجاله مقابل فدية كبيرة. وكان أكثر من نصفهم قد ماتوا فى ذلك الحين . وانتهت حملة لويس التاسع باعتبارها مغامرة عسكرية فاشلة.

وبقى لويس بالشرق حتى سنة ١٢٥٤م. وبذل جهودا لتحقيق التحالف بين المغول والفرنج؛ فقد وصل مبعوثه وليم روبروك إلى قراقورم، وشارك هناك فى مناظرة كبيرة بين المسلمين والبوذيين والنسطوريين. وعلى أية حال ، فإن سفارته لم تسفر عن أية نتائج عملية. كما بذل لويس ما فى وسعه لإيجاد نمط من الوحدة بين الفرنج فى الشرق؛ وفى هذه الحالة كان أكثر نجاحًا، لأن جهوده كسبت له احترام الصليبيين باعتباره زعيما لامصلحة له ويتحلى بأخلاق الفرسان. ولكن عندما دعته الحاجة لرعاية شئون مملكته. لم يبق شىء يحافظ على روح التعاون التى حققها بفضل نفوذه الشخصى فقط. وأعقبت رحيله فترة طويلة لم تتمكن البابوية أو أى حاكم غربى، خلالها، أن يجذب الإنتباه إلى ما يجرى فى الشرق . إذ تم تركيز الجهود المضنية الكثيرة فى الصراع الكبير بين الكنيسة والهوهنشتاوفن . وقد شهدت هذه الفترة تطورات هامة للغاية بالشرق: إذ حدث الغزو المغولى لبلاد الشام؛ وصار بيبرس سلطانًا على مصر، واستعاد البيزنطيون مدينة القسطنطينية . وكان المشهد فى شرق المتوسط قد تغير كثيرا عندما برز شارل أنجو من غمار الصراعات فى إيطاليا باعتباره بطل الكنيسة الظافر .

* * *

كان طبيعيا أن ينظر البابوات إلى شارل أنجو باعتباره الزعيم المحتمل لحملات صليبية جديدة باعتباره أقوى أمير لاتينى فى جنوب أوروبا. وكان جاهزا تماما للقيام بهذا الدور ، ولكن من سوء الحظ أنه لم يكن مثل أخيه لويس بلا غرض شخصى. ولم يكن ما يحركه هو مصير الأراضى المقدسة بفلسطين، ولكن نفس الحلم الذى كان قد استولى على فردريك الثانى

فى الماضى ؛ أى تأسيس إمبراطورية كبرى لعائلته فى حوض البحر المتوسط. وقد سلب الزمن شارل بعض ميزاته. إذ كانت مملكة عكا الصليبية أضعف مما كانت عليه زمن فردريك، كما لم يعد هناك وجود للحاكم اللاتينى فى القسطنطينية . وفضلاً عن ذلك كان شارل قد اصطنع لنفسه أعداء كثيرين فى أوروبا وكانت مكانة بطل الكنيسة آنذاك أقل كثيراً مما كانت عليه من قبل. إذ كان أهم حاكم علمانى بين الجلفيين، وقائداً لحزب كان قد ألحق الهزيمة بأعدائه الإيطاليين، ولكنه لم يكن قد دمرهم جميعا بعد . وكانت طموحات شارل فى تكوين أسرة حاكمة، وعداوة الجبللينيين فى إيطاليا له، تعنى أنه لن يكون أبداً نفس نمط القائد الصليبى الذى جسده لويس.

ومع هذا انطلق لتحقيق أهدافه بمهارة بعيدة النظر وعزم وتصميم . وما أن انتصر على مانفرد وأمن صقلية حتى بدأ يعمل لتركيز كل حقوق السيادة الباقية للاتين فى الشرق بأيدى أفراد أسرته. وفى سنة ١٢٦٧م رتب لزواج ابنته بياتريس من فيليب كورتناى، وريث بلدوين حامل اللقب الإمبراطورى فى القسطنطينية ، كما رتب زواج إبنه فيليب من إيزابيلا وريثة وليم أمير آخايا. فإذا لم تثمر أى من هاتين الزيجتين ذرية. فإن الإرث والحقوق المترتبة عليهما ستؤول إلى شارل نفسه هو وورثته . وبعد ذلك بعشر سنوات فند مزاعم ماريا الأنطاكية فى حق وراثة عرش مملكة بيت المقدس ، وقبلته المحكمة العليا ملكًا، وسجل كتبة البابا مارتين الرابع أنه كان يتطلع أيضا إلى حكم قبرص ، على الرغم من أن البابا رفض الموافقة على هذا . وبهذا الاستثناء الوحيد كانت سلطته بحلول سنة ١٢٨١م قد امتدت على كل الأراضى الفرنجية فى شرق المتوسط .

ومن بين الحقوق التى حازها شارل، كان حق حكم القسطنطينية أفضل الجوائز جميعا، لأنها كانت يمكن أن تمنح عائلته لقبا إمبراطوريًا. ولذا، فإن شارل عمل على إعادة غزو القسطنطينية التى كانت بأيدى البيزنطيين وجعل ذلك أول أهدافه . وخطط لحملة بمباركة البابوية سنة ١٢٦٨م . وعلى أية حال فقد أجبر على تأجيل مشروعه بسبب ثلاث مسائل متتالية. كانت أولى هذه المسائل غزو كونرادين لإيطاليا . أما الثانية فهى الحملة الصليبية الأخيرة لأخيه لويس التاسع على تونس سنة ١٢٦٩، حيث مات ملك فرنسا الصليبى بالحمى. والثالثة كانت بابوية جريجورى العاشر. إذ كان ذلك البابا لايثق فى شارل لأنه رأى فيه رجلا يحركه الطموح السياسى أكثر من الحماسة الصليبية. وكان يرى أن أفضل أمل للصليبيين فى الشرق يتأتى من خلال اتحادهم مع البيزنطيين، وفى المجمع الذى عقده فى ليون سنة ١٢٧٤م تم دمج

الكنيسة الشرقية البيزنطية رسميا فى الكنيسة اللاتينية . وتقف شروط الإتحاد ، التى اعترفت بالطقوس البيزنطية وتجنبت قدر الإمكان المسائل اللاهوتية الخلافية، شاهداً على اتساع أفق جريجورى ورجاحة عقله. ومن سوء الحظ أن تسامحه كان بعكس ما هو شائع بين معاصريه ، سواء فى الشرق أو فى الغرب.

ولم تجد الدعوة التى وجهها البابا لأمراء الغرب بأخذ شارة الصليب (تجريد حملة صليبية جديدة ضد المسلمين) آذانًا صاغية ، وكان السبب فى ذلك راجعا بدرجة كبيرة إلى أن شارل الخائب ، وابن عمه فيليب الثالث ملك فرنسا، لم يستجيبا . وثبت أن إعادة توحيد الكنيستين كان نصراً من ورق : إذ رفضه القساوسة البيزنطيون بمرارة، وأقنعهم الإمبراطور ميخائيل أن الحاجة كانت تستدعى التظاهر بالتبعية وصولاً لأهداف دبلوماسية. وسرعان ما ظهر عدم إخلاص البيزنطيين، ولكن لم يحدث سوى فى ١٢٨١م، عندما تولى العرش البابوى رجل فرنسى مهتم بمصالح شارل، وهو سيمون بريبه الذى تولى البابوية باسم مارتين الرابع، أن أعلن رسميا فض الوحدة بين الكنيستين . وهكذا استغرق الأمر ثلاثة عشر عامًا لكى يعود شارل إلى موقفه الذى كان عليه سنة ١٢٦٨م، وفى الوقت نفسه، ومع انتخاب إمبراطور جديد فى ألمانيا هو رودولف الهابسبرجى، بدأت آمال الجبللينيين تنتعش مرة أخرى فى إيطاليا. ومع هذا استمر شارل يضغط لتحقيق خططه القديمة.

وفى ربيع سنة ١٢٨٢م كانت حملة كبرى تتجمع فى مسينا. وكان هدفها الذى باركه البابا مارتين هو **«استعادة الإمبراطورية الرومانية التى اغتصبها آل باليولوجوس»***. والسنوات الطويلة التى مضت منذ تهديد سنة ١٢٦٨م كانت قد وفرت الفرصة أمام ميخائيل لعمل استعداداته . وكان على اتصال بكل أعداء شارل، أى بالجبللينيين فى لمبارديا وتسكانيا، وبارونات صقلية الساخطين، والأهم من هؤلاء جميعا، مع موظفى مانفرد وكونرادين المنفيين فى بلاد أرغونة التى كان ملكها متزوجًا من ابنة مانفرد، كونستانس هوهنشتاوفن. كانت صقلية، التى يرجح أن تكون مركز العاصفة فى وسط أملاك شارل، تشكل مفتاح الخطط التى كان ميخائيل وجون بروسيدا (الذى كان مستشار مانفرد وزعيم المتآمرين الجبللينيين فى

---

* هذه العبارة تجسيد للروح الصليبية التى تجاهلت حقوق الناس فى بلادهم وسنجد لها تكراراً كثيرا فى كتابات المؤرخين الأوروبيين عن المنطقة العربية، وهى على أية حال نغمة ما تزال باقية فى السياسات الغربية تجاه هذه المنطقة وغيرها . (المترجم)

أرغونة) يُعدانها. وفى عيد الفصح سنة ١٢٨٢م هب مواطنو بالرمو وذبحوا الفرنسيين، وكان ذلك أول عمل فى انتفاضة خُطط لها بشكل جيد وانتشرت بسرعة فى جميع أنحاء الجزيرة. وكان ميخائيل غاية فى الدهاء بحيث لم يكن مضطرا إلى القتال لمساندة الصقليين الذين كان قد دفع لهم ثمن تمردهم. وقدم أهالى الجزيرة التاج إلى بطرس ملك أرغونة. وفى ٣٠ أغسطس، بعد خمسة شهور من رنين أجراس صلوات المساء معلنة إشارة بدء العصيان والثورة فى بالرمو، أرست قوات بطرس الأرغونية فى ترابانى.

وهكذا أخيرا منح مارتين الرابع بركاته للحملة الصليبية ضد أرغونة وليس ضد القسطنطينية. لقد باتت الكنيسة مرتبطة بمصالح شارل بحيث لايمكنها الفكاك حتى فى وقت الكارثة التى كانت أسبابها سياسية خالصة. وبينما كان شارل يصارع أهالى صقلية، عبر فيليب الثالث ملك فرنسا جبال البرينيس لينفذ حكم البابا فى الملك بطرس ويخلعه عن العرش، وكان مصير هذه الحملة الفشل المزرى. وهكذا انتهت طموحات شارل بمد نطاق الصراع بين الجلفيين والجيبللينيين من إيطاليا إلى سائر أنحاء الحوض الغربى للبحر المتوسط . بدلاً من تأسيس إمبراطورية لاتينية بالشرق. **«أيها الرب بما أنك عزمت على إهلاكى، فامنحنى الفرصة للسقوط على مهل »** هذا ما يقال إن شارل ذكره فى صلواته عندما دهمته الأخبار بما حدث فى بالرمو. لقد كانت الكفتان متعادلتين.

وبينما كان شارل وفيليب ملك فرنسا يقودان الحرب الصليبية ضد صقلية وأرغونة، التى ربطا نفسيهما بها وبالمصالح البابوية، كان جنود سلطان مصر قد أطبقوا على ما تبقى من القلاع الفرنجية ببلاد الشام. وسقطت عكا يوم ١٨ مايو سنة ١٢٩١م؛ وهكذا انتهت قصة الحروب الصليبية باعتبارها مشروعًا عسكريا كان يسعى للاستيلاء على الأماكن المقدسة بفلسطين لصالح المسيحية الكاثوليكية الأوروبية*.

---

* غيرت الصياغة العربية للجملة الإنجليزية التى تقول ترجمتها الحرفية «هكذا انتهت قصة الصليبية باعتبارها مشروعًا عسكريًا للدفاع عن الأماكن المقدسة وضمانها للمسيحيين ». ومن الواضح أن هذه الصياغة المراوغة تخالف حقائق التاريخ تماماً . فقصة الحروب الصليبية هى قصة التوسع والغزو والطمع الإنسانى والوحشية والمجازر ضد المسلمين والمسيحيين الأرثوذكس والشرقيين واليهود ، بل و ضد الأعداء السياسيين للبابوية من أمثال الهوهنشتاوفن ، وأهالى صقلية وملك أرغونه ؛ وكلهم كاثوليك . (المترجم)

ولم يكن سقوط آخر المعاقل فى بلاد الشام هو الذى أنهى قصة الحروب الصليبية ولكن لثورة التى نشبت فى صقلية وعرفت باسم صلوات المساء الصقلية . فقد كان مصير عكا محتومًا منذ اللحظة التى اتضح فيها أنه لن تجئ من أوروبا أية قوات لنجدتها . كما كان واضحًا كذلك ، مع إنشغال شارل بالحرب ضد أرغونة ، أنه لايمكن توقع أية محاولة غربية جديدة ضد القسطنطينية . وكان معنى هذا أن إعادة توحيد الكنيستين أمر غير ذى بال بالنسبة للبيزنطيين . أما الفرنجة فى آخايا ، والذين صاروا أتباعا لابن شارل ، فقد تورطوا فى الصراع ؛ وكذلك تورط البنادقة والجنوية ، عندما تجددت الحرب بين الجلفيين والجبللينيين لتشمل جميع أنحاء إيطاليا . ولم يلق أحد بالاً إلى السفارة التى أرسلها المغول لمقابلة البابا سنة ١٢٨٩م على أمل مناقشة التحالف ضد المصريين . فقد بات الدفاع عن الصليبيين ببلاد الشام ، ناهيك عن الاستيلاء على بيت المقدس ، أمراً غير عملى من الناحية السياسية .

* * *

كان سقوط عكا ذا تأثير نفسى مثلما يحدث دائما عند سقوط المعقل الأخير . بيد أن إنهيار الصليبيين ببلاد الشام ، أو اتساع نطاق الحرب بين الجلفيين والجبللينيين ،لم يكن هو فقط الذى حسم مستقبل المغامرة الصليبية فى القرن الثالث عشر . إذ أن الأحداث التى جرت فى الشرق كان لها تأثيرها على السنين الماضية بحيث تركت بصماتها على عقول الناس فى أوروبا ومواقفهم . إذ أن هذه الأحداث جعلت من الصعب على الناس رؤية الأهداف التقليدية للحركة الصليبية مثلما كان أسلافهم يرونها .

عندما سمع العالم المايوركى * الكبير رومان لول عن سقوط عكا لم يصدق أن هذا حدث وكتب يقول «**لو أن النساطرة انضموا إلى الكنيسة الكاثوليكية ، ولو اعتنق التتار المسيحية، سيكون من السهل القضاء على المسلمين جميعا** ». لقد فتحت غزوات المغول وحمايتهم الصارمة لطرق القوافل التجارية وسط آسيا عيون الأوروبيين على بُعد جديد فى العالم ، تبدو فيه المنطقة العربية التى تصارع فيها الصليبيون مع المسلمين منطقة قليلة الأهمية نسبيًا . ولم يكن الدعاة الفرنسسكان وحدهم الذين عبروا آسيا براً من خلال الطرق التى فتحها المغول . ففى سنة ١٢٧٥م وصل ماركو بولو إلى بلاط قوبلاى خان فى شانج تو بالصين . وأصبحت بلاد القطا (أى الصين) بلاداً مألوفة للتجار الإيطاليين فى القرن التالى . وعندما اتضح أن

* نسبة إلى جزيرة مايوركا أكبر جزر البليار .

بهذه المنطقة كثيرين من الوثنيين ، فيما وراء حدود العالم الإسلامى المعروفة ، فقدت الحرب ضد الإسلام حول الأماكن المقدسة الكثير من أهميتها الدينية .

كانت معرفة أوروبا للأراضى الآسيوية الشاسعة ، نتيجة للغزوات المغولية ، ذات تأثير يمكن مقارنته باكتشاف الأمريكتين فيما بعد ، من وجهة النظر الجغرافية الخالصة . وعلى أية حال ، لم يكن من السهل تحديد نتائج هذا الاكتشاف . ولاشك فى أنه تولد عن هذا اهتمام أوروبى بالجغرافيا نفسها . وربما كانت القصص الخيالية التى نتجت عن حكايات الرحالة (مثل المعجزات الخيالية التى شاهدها سير جون ماندفيل فى رحلاته الخيالية) قد وجدت من يسمعها أكثر من الحقائق الجافة فى قصة ماركوبولو مثلا . ومن الجدير بالتذكر أن كولومبوس قرأ كتاب ماركوبولو باهتمام شديد . وفى الأوساط الدينية والمتعلمة ، انعكس هذا الاهتمام بالجغرافيا فى الرغبة لمعرفة المزيد عن الناس غير المسيحيين ، وهو ما يمثل بداية اليقين بأن العمل التبشيرى يمكن أن يكون سلاحًا أكثر فعالية ضد غير المؤمنين (بالكاثوليكية) من المشروعات العسكرية .

وظلت الآمال فى تحويل المغول إلى المسيحية الكاثوليكية تداعب الغرب زمنا طويلاً. وقد أحرزت البعثات التبشيرية الفرنسسكانية والدومينيكانية نجاحًا ملحوظًا فى الأيام الأولى . وفى سنة ١٣٠٧م تمت رسامة جون دى مونت كورفينو كبيرا للأساقفة الكاثوليك فى بكين ، وكان قد عمل بين المغول سنوات طويلة . وثلاثة فقط من الأساقفة الكاثوليك الذين تم إرسالهم لإنجاز مهمة الترسيم أكملوا رحلتهم : ولكن أحداً لم يخلفه فى هذا المنصب ، ولم تثمر أعماله . وكان هناك آخرون صدمتهم بربرية المغول ، فكان رد فعلهم مختلفاً تمام الإختلاف عن أولئك الأساقفة الشجعان . بالنسبة لأمثال هؤلاء نبهتهم الغزوات المغولية إلى مدى تقارب التقاليد الإسلامية والمسيحية . وقد حث روجر باكون Roger Bacon ورومان لول Roman Lull على دراسة الإسلام ومؤسساته على أمل أن يجد العالم المسيحى مصلحة مشتركة مع العالم الإسلامى بحيث يمكن تحويله إلى المسيحية عن طريق المبشرين المتعلمين . وكانت آمالهم عبثية بدرجة أكبر حتى من الآمال التى داعبت الصليبيين فى الماضى . ومع ذلك فإن ما كتبوه يبقى شهادة على الطريقة التى كانت المعرفة الجديدة عن العالم قد بدأت تحدث بها تغييراً جذريًا فى المواقف التقليدية لأوروبا المسيحية .

كان باكون ولول من رجال المدارس وأعضاء فى صفوة صغيرة متعلمة . وكان لابد من مرور وقت حتى تصبح أفكارهم مثل أفكارهم قادرة على التسرب إلى القلاع والقاعات فى فرنسا

وإنجلترا ، حيث كانت تعيش العائلات التى أرسلت أبناءها ليتبعوا زعماء من أمثال لويس التاسع إلى الأرض المقدسة . وكان للحملة الصليبية أن تبقى مثالاً براقا لدى الأرستقراطية العسكرية فى الغرب زمنًا طويلاً. ولكن على المدى الطويل ثارت التساؤلات بالتأكيد ، وبينها تساؤلات غاية فى الخطورة . وكان تساؤلهم لايعكس مكانة الحملة الصليبية فحسب ، ولكنه كان يعكس أيضا مكانة الكنيسة التى دعت إليها ونظمتها .

وفى سياق الجغرافيا الجديدة ، كان لابد لكلمة «رومانى» أن تفقد بعض مدلولاتها العالمية. كما أن نوع السلطة السياسية التى كانت كنيسة روما تزعمها لنفسها لم تكن تتناسب مع الآفاق الجديدة للبلاد النائية . وقد أعلن جون مونت كورفينو ، وهو يكتب فى موطنه ١٣٠٥م ، أن إثنتى عشرة سنة مضت دون أن يسمع أى أخبار من أوروبا . وقد بدأ الإطار الكلى للمثالية العالمية المسيحية السياسية / الدينية الأوروبية التى خرجت من طياتها الحملات الصليبية ، يصبح بلا معنى فى سياق مثل هذا البعد النائى .

١٤- فرنسا وانجلترا : نمو المجتمعات الوطنية

نشب الصراع بين البابوية والإمبراطورية فى القرن الثالث عشر خارج إيطاليا وألمانيا . ولكن البابوات لم يكن لهم حلفاء فى هذين البلدين على درجة من القوة تسمح لهم بمواجهة السلطة الوراثية للهوهنشتاوفن علنا؛ ومن ثم كان عليهم أن يستدعوا أبطالاً من الخارج. وفى البداية قُدمَّ تاج صقلية إلى إدموند الأمير الإنجليزى، ثم لشارل أنجو الأمير الفرنسى . وثمة أمير إنجليزى آخر، هو ريتشارد كورنول كان يدعى لنفسه حق اعتلاء العرش الألمانى منذ سنة ١٢٥٧ حتى موته سنة ١٢٧٢م. وعندما بوركت حملة صليبية سنة ١٢٨٣م ضد أرغونة ، لأن ملكها بطرس كان قد ساعد أهالى صقلية ضد شارل أنجو، كان أمير فرنسى آخر هو شارل فالوا قد تلقى وعداً بتاج الملك بطرس. والمواطن الأصلية لأولئك الأبطال ذات مغزى. إذ أنها تذكرنا بتصاعد نفوذ الممالك الشمالية فى أوروبا المسيحية، ففى هذه الممالك كانت تجرى تطورات هامة آنذاك.

فقد لعب الميثاق الأعظم Magna Carta الذى كان البارونات قد أرغموا الملك جون، ملك إنجلترا ، على توقيعه سنة ١٢١٥م، دوراً هامًا فى التاريخ الإنجليزى فى القرن الثالث عشر. إذ أنه حدد بلغة قانونية رسمية حدودا معينة لحقوق الملك على رعاياه وأملاكهم فى إنجلترا. وبعد موت جون أكده ابنه هنرى الثالث. وباعتباره سجلاً للحقوق قبله الملك واعترف به كان الميثاق الأعظم بمثابة أساس محدد يمكن أن يلتف حوله أولئك الذين تنتابهم الشكوك حول الحكومة الملكية. ومن سوء الحظ أن حكومة هنرى الثالث كانت هى السبب فى إثارة شكوك

باورونات فى مملكته بدرجة كبيرة. فبينما كانت نشاطات موظفيه تبدو وكأنها تقوض متيازاتهم داخل الوطن، اختار الملك أن يحابى رجالاً من أصول أجنبية على حسابهم، كما كان ينفق الأموال ببذخ على المغامرات الحربية الفاشلة فى الخارج . وفى هذا المجال كان البارونات قد عقدوا العزم على عدم مساعدته بما هو أكثر من حقه. وإذ تمسكوا بحقوقهم التى نص عليها الميثاق ، كان موقف كبار رجال المملكة قد غرس بينهم جذور تقاليد العمل الجماعى.

وقد أدى تورط هنرى فى صقلية سنة ١٢٥٨م إلى تصفية الحسابات بين الطرفين، والتى كانت خطراً ماثلاً على مدى ثلاثين سنة . فقد ألزم نفسه أمام البابا اسكندر الرابع بأن يدفع أكثر مما تسمح به موارده، ما لم يساعده البارونات بالموافقة على فرض ضرائب غير عادية . وعندما بدأ البارونات مناقشة الشروط التى سوف يقدمون على أساسها هذه المساعدة ، سرعان ما اتضح أن التأكيد على الميثاق الأعظم لم يكن كافيًا . فمنذ سنة ١٢١٥ كان نطاق الحكومة الملكية ، التى توجهها بيروقراطية كفء، قد اتسع بدرجة كبيرة، كما أن القضايا التى أغفلها الميثاق قد اكتسبت أهمية جديدة. ومن ثم عقد مجلس يضم الرجال الكبار للنظر فى الأمور التى تستدعى الإصلاح . وظلوا يعملون على مدى ما يزيد عن سنة، وفى النهاية قدموا قائمة بالمطالب إلى الملك ، وكانت تلك مطالب تكشف عن الكثير.

فقد طالبوا بأن تكون أسماء مستشارى الملك معروفة ، وتحظى بموافقتهم ، كما يجب على الملك أن يحكم من خلال مشورة هؤلاء الرجال. وطلبوا أن يجتمع الملك ومجلسه الاستشارى ثلاث مرات سنويا مع الرجال الإثنى عشر الكبار الذين تم اختيارهم لتمثيل «مجتمع الوطن». وعينوا هيوبيجود ، الذى كان واحدا منهم، لكى يكون رئيس القضاة، وأرسلوه لكى يقوم بجولة قضائية كبرى فى الوطن، لكى يستفسر عن أى إساءة نفوذ من جانب الموظفين ضد أى رجل حر أيًا كان. وربما كان أهم من ذلك كله أنهم طلبوا أن تحمى محكمة الملك البارونات ضد الموظفين وكذلك ضد الذرائع التى قد يلجأ إليها أتباعهم لكى يتجنبوا أو يخففوا من التزاماتهم . وكان البارونات المصلحون أمناء بالقدر الذى جعلهم يعترفون بالتداعيات الناجمة عن هذا أيضا. أى أن محاكم الملك يجب أن تعطى للتابعين حق الحصول على التعويضات من البارونات ، إذا ما حاولوا أن يضغطوا للحصول على أكثر مما يجب .

كانت هذه المطالب هى صيحة التجمع لأولئك الذين تبعوا سيمون مونتفورت فى الحرب الأهلية الفوضوية التى لم تسفر سوى عن مصرعه هو فى إيفشام Evesham سنة ١٢٦٥م. لقد كان مغزاها أوضح كثيرا من دوافع الأفراد الذين انضموا إلى الملك أو ريرل سيمون فى

القتال الفعلى. فقد أوضحت أن حقوق الملك على أتباعه، وحقوقهم على أتباعهم ، لم تعد تعتبر فى إنجلترا مسائل يمكن فصلها عن بعضها. وينبغى أن نتذكر هنا أن شروط التبعية، فى مجتمع زراعى إلى حد كبير، كانت أكبر من مجرد مسائل قانونية: بل كانت عوامل اجتماعية حاسمة . وبالمطالبة بخضوع مسائل الحيازة الحرة كلها لنفس القانون، وأن تنظر القضايا الخاصة بها فى نفس المحاكم (أى القانون العام وفى محاكم الملك)، كان البارونات فى الواقع يعترفون بأن المملكة يجب أن تعتبر مجتمعًا واحداً، تحكمه وتوجهه حكومة واحدة. وعلى نحو ما جاء فى أنشودة لويس song of Lewis (التى كتبت إحتفالاً بانتصار سيمون مونتفورت سنة ١٢٦٤م) **«إن حكم المملكة فيه سلامة الجميع أو هلاكهم ... فإذا لحق ضرر بأى عضو وهنت قوة الجسد كله »** هذا الوعى البازغ ، الذى تعكسه هذه الكلمات ، بالصالح العام الذى يجمع المملكة مجتمعا واحداً لم يختف عندما مات سيمون . فقد ترك بصماته على كثيرين غيره، بما فيهم ابن الملك هنرى الثالث، الذى اعتلى العرش بعد ذلك مباشرة.

كان إدوارد الأول، على النقيض من والده، لماحًا وطموحًا ومحاربًا عظيمًا ، فقد قام بغزو ويلز، وأوشك على غزو اسكتلنده، كما خاض حربًا طويلة فى جاسكونى ضد ملك فرنسا. وكان قد شهد متاعب أبيه مع رعاياه وخرج منها باستنتاجاته الخاصة. وكان يرى أنه إذا أراد أن يحقق غاية ما يستطيع من السلطة والحقوق التى ورثها ، خدمة لطموحاته، فإنه لابد وأن يعتمد كثيراً على تأييد المجتمع فى طريقة استخدامه لهذه السلطة والحقوق الموروثة.

وليس من الواضح أن إدوارد كان يهتم بصالح رعاياه أكثر من أبيه ، ولكن من المؤكد أنه مضى قدما فى التظاهر بذلك. وسنَّ هو ومستشاروه عدة قوانين لحماية ملاك الأراضى من تهرب تابعيهم؛ وذلك للتأكيد على حماية مقاصد الذين يتركون أملاكهم أو يمنحونها للآخرين، إذا ما رغبوا فى التصرف بها؛ ولضمان التعويض السريع للتجار ضد المدنيين المراوغين، والذين لايمكنهم التباطؤ عندما تنتهى المعارض والأسواق التى يحضرونها . وفضلا عن ذلك كله سعى إدوارد إلى اعلان الأسباب التى أملت هذه التحولات فى سياسته . وقد أضفى هذا مذاقًا ديموقراطيًا على كافة أعمال الحكومة .

كان المعتاد فى انجلترا قبل ذلك دعوة ممثلى المجتمعات المحلية للمثول أمام الملك ومجلسه الاستشارى عندما يتم تداول المسائل التى تؤثر عليهم . وقد مد إدوارد نطاق هذه الممارسة، بأن يدعو بين الحين والحين ممثلين من كل مقاطعة فى مملكته (وفى بعض الأحيان من عدد من المدن الصغيرة الهامة أيضا) للمثول أمام مجلسه ومعهم جميع باروناته. وكان أولئك النواب

يخولون حق الحضور ومعهم **«السلطة الكاملة لأنفسهم ولمجتمع المقاطعة كله ليتشاوروا ويوافقوا على تلك الأمور ... التى يتم الإتفاق عليها»** وغالبا ما كان إدوارد ينتهز الفرص التى تتيحها مثل هذه الاجتماعات الكبيرة لكى يشرح لرعاياه لماذا كان من الضرورى أن يجمع الضرائب منهم فى سبيل الصالح العام. كانت السوابق قد أرست بالفعل مبدأ أن الضرائب لاتكون قانونية ما لم يوافق عليها جميع البارونات؛ وقد ربط إدوارد بهذه الطريقة بين موافقتهم وحضور أكبر عدد ممكن من رعاياه .

هذه الاجتماعات ، التى كانت تجمع بين البارونات والعامة كانت تسمى البرلمانات: وكانت هى البذرة التى نما منها البرلمان البريطانى. وكان الرجال الذين يحضرونها من المدن أعضاء فى الطبقات الحاكمة بالمدن؛ أما الذين يحضرون من المقاطعات فكانوا من الفرسان وملاك الأرض المحليين الذين اختارهم رفاقهم فى محكمة الكونتية، تحت إشراف رئيسها ، نائب الملك (الشريف Sheriff) . وكانت الأوامر الملكية تأتى إلى حاكم المقاطعة (الشريف) تأمره بأن يعقد المحكمة ويختار النواب الممثلين للمقاطعة . ولم تكن عبارة «يتشاورون ويوافقون» الواردة فى الأوامر القضائية الملكية تعنى منطوقها تمامًا. إذ كان الملك يدعو هؤلاء الناس إلى بلاطه بكامل رغبته لأنه كان يظن أن من المناسب له أن يطلعهم على ما يفعله. وعلى أية حال، فإن ممارسته هذه ساعدت على خلق انطباع بأنه يستشير رعاياه ، أو يجب أن يفعل ذلك، عندما تكون هناك أمور تهم الجميع، لاسيما إذا كان ذلك سوف يؤدى إلى فرض الضرائب. وفى سنة ١٢٩٧م وبسبب الحرب ضد فرنسا واسكتلنده ، كان عبء الضرائب باهظا على مدى ثلاث سنوات، ووجد إدوارد نفسه فى مواجهة متاعب خطيرة مع رعاياه للمرة الأولى. وقد أجبر على أن يعد بتنازلات مقابل مساعدتهم ، منها الإلتزام بأن لايقوم هو أو ورثته بفرض ضرائب إضافية دون الموافقة الرسمية «لعموم المملكة» . ومنذ ذلك الحين صار مبدأ موافقة الهيئة الممثلة للمجتمع على اللجوء إلى الموارد الجماعية للمجتمع، أمراً راسخًا .

أما ما لم يكن واضحًا سنة ١٢٩٧م فكان تحديد هوية الذين سيحضرون لتشكيل الهيئة الممثلة للمجتمع. ولكن بمرور الوقت كان ممثلو المقاطعات والمدن يدعون إلى البرلمانات بشكل أكثر انتظامًا. وقد دعمت المزايدات من جانب جماعات البارونات المتنافسة للحصول على التأييد الشعبى للحكم باسم إدوارد الثانى الغبى، ابن ادوارد ، قوة المؤسسة البرلمانية الصاعدة. وفى ذلك الحين كانت أهمية هذا الشكل النيابى مفهومة تمامًا ، لاسيما فيما يتعلق بالموافقة على فرض الضرائب. ووفقا لما جاء بالمقالة التى تحمل عنوان **«طريقة عقد البرلمانات»** التى

يرجح أنها كتبت فى عهد ادوارد الثانى، كانت الأصوات التى يجب حصرها فى هذا الخصوص هى أصوات «فرسان المقاطعة ، ومواطنى المدن... الذين يمثلون مجتمع انجلترا كله». ولم يكن هذا مذهبا مؤسسيًا رسميًا بعد ؛ ولكن قانون يورك سنة ١٣٢٢م اقترب من هذا ، عندما قرر أن المسائل التى تؤثر على «جميع أراضى المملكة» يجب أن تعتبر جزءا من البرلمان من خلال «كبار الأساقفة ، والأساقفة، والإيرلات ، والبارونات ، وعامة أهالى المملكة».

كانت إنجلترا مملكة غنية وكان فلاحوها المنتجين الرئيسيين للصوف الخام فى الأسواق الأوروبية (وكانت الملابس الصوفية أهم صادرات أوروبا) . وقد برهن إدوارد الأول فى حروبه أن من الممكن تجنيد جيش يعتمد عليه من بين السكان المحليين فى المملكة من الفرسان والرماة، الذين يمكنهم أن يؤدوا خدمة فعالة فى الميدان لفترات طويلة إذا استطاع الملك أن يجهزهم ويدفع لهم. لقد كان بوسع «المجتمع الإنجليزى كله» أن يقدم لمليكه الإمكانيات التى تمكنه من القيام بأعمال عظيمة . ولأنه كان مضطرا لمساومة «المجتمع» لكى يستخدم كافة موارده كان هذا قيداً على صلاحيات منصبه بشكل أو بآخر . ومع ذلك فإن هذا كان يعطيه مزيداً من القوة عندما ينجح فى كسب تعاون المجتمع.

* * *

كانت هناك تشابهات كثيرة بين تاريخ فرنسا وتاريخ إنجلترا فى تلك الفترة. ولكن هناك فرقًا كبيراً واحداً، يبدو للوهلة الأولى وكأنه يجعل تطور كل منهما يكاد يكون مناقضًا لتطور الآخر. فبينما نرى فى إنجلترا القيود التى تفرض على سلطة الملك المطلقة ، نجد فى فرنسا نمو السلطة المطلقة بعينها. ويمكن أن نقدم ثلاثة أسباب رئيسية لهذا المسار المختلف للتطور فى فرنسا. أولا : لم يكن هناك فى فرنسا أى تقاليد لمقاومة المجتمع للإدارة الملكية فى بواكير القرن الثالث عشر، مثل تلك التقاليد التى خلقها الصراع من أجل الميثاق الأعظم فى إنجلترا. وثانيًا: كانت فرنسا، وما تزال ، بلدا مساحته أكبر من مساحة إنجلترا وتتنوع فيها العادات والتقاليد المحلية تنوعًا كبيراً. أما السبب الثالث فهو سبب مختلف تمامًا: لأنه يرجع إلى الشخصية غير العادية للملك الذى حكم فرنسا من سنة ١٢٢٦ حتى سنة ١٢٧٠م ، وهو لويس التاسع الذى منحته الكنيسة الكاثوليكية لقب «قديس».

والحقيقة أن أول هذه الأسباب يشرح نفسه بنفسه، ولكن هناك نقطة واحدة ارتبطت به تستحق أن نذكرها فى ايجاز. إذ كانت أراضى الملك الفرنسى تمثل أملاكًا خاصة أغنى كثيراً من الأملاك التى توارثها ملوك إنجلترا . ويبدو أن فيليب أوغسطس كان قادراً على تحمل كل

الأعباء المالية لحروبه فى نورماندى بفضل موارد الأراضى الملكية . وفى نفس الحروب كان جون ملك إنجلترا مضطرا إلى اللجوء إلى موارد أملاكه الخاصة، إلى جانب أراضى المملكة كلها وكان يستنزفها بقسوة جعلت أتباعه الإقطاعيين يشعرون أن حقوقهم عرضة للخطر. وربما لم يكن لويس التاسع ليحوز احترام رعاياه لو لم تكن ثروته قد أغنته عن طلب مساعدتهم بشكل عجز عنه هنرى الثالث ملك انجلترا المعاصر له. وسيكون من الأفضل أن نتذكر الميزة التى وفرتها ثروة الملوك الفرنسيين لهم ونحن نناقش تنوع اختلاف الحياة فى المقاطعات الفرنسية، وسيرة الملك لويس التاسع، وهى مسائل معقدة تحتاج إلى انتباه أكثر.

كانت المقاطعات الكبرى: مثل بريتانى والفلاندرز وبرجندى ونورماندى ولانجدوك ، التى شكلت سويا مملكة فرنسا ، متمايزة من الناحية التاريخية والجغرافية، لأنها كانت شبه مستقلة تحت حكم الدوقات والكونتات . فإن تراثها الثقافى اتسم بالفردية، كما كان لكل منها بناؤها الاجتماعى وقانونها العرفى المتمايز . وحتى عندما كانت هذه المقاطعات تفقد حكامها القدامى وتخضع للإدارة الملكية مباشرة، مثلما حدث فى نورماندى ولانجدوك ، فإنها كانت تحافظ على شخصيتها المنفصلة . ومن ثم لم يكن ممكنًا أن يكون هناك صراع ، مثلما كان الحال فى إنجلترا فى بعض الأحيان، بين الملك «وكل مجتمع فرنسا» . أما الأشياء التى كانت تربط المجتمع الإنجليزى ببعضه: مثل القانون العام، والمؤسسات الاجتماعية والتقاليد المشتركة، فإنها لم تكن قائمة لكل فرنسا ، وإنما كانت موجودة فى كل مقاطعة على حدة.

وفى تلك المقاطعات التى كانت ما تزال تحت حكم الأمراء الإقطاعيين الأقوياء ، الذين كانوا بدورهم أتباعًا إقطاعيين للملك، غالبًا ما كانت العلاقة سيئة بين أولئك النبلاء ورعاياهم ومن حائزى أراضيهم الذين كانوا يتطلعون بدورهم إلى الملك طلبا للحماية والعدالة. وقد أتاح هذا فرصا أمام السلطة الملكية التى تؤازرها بيروقراطية فعالة متنامية، بحيث تجعل نفوذها محسوسًا بشكل مباشر. وكانت حالة الفلاندرز أفضل مثال على ذلك. إذ أن امتعاض صناع المدن الفلمنكية الصناعية الكبرى من الأقليات الحاكمة فى المدن قد أدى إلى تفجر العنف الذى أتاح الفرصة للكونت جاى فى ثمانينيات القرن الثالث عشر لفرض تدابير تحد من امتيازات الكوميونات التجارية الحاكمة . ولجأ حكام المدن إلى السلطة الملكية ضده، وكسبوا حماية الملك. ولذلك صاروا يعرفون فى الصراعات الاجتماعية فى الفلاندرز باسم الليليارت Lel-iaerts، أى حزب الجيناء الموالين لفرنسا. لأن ذعرهم جعل حاجتهم للحماية مستمرة، وبذلك صار تدخل البلاط الملكى فى الشئون الداخلية للكونتية مستمراً أيضا. وكانت عمليات

مشابهة تجرى أيضا فى الوقت نفسه فى مقاطعات أخرى، مثل برجندى وجاسكونى (التى كان ملك إنجلترا دوقا عليها)؛ فقد أدت الصعوبات التى واجهها رعايا الأمراء فى الدوقيات إلى تدخل السلطة الملكية؛ وأدى هذه بدوره إلى اعتياد الناس على نشاط هذه السلطة بحيث ألفوها .

عادة ما يؤدى التدخل إلى الاستياء ، وقبل نهاية القرن وجد الملك فيليب الرابع نفسه مشتبكا فى حرب ضد كونت الفلاندرز ودوق جاسكونى. ولابد أنه كانت هناك متاعب كثيرة من قبل ولكنها اختفت خلف ستار الاحترام الهائل للسلطة الملكية الذى كان حكم لويس التاسع قد وطده. كان نجاحه فى الحكم من أهم إنجازات عصره، كما كان نجاحًا شخصيًا فى أساسه.

ولم يكن لويس التاسع عبقريا بالمعنى المعتاد للكلمة . والواقع أنه كان فى نواح كثيرة رجلاً تقليديا فى زمانه . وكانت أعمال القديسين التى يذكرها الناس له ، مثل غسل أقدام الفقراء فى خميس العهد ومشاركته فى الجهود الساعية إلى تخفيف معاناة المجذومين ، تعبيراً عن التدين النشيط المألوف فى كل زمان، والذى كان شائعًا بشكل خاص فى زمانه. كذلك فإن ميله إلى الإنفراد بالحكم ووعيه بضرورة أن يعيش الحاكم فى كرم وعظمة، لم يكن شيئًا يخرج عن المألوف آنذاك. ولكن ما يلفت النظر هو الجمع بين الأمرين : لأن ممارسة حياة الزهد المتواضع فى وسط مظاهر الزهو والعظمة يتطلب قوة روحية غير عادية . بيد أن هذا كله لم يجعل لويس شخصية جذابة أو عطوفة. فقد كان له نصيبه الكامل من التصلب الرجعى؛ إذ إنه المحافظ ؛ فقد ساند جهود محاكم التفتيش الدومينيكانية فى استئصال شأفة المذاهب الدينية المخالفة للكنيسة الكاثوليكية فى لانجدوك بحماسة تماثل حماسته فى إنكار الذات دينيًا على الطريقة الفرنسسكانية ، وبتأثير أكبر. أما ما جعله مؤثرا على معاصريه فكان مجهوده المتواصل لأن يعيش وفقًا لكل ما كان يعتبره المثل الأعلى فى كل اتجاه، ولكنها كلها كانت مثلاً عليا محافظة *.

كان هذا هو ما أكسبه تبجيل الناس فى مختلف دروب الحياة: فقد بجّله رجال الكنيسة لتقواه وصدقاته التى منحها لهم؛ وبجّله الفرسان لشجاعته وفروسيته وحماسته للحملة الصليبية، كما بجله رعاياه لعدم انحيازه فى العدالة. وكان هذا الأمر الأخير مفتاح بصمته التى تركها على التاريخ اللاحق لمملكته . وهنا كان العامل الشخصى هو الحاسم مرة أخرى، إذ

---

* كان لويس التاسع مثالاً للرجعية الكاثوليكية واستغل الدين لتوطيد سلطاته ، ولذلك باركته الكنيسة ومنحته لقب «قديس»، وسخّرت أداتها الإعلامية فى خدمته. (المترجم)

أن قناعة لويس بنشر العدل بين رعاياه باعتباره تكليفا إلهيًا جعله يرى فى هذا مسئولية دينية شخصية. وفى سبيل تحقيق ذلك كان نشطا باستمرار. وكتب مؤرخ سيرته جوانفيل يقول:

«فى الصيف ، بعد القُداس، غالبا ما كان الملك يذهب إلى غابة فنسان حيث يجلس وقد أسند ظهره إلى شجرة بلوط... وكان أولئك الذين لديهم شكاوى يحضرون ليحادثوه دونما عائق من أى نوع».

وبطبيعة الحال، لم يكن لويس قادراً على أن ينظر بنفسه فى كل شىء حتى فى ضواحى باريس؛ إذ كان تفويض السلطة أمراً أساسيًا . وغالبا ما كان مباشراً وشخصيًا. كما كان النظام الذى بناه متأثرا برغبة الملك فى أن يرى موظفيه ملتزمين بروح العدالة مثله.

وكان هذا هدف بعثات تقصى الحقائق enqucteurs التى أرسلها لويس إلى المقاطعات سنة ١٢٤٧م.

«أن تفحص الشكاوى التى قد ترفع ضدنا ، كذلك المزاعم عن المظالم والممارسات التى ربما يكون موظفونا ، المأمورون وحراس الغابات، ومساعدوهم ، قد فعلوها دونما إذن كتابى منا».

كان كثيرون من أعضاء بعثات التقصى هذه من الرهبان الكاثوليك فى البداية وهو ما يذكرنا بأن إرساء العدالة كان واجبًا دينيا بالنسبة للويس؛ ويبدو من تقارير نشاطهم الدائم كيف أن «حبه للعدل والتعامل الصريح» قد وصل إلى الجمهرة الكبيرة من الناس ليكسب احترامهم وامتنانهم . ولكنها أيضا تكشف عن شىء آخر؛ الكيفية التى يمكن أن يزحف بها الاستغلال بسهولة إلى داخل النظام الذى يعتمد على جهود موظفين يتمتعون بسلطات واسعة غير محددة. وهذه التقارير ملأى بقصص الطغيان الصارخ التى توضح أن الإنسان البسيط الذى لايتمتع بالحماية كان يحاول شراء مصالحه فى مواجهة الموظفين الأقوياء، لا أن يقاومهم ويشكوهم. كانت جهود لويس لتأكيد إرساء العدالة يعنى بالضرورة جعل شبكة الإشراف الحكومى أكثر شمولية وبالتالى أكثر حرفية . ولا تمثل شجرة البلوط فى فنسان سوى جانب وحيد من قصة سعى لويس لتحقيق العدالة: أما الجانب الآخر فهو النمو الكبير لأعداد ونشاطات الموظفين الإداريين الملكيين . وكانت الفرصة مهيأة أمام نظام الحكم ليجعل الناس تشعر بوطأته ، بعيداً عن قيادة لويس وتوجيهاته .

* * *

ويتضح هذا إذا ما قارن المرء بين إدارة لويس التاسع وحفيده فيليب الرابع (١٢٨٥-١٣١٤م) . إذ أن أول ما يلاحظه المرء هو ارتفاع درجة الاحتراف. فقد صار المجلس

الاستشارى القضائى للملك هيئة من القضاة المحترفين هو البرلمان Parlement الذى يرجع السجل الرسمى لأحكامه إلى عهد لويس. كذلك تم تنظيم إطار إدارة للمالية الملكية عرفت باسم Chambre des Comptes، وفيها هيئة من الموظفين المحترفين. وعلى المستوى المحلى، فى كل مقاطعة يحكمها مأمور bailli، نجد موظفًا محترفًا. ولكن هيمنة الموظفين تبدو واضحة فى المركز ، أى المجلس الاستشارى للملك . والرجال الأقوياء من أمثال بيير فلوت، ووليم نوجاريه، ووليم بليزيان وانجيراند مارينى، كلهم كانوا إداريين أكفاء وخبراء، يدينون بنفوذهم لتعليمهم وقدراتهم فضلاً عن روابطهم المتينة مع مليكهم .

واللافت للنظر أن الحكومة التى كان يوجهها أمثال أولئك الرجال وسادتهم كانت تختلف عن حكومة لويس التاسع . فمعظم الإداريين البارزين آنذاك كانوا رجالاً تدربوا على القانون المدنى الرومانى ودرسوه فى مدارس أورليانز ومونبلييه؛ وشجع هذا التعليم على نظرة أكثر علمانية من نظرة الإخوة الرهبان الكاثوليك الذين استخدمهم لويس. ويظهر تأثير هذا التدريب من المقارنة بين نشاطات بعثات التقصى التى رأسها رجال أمثال نوجاريه وبليزيان، وجابت المقاطعات فى عهد فيليب الرابع، ونشاطات بعثات سنة ١٢٤٧م. إذ تم ببساطة عكس أولويات رجال لويس: إذ صار تأكيد الحقوق الملكية وحمايتها يحتل مكان الصدارة بدلاً من حماية الأفراد من الضرر. وكانت النتيجة العملية لهذا زيادة هائلة فى عدد القضايا التى صارت تُنظر فى المحاكم الملكية . وكان يمكن تبرير تدخل الملك على أسس كثيرة: لأن موظفى الملك كانوا يزعمون أن القضية المنظورة لايمكن أن يحكم فيها سوى الملك؛ أو لأنه كانت هناك مصلحة ملكية فى القضية؛ أو لأن أحد الخصوم بحمل خطاب ضمان ملكى يضفى عليه حماية خاصة. وفى سياق هذا التداخل المستمر كان لابد لمن يتمتعون بالامتيازات الأكثر أن يعانوا، لاسيما رجال الكنيسة ونبلاء المقاطعات. وقبل نهاية عهد فيليب الرابع بزمن طويل كانت الشكاوى قد انتشرت على نطاق واسع.

إن نفس النظام الذى شاده لويس لكى يحقق العدالة هو الذى جعل تحقيقها صعبًا فى ذلك الحين. فقد كان بوسع الملك أن يعد بالسيطرة على موظفيه واحترام الامتيازات القديمة (كما فعل فى مرسومه «الإصلاحى» سنة ١٣٠٣) : وفى الواقع كان قد صار من المستحيل السيطرة على تفاصيل نشاطات جيش كبير من الموظفين . وعلى أية حال، لم يكن باستطاعة فيليب الرابع أن يكبح جماحهم كثيراً، لأنه كان بحاجة لأن يستفيد إلى أقصى حد من كل حق من حقوقه وكانت مشروعاته طموحة . فقد اشتبك فى نزاع من البابوية؛ وكانت له خطط لتكوين

إمبراطورية؛ كما اضطر لخوض حرب ضد ملك إنجلترا فيما بين سنة ١٢٩٤ وسنة ١٣٠٣، ومنذ سنة ١٢٩٧ حتى نهاية عهده خاض حربًا أخرى ضد كونت الفلاندرز . ومثل ملك إنجلترا وجد أن موارده العادية ليست كافية ، حتى بعد أن تضخمت بفعل بعض الإجراءات ، مثل تخفيض العملة ومصادرة ديون اليهود واللمبارديين . ومن ثم تعين عليه أن يفرض الضرائب على رعاياه، على الرغم من أنهم كانوا يشكون بالفعل من أنه غالبًا ما يطلب منهم أكثر مما يجب .

وفى سعيه للحصول على مزيد من التعاون من رعاياه ، اجتهد الملك الفرنسى أن يحسن العلاقات معهم بنفس الوسائل التى استخدمها إدوارد الأول فى إنجلترا، أى بالمشورة وإضفاء المزيد من العلانية على سياساته . وهكذا ظهر فى فرنسا تحت حكم فيليب الرابع مؤسسة تشبه إلى حد كبير البرلمان الإنجليزى، هى الهيئات العامة Estates General . وكان هذه تجمع سويا كافة الممثلين لرجال الكنيسة الفرنسيين ، ونواب نبلاء المقاطعات التى كان الحكم فيها مباشراً، إلى جانب نواب المدن الكبرى (الهيئة الثالثة)، بناء على دعوة من الملك. وكان وزراء الملك فيليب الرابع يشرحون لهم سياساته إبان الأزمة التى حدثت فى زمانه؛ ففى سنة ١٣٠٢ شرحوا الأسباب التى جعلته يأخذ موقفا ضد البابا بونيفاس؛ وفى سنة ١٣٠٨م كشفوا عن أسباب تصرفاته ضد فرسان الداوية؛ وفى سنة ١٣١٤م بينوا الخطر الكامن فى الموقف بالفلاندرز.

كانت هناك ثلاثة اختلافات واضحة بين «الهيئات العامة» الفرنسية والبرلمان الإنجليزى. أولا ، كان ثمة فصل بين نبلاء المقاطعات والهيئة الثالثة (نواب المدن) ، بعكس ما كان الحال بالنسبة لفرسان المقاطعات وسكان المدن فى إنجلترا. وبهذا لم تكن هناك أبدا فرصة لاتحاد راسخ بين الأرستقراطية وعامة الناس بحيث توجد مصالح مشتركة بينهما. ثانيا ، كانت إدارة الاجتماعات والدعاية للسياسة الملكية مرتبة بشكل أكثر مهارة لدى الفرنسيين إذ أن نواب الهيئات لم يكونوا يخطرون بما يفعله الملك فحسب؛ ولكنهم كان يستمعون إلى وزراء الملك وهم يشرحون الموقف له ويطلبون منه التصرف، ويجبرونه على المصادقة على طلبهم. ومن ثم كان يبدو أن سياسة الملك لاتحظى بالتأييد الشعبى فقط، بل كانت صياغتها تتم بحيث تبدو وكأنها استجابة لمطلب شعبى . ثالثا ، وأهم من هذا كله، لم تكن الهيئات العامة تحدد قيمة الضرائب على نحو ما كان يفعل البرلمان الإنجليزى ، ففى سنة ١٣٠٢ وسنة ١٣٠٨ لم يطلب الملك منهم أموالاً ، على حين سألهم سنة ١٣١٤م أن يوافقوا فقط على وجوب فرض الضرائب من حيث المبدأ. ولم يكن هناك مجال للمساومة على تنازلات مقابل مساهمة محددة بالأموال. وكان هذا هو السبب فى أن الهيئات العامة لم تكن تجتمع سوى فى مرات أقل بكثير من اجتماعات البرلمان الإنجليزى : أى أن مهمة توسيع نطاق السلطة الملكية لم تكن من وظائفها الأساسية، ولكنها كانت هيئة لإضفاء طابع العلانية على المقاصد الملكية، وحين يكون ذلك مفيداً فقط.

كانت هناك مشاورات حول الضرائب فى فرنسا، ولكنها كانت تتم بطريقة أخرى فقد كان الملك يصدر مرسوما بأن على رعاياه أن يدفعوا الضرائب ثم يرسل موظفيه إلى مختلف المقاطعات لكى يقابلوا أعيانها مجتمعين ويناقشوا معهم كيفية تحصيل هذه الأموال. وكان يمنح لأولئك الموظفين صلاحيات واسعة للموافقة باسمه على النقاط التى يمكن للهيئات المحلية أن تستغلها لجمع الأموال. وهكذا ، وعلى الرغم من أن طلبات فرض الضرائب كانت مصحوبة بوعود بالتعويض عن المظالم ، فإنها لم تكن تفرز تحديدا نظريًا من أى نوع لحق الملك. لأن دافعى الضرائب لم يكونوا يساومون الملك مباشرة . وبمرور الوقت ، تأكدت فى فرنسا حقوق الملك فى طلب الضرائب ولم يتأكد حق الرعايا فى الموافقة كما كان الحال فى إنجلترا. ومن خلال الهيئات العامة ومجالس المقاطعات، تم فرض نوع من الالتزام الجماعى والجهد الجماعى بفضل الدعاية الماهرة. إلى هذا المدى كانت التطورات فى فرنسا وإنجلترا متشابهة . ولكن فى فرنسا نما الشعور بالمصلحة الوطنية متوازيا مع نمو السلطة الملكية المطلقة، بدلا من وضع حدود لها كما كان الحال فى إنجلترا .

وفى نهاية حكم فيليب الرابع كانت هناك مقاومة نشاطة للحكومة الملكية . وعلى أية حال، فإنها لم تنشط على الصعيد الوطنى، وإنما على مستوى المقاطعات ، فقط كان خلفاء فيليب قادرين على التعامل مع «الرابطة» التى كونها النبلاء فى كل مقاطعة فى السنوات الأخيرة من حكمه: أولا لأن مصالح المقاطعات جعلتها تتباعد عن بعضها البعض (إذ كان لكل مقاطعة ميثاق خاص بها لضمان الامتيازات المحلية)، وأيضا لأن الامتيازات التى كان النبلاء يطالبون بها غالبا ما كانت هى نفس الامتيازات التى سكان المدن والأحرار يريدون إلغاءها. كانت التقسيمات بين طبقة وأخرى، وبين ناحية وأخرى ، فى فرنسا أوسع منها فى إنجلترا . وإلى أن أحرزت المقاطعات درجة أكبر من الوحدة المؤسسية الداخلية مما كان لديها فى مطلع القرن الرابع عشر، لم تجد السلطة الملكية أية منافسة فعالة.

* * *

إذا ما قارن المرء كتابات مثل «**أنشودة لويس**» و«**طريقة عقد البرلمانات**» التى كتبت للدفاع عن الملكية المقيدة فى إنجلترا ، بالمؤلفات التى تبرر السلطة الملكية المطلقة فى فرنسا، سوف تظهر فروق كثيرة تفصل بينهما. ومع هذا فإن الأفكار التى كانت كل هذه المؤلفات تسعى للتعبير عنها لم تكن على هذا القدر من التباعد . فهناك عبارة تتردد كثيرا فى ثنايا كتابات الفرنسيين: «**الملك إمبراطور فى مملكته**» . فقد استخدمها جان بلانو الذى كتب فى عهد لويس التاسع (حوالى ١٢٥٥م) وكذلك فعل وليم دوراندوس منذى بعد ذلك بحوالى

أربعين سنة؛ وكذلك كتب جون الباريسى الكاتب الذى تولى مهمة تبرير أعمال فيليب الرابع. وهى عبارة فنية يستخدمها المحامون تعنى أن الملك فى مملكته يمارس نفس حقوق السيادة المخولة للإمبراطور فى القانون الرومانى. فهو يستطيع سن القوانين الملزمة للجميع، وأن يبطلها؛ وهو وحده الذى يمكنه أن يمنح الشرعية للأطفال ذوى الأصل الوضيع وأن يجعل من عامة الرجال نبلاء؛ وفوق هذا ليس هناك استئناف لأحكامه لأن «**فى الأمور الدنيوية لا يعلو فوقه سوى الله**» . ووفقا لتعاليم رجال القانون الرومانى، كان الإمبراطور يملك هذه السلطات، لأنه يشخصه كان تجسيدا للسلطة العامة لإمبراطوريته وشعبه. ودائما ما كانت قوانين الإمبراطور تلغى تنظيمات السلطات التابعة له، لأن هذه كانت تهتم فقط بحاجات مصالح وجماعات بعينها، أما قوانينه هو فكانت تسعى لتحقيق صالح الإمبراطورية بأسرها . وهكذا فإنهم زعموا أن الملك باعتباره ممثلا للمجتمع كله «**فإن مشيئته قانون بالنسبة للجميع**» . ومن ثم فإن هذا الزعم يعكس أساس نفس فكرة الكاتب الإنجليزى، الذى زعم أن لفرسان المقاطعة وسكان المدن الصوت السائد فى البرلمان «**لأنهم يمثلون مجتمع إنجلترا كله**». فكل من الرأيين يرجع فى جذوره إلى نفس الفكرة ، عن سلطة تمثل المجتمع بأسره.

فى هاتين المملكتين فى تلك الفترة، يمكن أن نلاحظ أن نفس المفهوم كان ينتشر ويتسع نطاقه. وهو مفهوم أن المملكة تشكل مجتمعًا كليًا ومكتفيًا ذاتيًا من الناحية القانونية والاجتماعية، على الأقل فى الأمور الدنيوية. فضلا عن أن انتشار هذه الفكرة لم يكن قاصرا على فرنسا وإنجلترا فقط؛ فقد حدثت تطورات مشابهة تشهد على نمو هذه الفكرة فى أماكن أخرى. ففى الممالك الأسبانية ، أرغونة وقشتالة، كانت ثمة مجالس نيابية شبيهة بالبرلمان الإنجليزى تسمى الكورتيز Cortes تزعم ، بحق ، أنها تجسيد للسلطة الكاملة لمجتمعاتها. وبدأت هذه الممالك مثل فرنسا وإنجلترا تلعب دوراً أكثر أهمية فى الشئون الأوروبية فى الوقت نفسه؛ فقد هب ملك أرغونة لمساعدة الصقليين سنة ١٢٨٢م، كما صار ألفونسو ملك قشتاله منافس ريتشارد كورنول على عرش «الرومان» فى ألمانيا. وفى سكتلنده عندما نشب الصراع على العرش بعد موت غادة النرويج سنة ١٢٩٠م بين ثلاثة متنافسين، تم التأكيد على أنه لايمكن تقسيم سكتلنده بينهم لأنها مملكة ، ولكونها مجتمعا شاملاً وكليًا. وبعد ذلك بخمس سنوات أظهر تحالف سكتلنده مع فرنسا ضد إنجلترا أن هذه المملكة الشمالية أيضا تدخل حلبة السياسات الأوروبية . هذه التطورات المختلفة، فى بلدان مختلفة، تخبرنا ثانية نفس القصة التى أخبرنا بها تاريخ إنجلترا وفرنسا. لقد كانت الوضعية القانونية ومزاعم هذه الممالك ، باعتبارها كيانات ذات سيادة ، فى كل هذه المناطق ، قد أخذت تتمايز عن الحقوق المحددة الواضحة للسادة الإقطاعيين بصفاتهم الفردية على الأراضى والناس، وهى الحقوق التى أسماها

المؤرخون حقوقا إقطاعية . وما نراه هنا فى بداية تكوينه هو مذهب السيادة الوطنية العلمانية. ففى بواكير القرن الرابع عشر، كان الذين يدركون حتى بشكل غير واضح مغزى الأفكار الجديدة ودلالاتها المستقبلية قليلين . فبالنسبة للناس الأحرار العاديين، فى فرنسا وإنجلترا وغيرهما، كانت سلطة السيد المحلى القوى ما تزال هى التى تعينهم أكثر من سلطة الملك البعيد. وكان ما يزال على السيد الإقطاعى ورجل القانون أن يتحسسا طريقهما خلال متاهة من الحقوق المتوارثة المتعارضة والمتطابقة . ومع هذا كان تأثير الأفكار الجديدة والتطورات المؤسسية واضحًا، حتى فى حياتهم اليومية. ويبدو هذا واضحًا فى ضوء التوافق بمعايير القيمة المرتبطة بنسيج الروابط التى تربط بين السادة والناس، والتى كانت تشكل النظام الاجتماعى المعاصر. أما الولاء للملك، أو الحاكم ذى السيادة ، فكانت بمثابة روابط لنظام يختلف عن أية روابط علمانية أخرى.

كانت هناك علامات عديدة دالة على هذا الاختلاف الواضح؛ ويأتينا أوضح مثال على ذلك من فرنسا فى عهد فيليب الرابع. فهناك ، أثناء حروب الملك، مُنعت أية حروب إقطاعية خاصة بين النبلاء بمرسوم ملكى، لأن كل الجهود كان يجب أن تتركز فى مثل هذه الأوقات لتلبية الحاجات العامة . وفى مثل هذا الوقت كان دُعاة الملك يوضحون أنه لايمكن لأى رجل أن يرفض أن يساهم من أملاكه الخاصة فى تلبية حاجات الحاكم، لأن حاجته فى الواقع هى حاجة الجميع . وقد كتب جاك دى ريفنى كبير رجال القانون فى أورليانز موضحًا أنه ليس مفروضًا على أى تابع إقطاعى أن يساعد سيده ضد الملك؛ على الرغم من أنه ملزم بمساعدة الملك ضد الجميع. فالحرب ضد الملك خيانة أكبر من خذلان السيد الإقطاعى، لأن سلطة الملك العامة أعظم من سلطة أى سيد إقطاعى فرد.

هذه الأقوال تعترف بحقوق الحاكم العلمانى ، الذى يتصرف باسم الجماعة، وتعترف بأنها شاملة تمامًا بحيث لاتترك سوى مساحة ضئيلة جدا لأية ولاءات أخرى. وفى بلاد مثل انجلترا وفرنسا ، أضفت التطورات المؤسسية والإدارة قوة عملية على الأفكار الخاصة بالحكومة التى كانت هذه التطورات تعبيراً عنها. وقد وضع هذا سلطات كبيرة بأيدى الملوك . وكانت السلطة التى بدأت الإدارة والمؤسسات الحكومية الإمساك بزمامها، بموافقة الرعايا الضمنية أو الصريحة، سلطة هائلة لدرجة أنه كان من الصعب تصور أنها يمكن أن تصلح لحكم عالم مسيحى موحد تحت توجيه سلطة واحدة. وهكذا كان نمو السلطة العلمانية العامة فى ممالك أوروبا الغربية والشمالية بمثابة تحد جديد لسلطة البابوية السياسية العالمية، أقل وضوحًا من التحدى الذى كان يمثله الأباطرة، ولكنه أشد خطورة فى أسلوبه .

١٥- يونيفاس الثامن وبداية الأزمة فى الكنيسة

فى أوائل تسعينيات القرن الثالث عشر، وجد حكام كنيسة روما أنفسهم فى مواجهة سلسلة من المشكلات الملحة والخطيرة . فعلى الرغم من إرساء السلام بين فرنسا وأرغونة، كانت جزيرة صقلية ما تزال بأيدى أمير أرغونى هو فردريك، وكان شارل الأعرج أمير نابولى وابن شارل أنجو يحاول استعادتها بتأييد رسمى من البابا ولكن احتمالات نجاح المحاولة كانت ضئيلة. ففى شتى أرجاء إيطاليا كانت حروب النبلاء والمدن والصراع الأهلى بين الأحزاب، والتى تورط فيها أمراء الكنيسة أنفسهم، تنشب مخالبها فى الأرض والناس. وفى الوقت نفسه كانت الحرب بين الروحيين والمحافظين تهدد التنظيم الفرنسسكانى بالانشقاق ؛ إذ كان كل من الحزبين مسلحًا بالمراسيم البابوية المتناقضة، وتطلع كل حزب منهما لمساندة البابا ومستشاريه له ضد الآخر. وكانت عكا قد سقطت لتوها بأيدى المسلمين ، وتطلع الناس إلى البابوية لوضع بعض الخطط لإعادة الوجود اللاتينى فى الشرق. وبرز خليط من الأزمات على السطح، وفيها تعرضت الثقة العامة فى قيادة كنيسة روما للعالم المسيحى إلى الاهتزاز.

كانت انتخاب الناسك بطرس موورون سنة ١٢٩٤م للعرش البابوى تحت اسم البابا كليستين الخامس دلالة على حيرة الكرادلة ويأسهم. إذ أن بابوية هذا الرجل الجاهل على مدى ستة شهور لم تُسهم سوى بالكشف عن الفوضى الكلية فى الإدارة البابوية ، كما أن تنازله عن المنصب فى نهاية هذه الشهور الستة جعلت وضع خلفائه فى مهب الريح. إذ لم تكن هناك سابقة تخلى فيها أحد البابوات عن التاج البابوى ، وحامت الشكوك عما إذا كان هذا التنازل قانونيًا. وفى

ظل تلك الظروف ربما لم يكن اختيار الكاردينال بنيديتو كايتانى خليفة له اختياراً حكيمًا. وتولى البابوية تحت اسم بونيفاس الثامن ومن المؤكد أنه كان قديراً ، بيد أنه كان متغطرسا أيضا، وعجوزا متصلبًا ، كما أن طموحاته كانت عميقة: لا لذاته فحسب وإنما لعائلته أيضا. فضلا عن أنه كان رجل قانون كنسى عارفًا ببواطن ما كتب عن المزاعم البابوية النظرية عن السيادة فى العالم المسيحى. ولم يكن يحتمل أية تساؤلات عن النصوص الراسخة لبرنار وهيوسان فيكتور، ومراسيم البابا إنوسنت الثالث وإنوسنت الرابع التى كان يرى أنها لاتدع مجالاً للشك فى حق البابا فى الإمساك بالسيفين؛ سيف السلطة الدينية وسيف السلطة الدنيوية. وإذ واجهته سلسلة من المشكلات السياسية الصعبة ، أدى موقفه الجامد القانونى فى هذا الموضوع إلى تفاقم صعوبة المهمة التى كانت شاقة ومضنية بالفعل*.

كانت أشد الأخطار فى مواجهة الكنيسة غير واضحة بالفعل حينما تولى بونيفاس عرش البابوية. إذ كانت البابوية قد خرجت ظافرة من خضم الصراع ضد آل الهوهنشتاوفن قبل ربع قرن مضى . وكشف تركيز الأحداث فى إيطاليا ، منذ ذلك الحين وما بعده، عن مدى أهمية المال والسلاح الذى قدمته فرنسا وإنجلترا لمساندة الكنيسة فى حسم الصراع. وفى تسعينيات القرن الثالث عشر بدأ يتضح أخيرا الثمن الذى دفعته البابوية لقاء مساعدتهما. فالواقع أنه تمت المقايضة بما هو أكثر كثيراً من الوعود بعروش صقلية وأرغونة للأمراء الإنجليز والفرنسيين. وكان لابد لبونيفاس أن يكون مدركا لهذا تمامًا .

وتم دفع جزء من الثمن بالعملة الصعبة. إذ كان جريجورى العاشر قد بدأ ممارسة فرض الضرائب على جميع أفراد الهيئة الكنسية فى جميع أنحاء أوروبا من أجل الحملة الصليبية، بخصم نسبة من دخولهم «الروحية» السنوية (الدخل من ضريبة العشور، أى الضريبة على الممتلكات التى حازوها من «الصدقات الحرة»؛ أى من خدمة الصلاة من أجل الجماعة ومن أجل من يمنح الصدقة). وكانت الحروب ضد الهوهنشتاوفن والأرغونيين قد اعتبرت حملات

---

* استخدم المؤلف كلمة سيزيفية "Sisyphean" لوصف المهمة المستحيلة للبابا فى مواجهة مشكلات الكنيسة. وهى نسبة إلى سيزيفوس البطل التراجيدى فى الأساطير الإغريقية الذى عاقبته الآلهة بأن يدفع صخرة إلى أعلى الجبل، وكلما اقترب من هدفه سقطت الصخرة ليعاود دفعها من جديد وهكذا فى حركة متتالية لاتنتهى. ويقصد المؤلف هنا أن مهمة الكنيسة كانت شبه مستحيلة بسبب طبيعة المشكلات من ناحية، وعناد البابا بونيفاس الثامن وجموده من ناحية أخرى . (المترجم)

صليبية، وتم فرض الضرائب على رجال الكنيسة لتمويلها بنفس طريقة تمويل الحملات إلى الأرض المقدسة. وعندما استدعت البابوية الأبطال العلمانيين من فرنسا وإنجلترا لمساعدتها ، كان هناك حل بسيط لتوفير نفقاتهم بهذه الوسيلة؛ فقد سمح لهم بجمع العشور الصليبية على الموارد «الروحية» للقساوسة والاحتفاظ بها. وكان يمكن لهنرى الثالث ملك إنجلترا أن يواجه أزمة مالية قبل سنة ١٢٥٨م بوقت طويل لو لم يساهم القساوسة الإنجليز فى تمويل خزانته تحت دعوى غزو صقلية. بل إن الفرنسيين أفادوا بشكل أفضل من فرض الضرائب على رجال الكنيسة. ذلك أن الحملة الأرغونية وحدها قد وفرت لفيليب الثالث سنة ١٢٨٤م منحة من البابا مارتين الرابع ، بعشر كل الدخول الكنسية فى فرنسا لمدة أربع سنوات، كما وفرت منحة مماثلة لفيليب الرابع من البابا نيكولاس الرابع سنة ١٢٨٩ على مدى سنوات ثلاث . كانت النتيجة الطبيعية الخالصة لهذا، على الرغم من أنها لم تكن مقصودة من جانب البابا، هى أن ملوك فرنسا وإنجلترا ، صاروا يعتبرون المساعدة المالية من القساوسة فى مملكة كل منهما حقًا من حقوقهما عليهم، فى أى وقت تضطرهما التزاماتهما الدبلوماسية والعسكرية إلى طلب المساعدة من الرعايا .

وقد ساعدت الضرائب على تعويد القساوسة على التعاون مع السياسة العلمانية الملكية بشكل أفضل مما كان يحدث فى الماضى. كما كانت هناك عوامل أخرى ساهمت أيضا فى التقارب بين ملوك إنجلترا وفرنسا والقساوسة فى بلادهما . وفى القرن الثالث عشر مدت البابوية نطاق ممارسة «شرط» تعيين الإيطاليين فى المناصب الكنسية وأخذ ايراداتها خارج إيطاليا (خاصة فى الكنائس الكاتدرائية والجامعة) وأن يحتفظوا لأنفسهم بها، وذلك لكى توفر نفقات الإدارة ولمكافأة الموظفين الكنسيين الإيطاليين وعائلاتهم. وكان «الحائزون للشروط» الذين تعينهم البابوية يأخذون إيرادات مناصبهم . ويدفعون غيرها (بشكل غير كاف غالبا) للوفاء بواجباتهم أثناء غيابهم. وكان من الطبيعى أن يستاء رجال الكنيسة المحليون من هذا النظام ويشعرون بالمرارة تجاهه . كما أنهم كانوا مستائين أيضا من الطلبات التى كان يطلبها منهم المندوبون البابويون عندما يحلون ببلادهم، ومن النفقات التى يتكبدونها بسبب الإجراءات القضائية فى المحكمة البابوية بروما. وكانوا يتطلعون إلى ملوكهم لحماية مصالحهم ضد الأجانب القادمين من البلاط البابوى. وكان لدى ملوكهم ما يقدمونه لهم زيادة عن الحماية، لأن نفوذهم السياسى كان يساعدهم على ضمان الترقية لموظفيهم وللمقربين منهم. ومن ثم، كان هناك ميل لترجيح كفة رجال الملك بين زعماء القساوسة الفرنسيين والإنجليز.

وبفضل مصالح القساوسة الخاصة، وامتداد السلطة الملكية، ارتبطت الجماعات الكنسية فى هاتين المملكتين بروابط ازدادت متانة باستمرار بالحياة فى وطنهم . وهكذا كان على البابوية أن تدفع ثمن تأييد ملكى فرنسا وإنجلترا بأن اقتسمت معهما عوائد دخل قساوستها كما شاطرتهم أيضا، وهذا هو الأهم، ولاءاتهم وطاعتهم .

كان هذا التحول التدريجى عن روما ملحوظًا أكثر بين القساوسة العلمانيين (أى العاملين فى الكنائس) . أما رجال الكنيسة النظاميون، أى الأعضاء فى المنظمات الرهبانية مثل الكلونيين والسسترشيان ، وكل الرهبان الكاثوليك، فإنهم كانوا منذ تأسيس منظماتهم معتادين على توجيهات روما أكثر من القساوسة العلمانيين؛ ولأن التنظيم الداخلى فى منظماتهم كان عالميًا فإن ترقيتهم على أيدى الملوك لم تكن تحدث . ومن سوء الحظ أنهم كانوا يضمون أغنى الطوائف فى كل العالم الكنسى. وعادة ما كانت أصواتهم فى الشكوى من الأعباء التى يفرضها الملوك عليهم أعلى منها فى الاحتجاج على مطالب البابوية، وطالما بقى ملوك فرنسا وإنجلترا حلفاء البابوات المخلصين، فإن الولاء المقسم لقساوستهم ، والمواقف المختلفة للعلمانيين والنظاميين تجاه وضعهم ، لم يكن بهم كثيرا . وفى سنة ١٢٩٤ أدى اندلاع الحرب بين انجلترا وفرنسا إلى طرح المشكلة فجأة بشكل علنى أسرع بخلق الأزمة التى واجهت البابا بونيفاس.

لقد اندلعت الحرب التى نشبت فى تلك السنة بين فيليب الرابع وإدوارد الأول بسبب صدام بين البحارة الفرنسيين والبحارة الإنجليز على القرب من شاطىء بريتون. وكانت خلفية هذه الحرب هو الاحتكاك المتزايد بين موظفيهما فى دوقية جاسكونى التى كانت إقطاعًا أخذه إدوارد من فيليب. ولم يكن لأصولها علاقة بالسياسة البابوية على الإطلاق . إذ كان كل من الملكين قد تعود على تخطيط حملاته العسكرية على نطاق لايمكن تمويله إلا إذا ساهم المجتمع كله، علمانيين وكنسيين، فى نفقاته. وفى سنة ١٢٩٤ اتخذ ادوارد خطوة للتحكم فى مخزون الصوف، وأدى هذا إلى تحذير الأديرة السسترشيانية فى إنجلترا . ووجه فيليب تعليمات إلى كبار الأساقفة بفرنسا بجمع قساوستهم والحصول على موافقتهم بأن يدفعوا له إعانة مالية. وفى إنجلترا ارتفعت الشكوى المريرة من موظفيه بالاستيلاء على بضائعهم . ولم يكن أمام بونيفاس خيار سوى التدخل . وفى سنة ١٢٩٦ أصدر مرسومه المعروف باسم Clericis Laicos الذى حرّم على جميع القساوسة المساهمة بأية طريقة فى الضرائب التى تفرضها السلطة العلمانية ، إلا إذا صادق البابا عليها .

كان الموضوع الذى نظمه مرسوم clericis Laicos * موضوعًا هامًا للغاية. ما هى حقوق الحاكم العلمانى تجاه القساوسة ، الذين كانوا من رعاياه بلاشك والذين كانوا أثرياء بالتأكيد ، بحيث يطلب منهم المساهمة فى تلبية حاجاته من موارد الأملاك التى يحوزونها فى مملكته ؟ كانت إجابة بونيفاس واضحة. إن أملاك الكنيسة قد أعطيت لها لخدمة الأغراض الروحية التى كانت إدارتها من اختصاصات البابا. واستخدام ثروة القساوسة لخدمة أغراض لاتوافق البابوية عليها يعنى انتهاك السيادة البابوية، كما أنه «**سوء استغلال فظيع للسلطة العلمانية**». ومن جهة نظر القانون وقياسًا على ما حدث من قبل كان موقف البابا قويا، أما من حيث التقدير العام والظروف السائدة فى عصره فكان موقفه أضعف كثيراً . وقد أوضح رد الفعل السريع من جانب ملكى فرنسا وإنجلترا مكمن الضعف فى موقفه. إذ كان بوسع بونيفاس أن يبين القانون كما يريد، ولكنه لم يكن يمتلك القوة التى تمكنه من فرض أحكامه. والواقع أنه لم يكن حتى يستطيع أن يحاول ذلك بسبب وضعه فى ذلك الوقت .

إذ أن الأزمة نزلت على بونيفاس فى لحظة تعسة، فقد كانت الطريقة التى اختارها بونيفاس لفرض النظام فى أملاك البابوية حول روما هى تقديم أفراد عائلته، كما بنى لأبناء عمومته من عائلة كاتيانى ميراثا كبيرا فى الأراضى البابوية فى وسط إيطاليا، وأدت ترقيتهم إلى الصدام بينهم وبين البابا من ناحية وعائلة كولونا التى كانت من أكبر العائلات النبيلة فى روما من ناحية أخرى، وكان هناك إثنان من هذه العائلة من ضمن الكاردينالات فى البلاط البابوى. وفى مارس ١٢٩٧م اندلعت المنازعات بين العائلتين فى حرب صريحة داخل الدولة البابوية. وكان رد عائلة كولونا على قرار الحرمان والتجريد من الأملاك الذى أصدره بونيفاس ضدهم هو إنكار سلطته: «**نحن لانعتقد أنك بابا شرعى**». وإذ خرج أفراد عائلة كولونا فى صورة أبطال كليستين الخامس وراهنوا على التحالف مع الفرنسيسكان الروحيين الذين كان كليستين بطلاً

---

* هو المرسوم الذى أصدره بونيفاس الثامن ٢٥ فبراير ١٢٩٦م لحماية القساوسة فى إنجلترا وفرنسا ضد الممارسات المالية للسلطة العلمانية. وهو يمنع رجال الكنيسة من دفع العوائد الكنسية لأى حاكم علمانى بدون إذن البابا . ويمنع العلمانيين من أخذ هذه الأموال. وقد أثارت لغته الحادة معارضة عنيفة من جانب فيليب الرابع ملك فرنسا وادوارد الأول ملك إنجلترا ونتيجة لهذا تطور النزاع بين البابا وملك فرنسا إلى صراع كبير. (المترجم)

بالنسبة لهم وشهيداً (إذ كان قد مات سنة ١٢٩٦م وهو رهين الحبس) . وقد استطاع هؤلاء الحالمون أن يبرهنوا على أنهم معارضون خطرون للأب الروحى للعالم المسيحى. فهناك رجال مثل الراهب الفرنسيسكانى جاكوبونى داتودى كان يتمتع بسر الرفض الأخروى الذى كان فعالاً للغاية لأنه لم يتلون أبداً بالممارسات السياسية .

وفى الوقت نفسه كان إدوارد ملك إنجلترا يعمل على إخضاع القساوسة فى مملكته بأن سحب منهم حماية القانون العام. ولكى يتجنبوا نتائج هذا، كان معظمهم مرحبين بشراء السلام الملكى من جديد، وبالضغط على البابا لكى يخفف من حدة مرسومه . أما ما فعله فيليب الرابع ملك فرنسا فكان أكثر فعالية: فقد منع تصدير النقود خارج مملكته بأى شكل من الأشكال. ولم يكن بوسع البابا أن يخوض حربًا ضد عائلة كولونا بدون مساعدة من دخل القساوسة الفرنسيين. وكان هذا على العكس تمامًا من الموقف أيام فردريك الثانى، حينما كانت الأموال الإنجليزية والفرنسية تمول حروب البابوية فى إيطاليا، ولم يكن أمام بونيفاس خيار سوى الوصول إلى حل وسط، ولم يسحب مرسوم Clericies laicos، ولكنه أفرغه فى مرسومين آخرين. أولهما المرسوم الذى عرف باسم Ineffabilis Amor الذى سمح لرجال الكنيسة بدفع الضرائب للحاكم العلمانى ، إذا كان هناك موقف طوارىء وطنى حقيقى يبرر طلبه للضرائب. والثانى مرسوم Esti de Statu (يوليو ١٢٩٧) الذى أوضح أن من حق الملك قانونا أن يقرر إذا ما كانت هناك طوارىء بالفعل.

كان هذا الحصاد نصراً معتبراً لكل من إدوارد وفيليب، ولهذا الأخير على وجه خاص. ومهما كانت التحفظات التى وضعها بونيفاس من حيث المبدأ، فإن حق الملوك فى فرض الضرائب على القساوسة إلى جانب رعاياهم الآخرين قد تم التسليم به، وهذه هى النقطة العملية التى كانوا قد راهنوا عليها. وبقيت هناك أمور بالنسبة لإدوارد ولإنجلترا : إذ كان عليه أن يواجه المزيد من الصعوبات مع بونيفاس فيما بعد، ولكن لم يكن هناك أبدا نزاع علنى. أما حالة فيليب فكانت مختلفة . فقد تعود على أن يتصرف من موقف أقوى مما كان عليه إدوارد. كما كون لنفسه مركزا غاية فى القوة. إذ أنه قام باتصالات مع أعداء بونيفاس الآخرين؛ فقد كانت عائلة كولونا على اتصال بالبلاط الفرنسى منذ سنة ١٢٩٦م، قبل أن تصبح منازعتهم مع البابا علنية. وكان مستشارو فيليب يرون أن منشورات آل كولونا المحمومة التى تدين دخول بونيفاس إلى البابوية عن طريق الغش والخداع، تلزمه بأن ينسحب وتدعو إلى إيقافه حتى يتم عقد مجمع عام للنظر فى صلاحية انتخابه، وكان عدد من

الفرنسسكان الروحيين يؤيدونهم فى طلبهم. ومن ثم عرف مستشارو الملك أنه إذا حدثت مواجهة جديدة فإنهم يستطيعون الاعتماد على التأييد من خارج فرنسا، واعتقدوا أنهم يمكن أن ينصحوا سيدهم ألا يقدم تنازلات إلى البابا وهم مطمئنون . وربما لم يتوقعوا حدوث مواجهة فى ظل تلك الظروف على الإطلاق.

أما ما كان يزعج مستشارى الملك أكثر من العلاقات مع بونيفاس سنة ١٣٠٠ ، فكان هو الموقف فى لانجدوك . إذ كانت الممتلكات الكبيرة لكونت تولوز قد دخلت تحت الإدارة الملكية المباشرة منذ سنة ١٢٧١م؛ وكانت تلك منطقة شهدت مقاومة كنسية عنيدة للضرائب الملكية فى عامى ١٢٩٥، ١٢٩٦م . وكان من المعروف أن نشاطات محاكم التفتيش التى لقيت دعمًا ملكيًا قويًا فى القضاء على المذهب الكاثارى قد أوجدت شعورا من المرارة لدى الناس، كما كان سادة لانجدوك على علاقة تقليدية بدوق جاسكونى الإنجليزى، الذى كان ملك فرنسا مشتبكا فى حرب معه آنذاك . ويبدو أن الشكوك حول الاتجاهات المعادية لفرنسا والمؤيدة للكاثاريين قد جذبت انتباه موظفى الملك سنة ١٣٠١م إلى نشاطات الأسقف برنار سيسيه أسقف باميه الذى حاز منصبه بفضل مساعدة البابا . وتم القبض عليه بتهمة إثارة الفتنة والهرطقة. وكان الإتهام بالهرطقة يعنى أنه لابد وأن يحاكم أمام محاكم التفتيش التى لم تكن تسمح للمتهم بأى حقوق للدفاع عن نفسه. وربما كانوا يظنون أنه سيكون من الأفضل لو جعلوا منه عبرة، كما ظنوا أن بونيفاس بعد نكسته الأخيرة لن يغامر بالتدخل لصالحه. وحين رأى برنار أن حياته فى خطر لجأ إلى البابا. وإذ تبنى بونيفاس قضيته وطلب له محاكمة عادلة ، باعتباره قسيسًا، فقد نشبت مواجهة ثانية ، أكثر خطورة بينه وبين فيليب فى المحكمة البابوية.

كان تصرف البابا شجاعًا ؛ إذ كان يجب أن يعرف بعدما حدث أنه يزج بنفسه فى المخاطر. ولكنه كان يعرف قانونه، والوضع الذى يجب أن يتخذه. لأن الموضوعات التى أثيرت فى قضية برنار سيسيه كانت أخطر وأبعد حتى من مسألة الضرائب . فقد كانت الخيانة من ضمن التهم الموجهة له. ومن ثم فإن دعوى بونيفاس بأنه الحكم فى هذه المسألة كانت فى الواقع دعوى بأنه هو، وليس فيليب، هو الحكم المناسب على ما إذا كانت المسألة خيانة أم لا . على الرغم من أن الذى ارتكبها ضد ملك فرنسا هو أحد رعايا هذا الملك . وكان معنى هذا أن القضية ينبغى أن تطرح للتساؤل علنًا حول الطبيعة المحددة للسلطة التى زعم البابا أن من حقه ممارستها فى المجتمع المسيحى، وإلى أى مدى يحق له بمقتضاها أن يتدخل فى الشئون الدنيوية لأية مملكة مسيحية.

وكان الموقف الذى اتخذه بونيفاس واضحًا تمامًا بحيث شكل تحديًا مباشراً لفيليب وكان مرسومه المسمى Ausculta Filli ، الذى خاطب فيليب شخصيا ، يبدأ بنص من سفر إرميا النبى يذكر الملك بطبيعة السلطة الملكية. ثم دعا قساوسة فرنسا إلى روما للقائه فى مجمع دينى فى نوفمبر ١٣٠٢م .

«حتى يمكننا الاستماع إلى مشورتكم حول أفضل ما يمكن عمله للحفاظ على حريات الكنيسة المقدسة، ولإصلاح ملككم ومملكتكم ، وبالتالى من أجل الحكم الجيد».

كانت الكلمات الأخيرة هى الكلمات الأهم. إذ أنها توضح أنه يجب على القساوسة الجلوس للحكم على تصرفات الملك، وأن من حق البابا أن يقومها إذا رأى ذلك مناسبًا .

وكان فى هذا المجمع (الذى حضره عدد قليل) أن صدر المرسوم الذى يحمل اسم Unam Sanctam فى ديسمبر سنة ١٣٠٢م. لقد كان أوضح تعبير، وربما الأكثر منطقية، فيما يتعلق بالسلطة الدنيوية للبابوات على الإطلاق. **«ليست هناك سوى كنيسة مقدسة واحدة، وخارجها ليس هناك خلاص أو محو للذنوب والخطايا»** . كانت تلك هى الكلمات الإفتتاحية" وبما أن الكنيسة هيئة واحدة فلايمكن أن تكون لها سوى قيادة واحدة **«إنه المسيح ونائب المسيح بطرس وخلفاء بطرس »**. ومن ثم فإن كل السلطات اللازمة للخلاص فى أيدى نائب المسيح؛ وبالتالى **«إذا خرجت السلطة العلمانية عن سواء السبيل فيجب أن تحاكمها السلطة الروحية»**. كان الجديد فى هذه العبارات قليلا؛ بل إن الكلمات بنصها كانت مقتبسة من نصوص معروفة جيدا. وكان وضوح الكلمات هو الذى جعلها مؤثرة ؛ لأنها لم تترك مجالاً للشك أو السفسطة؛ كما أن حقيقة إدانتها العلنية لسلوك أقوى ملك فى أوروبا ، دون أن تذكر ذلك، زاد من تأثيرها .

وقبل ديسمبر سنة ١٣٠٢م كان فيليب قد أوضح بالفعل أنه قد عزم على تحدى البابا . وكان رده على Ausculta Filli أن دعا «الهيئات العامة» إلى الإجتماع . وتمت قراءة صيغة مزورة من المرسوم البابوى ، بحيث حولته من دعوة إلى التوبة لتجعل منه إعلانا بأن كل الذين ينكرون حق البابا فى التعيينات الكنسية فى فرنسا هراطقة . وأعقبت هذا قائمة طويلة بأعمال بونيفاس العدوانية ، وجشعه ، وإيثاره ذوى قرباه فى الوظائف العليا ، وعدم الإنتظام فى التعيينات فى الوظائف الكنسية ، وكثير غيرها قدمها بيير فلوت مستشار فيليب . وكانت الدعاية قد أعدت بمهارة و مورست بحذق وحققت التأثير المطلوب . فقد جعلت مندوبى

القساوسة يقفون على خط واحد مع رغبات الملك ، وانتزعوا من النبلاء والهيئة الثالثة التماساً بأن يعمل للدفاع عن حقوق المملكة والكنيسة الفرنسية .

وكان هذا هو ما يحتاج إليه فيليب . إذ كان قصده أن يستدعى بونيفاس للمثول أمام مجمع يقوم بخلع هذا البابا الذى جرؤ على التدخل بينه وبين رعاياه . وكان الملك قد أعد الشكاوى المريرة ضد الطغيان البابوى فى روما والتى قدمتها الهيئات الثلاث فى مملكته لكى يضعها أمام المجمع . وكان مستشاره نوجاريه مستعداً بسلسلة من التهم ضد بونيفاس تتهمه بأنه ليس بابا ، وتتهمه بالهرطقة . وتمثّلت العقبة أمام هذا المخطط التآمرى فى أن ملك فرنسا لم تكن له سلطة الدعوة إلى عقد مجمع كنسى عام (الهيئة الوحيدة فى القانون الكنسى التى يحق لها أن تحاكم البابا المتهم) . وكان نوجاريه على اتصال بآل كولونا وواعدهم على اللقاء فى إيطاليا. وكانت مهمته هى الإمساك بالبابا بمساعدتهم ، وإحضاره إلى فرنسا ، وإجباره هناك على الدعوة لمجلس كنسى لخلعه.

ولو كان هذا المجلس قد اجتمع ، فربما كان قد أدان بونيفاس . وكانت لنوجاريه طريقته فى ضمان الإدانات ، وكانت طريقة فعالة على الرغم من أنها طريقة كريهة . ذلك أن الأدلة التى جمعها فيما بعد كشفت عن الطريقة التى كان سيتصرف بها . كانت هناك قضايا أساسية لتوجيه الإتهام ، منها الإدعاء بالسيمونية * وتهمة الهرطقة الكامنة بين ثنايا كلمات مراسيم البابا ؛ ثم طرح السؤال عن صلاحية انتخابه . ولكن القوة الحقيقية فى إتهامات نوجاريه تمثلت فى الإصرار على الإفتراء المقزز الفاحش على شخص بونيفاس، المنتقى من ثرثرة الشوارع فى إيطاليا . وكان محسوبًا أن هذا سوف يحقق تأثيره بفضل التحقير وحده . كانت هناك قصص رائجة بأن بونيفاس لم يكن من المؤمنين؛ وأنه شاذ جنسيًا أو لوطى ، وأنه يتعاطى السحر . أما الحكايات الصغيرة المنفردة عن غواية النساء والهبات المقدمة للغلمان فقد تركت ظلاً باهتاً من الكرامة لبونيفاس ، لو أنه عاش لكى يسمعها تروى عنه فى محاكمة عامة . وربما لم يكن حتى يستطيع الإجابة عنها : ومن المؤكد أن نوجاريه كان يخطط لأن يطالب بإجراءات محاكم التفتيش التى لاتسمح للمتهم بأن يدافع عن نفسه. ومن المؤكد أن خطط فيليب ومستشاره لتدمير خصمهما كانت معدةً بمهارة شديدة.

---

* أى بيع الوظائف الدينية مقابل المال . (المترجم)

والحقيقة أن مشروع نوجاريه أجهض ولم ينعقد المجمع الكنسي . فقد وصل إيطاليا بسلام وضم قواه إلى سيارا كولونا . وفي ٧ سبتمبر ١٣٠٣م فوجئ بونيفاس ، الذى كان يرقد مريضا فى أناجنى ، بهم و برجالهم يقبضون عليه . ولكن قبل أن يتمكنوا من اتخاذ أية خطوة لنقل الرجل المسن المتكبر ، كان المواطنون قد هبوا وخلصوه منهم . واضطر نوجاريه إلى الهرب عائداً إلى فرنسا . وكانت القوة المتبقية لدى بونيفاس كافية فقط لأن يصل إلى روما بعد عناء، وهناك مات فى الثانى عشر من أكتوبر .

ولم تعد هناك حاجة لعقد مجمع كنسي بعد ذلك . فما حدث أبطل مرسوم Unam Sanc-tam . وربما كانت القوانين التى اقتبسها بونيفاس فى هذا المرسوم تبدو صحيحة نظريًا ؛ ولكن من الواضح أنها لا تصلح فى مواجهة الحقائق السياسية ، كما أنها مجرد كلمات جوفاء لاتصلح للأغراض العملية . إذ كان شعبه ، من العلمانيين والكنسيين على السواء ، موالين تماما لذرية لويس التاسع على النحو الذى تأكد علانية من رد فعل الهيئات العامة وتوافق الأساقفة الفرنسيين مع السياسة الملكية على مدار الأزمة كلها . وبقى المرسوم ولم يسحب ؛ بيد أن أحدا من البابوات لم يسع مرة أخرى لتأكيد السمو البابوى على الملوك فى الشئون الدنيوية ، على نحو ما زعم المرسوم . لقد انكسرت السلطة الدنيوية العالمية للبابوية فى مواجهة سلطة ملك فرنسا ، على الرغم من أنها كانت قد نجحت فى تحدى سلطة الإمبراطور . وهذه شهادة على أن تغييراً شاملاً قد حدث منذ أيام إنوسنت الثالث فى البناء السياسى لأوروبا . ولم يعد بوسع أى بابا أن يمارس هذه السلطة على الملوك والأمراء مثلما كان يحدث من قبل .

* * *

وعلى أية حال ، كان لابد أن تفرز كارثة بونيفاس توابع أظهرت أن تلك لم تكن القصة كلها . ففى سنة ١٣٠٣م ظهر أن فيليب قد كسب نقطة أساسية جداً ، ولكى يتوج نجاحه تم تعيين رجل فرنسى فى المنصب البابوى سنة ١٣٠٥م . وبدت البابوية وكأنها صارت أداة بيده، لأن كليمنت الخامس لم يغادر فرنسا إطلاقاً : إذ كانت بابويته بداية مرحلة نفى طويلة للبابوات من روما . ومع هذا اكتشف فيليب أنه لايستطيع أن يطوعه لإرادته تماماً .

وفى سنة ١٣٠٧ حاول فيليب أن يحول خضوع كلمينت لخدمة أهدافه الخاصة لاسيما وأنه كان واقعا تحت وطأة الحاجة الشديدة للأموال نتيجة لحروبه فى الفلاندرز . وألقى القبض على جميع فرسان الداوية فى فرنسا واستولى على ثروتهم الضخمة . وكان نوجاريه قد أعد اتهاما،

على نفس الخط المقزز الذى كان الإتهام ضد بونيفاس قد نسج على أساسه ، يتهم تنظيم الداوية كله بأنهم يخفون تحت عباءة السرية نظاماً من الرذيلة المنظمة وانتهاك الحرمات الدينية بشكل جماعى . كان التنظيم منذ نشأته خاضعًا للبابا مباشرة. ولكى يتم إجبار كليمنت على التصرف أرفق فيليب بطلبه تهديدا للبابا بأن يعيد فتح قضية بونيفاس. وعلى الرغم من هذا فشلت محاولة فيليب الإنقلابية . إذ لم تحدث أبداً إدانة الداوية . ففى المجمع الذى عقد فى فيينا سنة ١٣١٢م حل كليمنت تنظيم الداوية ببساطة ، وبذلك جرد فيليب من كل ما كان فى جعبته من اتهامات ضدهم وضد بونيفاس . كما انتقلت أملاك الداوية خارج فرنسا ، والتى كان فيليب يطمع فيها ، إلى الاسبتارية . وقام كليمنت بهذا كله بنفسه ، ولم يتم هذا من خلال حكم قضائى ، وإنما تم بوصفه عملاً من أعمال السيادة البابوية وبوصفه رئيسًا للكنيسة- أى أنه استخدم نفس السلطة العالمية التى كان بونيفاس قد حددها فى مرسومه Unam Sanctam .

وليس من الصعب تفسير الفشل الجزئى الذى منى به فيليب فى مسألة الداوية . ذلك أن الإتهامات الفظيعة التى دبرها نوجاريه والتى دعمتها «الاعترافات» التى انتزعت من بعض أفراد الداوية كانت كافية لإقناع الهيئات العامة الفرنسية بأن تصرف ملكهم كان سليمًا . ولكن الداوية كانوا تنظيمًا عالميًا : وفى كل مكان غير فرنسا لم يكن هناك نوجاريه ، ولم يكن هناك تعذيب ، وكان هناك شك صريح فى التهم الموجهة ضد الداوية . وفى ذلك الوقت كان بوسع البابا أن يتصرف بسلطته العالمية ، لأن فيليب والفرنسيين فقط هم الذين كانوا يرغبون أن يتصرف بطريقة أخرى ، ولم يكن ذلك أمراً يخصهم وحدهم . وكانت محاولة فيليب لإجبار البابا للمرة الثالثة بالتالى ناجحة فقط فى إظهار أن السلطة البابوية ما زالت ثابتة بشكل أقوى كثيرا مما ظهر فى أعقاب قضية بونيفاس . فمن خلال الحقيقة المجردة بأن وجودها ، قوة عالمية فى أوروبا ، تتسم مؤسساتها الكنسية بالعالمية (مثل منظماتها الرهبانية والديرية ، وجماعات المتعلمين فى الجماعات) استمرت البابوية تتمتع بسلطاتها الضخمة .

هناك عامل أخلاقى هام للغاية فى هذا . إذ أن نتاج قضية الداوية هذه قد برهن على حقيقة أنها لم تكن مجرد قضية بين فرنسا والبابوية . ويؤدى هذا إلى افتراض أن المنازعات السابقة بين الملك فيليب والبابا بونيفاس أيضا تحتاج أن ننظر إليها فى سياق أوسع من سياق العلاقات الفرنسية البابوية ، إذا ما أردنا أن نقدر مغزاها الحقيقى .

ولم يكن فيليب نفسه يفكر فى أن القضية تؤثر على فرنسا وحدها . إذ أن محاولته لتقديم

بونيفاس للمحاكمة أمام مجمع دينى يجعل من الواضح أنه اعتبرها قضية يجب أن يتدخل فيها العالم المسيحى اللاتينى بأسره . ومن المهم أن نتذكر هنا أن فيليب ، على الرغم من أنه لم يكن شخصية جذابة ، كان رجلاً تقيا على الطريقة المحافظة ؛ وكان أعز أحلامه أن يقود حملة صليبية كبيرة مثلما فعل جده لويس التاسع. ولم يكن ليتصرف على هذا النحو لو لم يكن يظن أن أفعاله فى صالح العالم المسيحى . وفضلاً عن ذلك كان لديه المبرر لأنه سمح لنفسه أن يفكر بهذه الطريقة . ففكرة المضى قدما ضد بونيفاس من خلال مجمع ليس فرنسيا فقط قد نبعت أصلاً من منشور آل كولونا سنة ١٢٩٧م . ولم يكن الفرنسيون ، وإنما كان آل كولونا والفرنسسكان الروحيون ، هم الذين أثاروا الشكوك فى البداية حول صلاحية انتخاب بونيفاس . ولم تأت الصيحة ضد بونيفاس من فرنسا فقط ولكن من جميع أنحاء أوروبا المسيحية . ولو لم يكن الأمر كذلك ، لما نجح فيليب فى تحدياته للبابا إلى هذا المدى ، وربما لم يكن لينجح على الإطلاق .

إن القصة الكاملة لهذه المواجهة كانت تنذر حقيقة بما هو أكثر من زيادة سلطة الحكام الوطنيين . فهى تكشف عن التغير الذى حدث فى مواقف الناس لا فى فرنسا وحدها وإنما فى جميع أنحاء أوروبا تجاه كنيسة روما القوية ومزاعم رئيسها ، أى البابا. وقد أدى عناد بونيفاس إلى كشف هذا التغير علنًا ، ولكنه لم يكن السبب فى حدوثه . فقد كان نتاجاً لتاريخ النشاطات البابوية على مدى السنوات الخمسين الأخيرة أو يزيد؛ إذ أن فشل البابوية فى تقديم قيادة قادرة للحملات الصليبية فى الشرق ، وعجزها عن أن توجد مجالاً للحماسة الدينية والمثل العليا لدى الفرنسسكان الروحيين داخل نطاق الكنيسة ، وتعثرها فى خضم الصراعات الجلفية / الجبللينية بايطاليا ، ثم طلبها الذى لاينتهى للمال الذى كان ينفق لتحقيق أهداف بدت سياسية خالصة - كل ذلك أدى إلى تغير مواقف الناس منها . وتمثل مواقف الهيئات العامة وزعماء القساوسة الفرنسيين، إبان النزاع بين فيليب الرابع وبونيفاس، علامات على الطريقة التى كانت هذه الأمور تؤثر بها على الناس الذين كان معظمهم من المسيحيين المخلصين . ويمكن أن نجد إنطباعًا أوضح وأكثر حيوية عن تأثير هذه الأمور فى كتابات أحد معاصرى بونيفاس ، وكان يعيش فى إيطاليا وليس فى فرنسا ، وهو دانتى الليجيرى الذى رسم صورة للبابوات فى «الكوميديا الإلهية» .

ففى أشعار دانتى نجد بونيفاس الثامن ، مع نيكولاس الثالث الذى سبقه وكليمنت الخامس الذى جاء بعده ، معًا فى جهنم Inefrno وسط السيمونيين ، وكان هذا ما تعين على دانتى أن يقوله لهم :

«أخبرونى كم قدر الأموال التى طلبها الرب من بطرس عندما وضع المفاتيح فى عهدته ؟ من المؤكد أنه لم يطلب شيئا سوى «إتبعنى» .... إنكم رعاة ، تماما مثل رأى كاتب الأنجيل، عندما شاهد المرأة الجالسة على الماء ترتكب الزنا مع الملوك ... لقد اتخذتم من الذهب والفضة إلها لكم : فما الفرق بينكم وبين عبدة الأصنام ؟ .

هذه الكلمات الغاضبة تظهر أفكار دانتى عن سلطة البابا فى الحل والعقد على الأرض ، واصطدامها بالسياسات المعاصرة ، وعن الموارد التى كان يتم جمعها فى روما من جميع كنائس أوروبا . وكان يرى أن سياسات البابوية وطمعها هى التى زجت بايطاليا كلها ، والكثير من بلدان أوروبا ، فى خضم الصراع . كانت السلطة الدنيوية للبابوات تبدو هى العقبة الرئيسية فى العالم المعاصر والتى تحول دون السلام والوئام على الأرض : وهو ما كان ضروريا للناس إذا ما أرادوا للحياة الروحية أن تزدهر . وبالنسبة لدانتى كانت نشاطات البابا قد ابتعدت تماما عن رسالة المسيح« حسن النية تجاه البشر » ومع هذا كان دانتى مسيحيًا ورعًا مخلصًا مثل الكثيرين فى زمانه .

وما كتبه دانتى يكشف عن الدرجة التى قوضت بها الأحداث ثقته وثقة معاصريه فى قدرة البابوية على زعامة المجتمع المسيحى . ذلك أنها كانت قد غاصت عميقاً فى مستنقع السياسة كما أن رجال الدين فى الهيكل الإدارى الكنسى الذى كانت تحكم من خلاله كانوا مكبلين بمصالحهم الواسعة لدرجة أنه لم يعد بوسعهم أن يرتقوا بالحياة المسيحية . ومع هذا كانت وحدة الشعوب المسيحية فى هذا العالم تبدو ضرورة دينية بالنسبة لدانتى ، وشرطًا حيويًا لكى تحقق الكنيسة مهمتها الحقيقية . وكان هو ، وكثيرون ممن يفكرون مثله ، مع البابا بونيفاس فى أن الكنيسة جسد واحد ، وأنها تتطلب التوجيه صوب غاية واحدة . كانوا قد توقفوا فقط عن تصديق أن البابوات تتطلب التوجيه السليم، ومن ثم أخذوا يبحثون عن هذه التوجيهات السليمة لدى غيرهم .

كانت آمال دانتى تتركز على إحياء الإمبراطورية وجاء عليه وقت اعتقد فيه أنها مسألة بمتناول اليد ، وذلك عندما سار هنرى أمير لوكسمبرج بجيشه إلى داخل إيطاليا ١٣١٠م . ولكنه كان يفكر بالطريقة القديمة ، وضللته دراساته فى التاريخ الكلاسيكى: فقد كان فشل هنرى استنتاجاً واضحًا منذ البداية . ومن المؤكد أن أيام الإمبراطورية العالمية كانت قد ولت بموت فردريك الثانى . أما معاصر دانتى الفرنسى بيير ديبوا ، فكانت لديه أفكار أخرى : إذ تركزت آماله على تحالف أوروبى كونفدرالى كبير ، يقوده أمراء فرنسا فى حملة صليبية

جديدة. ولكن لم يكن هناك الكثير فى مشروعاته هو الآخر ؛ إذ كانت أيام الحملات الصليبية قد انقضت أيضا ، ولم يكن هناك سوى نفر قليل فى ألمانيا وإيطاليا يتحمسون لحكم الأمراء الفرنسيين الذى كان يرغب فى إقامته. وبقى هناك خيار ثالث ، رأى آخرون غير دانتى وديبوا أنهم يمكن أن يعلقوا عليه بعض الآمال ، وهو ما اكتسى أهمية فائقة فى المستقبل .

فقد كانت متاعب بونيفاس الثامن قد جذبت الإنتباه إلى السلطة التى يمكن لمجمع كنسى عام أن يمارسها فى حالة الطوارىء . لقد كانت هى السلطة الوحيدة التى يمكنها بحكم القانون الكنسى أن تحاكم البابا الذى يتهم بالهرطقة . وكانت التطورات المؤسسية المعاصرة تفتح آفاقا أبعد أمام مثل هذا المجمع . فمن خلال نظام يحقق تمثيل كل قطاعات المجتمع المسيحى كان يمكن للمجمع الكنسى أن يلم شمل الناس الذين كانت مصالحهم وآراؤهم تباعد بينهم تدريجيًا والسلطات فى أوروبا ، كما كان من الممكن تشكيل سلطة عامة تسمو فوق المصالح المحلية، وبذلك تعالج سوء استخدام السلطة فى النظام الكنسى . كانت مثل هذه الأفكار تتجسد فى عقل إثنين من العلماء هما : مارسيجليو البادوى Marsiglio of Padua ووليم أوكهام ، اللذين كانا قد لجآ فى عشرينات القرن الرابع عشر إلى الإمبراطور لويس البافارى ، هربًا من توبيخ البابا . وقد أدى تأييد الإمبراطور للجبللينيين أعداء البابوية فى شمال إيطاليا إلى توقيع عقوبة الحرمان الكنسى ضده .

ويبرز المغزى الأخلاقى الحقيقى لما حدث للبابا بونيفاس الثامن فى كتاباتهم وكتابات دانتى واضحًا جليًا . ولم يكن المغزى هو أن مثال العالمية المسيحية ، الذى كان كامنًا فى جذور الأفكار التى عبر عنها مرسوم Unam Sanctam ، قد مات . ولم يكن هو أن سلطة الملوك الوطنية قد صارت مكتملة القوى على الرغم من تعاظمها. ولكن مغزى ما حدث تمثل فى أن الناس فى القرن الرابع عشر فقدوا ثقتهم فى كنيسة روما وقدرة حكامها على التمسك بالمثل العليا أو تطويرها ؛ سواء كانت تلك المُثل العليا علمانية أو دينية. إذ اهتزت الثقة فى وحدة العالم المسيحى الأوربى؛ ولم يعد ما يشغل الناس كيفية تحقيق مثل هذه الوحدة وتوسيع نطاقها ، وإنما شغلهم التفيكر فى كيفية الحفاظ على ما هو موجود بالفعل.

القسم الرابع

١٣٣٠- ١٤٦٠ تقريبا

اضمحلال مثال وحدة العالم المسيحى .

وانتصار القـوى الجديـــدة

١٦- التطور الاقتصادي والاجتماعى
فى أواخر العصور الوسطى

كان ختام القرن الثالث عشر، الذى شهد انهيار الدويلات الصليبية وبروز المجتمعات الوطنية الجنينية فى فرنسا وإنجلترا، هو الوقت الذى حدثت فيه أيضا تغيرات فى إيقاع الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى أوروبا وبدأت تمارس تأثيرها . ذلك أن عصراً من التوسع والنمو كان يقترب من نهايته؛ فقد بدأت فترة من الإستقرار بل الإنحسار فى بعض النواحى. مثل هذه التطورات من طبيعتها أن تجعل من المستحيل تثبيتها بأية تواريخ دقيقة، ومن الصعب تمامًا أن نعمم تأثيراتها بدقة. ولكن إذا حاولنا التعميم فربما يمكن للمرء أن يقول أن أبرز تأثيراتها، مع التجاوز، كان هو ما يمكن وصفه بأنه غزو حكومى للعلاقات الإقتصادية والاجتماعية. وإذا ما سألنا لماذا حدث هذا «الغزو» ، فربما كانت الإجابة، بقدر من التجاوز مرة أخرى، بأن هذا راجع إلى حقيقة أنه بينما وصل نمو التجارة والسكان فى أوروبا إلى مداه، لم تكن أساليب الإنتاج والتجارة قد وصلت إلى مداها بعد. وهكذا خُلقت الضغوط التى أمكن احتواؤها على المستوى المحلى والفردى، ولكن فقط من خلال التنظيم الأفضل، والتضامن الاجتماعى المتزايد، والتوجيه الحكومى فى المجالات الاجتماعية والاقتصادية .

وبعض الأعراض الواسعة الانتشار لهذا الجانب المتغير فى الأمور واضحة تماما. إذ كان العصر الباكر لهذا التوسع والنمو قد أتاح الفرص للجهود الفردية والإنجاز الفردى وانعكس هذا فى الأرباح الطائلة التى حققها التجار البنادقة والجنوية، مثلا، فى مطلع القرن الثانى عشر، بمغامرات نظمتها الشركات بين رجلين أو ثلاثة رجال. كما انعكس أيضا فى إنجازات

مجموعات صغيرة من الفلاحين المجهولين والمنسيين فى استصلاح الأراضى البور والاستقرار بها، ويبرز بوضوح أكثر فى كيفية تحقيق النبلاء الأفراد ، والمجموعات، المكاسب لأنفسهم بعيداً عن الوطن زمن الحروب الصليبية. إذ أن مغامراتهم أدت إلى ميلاد أدب متكامل عن مغامرات الفرسان فى تجوالهم، تبرز خلفيته الجغرافية اللامحدودة واحدة من خصائصه المذهلة: وليس معروفا إلى أى مكان سوف تحمل القصة البطل الذى يترك ميراثًا هزيلاً ومنزلاً فقيراً فى فرنسا أو إنجلترا فى بدايتها. وفى القرن الرابع عشر كانت مثل هذه القصص ما تزال تأخذ الألباب، ولكنها كانت قد فقدت الكثير من واقعيتها . لقد كان ذلك عصراً من المشاركة أكثر من الجهد الفردى، عصراً من الغزوات التى لايكسبها الأفراد وإنما تكسبها عصابات الجنود المرتزقة (مثل العصبة القطلانية التى اكتسحت بلاد اليونان التى يحكمها الفرنج سنة ١٣١١م) ؛ عصراً وجدت فيه عُصب المدن ونقابات العمال التى تشكلت للحفاظ على حقوقهم الطبقية؛ كما كان عصراً ميزته ثورات الفلاحين . ونمط المشاركة يدل بوضوح على أن الظروف قد صارت فى تلك الفترة أصعب مما كانت عليه فى الماضى.

وبالنظر إلى التطورات الإقتصادية والاجتماعية فى هذه الفترة الأخيرة من العصور الوسطى، والتى تبدو غالبًا فترة من الجمود والإضمحلال، يحسن بنا أن نتذكر أنها كانت الإفتتاحية التى جعلت من الممكن تحقيق الإنجازات التى تمت فى فترة النمو التالية. وإذا قارن المرء بين التوسع والنمو الأوربى فى القرن السادس عشر وبين التوسع والنمو الذى سبق فيما بين القرن الحادى عشر والقرن الثالث عشر، سوف يلاحظ أن الحكومات لعبت دوراً أكبر كثيراً فى القرن السادس عشر، وأن دور الأفراد كان أقل حسماً . وهذه نتيجة لعملية حدثت فيما بين الفترتين والتى أسميتها «الغزو الحكومى للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية». كما أنها علامة على أن الفترة التى توسطت الفترتين لم تكن مجرد فترة جمود، ولكنها كانت فترة تكوين أيضا.

وفى عملية التكوين هذه، يبدو أن هناك عوامل ثلاثة كانت لها أهمية خاصة: أولها ذكرناه بالفعل وهو حقيقة أن النمو التجارى الأوروبى كان قد وصل آنذاك إلى منتهاه ، كما كان يعانى الإنحسار فى بعض المناطق. وكان العامل الثانى هو الجهد المشترك فى الحياة الاقتصادية فى ظل الحرب الدائمة، وسلسلة الطواعين والأوبئة الكبرى التى أطلق على أولها «الموت الأسود» (١٣٤٧-١٣٤٩م) . كان العامل الثالث هو التقدم الهائل فى أساليب الإنتاج والتبادل التجارى. وفيما بقى من هذا الفصل سوف نرى تأثيرات كل من هذه العوامل على حدة.

لقد أنتج التوسع الذى شهدته الفترة السابقة من العصور الوسطى نماذج التبادل، التى كانت أهم صادرات أوروبا فيها هى الملابس والأقمشة، على حين كانت أهم وارداتها الحرير والتوابل التى كانت تأتى من الشرق عن طريق إيطاليا، والفراء والشمع والعسل الذى كان يأتى من منطقة البحر البلطى. كما أنتج التركيز الحضرى للسكان فى المناطق الرئيسية للتبادل والإنتاج، إذ كانت جنت وبروج ويبرس فى الفلاندرز ، وفلورنسا فى تسكانيا مراكز لصناعة الأقمشة، أما البندقية وبيزا وجنوة فى إيطاليا ، ولوبيك ودانزج فى شرق ألمانيا، فكانت هى المراكز الكبرى للإستيراد ، كما أن مدن نهر الراين وبروج بالقرب من مصبه ، قد ازدهرت بفضل الحركة على صفحة النهر شمالاً وجنوبًا . وفى كل من هذه المدن نتج عن الحاجة للسيطرة على شئونها الاقتصادية وتنظيمها المطالبة بوضع تدابير للحكم الذاتى الداخلى، وهو ما حققته معظم هذه المدن فى القرن الثانى عشر. وفى خضم صراعاتها من أجل حرياتها، صار زعماؤها ومن جاءوا بعدهم ، حكامًا لهذه المدن، وكونوا عائلات حضرية حاكمة وراثية.

هكذا تم إرساء هيكل كان حتميًا لاستقرار التجارة داخله (ومن ثم الطلب على البضائع الجاهزة) أن يخلق التوترات. وبالنسبة لهذه المدن التى اعتمد رخاؤها على التجارة أساسًا، كان خطر منافسة المنافسين فى الأسواق التى يشترى منها تجارها هو الخطر الحقيقى. وفى حالة البندقية وجنوه أدى هذا إلى القضاء على المنافسة بتخصيص أحياء تجارية وأسواق فى الشرق من خلال اتفاقيات مع السلطات المحلية هناك منحتهم شروطًا تفضيلية، كما أدى هذا أيضا إلى سلسلة من الحروب التجارية الطويلة بينهم، وكان مسرح هذه الحروب فى المنطقة العربية شرق المتوسط وفى بحر إيجة، واستمرت طوال القرن الرابع عشر. وبمرور الوقت برزت البندقية ظافرة فى النهاية فى القرن الخامس عشر ولم يعد لها منافس: كما أن حروب الإمبراطور التترى تيمورلنك (١٣٥٨-١٤٠٥) وحروب الأتراك العثمانيين كانت قد أوقفت تدفق البضائع فى منطقة شرق المتوسط :وهى البضائع التى كان الإيطاليون يسعون للحصول عليها، أما المدن الألمانية التى ازدهرت على تجارة البحر البلطى فكان عليها أن تواجه نفس مشكلة المنافسة فى الفترة نفسها. وقد وجدت هذه المدن وسائل أقل تدميراً وعنفًا للتغلب على مشكلاتها ، وذلك بتكوين عصبة ضمتها جميعا للوقوف بوجه أى منافس.

كان أبرز مثال على ذلك العصبة الهانزية التى كان أعضاؤها يحتكرون فعلاً تجارة البحر البلطى وبحر الشمال. وكان تجار لوبيك ، أهم مدن العصبة الهانزية، قد حصلوا لأنفسهم على امتيازات فى الأسواق التى يسافرون إليها فى لندن، ونوفجورود وبروج، منذ القرن الثانى

عشر. وإذ سمحت هذه المدينة بمشاركة غيرها من المدن امتيازاتها ، بشرط التعاون لطرد أى منافس خارجى، تم بناء عصبة قوية بالتدريج . كانت مراكزها الرئيسية فى لوبيك ودانزج اللتين كانتا تسيطران على تجارة البحر البلطى؛ وفى هامبورج وبريمن اللتين سيطرتا على تجارة بحر الشمال؛ إلى جانب كولون على نهر الراين. وفى ستينيات القرن الرابع عشر، عندما كانت قوة العصبة الهانزية فى أوجها. كانت العصبة تضم أكثر من سبعين مدينة وكونت مجلسًا نيابيا (دايت Diet) كان يتقابل فيه جميع ممثلى هذه المدن لمناقشة القرارات المتعلقة بالسياسة العامة. كانت هذه المدن قوية ومتحدة بالشكل الذى يكفى لأن تشن حربًا عظمى ضد الدانمرك ، انتهت سنة ١٣٧٠م بصلح قلل من سيطرتها على تجارة البحر البلطى. كما أنه أعطى للعصبة الهانزية منذ ذلك الحين السيطرة الكاملة على مصائد سمك الرنجة البالغة الأهمية فى البحر البلطى . فقد كانت أسماك الرنجة المملحة عنصراً ثابتًا فى غذاء أوربا الكاثوليكية، وكانت سيطرة العصبة الهانزية على المصائد أحد المصادر الرئيسية لقوتها ورخائها . وكانت هجرة أسراب أسماك الرنجة من مضيق البحر البلطى فى مطلع القرن الخامس عشر واحداً من أسباب تدهور العصبة فيما بعد.

لم تكن العصبة الهانزية دولة سيادية ، ولكنها كانت إتحادا فيدراليًا بين مدن مستقلة . وقد وفرت مواردها المتحدة القوة العسكرية والبحرية اللازمة لشن الحرب ضد الممالك الاسكندنافية وضد إنجلترا لكى تمنع تجارها من دخول الأسواق. وثمة عُصب مدن أخرى فى ألمانيا استخدمت نفس الأساليب لحل مختلف المشكلات، وكان الهدف الأساسى لعصب مدن الراين حماية حركة التجارة فى النهر من السلب والنهب فى غمار حروب النبلاء الإقطاعية ، ومن الرسوم التى كان الأمراء والنبلاء يفرضونها فى مناطقهم . وكانت أشهرها العصبة السوابية، التى تكونت سنة ١٣٧٦م وضمت فى وقت ما أكثر من ثمانين مدينة، كما كانت من القوة بحيث تتحدى قوات دوق بافاريا ودوق النمسا . ويكاد يكون من المؤكد أن نجاحها هو الذى حرك محاولة الإمبراطور ونسلاس Wnceslas فى المجلس الإمبراطورى فى إيجير سنة ١٣٨٩م ، لكى يعيد فرض النظام فى أملاكه بإنشاء ثمانى عُصب للسلام، تتمتع كل عصبة منها باستقلال ذاتى كبير، وكانت تغطى كل أراضى الإمبراطورية. وسرعان ما انهارت التجربة بسبب معارضة النبلاء. ومع هذا فإنها توضيح رائع للإمكانيات الكامنة فى الحكومات المتطورة فى العصب والتى يمكن للحاكم أن يوظف ولاءها ومواردها فى خدمة أهدافه .

كان هدف العصبة الهانزية وعصبة الراين هو حماية التبادل التجاري وتطويره . ففي المراكز الإنتاجية الكبرى، كان تأثير الترابط محسوسا بطريقة أخرى، إذ كان هدف النقابات الحرفية الأساسي هو نفس هدف عصبة المدن، أي استبعاد المنافسة. لقد كانت النقابة الحرفية عبارة عن رابطة في مدينة بعينها تضم كبار الحرفيين، من صناع السكاكين مثلا أو صانعي الأقمشة، أو بائعي أدوات الخياطة، الذين يتجمعون للسيطرة على الأسعار والأجور ومستويات وشروط بيع منتجاتهم ، ولكي يحتكروا صناعتها . لقد كانت النقابة هيئة مستقلة ، لها نظامها الإداري الخاص والموظفون التابعون لها ، ولها نظامها التدريبي ونظام التلمذة الصناعية الخاص بها ، كما كانت لها ميزانيات عامة. وكانت هذه الميزانيات لمواجهة نفقات الإدارة وصيانة القاعة التي كان يجتمع بها أعضاء النقابة، كما كان يمكن أن تساعد أيضا في دفع النفقات الاجتماعية الخاصة بمؤسسات مثل المستشفيات والكنائس ، ولكي تحمي الصحة الروحية والجسدية لكل المشتغلين بالمهنة، وفي كثير من المدن صارت النقابات غنية وقوية لدرجة أن عضويتها صارت هي المؤهل الأساسي للمشاركة في حكومة المدينة.

لقد أدى الاحتكار النقابي إلى تطوير الحكومة وحمايتها . إذ كانت النقابة تعمل من خلال العائلة؛ وكان من حق أولاد العضو أن يدخلوا النقابة. أما الآخرون فكان يمكنهم الدخول فقط إذا وجدوا معلما يتتلمذون عليه في الصنعة، وكانت فرصة الخارجيين ضئيلة أمام أقارب الأعضاء ومن يحصلون على ضمانتهم. وكان من المستحيل تقريبا على العامل أن يرقى إلى مستوى هذه الأرستقراطية التي كانت قد تشكلت لحماية أعضائها بتنظيم الأجور في مواجهة المنافسة بسوق العمل، والتي كان من المحتم أن تستبعده.

هذه الظروف أدت إلى قهر العمال والصناع، لاسيما عندما ترتفع الأسعار، كما كان يحدث غالبًا في أعقاب الوباء أو المجاعة، عندما كانت منظمات أصحاب العمل تسعى لمنع ارتفاع الأجور بسبب ندرة القوى العاملة. ومن ثم لجأ العمال إلى تقليد مستخدميهم ، لتحسين أحوالهم، وكونوا روابط للحفاظ على مستوى الأجور ولتحسين ظروفهم. وكان هذا تهديداً لسيطرة النقابة التي كان أعضاؤها قد عقدوا العزم على ألايسمحوا به : واستغلوا سيطرتهم على الحكومة المدنية لكي يجردوا روابط العمل من صفتها القانونية. ولكن الكبت عادة ما يؤدي إلى إعادة تشكيل مثل هذه التنظيمات تحت رداء الأغراض الدينية في الغالب. وعندما كان الصناع يحبطون في غالب الأحوال كان إحباطهم يولد الثورات الاجتماعية الشرسة.

ومن بين الأمثلة العديدة على هذا النمط من الضغوط تقدم لنا فلورنسا نموذجا ممتازاً . إذ كانت فلورنسا أكبر مدينة فى إيطاليا كلها ومركز صناعة أفخر الثياب والأصواف فى أوروبا . وكان سكانها الحرفيون عدداً ضخمًا بالمقاييس المعاصرة؛ وكان جيوفانى فيللانى، الذى كتب سنة ١٣٥٠م، يعتقد أن نقابة صانعى الثياب Arte della Lana وحدها تستخدم ثلاثين ألف عامل. كانت هناك إحدى وعشرون نقابة فى المدينة، وكان أعضاؤها يسيطرون على حكومتها الجمهورية. وبحلول القرن الرابع عشر كانت «النقابات الثمانى الأكبر» قد برزت لتسود بعد الصراعات التى خاضتها ضد النبلاء الجبلليين والنقابات الأصغر على السواء. وما أن بدأت سلطتها تتوطد حتى بدأت علامات السخط الشعبى تنذر بالخطر.

فى عامى ١٣٢٤ و ١٣٣٤م وجدت سلطات المدينة أن من الضرورى أن تسن قوانين لمنع تكوين روابط العمال؛ وفى سنة ١٣٣٨م منعت نقابة الصوف حتى اجتماعات الصناع للأغراض الدينية . وشهدت سنة ١٣٤٥م أول ثورة عمالية وتم إخمادها بنجاح وبعد ذلك بثلاث وعشرين سنة اندلعت الثورة مرة أخرى على نطاق واسع وأكثر هولاً من المرة الأولى. وأفلت زمام العمال المعدمين Ciompi تمامًا. فاستولوا على قصر الكوميون وأمسكوا فعلا بالمسئولين وطلبوا فدية لإطلاق سراحهم. واضطر المسئولون للاعتراف بالعمال المعدمين (الكيومبى) أنفسهم نقابة بين النقابات ، كما أن زعيمهم ميشيل لاندو عين مسئولاً عن العدالة، وهو أسمى المناصب بالمدينة. كانت هذه الثورة ، شأنها شأن كل ثورات العمال فى تلك الفترة، عندما تحقق لها قدر من النجاح قد استنفدت قوتها. وفى غضون أربع سنوات تمكنت النقابات القديمة فى المدينة من القضاء على كافة آثار نجاح تلك الثورة. ومنذ ذلك الحين فصاعداً عاش أفراد الحكومة المدنية وأولادهم فى خوف مستمر من انتفاضة جديدة للمعدمين. وكان هذا الخوف هو الذى جعل من الممكن ، فى القرن الخامس عشر ، ظهور طغيان آل مديتشى المقنع، وعلى الرغم من أنه كان من أرستقراطية المدينة فقد كان متورطا فى ثورة الكيومبى. فتحت قيادة هذه العائلة التجارية الكبيرة، التى كانت محبوبة شعبيًا على الرغم من كونها عائلة ارستقراطية ، انتقلت فلورنسا تدريجيا من جمهورية غير منظمة إلى دولة إمارة فى عهد لورنزو العظيم (١٤٦٩-١٤٩٢م) .

ويقدم لنا تاريخ مدن الفلاندرز مثالاً مشابهًا لمثال فلورنسا فى الفترة نفسها، مع بعض التناقضات المثيرة. فهناك قرب نهاية القرن الثالث عشر كان مد القلق المتصاعد بين الصناع فى كبريات مدن صناعة الثياب قد وفر للكونت جاى أمير دامبير فرصته الأولى لكى يضع

حكومات المدن تحت سيطرته، وتطلعت الحكومات المدنية صوب الملك الفرنسى طلبًا للحماية . وكان أن شن صناع بروج حربهم ضد الملك فيليب الرابع، بعد أن ثاروا وقتلوا الحاكم الملكى ومساعديه من حكام المدينة، وأحرزوا نصراً مدويًا على الملك فى كورترى عام ١٣٠٢م. وعلى مدي ستة وعشرين عامًا تلت كانت الفلاندرز تمور باستمرار بالثورات الاجتماعية التى انتشرت من المدن إلى الريف. واتفق الملك والكونت على السلام فيما بينهما وضموا قواتهما إلى قوات حكومة المدينة ضد الصناع ؛ وفى النهاية تم الثأر لهزيمة كورترى بالانتصار فى كاسل سنة ١٣٢٨ . والمذبحة التى تلت هذه المعركة لم تنه الصراع الاجتماعى ولكنها زادته مرارة. إذ استمر الصراع يدمدم طوال القرن الرابع عشر ليتفجر بين الحين والآخر فى شكل حرب أهلية صريحة؛ ويصبغ تاريخ الفلاندرز بذكريات الشغب والقتل والمذابح. لقد كانت هى نفس قصة فلورنسا، ولم تختلف عنها سوى بأنها كانت أشد قتامة وأكثر عنفا، لأنها لم تقصر الصراع بين حكومة المدينة والصناع فى مدينة واحدة فقط، ولكنها امتدت إلى ثلاث مدن هى غنت وبروج ويبرس. ولم يظهر صناع بروج أى قدر من الرحمة تجاه حكام غنت ، عندما وضعوا أيديهم عليهم، أكبر مما أظهروه تجاه حكامهم والعكس صحيح تمامًا .

أما الذى أنهى الصراعات الداخلية والمتداخلة فى المدن الفلمنكية فهو حكم آل فالوا من بورجنديا لكونتيتهم، إذ تولوا منصب الكونت من سنة ١٣٨٤ إلى إلى سنة ١٤٧٧م. وتحت حكمهم ، نعمت المدن أخيراً بحكومة وطنية كانت تعمل على رفاهية جميع الطبقات، لاتفضل طبقة على أخرى. كان الدوقات من آل فالوا قد تمكنوا بمرور الزمن من أن يحكموا ، بفضل سياسة أسرتهم الذكية، إلى جانب الفلاندرز ، جميع الأراضى الصغيرة فى البلاد الواطئة مثل برينت، وهينولت، وهولندا وجيلدرز. وهكذا نعمت المدن الفلمنكية تحت حكمهم فى التجارة مع جيرانهم بحريات أكبر مما عرفته من قبل على الإطلاق. وشجع الدوقات هجرة الصناع من المدن إلى ضواحى الريف وبدأت صناعة نسج الصوف تصبح صناعة ريفية. وفى الوقت نفسه وجد حكام المدن أن السلام والنظام يمكن أن يضمن رفاهيتهم بشكل أفضل من قيود العمل. وهكذا، فى الفلاندرز وفى فلورنسا أيضا، هدأت الضغوط الإجتماعية التى سببتها السياسة الإنغلاقية للنقابات بفضل تدخل الحكومات الوطنية التى رأت أن رفاهية رعاياها يمكن أن تكون الركيزة التى تقوم عليها سلطتها . ولكن كان هناك هذا الفرق . إذ أصبحت فلورنسا دولة إمارة مستقلة بنفسها ؛ أما المدن الفلمنكية فقد أدمجت فى الحياة الاقتصادية لأملاك آل فالوا المشتركة.

ونتيجة لذلك لم تكن الفلاندرز وحدها هي التي أفادت من حكومة الدوق . إذ أن حمايتها ضمنت مستقبل سوق أنتورب الصاعد، والذي كان بدون هذه الحماية لابد وأن يحارب من أجل البقاء ضد بروج، كما ضمنت هذه الحماية مستقبل الملاحة الهولندية التي كان يمكن بدونها أن تخرجها العصبة الهانزية من البحر. وقد انتهج حكام آخرون نهج السياسة التجارية الناجحة التي بدأها الدوقات لمواجهة المشكلات المماثلة. فقد وضع لويس الحادي عشر ملك فرنسا أسواق روين بوردو تحت حمايته، وساعد على تشجيع صناعة الحرير في ليون. وأقام علاقات وطيدة بين الملكية والعائلات الحاكمة في المدن الكبرى بمملكته. وهذه علامات دالة على أننا بدأنا نتحرك داخل عصر من الروابط على نطاق أقوى كثيرا من عُصب المدن، ونقابات أصحاب العمل، واتحادات العمال. إذ كان المنتج والتاجر، بل والعامل إلى حد ما، قد بدأوا يجدون حماية أكثر فعالية مما عرفوه قبل ذلك ، تحت جناح الملكية ، التي كانت بحوزتها موارد المجتمع الوطني بأسره والتي تمكنها من توفير الحماية .

* * *

ونموذج الضغوط التي تولدت عن الأوبئة الكبرى والحروب التي لاتنتهي في القرنين الرابع عشر والخامس عشر لم تكن تختلف كثيرا عن النموذج الذي عرضناه في السطور السابقة. وربما كان الاختلاف الرئيسي هو أن تأثيرات الأوبئة والحروب كانت أوضح ما تكون في الريف، لأن قدرة الريف على التخلص من آثار الأوبئة والتخريب كانت أقل من قدرة المدينة.

وكان «الموت الأسود » واحداً في سلسلة من العوامل التي أدى تأثيرها التراكمي إلى التدهور العام في الإزدهار الزراعي، وفي بعض المناطق وصل هذا التأثير إلى أن صار الريف فقيراً بشكل حقيقي. ففي فرنسا وإيطاليا لعب التخريب الناتج عن الحروب المستمرة دوراً في هذه العملية ربما كان أكبر مما سببته الأوبئة؛ كما أن المجاعات الأوروبية الكبرى سنة ١٣١٦م وسنة ١٣١٧ كان لها تأثير مستمر أيضا. بل إنه كانت هناك علامات قبل ذلك على أن الزيادة السكانية في الريف كانت قد وصلت إلى مداها في أماكن كثيرة وبدأت تتراجع . ولكن تأثير الموت الأسود كان أكثر هولاً من كل هذا . فقد كان وباء من الطاعون الدّملي ، حملته الفئران، ولكنه كان مصحوبًا بنوبات من أمراض الرئة التي كانت أشد خطورة. ويبدو أنه كان قد بدأ في الصين حوالي سنة ١٣٣٣م؛ وفي سنة ١٣٤٦م كان يجتاح صقلية، وبحلول سنة ١٣٤٨م كان قد وصل إلى فرنسا وأسبانيا وإنجلترا وألمانيا. وكان تأثيره مدمراً . إذ يقال أنه في باريس كان عدد ضحاياه يصل إلى ثمانمائة فرد في اليوم. وفي مونبلييه تدهور عدد

السكان لدرجة أن المدينة سرعان ما كانت تدعو الناس لسكناها من أماكن نائية مثل إيطاليا . وفى بعض المناطق كان هناك قرى بأكملها قضى عليها الوباء فعلاً، كما أن عددا كبيراً من السكان فى قرى أخرى غيرها فروا من وجه الطاعون.

ومن الواضح أن معظم الروايات المعاصرة عن الوباء تفوح منها رائحة المبالغة . ومن المؤكد أن التأثيرات الاقتصادية كانت قاسية فى المناطق التى ضربها الوباء بشكل أشد؛ ومن بين هذه التأثيرات ندرة القوى العاملة، وارتفاع الأسعار، وتدنى الإيجارات بسبب نقص المستأجرين المستعدين لأخذ الأراضى الخالية. ولسنا بحاجة إلى الشك فى الملاحظات الصحيحة فى طيات كلام المؤرخ الإنجليزى هنرى كنجتون الذى قال : «**كانت هناك ندرة فى العمال لدرجة أننا كنا نرى النساء والأطفال الصغار يحرثون الأرض ويقودون العربات** ». ويصعب أن نجد مستوطنة خلت تمامًا من سكانها بسبب الوباء، ومن الواضح أن القصص التى تحكى أن واحداً، بين كل عشرة أو إثنى عشر رجلاً ، هو الذى نجا ، لاتتناسب تمامًا مع الحقيقة. ومن المحتمل أنه كانت هناك مناطق قليلة كان معدل الوفاة بها أكثر من الثلث فى الوباء الأول (إذ كان الطاعون متكررا ، واستمر ينشب مخالبه فى أوروبا بين الحين والحين حتى بعد نهاية فترة العصور الوسطى) كما أن تأثيره اختلف اختلافا بينا من مكان لآخر.

ومع كل هذه التحفظات على خطورة الطاعون لايمكن أن يكون هناك شك فى الحيرة والرعب اللذين سببهما. فقد كتب جاى شولياك، طبيب البابا فى أفينون، «**إن الأب لم يكن يزور ابنه، وكذلك الإبن لايزور أباه. ومات الإحسان . وحتى الأطباء لم يجرؤوا على زيارة المرضى خوفا من العدوى**» . وكثيرون نسبوا الوباء إلى أسباب غيبية، مثل ظهور المذنب الذى ظهر سنة ١٣٤٥م. كما أن هيستريا الجهل تجلت فى حركات مثل حركة الفلاجلانت Flagellants (أى السوطيين الذين يجلدون أنفسهم بالسوط تقربًا إلى الرب) فى حوض نهر الراين، والذين جاءوا عبر المدن يرقصون ويضربون أنفسهم بالسياط ويطلبون التوبة من الناس ، كما تجلت فى المذابح التى ارتكبت ضد اليهود.

ولأن الطاعون كان عالميا، وكان صدمة مخيفة للغاية، كان رد فعل الناس سريعًا إزاء آثاره وقويا، وربما كان أشد قوة مما يجوز. ففى كل من فرنسا وإنجلترا أدى هذا مباشرة إلى إصدار مرسوم ملكى ينظم العمل، والأسعار والأجور، التى كانت قد التهبت ، بحيث تعود إلى مستواها قبل الوباء، ويمنع الرجال من ترك أعمالهم بحثًا عن أجر أفضل. ومن نافلة القول أن نذكر أن هذه الإجراءات لم تنجح ، ولكن المسائل التى تضمنتها لم يكن من السهل تجاهلها ما

دامت قد أثيرت مرة. كان أصحاب الأعمال وفرسان المقاطعات فى البرلمان الإنجليزى أواخر القرن الرابع عشر يطلبون من الملك مراراً وتكراراً أن يفرض بقوة القانون أجوراً منخفضة للعمال. وسرعان ما أدى هذا إلى الاضطراب الاجتماعى. وثارت حوادث الشغب فى الكثير من الكونتيات فى إنجلترا أثناء الجلسات التى عقدت فى المحاكم لفرض قانون العمال سنة ١٣٥١م. ولم يمضْ وقت طويل على بداية ظهور الطاعون، حتى كانت فرنسا وإنجلترا قد ذاقت أول طعم لثورات الفلاحين ، فى انتفاضة سنة ١٣٥٨ بفرنسا ، عندما ثار الفلاحون فى شمبانى ، وبيكاردى، والبوفازيس (الجاكرى Jacquerie) كما ثار صناع لندن وفلاحو الكونتيات الجنوبية والشرقية فى إنجلترا سنة ١٣٨١م. ولم يكن «الموت الأسود » أو التشريعات العمالية هى الأسباب المباشرة لأى من هذه الثورات. ولكنها كانت عوامل مساعدة، ولايملك المرء سوى الدهشة والتساؤل عما إذا كانت الثورات ستحدث لولا صدمة الوباء والفجوة المفاجئة التى كشف عنها بين مصالح السيد ومصالح العامل فى الريف.

هذه الفجوة المتزايدة بين الناس الذين يفلحون الأرض وسادتهم ربما كانت أهم ما يميز تطور التاريخ الزراعى أواخر العصور الوسطى، كما أن تدخل الحكومة فى العلاقات بينهما أبرزها فى مكان الصدارة. لقد كانت نتيجة طبيعية لعملية بدأت قبل الوباء بزمن طويل؛ وهى تحويل خدمات العمل القديمة التى كان الفلاحون قد اعتادوا تقديمها لصاحب الأرض مقابل حيازة الأرض إلى إيجارات. ويرجع السبب فى انتشار الإيجار من ناحية إلى العوائد المضمونة التى كانت توفرها الإيجارات فى فترة لم يكن الإزدهار الزراعى فيها مستقراً، ومن ناحية أخرى يرجع السبب فى هذا إلى أن مستوطنى الأراضى البور فى الماضى، والتى استصلح الكثير منها فى القرن الثالث عشر، كانوا دائما يدفعون إيجارات مقابل هذه الأراضى. وكان العامل الثالث هو تزايد تعقيدات حياة ملاك الأراضى الذين وفر لهم النمو التجارى مجالاً أوسع من البضائع الجاهزة ومواد الرفاهية التى يمكن أن يشتروها. وإذ تعود مالك الأرض على مستوى معيشة أعلى، وعلى دخل منتظم يمكن حسابه مما يوفره الإيجار بشكل مضمون، صار من الضرورى له أن يحاول تغطية مصروفاته. وكان الأثر الكلى هو انهيار ما تبقى من الرابطة المحلية المتينة التى كانت تربط بين السيد والفلاح لاستغلال الأرض وتقسيمها إلى طبقات اجتماعية عريضة.

والواقع أن مالك الأرض كان يحصل من الأرض نفسها على حرية أكبر، هذه الحرية جعلت ملاك الأراضى باعتبارهم طبقة (النبلاء فى فرنسا وألمانيا والأشراف gentry فى إنجلترا) أكثر وعيا بوضعهم الاجتماعى، وأكثر إدراكًا لوجودهم كأسلوب حياة محدد. وقد جعلهم هذا أشد

انتباها للمزايا والمصالح والهوايات ونمط التسلية الذى ميز طبقتهم عن غيرها. وهكذا نرى فى ألمانيا زمن عُصَب المدن عُصبًا للنبلاء تحمل أسماء وألقابًا فروسية رنانة مثل «رفاق الأسد» أو «منظمة القديس وليم» ، وقد تأسست للدفاع عن حقوق النبلاء ضد سكان المدن. وحيثما كانت الحكومة الملكية أقوى مما كانت عليه فى ألمانيا كانت طبقة ملاك الأراضى تتألف لتمارس الضغط على الحكومة . ففى إنجلترا كان فرسان المقاطعة فى البرلمان يقدمون سويا «التماسات مشتركة» إلى الملك، يطلبون منه أن يعير انتباهه لمصالحهم بأن ينظم الأجور وأن يكبت مبالغات من هم دونهم اجتماعيًا . مثل هذا النشاط شجع مالك الأرض على الوعى بذاته ليس بوصفه مجرد عضو فى طبقته ، ولكن بصفته عضوا فى هذه الطبقة داخل مجتمعه الإقليمى أو الوطنى . ومن ثم كان يهمه كثيرا نجاح الحكومة فى إدارة شئون هذا المجتمع.

سيكون من العبث أن نبحث كثيرا عن علامات نمو الإحساس بالتضامن الإجتماعى داخل طبقة الفلاحين ، قياسًا على طبقة النبلاء. وحركات مثل حركة الفلاحين فى فرنسا الجاكرى Jacquerie، وحركة الفلاحين فى إنجلترا ، تطرح لمحات عن شىء من هذا النوع؛ ولكن حياة المربوطين إلى الأرض بشكل عام كانت تتيح مجالاً ضئيلاً لتطور روح التضامن الطبقى. أما ما طورته الفجوة المتنامية بين ملاك الأراضى والفلاحين حقًا فهو الإدراك المتزايد بين ملاك الأراضى للوجود الجمعى للفلاحين كطبقة اجتماعية لها مصالح تختلف عن مصالحهم . ولم يؤد هذا بالضرورة إلى إضفاء الطابع الإنسانى على موقف النبلاء تجاه من هم دونهم اجتماعيًا؛ ففى ألمانيا وبوهيميا (البلد الوحيد الذى حقق فيه الفلاحون قدراً من التنظيم الاجتماعى المستقل) نزل كثيرون ممن كانوا أحراراً إلى مرتبة العبودية بالتشريعات التى أصدرتها المجالس المحلية فى أملاك النبلاء ورجال الكنيسة. ولكن كانت هناك أماكن اتضحت فيها مواقف أكثر إنسانية. **«لقد خلق الإنسان فى صورة الرب وبحكم قانون الطبيعة فهو يستحق الحرية بشكل عـــام»** هذه هى الكلمات الإفتتاحية فى الميثاق الذى حرر به شارل فالوا الأقنان فى أملاك عائلته فى السنوات الأولى من القرن الرابع عشر. وتم تحرير الأقنان فى الأملاك الملكية فى الوقت نفسه تقريبًا. بيد أن هذا لم يحرر الفلاح من الاستغلال الإقتصادى بطبيعة الحال؛ ولكنه كان يعنى أن شروط حيازته المعتادة باتت محمية بقوة القانون. وفى إنجلترا أيضا، ولكن فيما بعد (قرب نهاية القرن الخامس عشر) بدأت محاكم القانون الملكى العام تمنح الحماية للحيازة فى الضياع. هذه بدايات صغيرة، ولكنها بدايات شىء غاية فى الأهمية؛ وهو تدخل الحكومة لحماية العاجزين اجتماعيا واقتصاديا.

وصلنا فى هذا الفصل إلى دراسة التغيرات التى طرأت على وضع الناس الذين كان على الحكومة أن تتعامل معهم. وعندما ننظر إلى التقدم التقنى الكبير فى أواخر العصور الوسطى تبدو التغيرات فى وضع الحكومات التى كان عليها أن تتعامل مع الناس لافتة للنظر أكثر من غيرها. وأكثر نواحى التقدم أهمية فى هذا المقام هى تقدم العمليات المصرفية، وبداية التمويل الرأسمالى على نطاق كبير، وتطور أساليب الحرب. وهذه أمور ليست منفصلة عن بعضها البعض.

بدأت عمليات الصيرفة تتطور لتصير نظامًا مع الشركات التجارية الكبرى بتسكانيا فى القرن الثالث عشر. هذه الشركات التجارية، وهى روابط جمعت التجار الذين يغامرون بأموالهم، كانت قد طورت مصالح بعيدة المدى لاسيما فى تجارة المنسوجات الصوفية والثياب التى كانت أساس الرخاء التسكانى . وجعل هذا من المفيد لهم أن يعينوا ممثلين لهم (مصانع أو وكلاء) ليتصرفوا لصالحهم فى مراكز بيع وشراء الثياب والأصواف فى لندن وبروج مثلاً. وكان نقل الأموال لدفع ثمن مشتروات الوكيل خطراً ومكلفًا . وكان من الأسهل كثيرا لو أنه استطاع الحصول على الأموال محليًا من مصدر مستقل (مثل قسيس يسافر من لندن إلى روما) ويدفع بها ويعطى للقسيس خطاب ضمان، يخول له أن يسحب بالعملة المحلية فى روما من وكيل الشركة هناك نفس المبلغ الذى سلمه فى لندن. وكانت الشركة تضع رسمًا بسيطًا لتحويل الضمان من عملة إلى أخرى؛ وفى نفس الوقت كان لدى العميل فى لندن المال المتاح للمشتروات ، التى كانت الشركة تعوّل على الحصول منها على أرباح أيضا.

كان هذا النظام بسيطا ومفيداً بحيث وجدت الشركات بحوزتها مبالغ كبيرة لنقلها بنظام الإئتمان . واستفادت البابوية خصوصا من هذا، إذ كانت تضع العوائد المحلية لضريبة تمويل إحدى الحملات الصليبية ، مثلا ، لدى وكيل إحدى الشركات بلندن، وتسحب الأموال فى روما أو غيرها. ولما شاع استخدام التسهيلات التى قدمها التجار على نطاق واسع، تطور نظامهم الذى كان يسمح بقبول الودائع ، وتقديم خطابات الإئتمان ، والتحويل من عملة لأخرى إلى عمل قائم بذاته، هو الصيرفة أو أعمال البنوك. وعندما اتضحت إمكانيات هذا العمل، بدأت الشركات التى دخلت هذا المجال تعين مندوبين لها فى المراكز التى لم يعملوا بها من قبل مثل باريس وأفينون ولوبيك، وبدأت تزيد من مصالحها التجارية. وبدأت وكالاتهم تجتذب ودائع طويلة الأجل، وغالبا ما كانت تعطى المودع مبلغًا صغيراً من المال مقابل استخدام أمواله وهى محفوظة لديها. وهكذا أمكنها أيضا أن تحقق التقدم، وبدأت تتقاضى عمولات على خسارة

توظيف «أموالهم» أو فى مقابل المخاطرة. مثل هذه العمليات البنكية سببت نوعًا خفيفا من عدم راحة الضمير، خوفا من شبهة الربا، الذى أدانته الكنيسة ، ولكن عددا كبيراً جداً من الناس رأوا فى هذه العمليات فائدة كبيرة لهم بحيث لم يهتموا بالأمر. وقبل نهاية العصور الوسطى بزمن طويل كان دفع الأرباح قد صار أحد الملامح العامة لكل عمليسات التمويل الرأسمالى الكبيرة. ولم تعد لرفض الكنيسة أهمية؛ لأنها دخلت فى هذا النظام بنفسها .

وقد أتاحت المبالغ الطائلة التى كانت بحوزة البنوك ووكلائها أن تقدم المبالغ النقدية الكبيرة للأمراء والحكومات عند الحاجة. وساعد هذا الأمراء والحكومات على توفير الأموال بسرعة لمواجهة النفقات العاجلة والملحة، بضمان الموارد التى كانت ستستغرق وقتًا طويلاً لجمعها . كانت هذه العملية مخاطرة بالنسبة للبنوك؛ إذ أن كل الحكومات تقريبا استدانت على المدى الطويل ما يتعدى قدرتها على الدفع، على الأقل حسب الشروط المتفق عليها. وهكذا أفلس بنك باردى وبنك بروتزى فى فلورنسا فى أربعينيات القرن الرابع عشر بسبب تقصير الملك الإنجليزى إدوارد الثالث فى سداد ديونه؛ كما لحق ضرر كبير برخاء آل ميدتشى بسبب عطاءات وكيلهم فى بروج السفيهة لشارل الجسور حاكم برجندى فى سبعينيات القرن الخامس عشر. ومع هذا استمرت الشركات فى تقديم المال للحكام؛ وحقق هذا للشركات حماية مفيدة، ونفوذا دبلوماسيا (كان غاية فى الأهمية بالنسبة لآل ميدتشى على سبيل المثال)، كما أن بعض الشركات طبعا حققت أرباحًا قبل أن تحل بها الكارثة. وفضلاً عن ذلك فإن ممتلكاتها ومصائرها كلها لم تكن معتمدة على هذا العمل المحفوف بالمخاطر. وأبداً لم يكن الإيطاليون رجال بنوك فحسب؛ وإنما كانوا تجاراً عموميين وكانوا يديرون أعمال بنوكهم مع كافة أنواع المشروعات التجارية الأخرى.

كان غرض الحكام الأساسى للحصول على مبالغ مالية كبيرة نقداً هو مواجهة تكاليف الحرب. وهذه التكاليف الباهظة دائمًا، صارت آنذاك أشد فداحة ، مع تقدم تقنيات الفنون العسكرية وتزايد الاحتراف العسكرى. فالدروع المصفحة ذات المفصلات ، والتى تراعى توزيع الثقل بحرص لتسهيل الركوب، حلت محل الزرد (سلاسل الصلب المجدول) فى كافة أجزاء تسليح الفرسان. وكانت التكلفة أكبر كثيرا من قمصان الزرد. وازدهر خبراء صناعة السلاح مثل صناع نورمبرج بفضل مهارتهم فى التصميم والإنتاج. كما أن تصميم القلاع أيضًا كان قد صار أشد تعقيدا، وصارت تكلفتها أكثر سواء فى بنائها أو فى هدمها. كذلك كانت صناعة السفن تتحسن . ففى عهد شارل الخامس (١٣٦٤-١٣٨٠م) فى فرنسا كانت دار صناعة السفن الملكية فى روين تستخدم جيشا من صناع السفن والعمال، وصار أمير البحر (الأدميرال) موظفًا ملكيًا هامًا.

وبكل المقاييس كان أهم تطور فى فن الحرب هو استخدام البارود . لا أحد يعرف من الذى اخترعه . ويبدو أن روجر باكون عرف خصائصه صدفة فى القرن الثالث عشر ولكنه لم يعرف إمكانية أن يحمل قذيفة*. وعلى أية حال عرف هذا فيما بعد فترة قصيرة . وفى سنة ١٣٢٤م كان هناك رمى بالمدافع فى فلورنسا ، كما كان هناك مدفع وبارود ببرج لندن سنة ١٣٣٨م. وكان التطور من هذه النقطة بطيئًا؛ فأول الأسلحة النارية لم تكن فعالة جدا، وعلى مدى فترة طويلة لم تترك سوى تأثير بسيط على طريقة شن الحرب. ولكن بحلول القرن الخامس عشر كانت المدفعية الثقيلة قد بدأت تحقق ثورة فى أساليب الحصار. إذ أن السلطان العثمانى محمد الفاتح أحضر إثنين وستين مدفعًا كبيراً لكى يحاصر القسطنطينية سنة ١٤٥٣م، فتحت فجوات كبيرة فى الأسوار الكبيرة للمدينة الإمبراطورية فى غضون ستة أسابيع . وفى تلك الفترة لم تكن بنادق اليد مفيدة مثل القوس الإنجليزى الطويل، ولكن القائد البوهيمى جون زيزكا جعل من المدفع شيئا مرعبًا فى ميدان القتال، بعد أن وضع المدافع فوق عربات الفلاحين الضخمة. وفى الحملات الأخيرة فى حرب المائة عام كان تفوق الفرنسيين على الإنجليز فى المدفعية قد بدأ يصبح عاملاً حاسمًا. كتب برى رسول شارل السابع سنة ١٤٥٠م يقول «لقد كان لديه من المدفعية، والمدافع الكبيرة وقاذفات القنابل وما إلى ذلك من الأسلحة كمية أكبر كثيرا مما يمكن للناس أن يتذكروا أن ملكًا مسيحيًا قد حازه من قبل» . وتمكن بفضل هذه الأسلحة من كسب معركة فورميجنى Formigny فى تلك السنة، ومعركة شاستيللون سنة ١٤٥٣م.

كانت المدافع الكبيرة المطلوبة لأعمال الحصار الحربى، والإمدادات الكافية من البارود اللازم لها تتكلف مبالغ لايقدر عليها سوى الأكثر ثراء. كما كانت المدافع تحتاج إلى الخبراء لتشغيلها : إذ كانت ثقيلة، يصعب تحريكها أو نقلها، كما كان البارود يمثل مشكلة من حيث إمداداته، ومع هذا فإن تأثيرها كان فعالا. إذ لم يعد الحصن الصغير للسيد الإقطاعى المشاغب ملجأ يحميه من سلطة الأمير. ولم تعد هناك مدينة أو قلعة آمنة ما لم تنفق ثروة طائلة على تحسين وسائل الدفاع وتقوية الأسوار. كما حدثت ثورة فى بناء السفن بسبب الحاجة إلى وضع المدافع فوق متن السفن. إذ نتج عن هذا أن احتاجت السفن إلى غاطس أعمق وإلى قوة شراع أكبر. وكانت سفن الكارافيل caravel البرتغالية التى صممت لتلبى هذه المتطلبات، وبها ثلاثة صوارى وتزن حوالى ٢٣٠ طنًا بحمولتها الكاملة، هى السفن التى ساعدت بحارة

---

* يتجاهل المؤلف هنا حقيقة أن الصينيين هم أول من اخترعوا البارود وأن المسلمين استخدموه نقلاً عنهم خصوصا فى بلاد المغرب العربى (المترجم)

هنرى الملاح على الوصول إلى ماديرا سنة ١٤١٩م والآزور سنة ١٤٣١م، وأن يبدأ الإبحار بحذاء الشاطىء الإفريقى للوصول إلى خط الاستواء . وفى جميع هذه الأمور كان ثمة بعد جديد قد أضيف إلى تكاليف المشروعات العسكرية والبحرية. وكان الأمراء فقط هم الذين يمكنهم أن يتحملوا فعلاً النفقات التى كان القتال والحرب قد بدأت تتطلبها، بل إنهم لم يكونوا يستطيعون توفير هذه النفقات من مواردهم الخاصة المعتادة.

وتطلع الأمراء إلى رجال البنوك للحصول منهم على الأموال . وغالبا ما كانوا يحتاجون إلى ما هو أكثر من دماثة خلق رجال البنوك لأنهم ربما احتاجوا إلى مزيد من النقود فى غضون فترة قصيرة من نفس المصدر ولنفس الغرض. وكانوا بحاجة إلى أن يكونوا فى وضع يسمح لهم بتقديم الضمانات على القروض مما قد يساعد على التسديد ليتمكنوا من الاقتراض مرات أخرى. وكانت طريقتهم الوحيدة لتوفير مثل هذا الضمان هى الموارد الدائمة للضرائب المفروضة على رعاياهم، والاستغلال الأمثل للموارد الطبيعية فى أراضيهم. وقبل اختراع البارود بوقت طويل كانت النفقات المتزايدة للحرب قد أدت إلى تجربة مالية جديدة وهامة. وقد قلنا عنها الكثير فى الفصول السابقة ولسنا بحاجة إلى تكراره . وعلى أية حال ينبغى أن نلاحظ تطورا واحداً، وهو فرض الضرائب على المنتجات مثل الناس. واتخذ هذا شكل الرسوم الجمركية فى إنجلترا، أى رسوم تدفع فى الميناء على كل الصوف والجلود المصدرة. وتم فرض الرسوم للمرة الأولى فى عهد إدوارد الأول (سنة ١٢٧٥م)، ومن المثير للانتباه أن نجده بعدها مباشرة يقترض من المصرفيين الإيطاليين بضمان عوائد هذه الرسوم. وفى فرنسا صارت ضريبة الجابيل gabelle واحدة من أكثر الضرائب الملكية إيراداً. وكانت تلك ضريبة على الملح، وهو سلعة عليها طلب عالى. ومنذ عام ١٣٤١م فرض على جميع المنتجين أن يحضروا ملحهم لبيعه فى شونة الملح الملكية greniers de sel بمقاطعاتهم؛ وهناك كان يتم استقطاع جزء من الأرباح لحساب الملك. كانت النتيجة طويلة المدى للتجارب من هذا النوع هو التحقق تدريجيا من أنه طالما كان الحكام يأخذون الضرائب على منتجات رعاياهم ، فمن صالحهم حماية أولئك الرعايا فى مشروعاتهم الإقتصادية التى يقوم رخاؤهم عليها.

وقد أوضح نيقولاس الأورسمى، وهو مستشار الملك الفرنسى شارل الخامس هذه النقطة، فى مقالته «عن النقود» (حوالى سنة ١٣٧٠م) ، فعندما لجأ الملك إلى العملة وحاول تحقيق بعض الربح بتخفيض نسبة الذهب فى سبيكتها، فإنه لم يغش رعاياه فقط وإنما كان يغش نفسه أيضا، على حد قول نيكولاس، لأن رخاء المملكة كلها يقوم على أساس العملة الجيدة. وكان

الاعتقاد بأن نيكولاس على حق، وأن النقطة التى أثارها نقطة جيدة بالنسبة لتجارة المملكة كلها وليس بالنسبة للعملة فقط، هو الذى حث الحكام على أن يهتموا أكثر بالحياة الاقتصادية والاجتماعية لرعاياهم. ولم يكن مجرد الشعور بالواجب الذى قاد رجالاً من أمثال فيليب الطيب حاكم برجندى إلى أن يضع الصناعة والتجارة فى بلاده تحت رعايته . كانت معرفة الحكام بأن هذا هو مفتاح الضمان لتأمين عوائد أكبر، وسلطة أعظم ، ونفوذ أقوى لأنفسهم.

كان جاك كوييه Jacques Coeur (١٣٩٥-١٤٥٦م) المسئول عن دار سك النقود ومراقب المصروفات الملكية فى عهد شارل السابع ، نوعًا جديدا من المستشارين بالنسبة لملك فرنسا. إذ كان تاجراً كبيراً، يمتلك أسطولاً من السفن، وله شركات أعمال بمعظم المدن الرئيسية فى المملكة، كما كانت مصالحه التجارية ممتدة إلى جميع أنحاء البحر المتوسط. وتفاوض مع سلطان مصر للحصول على تسهيلات وامتيازات للتجار الفرنسيين فى شرق المتوسط، كما قدم للملك مبالغ ضخمة من الأموال لتمويل حروبه. وفى النهاية صار قويا بالدرجة التى جعلت الغيرة منه تؤدى إلى تحقيره وتدميره. بيد أن مثاله، ومثال كثيرين من التجار الكبار الذين كان الملوك يتعاملون معهم، لم يضع هباء. فبعد ذلك بوقت قصير نجد لويس الحادى عشر فى سنة ١٤٧١ ينظم معرضا للمنتجات الفرنسية فى مدينة تور لتشجيع المشترين من الخارج ، كما أن إدوارد الرابع (١٤٦١-١٤٨٣م) فى إنجلترا كان يشارك رعاياه تكاليف ومخاطر المغامرات التجارية. هذه سياسة إقتصادية ملكية بشكل جديد، ليست موجهة صوب ابتزاز الأموال من التجار فحسب، وإنما كانت توجه نحو الأرباح المحتملة من التجارة .

ومن المهم أن نتذكر هنا أن كل البضائع المعرضة للبيع لم تكن مصنوعة بالمدن. إذ أن الأصواف والثياب التى كانت أبرز مكونات تجارة إنجلترا مثلا، كانت تصنع بالريف. وكانت الحياة الحضرية، فى تلك الفترة على أى حال تعتمد فى حياتها على منتجات الريف. ونحن لانتناول تطوراً أثر على قطاعات من المجتمع فقط. فمن المؤكد أننا نتناول إطاراً للحياة الاقتصادية كانت المدن هى التى وضعت إيقاعه ، بيد أن هذه علامة على تزايد تعقيداته وتراكيبه ، وليست دلالة على سيادة خالصة وبسيطة للمدن نفسها. كانت تلك هى النقاط التى اتصلت فيها التجارة والإنتاج والصناعة ، حيث كان الفلاح يبيع إنتاجه وحيث كان الرجل الميسور الحال يشترى سجاداته وكتبه وسلاحه ، وحيث عاش سكان المدن (البورجوازيون) ، لقد كانت المدن هى أماكن التقاء الناس من مختلف الطبقات والثقافات . وكانت مراكز دالة فى حياة المجتمع بأسره، وليست مراكز لوجود مستقل إلى حد كبير عن العالم المحيط، كما كان حال المدن من قبل عندما كانت تختلف اختلافًا بينا عن العالم من حولها.

والمغزى الكلى لهذا، ولكل التطورات التى درسناها فى هذا الفصل، كان هو ربط الأفراد بشكل أشد قوة بحياة المجتمعات الأكبر، سواء عاش أولئك الأفراد فى المدن أو فى الريف. فالنقابات وروابط الأخوة والطبقات الاجتماعية كلها أمثلة على نوع هذه المجتمعات ولكن أهمها جميعًا كانت بلد المرء، التى ترتبط هذه المجتمعات بالحياة فيها. هذا الاندماج الضرورى للناس فى الشئون المحلية والوطنية لم يترك للأفراد سوى فرصة أقل مما كانت لديهم فى الماضى بحيث يلبوا نداءات المجتمع الأكبر، أى المجتمع المسيحى العالمى، الذى تمت باسمه مشروعات مثل الحملة الصليبية. وفضلاً عن ذلك، فعلى الرغم من أن الظروف الجديدة لم تقلل مسيحية الناس، فقد جعلتهم أقل انتباها لنداءات النشاط المسيحى والطاعة التى لم يكن ممكنا التعبير عنها داخل الإطار المعقد للحياة التى كانوا يحيونها، ونحن ندخل القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وهو العصر الذى بدأت فيه مصالح الدول المسيحية تصبح أكثر أهمية من مصالح العالم المسيحى ككل.

١٧- حرب المائة عام

/ قلنا إن القرنين الرابع عشر والخامس عشر كانا فترة بدأت فيها مصالح الدول المسيحية تعلو فوق مصالح العالم المسيحى ككل. وتاريخ الصراع الكبير بين فرنسا وإنجلترا ، الذى عرف باسم حرب المائة عام، برهان على هذه النقطة. فعندما بدأ كان فيليب السادس ملك فرنسا يجمع أسطوله وقواته لكى يخرج فى حملة صليبية كبرى إلى الشرق على غرار حملة سلفه لويس التاسع. وفيما بعد كان ملوك فرنسا يتسلون بمشروعات مماثلة، ولكن أيا من المشروعات التى تلت مشروعه لم يصل إلى المدى الذى وصل إليه. كذلك كان هنرى الخامس ملك إنجلترا (١٤١٣-١٤٢٢م) يحلم بالاستيلاء على بيت المقدس وكذلك فعل حليفه فيليب الطيب دوق برجندى ، ولكن أحداً منهم لم يقترب من نقطة الإنطلاق صوب الأرض المقدسة. وطوال الحرب الإنجليزية الفرنسية، باستثناء فترة الإنشقاق الكبير، كانت البابوية تعمل مع المملكتين المتحاربتين ، لكى تعيدهما وتعيد العالم المسيحى إلى رحاب السلام الذى كان مقدمة ضرورية للقيام بحملة صليبية. إلا أن حربهما استمرت حتى نهايتها المريرة على الرغم من هذا، وطالت على مدى أكثر من مائة سنة من ١٣٣٧ حتى ١٤٥٣م. /

وفيما بين المحاربين الإثنين الرئيسيين، كانت أهم قضيتين فى مكان الصدارة سنة ١٣٣٧م هما شروط السيادة للملك الفرنسى على جاسكونى، ومزاعم إدوارد الثالث ملك إنجلترا حول أحقيته فى العرش الفرنسى . وتحتاج كل من المسألتين إلى بعض الشرح. إذ كانت إليانور الأقطانية قد جلبت دوقية جاسكونى إلى هنرى الثانى عندما تزوجته. وعندما خسر ابنه جون

نورماندى بقيت دوقيته الفرنسية الأخرى بيديه. وفى سنة ١٢٥٩م أعلن ابنه هنرى الثالث تبعيته الإقطاعية للملك الفرنسى لويس التاسع، وهكذا اعترف رسميًا بأنه يحوز الدوقية باعتبارها إقطاعا له من ملك فرنسا. وكان هذا يعنى أن ملك فرنسا، بوصفه سيدا إقطاعيًا أعلى، يحق له أن يستمع فى برلمانه إلى الدعاوى التى يرفعها رعايا الدوق ضد قرارات المحكمة الدوقية. وكان موظفو ملك فرنسا يشجعون مثل هذه الدعاوى التى رأوا فيها وسيلة لتأكيد الإشراف الملكى الفعال على حكّام الأقاليم. وسرعان ما صارت هذه الدعاوى من الكثرة بحيث جعلت من الصعب على الموظفين الإنجليز فى الدوقية أن يقوموا بواجباتهم على نحو فعال . وفى رأيهم أن الملك الفرنسى كان يبدو وكأنه يشجع أى واحد من رعايا جاسكونى يريد أن يتملص من التزاماته . أما رأى الفرنسيين فكان أن الدوق وموظفيه ، مصممون على عرقلة سلطة الملك بكل جهودهم: فإذا رفض الدوق (أى ملك إنجلترا) أن يخضع لقرارات سيده الإقطاعى (أى ملك فرنسا) ووقف إلى جانب موظفيه فإن ملك فرنسا يستطيع أن يعامله معاملة التابع الإقطاعى المارق، ويصادر دوقيته بحكم قضائى . وحدث هذا سنة ١٢٩٤م، ثم حدث مرة أخرى سنة ١٣٢٤م. ومرة ثالثة سنة ١٣٣٧م وكان لابد من تنفيذ هذا الحكم بالقوة آنذاك: وبما أن دوق جاسكونى كانت لديه كل موارد مملكته المستقلة فى إنجلترا لتساعده على المقاومة ، فإن هذا كان يعنى الحرب.

أما مزاعم إدوارد الثالث عن أحقيته فى العرش الفرنسى فلم تكن لها علاقة بهذا كله؛ وإنما برزت من غمار صدفة الميراث. فعندما مات لويس الرابع ملك فرنسا سنة ١٣١٤م خلف وراءه ثلاثة أبناء. وعندما مات أكبرهم لويس سنة ١٣١٦م تم إتخاذ قرار بأن المرأة لاتستطيع تولى العرش؛ وهكذا تخطيت أخته جين، وأصبح أقوى إثنين مرشحين للعرش هما فيليب كونت فالوا وإدوارد الثالث ملك إنجلترا. إذ كان فيليب ابن شقيق فيليب الرابع الأصغر شارل فالوا؛ أما مزاعم ادوارد فكانت من جهة أمه إيزابيلا ابنة فيليب الرابع نفسه. ومن ثم كان من جيل أقرب إلى العرش من فيليب فالوا ، وعلى الرغم من أن مزاعمه جاءت عن طريق خط الإناث، فإنه كان يمكن الجدل بأنه إذا لم تكن المرأة قادرة على تولى العرش فإنها تستطيع أن تنقل حقها إلى ابنها الذكر. وكانت هناك نقطتان أخريتان ضد إدوارد بالقطع، هما العداء التقليدى بين فرنسا وإنجلترا وحقيقة أن إدوارد سنة ١٣٢٨م كان ما يزال قاصراً . وتم تتويج فيليب فى ريمس فى شهر مايو من هذه السنة.

ولم يكن إدوارد فى ذلك الوقت فى وضع يسمح له بتنفيذ مزاعمه ودعاويه، وبغض النظر عن صغر سنه، فإن اضطراب وضعه فى إنجلترا كان يعوق أية خطوة نحو العرش الفرنسى . إذ

كان قد تم خلع أبيه عن العرش قبل سنة واحدة، بعد سلسلة من الصراعات الأهلية التى قسمت النبلاء الإنجليز بشكل مرير. وفى سنة ١٣٣٠م كان وضع ادوارد قد تحسن، عندما تولى هو شخصيا حكم مملكته، كما أن إنتصاراته الباكرة فى الحرب الإنجليزية/ الاسكتلندية التى اندلعت من جديد سنة ١٣٣٢م زادت من قوته بدرجة هائلة. وعندما وصلت المتاعب فى جاسكونى ذروة جديدة فى أزمة سنة ١٣٣٧م وأعلن فيليب مصادرة الدوقية، رد عليه بإعلان أن عرش فرنسا الذى يجلس عليه فيليب من حقه . وأرسل يتحدى فيليب وأعلن على العالم أنه لايحارب فقط دفاعًا عن حقوقه بوصفه دوق جاسكونى، ولكن من أجل مملكة فرنسا التى حرم ميراثها بشكل غير قانونى عندما كان طفلاً.

وربما لن نعرف أبدا إلى أى مدى كان ادوارد يعتقد جديا فى إمكانية الاستفادة من دعاويه فى التاج الفرنسى، التى كان يعتقد بصحتها بالتأكيد . ومهما كانت الحقيقة فى هذه المسألة ، فإن ادعاءه باستحقاق العرش كان إعلانا كاملاً للحرب. وهكذا انتقلت المسألة من نزاع بين تابع إقطاعى وسيده إلى مواجهة بين أسرتين ملكيتين متنافستين بين عشية وضحاها، وسقطت المشكلة القديمة الخاصة بالعلاقات الإقطاعية من الصورة فى قضية جاسكونى؛ إذ لم يكن هناك مجال للاحتكاك بين السلطة الملكية والسلطة الدوقية، لأن إدوارد لم يقبل أن يكون فيليب ملكًا. ومنذ ذلك الوقت فصاعداً لم يكن إدوارد أو خلفاؤه مستعدين للقبول بأقل من حقوقهم السيادية فى الدوقية، وعلى الرغم من أنه مضى بعض الوقت قبل أن يتحقق الفرنسيون من ذلك ، فإن هذا لم يترك أمامهم سوى بديل واحد؛ فعليهم إما تسليم الدوقية تماما، أو طرد الإنجليز منها. ولم يعد الحل الوسط بتقسيم السلطة كافيًا؛ إذ بات واضحًا أنه لايجدر بملوك فى قوة ملوك فرنسا وإنجلترا أن يحاربوا فى سبيل شىء أقل من حقوق السيادة. ويعكس هذا بدايات تحولات هامة جدا فى الموقف تجاه مشكلات السياسة الخارجية وحقوق الحكم؛ إذ أن توفيق حقوق كل من السادة الإقطاعيين والأتباع لم يعد يمكن أن يقدم المفتاح لحل هذه المشكلات.

وكان لابد أن يؤدى النهج الذى نهجه إدوارد بالتالى إلى توظيف كافة موارده فى الحرب وأن يحارب فرنسا حتى النهاية، بهدف حصر فيليب فالوا فى نقطة يكون فيها على استعداد لأن يسلم بحقوقه فى جاسكونى على الأقل، وربما يسلم عرشه أيضا. والحقيقة أنه بعد عشرين سنة من الحرب والقتال، ركعت فرنسا الفالوا على ركبتيها بحرب تم خوضها على التراب الفرنسى وكانت آثارها شاملة بالفعل. ولم يكن الجهد الذى حقق هذا الإنجاز هو جهد إنجلترا تحت حكم إدوارد على أية حال. إذ كانت عشرون سنة من الحرب تفوق إمكانيات دولته كثيرا،

بل إنها فى الحقيقة كانت تفوق قدرات أية دولة فى منتصف القرن الرابع عشر. إذ أنه اعتمد على رعاياه فى الضرائب ، وبإدارة وطنية بدائية ، ولم يكن لديه جيش جاهز. ولذلك كان على ادوارد أن يخوض الحرب اعتماداً على موارد تفوق موارده كثيرا. ولهذا السبب كان إنتصاره أقل اكتمالاً مما ظهر، كما أنه لم يكن قادراً على أن يجعل منه نصراً باقيًا، كما سنرى فى حينه .

* * *

كانت العقبة الرئيسية التى تعوق الحرب الوطنية فى تلك الفترة هى التكاليف. ويكمن سر نجاح ادوارد فى اكتشاف ذرائع دبلوماسية وعسكرية لشن الحرب بثمن رخيص. فقد نجح سعيه للحصول على حلفاء فى الفلاندرز منذ وقت مبكر. حقًا أن الحظر الذى فرضه على تصدير الصوف من إنجلترا لم ينجح فى تحول المال إلى الجانب الإنجليزى ولكنه جاء بالنساجين من غنت ، يقودهم جاك فان أرتفيلد، الذى أثبت أنه حاكم كفء لجزء كبير من الكونتية، وبقى كذلك حتى أغتيل سنة ١٣٤٥م. وربما تحرك ادوارد بدافع من تأييد رعايا الملك الفرنسى له هناك ، فتخلى عن مجهوده الأصلى المكلف ليبنى بالإعانات إتحادا كونفيدراليا ألمانيا ضد فرنسا. وبدأ بدلاً من ذلك استراتيجية دبلوماسية جديدة، هدفها إقناع رعايا الملك الفرنسى بالحرب ضده مقابل أن يدفع لهم مبالغ كبيرة.

والخطوط العامة لهذه الاستراتيجية واضحة فى المنشور الكبير الذى أصدره ادوارد من غنت سنة ١٣٤٠م . ففى هذا المنشور أوضح تفاصيل دعاويه فى العرش الفرنسى، كما شرح أيضا الطريقة التى اقترح أن يحكم بها إذا استعاد حقه فى ميراثه . ومربط الفرس فى هذا المنشور يتمثل فى هذا الجزء الثانى. وقد بنيت وعود ادوارد لرعاياه فى المستقبل على أساس نفس المطالب التى تقدم بها النبلاء المستاؤون فى المقاطعات الفرنسية إلى فيليب الرابع وفيليب الخامس فى وقت سابق من ذلك القرن. وإذ وعد بتخفيف نير الحكومة الملكية ، الذى كان يعرف أنها مكروهة ، كان إدوارد يأمل بأن يستطيع جعل وضع فيليب السادس مستحيلاً بأن يجمع لنفسه التأييد من داخل مملكة خصمه .

لقد كان تقديره صحيحا عن مكمن الاستياء الحقيقى من السلطة الملكية الفرنسية المطلقة: فى المقاطعات . كان نجاحه الأول فى بريتانى ، حيث نشب نزاع سنة ١٣٤١م حول تولى حكم الدوقية بين عائلتى بلوا ومنتفور . إذ كان شارل بلوا، الذى يسانده حكم من برلمان فيليب السادس ، يبدو أنه المرشح لتدخل الملك لصالحه ؛ وجاءت مجموعة قوية من النبلاء الذين

يدعمهم تأييد قوى من المناطق الناطقة باللهجة البريتونية حيث كان التضامن المحلى فى أقوى أشكاله، لتقف إلى جانب مونتفور وادوارد سنة ١٣٤٤م. وكان نجاح ادوارد التالى مع نورماندى حيث كان الوعى بالتقاليد المحلية الإنفصالية قويًا على الدوام. واكتسب التأييد النورمانى لإدوارد أهمية فائقة ، عندما حدثت سنة ١٣٥٤م أزمة فى العلاقة بين شارل ملك نافار ، والذى كان أيضا كونت إيفرى Evreux بنورماندى، وجون ملك فرنسا (الذى خلف أباه فيليب على العرش سنة ١٣٥٠) فانضم شارل إلى الملك الإنجليزى ومعه الساخطون من النبلاء النورمان . وفى هذا الوقت كان جزء كبير من شمال فرنسا قد انسحب بالفعل من التحالف مع آل فالوا الذين وجدوا أنفسهم بالتالى مشتبكين فى عدة جبهات . وباللعب على أوتار الشكاوى الإقليمية وروح الإنفصال السائدة فى المقاطعات كشف ادوارد كعب أخيل (نقطة الضعف) فى الملكية الفرنسية الوطنية التى كانت تبدو غاية فى القوة زمن فيليب الرابع.

فى ظل هذه الظروف، لم يكن المجهود الحربى الإنجليزى على وجه الخصوص يحتاج إلى أن يكون أكثر مما كان ، بتنسيقه السيء وعدم استمراره. فقد كسب إدوارد الحرب بشيء من الجهد وفى سنتج ١٣٤٦م قام بمسيرة كبيرة بجيش إنجليزى ضخم عبر بيكاردى؛ وتقابل مع جيش الملك فيليب عند كريسى، وبرهن القوس الإنجليزى الطويل جدارته فى مواجهة سلسلة الهجمات التى شنها الفرسان الفرنسيون . وعندما تمت هزيمة العدو فى المعركة بقى الجيش الإنجليزى الذى خاضها ليحاصر كاليه التى سقطت سنة ١٣٤٧م. وبعد عشر سنوات ، أى سنة ١٣٥٦م، حقق نفس الأسلوب النصر لجيش يقوده الأمير الأسود، الشقيق الأكبر لإدوارد ، وكان نصراً مدويًا ذلك الذى تحقق عند بواتييه فى تلك السنة. إذ تم أسر الملك جون ملك فرنسا نفسه. وثمة غارة كبيرة أخرى داخل فرنسا قام بها جيش ملكى إنجليزى سنة ١٣٥٩م، بيد أنها كانت أقل نجاحًا؛ إذ كان الفرنسيون قد تعلموا الدرس ولم يخاطروا بالاشتراك فى ميدان المعركة. وكانت خسائر ادوارد الفادحة فى التكاليف والقوى البشرية أبعد ما تكون عن أن تشل حركته، على الرغم من أن الفرنسيين نجحوا فى مضايقة قواته بالمناوشات المتتابعة . إلا أن الفشل النسبى للحملة الإنجليزية لم يحل سوى جزء صغير من المشكلة العسكرية الفرنسية. إذ كانت تلك مشكلة قد صارت مستعصية آنذاك، وذلك لأسباب أخرى ينبغى أن نتناولها بالشرح والتفسير.

ذلك أن عشرين سنة من الأعمال العدائية فوق التراب الفرنسى كانت قد خلقت نوعا يشبه المصالح الخاصة فى الحروب. لقد برهنت الغارات الكبرى التى كان الإنجليز يشنونها من آن

لآخر على أنه يمكن أن توفر تكاليفها تقريبًا من خلال الغنائم التى يتم الحصول عليها من نهب القرى والمدن ، والأموال التى تدفع فدية للأسرى الأغنياء. وعادة ما كان ادوارد ومساعدوه يدفعون لرجالهم ويقتسمون معهم الغنائم والأسلاب فى نهاية كل حملة. وسرعان ما اتضح تماما للكثير من جنودهم الذين يحصلون على رواتب أنه ليس من الضرورى أن يتقاضوا مرتباتهم لكي يربحوا من الحرب . إذ كان بوسع عصبة من الجنود، لهم قلعة يتخذون منها قاعدة لهم، ويقودهم ضابط كفء أن يعيشوا معيشة رغدة بأن يرهبوا أهل الريف حتى يدفعوا لهم إتاوة والتربص لأخذ أسرى من طرق السفر والحصول على فدية لإطلاق سراحهم، وينضمون بين الحين والحين إلى عصابات أخرى لنهب مدينة تفتقر إلى الدفاع الجيد بعد اجتياحها . وقد أدت إغراءات الحياة الثرية إلى تضخم أعداد مثل هذه العصابات (أو «الشركة الحرة» كما كانت تسمى آنذاك) بانضمام المغامرين من كل الأنحاء إليها، فقد جاءوا من إيطاليا وإسبانيا وألمانيا ولاتجدوك فضلا عن إنجلترا . وفى منتصف القرن الرابع عشر اجتاحت مثل هذه العصابات منطقة القمم الجبلية جنوب وسط فرنسا، حيث كانت المعاقل بين الجبال شديدة الانحدار منيعة وحصينة. هكذا كان الحال فى معظم أنحاء نورماندى ، ومنطقة حدود بريتون كلها. وفى مناطق كثيرة من فرنسا استنزفت هذه الغارات موارد الناس، وتم تدمير رخاء الريف كله.

وقد أضفت مثل الفروسية المعاصرة لونا من الخيال الزائف على نشاطات أولئك الرجال. لقد كان القتال دائمًا وظيفة النبلاء. وقد امتلأت قصص الفروسية الخيالية بحكايات عن الأبطال النبلاء الذين كانوا يخدمون الأمراء الخاطئين عندما لايكونون مشتبكين فى قتال ضد الكفار؛ أي يخدمون زعماء الشركات الحرة الذين اتخذوا من فضية إدوارد ذريعة وقلدوا طريقة النبلاء. ونشأ نوع من رفقة السلاح والتعاطف الذى كانت له جاذبيته الخرافية بينهم وبين أتباعهم من ناحية ، والرجال المنتمين لنفس الطبقة الذين حاربوا إسميا فى سبيل قضية آل فالوا من ناحية أخرى. وكان هذا هو الذى ساعد جان فراوسار على أن ينسج من تاريخ «**مشروعاتهم الشريفة، والمغامرات وأعمال السلاح النبيلة التى قاموا بها فى خضم الحرب بين إنجلترا وفرنسا**»، مدونة تاريخية كادت أن تكون فى حد ذاتها رواية خيالية من روايات الفروسية. وأدرك إدوارد الثالث الإمكانيات الكامنة فى مثل هذا التعاطف ، وسعى إلى أن يضفى على القتال هالة من المجد من خلال احتفالات الفروسية فى بلاطه. وأسس منظمة الجارتر Garter، وهى صيغة علمانية من المنظمات الصليبية تحمل شيئًا من خصائص المائدة المستديرة للملك آرثر أيضا، وكانت تتألف من الفرسان الذين كرسوا أنفسهم لخدمة قضيته . وعلى أية حال، فمن المهم ألا

نترك قشرة الفروسية هذه تحجب الحقائق الصعبة للحرب، إذ أن نوع المثل العليا التى فهمها أعضاء الشركات الحرة قد وضحت تماما من كلام ميريجو مارشيه قائد إحدى شركات الجنود الحرة التى كانت تقاتل فى سبيل الإنجليز ، فهو يقول : **«لقد فعل كل ما يمكن للمرء أن يفعله، وما يجب عليه أن يفعله، فى حرب عادلة، مثل القبض على الرجال الفرنسيين وطلب الفديه عنهم، وكان يعيش فى الريف وينهبه ، ويقود الشركة تحت إمرته داخل مملكة فرنسا يحرق الأماكن ويشعل النار بها»** .

وإذ كانت الملكية الفرنسية قد تحطمت فى كل مكان بفعل عصابات الحرب التى كانت صغيرة جدا وكثيرة فى عددها بحيث لايمكن مواجهتها، كما كان ملكها فى الأسر، فإن الأزمة التى واجهتها فرنسا وصلت ذروتها فى منتصف القرن الرابع عشر. وعندما اجتمعت «الهيئات العامة» سنة ١٣٥٦م كانت الأزمة قد أخرجت الهيئة الثالثة وجزءا من القساوسة والنبلاء الذين كان يقودهم أصدقاء شارل ملك نافار الذى كنا أسيراً لدى الملك جون فى ذلك الحين. وقادهم صديق شارل الحميم، روبير لوكوك، أسقف لاون، وإتيين مارسل، الذى كان رئيس تجار باريس، وطالبوا بحصة فى جمع الضرائب مع الإدارة الملكية، كما طالبوا بضم عدد من مرشحيهم إلى مجلس الملك الاستشارى. واتصل مارسيل بأهل المدن الساخطين فى مدن الفلاندرز . ويبدو أن هزائم الحرب قد حولت «الهيئات العامة» أخيراً إلى أداة من أدوات المجتمع فى مقاومة السلطة الملكية المطلقة. ففى سنة ١٣٥٦م تم أخذ جون الطيب (ملك فرنسا) أسيرا فى معركة بواتييه لكى يتوج الأزمة التى تواجهها الملكية.

أما الذى أنقذ الملكية فكانت الهبّة المفاجئة التى قام بها الفلاحون فى كل من شمبانى وبيكاردى والبوفيزيس سنة ١٣٥٨م. إذ كان صبرهم قد فرغ مع السادة الذين لم يكونوا يوفرون لهم أى حماية ضد هجمات عصابات الحرب التى أوصلتهم إلى حافة الموت جوعا، والذين غالبًا ما كانوا ينضمون إليها. وقد أدت انتفاضة الفلاحين Jacques إلى عودة النبلاء للوقوف بجانب الملك. ووجد مارسيل نفسه مهجوراً من أتباعه وتم اغتياله ؛ واستطاع الوصى على عرش الملك جون، وهو ابنه شارل، أن يجمع قوات كافية مستعدة للعمليات الدفاعية عندما ظهر ادوارد الثالث بقواته فى بيكاردى سنة ١٣٥٩م. وكانت حملات ادوارد قد تعدت موارده المحدودة دائمًا . وفى النهاية كان مستعدا للاستماع إلى المفاوضات التى انتهت «بالسلام العظيم» فى برتيجنى سنة ١٣٦٠م.

كانت شروط هذا السلام قاسية بالنسبة للفرنسيين. إذ كان عليهم أن يعدوا بدفع فدية ضخمة قدوها ثلاثة ملايين جنيه تورى لإطلاق سراح الملك جون. كما كان عليهم أن يسلموا للإنجليز بحق السيادة على جاسكونى التى تم توسيع مساحتها بأكثر من نصف مقاطعات الجنوب الغربى. وفى ظل هذه الظروف كانوا محظوظين إذ استعادوا السيادة على بريتانى ونورماندى ؛ أى قبل سنتين من توفرة القوة التى تجعلهم يأملون فى الحفاظ عليها. وبعد الهزائم، والأزمة مع «الهيئات العامة» ، والتمرد الاجتماعى للفلاحين Jacquerie، كانوا فى وضع لايسمح لهم بالتقاط الأنفاس.

لقد أعطت شروط معاهدة برتيجنى لإدوارد قدراً كبيراً مما كان يحارب فى سبيله ولكن هذا لم يكن راجعا إلى إنجازاته بقدر ما كان راجعا إلى تفكك حكومة فرنسا، التى سببتها أعمال النهب التى قامت بها الشركات الحرة، والخسارة الحقيقية لسلسلة من المقاطعات ، ومن ثم لم يكن فى وسع إدوارد أن يجعل للسلام معنى . إذ استمر القتال فى بريتانى ونورماندى وعلى حدود لاجدوك الإنجليزية، التى كانت الشركات «الإنجليزية» فيها منحازة ضد القوات الملكية الفرنسية. وفى سنة ١٣٦٩م اندلعت الحرب رسميًا من جديد. ولم تكن قد انتهت أبداً بالفعل، إذ كانت قد خفتت بعد سنة ١٣٦٠م، ولكنها لم تتوقف تمامًا.

كان شارل الخامس الذى خلف جون ملك فرنسا على العرش سنة ١٣٦٤م حاكما قديراً . إذ أن الإصلاحات التى أدخلها على النظام الضريبى ، ولتثبيت قيمة العملة، ساعدت على استعادة قدر من رخاء البلاد المتدهور ؛ وبإعادة فرض السلطة الإقليمية لأفراد عائلته، مثل لويس دوق أنجو ودوق برى، وفيليب دوق برجندى (الذى زوجه من وريثة الفلاندرز) بدأ فى علاج مشكلة النزعة الإنفصالية فى المقاطعات . ومن سوء الحظ، أن عودة الحرب سنة ١٣٦٩م قد عرضت المملكة إلى جهد شديد على حين كانت جهوده فى نصف الطريق. واستطاع أن يحقق نوعًا من التعادل فى ميدان القتال، ولكنه لم يستطع أن يحول تيار النصر لصالح فرنسا بشكل واضح . ونتيجة لهذا، ما أن أهلت سنة ١٣٨٠م، وهى السنة التى مات فيها شارل، حتى كانت أعباء الحرب لاتطاق بالنسبة لفرنسا مثلما كان الحال فى أواخر خمسينيات القرن الرابع عشر . ومع هذا كان هناك فرق . ففى ذلك الحين صارت أعباء الحرب تثقل كاهل الإنجليز أيضا. وقد بالغ ريتشارد الثانى، حفيد ادوارد الثالث، الذى تولى العرش سنة ١٣٧٧م، فى فرض الضرائب حينما كانت الحكومة متدهورة والسخط شائعًا . وبعد أربعين سنة من الأعمال العدائية ، لم يكن بحوزة أى من الطرفين ما يقدمه للمجهود الحربى.

* * *

والسنوات الخمس والثلاثون التى انقضت بين موت شارل الخامس ومعركة أجينكورت سنة ١٤١٥م تشكل فترة كانت الحملات الخطيرة فيها قليلة على الرغم من أنه كان هناك قتال كثير فى فرنسا . إذ كان كل من الطرفين يعانى من الإرهاق . وفى هذه الفترة الوسيطة وقعت أحداث محلية فائقة الأهمية فى إنجلترا وفرنسا.

ففى إنجلترا أدت الضرائب الباهظة، التى صحبتها الشدة الاجتماعية الناجمة عن سلسلة من الأوبئة ونقص المحاصيل ، إلى ثورة الفلاحين سنة ١٣٨١م. ومرة أخرى كانت الضرائب والسجل المستمر للإخفاقات العسكرية والبحرية فى كل جهد حربى جديد سببًا فى سلسلة من الانتفاضات الساخطة بين العموم فى البرلمان مما أدى إلى استحالة حفاظ مستشارى الملك على سياسة ثابتة. وأخيرا ، أدت مؤامرات النبلاء الراغبين فى تحويل هذا السخط لصالحهم لكى يحرزوا نفوذا أوسع فى المجلس الاستشارى إلى خلع ريتشارد الثانى خليفة ادوارد الثالث سنة ١٣٩٩م. وكان هنرى الرابع أمير لانكستر الذى خلفه هو أيضا حفيد ادوارد الثالث، وبذلك لم تسقط دعاوى الإنجليز فى عرش فرنسا . ولكن لم يحدث حتى تولى العرش هنرى الخامس خلفًا لأبيه هنرى الرابع أن وجد ملك إنجليزى قوى بالدرجة التى تجعله يكرس نفسه ثانية لعمليات عسكرية على نطاق كبير ضد فرنسا.

وخلال تلك الفترة حالت الفوضى الداخلية بين كل من الفرنسيين والإنجليز وبين القيام بأى جهد كبير. إذ كان شارل السادس طفلاً عندما مات أبوه سنة ١٣٨٠م؛ وكان على أعتاب الرجولة سنة ١٣٩٢م عندما انتابته أول نوبة جنون استمرت تُقْعده فترات طويلة حتى مات سنة ١٤٢٢م. وبينما كان الملك مريضا كانت حكومة البلاد تحت السيطرة الفعلية للأمراء الكبار فى البيت الملكى. وكان هؤلاء رجالاً أحسن شارل الخامس مكافأتهم على نحو ما رأينا . فقد زاد من قدرهم حقا ، بمنح الأراضى والألقاب والامتيازات لدرجة أنهم تطلعوا بطموحاتهم إلى ما وراء حدود فرنسا. إذ كان لويس دوق أنجو ، والشقيق الأكبر لشارل الخامس يأمل فى أن يأخذ لنفسه عرش نابولى ، باعتباره وريثًا بالتبنى للملكة جوانا التى خلعها ابن عمها شارل أمير درازو فى سنة ١٣٨١م. أما لويس دوق أورليانز، الابن الأصغر لشارل الخامس ، الذى تزوج من أميرة فيكونتيسة فكان يأمل أيضا فى الحصول على ميراث فى إيطاليا، فى أجزاء من الأملاك البابوية التى وعده بها بابوات أفينون بعد الانشقاق العظيم ، لتكون مملكة له- إذا تمكن أن يستولى عليها من حلفاء بابوات روما. وكان فيليب أمير برجندى، الأخ الأصغر

لشارل الخامس ، والذى كان قد أضاف الفلاندرز إلى دوقيته . يميل إلى توسيع أملاكه بضم الإمارات الصغيرة الواقعة على حدوده فى حوض نهر الراين والبلاد الواطئة ، مثل لوكسمبورج، وبرينت، هينولت وجيلدرز.

ولكى يمد أولئك الأمراء من نطاق طموحاتهم، ناضل كل منهم على حدة لكى يحقق السيادة فى البلاط والسيطرة على الحكومة ، بحيث يوطّد سلطته فى أملاكه الفرنسية ويحول الموارد الملكية لخدمة دبلوماسيته الخاصة. ومات لويس دوق أنجو سنة ١٣٨٤م؛ وفى تسعينيات القرن الرابع عشر كان فيليب ولويس دوق أورليانز المنافسين الوحيدين بالفعل. وكان فيليب هو الأكثر نجاحًا. فعندما مات كانت برجندى قد بدأت ، بفضل الإضافات التى ضمها لمملكته، تشكل دولة بذاتها تقريبا. وبدأت مشكلة الإنفصالية الإقليمية تطل برأسها مرة أخرى ، وبشكل جديد وخطير، لأن الأمراء الملكيين أنفسهم كانوا يحبذونها .

كان ابن فيليب، جون الذى لايعرف الخوف John the Fearless رجلاً أكثر تهوراً فى السياسة منه فى الحرب. ففى سنة ١٤٠٧م تم اغتيال منافسة لويس دوق أورليانز بناء على أوامره فى باريس. وكانت تلك إشارة إندلاع حرب أهلية مرعبة فى فرنسا. ولكى ينتقم شارل الإبن لمصرع أبيه تحالف مع كونت أرمنياك الذى كان قد انتهز فرصة الفوضى فى تلك الفترة ليحول سيادته على لانجدوك إلى ما يشبه الاستقلال والذى جلب إلى شارل ما بقى من جنود الشركات الحرة القديمة. وحققت لهم وحشيتهم شهرة مخيفة فى النواحى المحيطة بباريس. ووجدها جون كونت برجندى فرصة ليظهر فى صورة بطل الإصلاحات التى طالب بها كثيرا سكان باريس والهيئة الثالثة. وهكذا آل شرف حزب البلاط القديم إلى عائلة أرميناك، ومعهم آل دوفين الذين ورثوا عرش فالوا يؤيدونهم. وارتبط تحالف عائلة أرمنياك ، ومعهم دوفين بالأواصر التجارية الوثيقة بين إنجلترا والفلاندرز بحيث دفع ببرجندى فى يد هنرى الخامس . وكان الجيش الذى لحقت به هزيمة أدت إلى مذبحة مرعبة فى أجنيكورت سنة ١٤١٥م جيشا لآل أرمنياك .

وعندما اغتيل الدوق جون بدوره سنة ١٤١٥م على أيدى خدم الدوفين، ربطت نورماندى نفسها بانجلترا تمامًا . وجلبت نورماندى معها بريتانى ، التى كان دوقها حليفا لجون باستمرار: وكانت قوات هنرى الخامس قد اجتاحت نورماندى بالفعل. وكان الموقف يشبه كثيرا الموقف سنة ١٣٥٩م، والفرق الوحيد هو أنه كان أكثر ترديًا فى فرنسا . ومثلما كان الحال آنذاك ،

كان السلام هو موضوع الساعة، ولكن الشروط كانت أكثر إذلالاً . إذ أن معاهدة تروى سنة ١٤٢٠م أعطت كل أملاك شارل السادس ملك فرنسا إلى هنرى ملك انجلترا بمجرد موت الأول. وكان موته وشيكا آنذاك . هذه المعاهدة أعطت هنرى كل ما كان يحارب فى سبيله، وليس مجرد جزء منه، مثلما أعطت معاهدة برتيجنى لادوارد الثالث. وعلى أية حال، كان هناك فرق آخر هام بين المعاهدتين . ذلك أن معاهدة تروى لم تنه الحرب حتى إسميًا ، كما آل دوفين وآل أرمنياك لم يكونوا من أطراف المعاهدة، وظلوا يحملون السلاح، وتحت طاعتهم كل البلاد الواقعة إلى جنوب نهر اللوار باستثناء جاسكونى.

* * *

والحقيقة أن الحرب لم تقترب من نهايتها وإنما كانت تدخل مرحلة جديدة ونهائية. فقد مات كل من شارل السادس وهنرى الخامس سنة ١٤٢٢م؛ وتم إعلان الأمير الإنجليزى القاصر هنرى السادس ملكًا على فرنسا بباريس ، على حين تم إعلان شارل دوفين ملكًا على فرنسا فى بورج. وشهد عهدهما حربًا طويلة استمرت إلى نهايته . وعلى مدى ثلاثة عشر عامًا لم تكن نتيجة الحرب مؤكدة ؛ ثم بدأت الأمور تجرى لصالح شارل بوضوح . وكانت برجندى هى العامل الحاسم ، لأن نجاح هنرى الخامس مثل نجاح ادوارد الثالث لم يكن مبنيا على جهد إنجلترا وحدها، ولكن على تقسيم فرنسا أيضا. وعندما انسحبت برجندى سنة ١٤٣٥م من التحالف الإنجليزى، الذى ثبت أنه ليس من صالحها التمسك به، كان موقف هنرى السادس ضعيفًا . وكانت ما تزال هناك عشرون سنة قبل طرد الإنجليز تماما من فرنسا كلها (فيما عدا كاليه) بعد أن لحقت بهم هزيمتان فادحتان، فى فورمجنى بنورماندى سنة ١٤٥٠م، وفى شاتسبون قرب بودرو سنة ١٤٥٣م. ولكن بعد سنة ١٤٣٣م يكن هناك شك فى القضية. وقد حاول الإنجليز أن يصمدوا طويلاً بسبب الجهود الكبيرة التى بذلوها فى الحرب. وكانت هذه الجهود أعراضًا للتغير الذى طرأ على منظور الحرب الإنجليزية الفرنسية كله فى مرحلتها الأخيرة.

لقد شن بيت لانكستر الحرب بطريقة تختلف تمامًا عن طريقة إدوارد الثالث. إذ تم جمع جيوش هنرى الخامس وهنرى السادس فى إنجلترا ، وتم دفع تكاليفها من الضرائب الإنجليزية. وكان لديهم قوافل من مدفعية الحصار، وقوات من المهندسين؛ كما كانت لديهم فى المدن التى استولوا عليها من الفرنسيين حاميات ثابتة مجهزة وكان يتم دفع رواتبها وتموينها بشكل منتظم من الخزانة الملكية . وفى زمن الدوق بدفورد ، الوصى على هنرى السادس فى فرنسا

حتى مات سنة ١٤٣٥م ، تم وضع نظام دقيق للتفتيش للتأكد من أن الحاميات والجنود تأخذ رواتبها بانتظام وتحتفظ باستعداداتها كاملة. وكان معنى هذا كثرة دعوة البرلمان للانعقاد لكى يفرض الضرائب اللازمة، والشرح الدقيق لأعضائه حول حاجات الملك الضرورية. وصارت الحرب بالنسبة لإنجلترا شيئا لم تعرفه أبدا أيام ادوارد الثالث، إذ صارت مشروعًا وطنيًا طويل الأمد.

وكانت لها تأثيرات اجتماعية عميقة فى إنجلترا ، لاسيما على طبقة أشراف الريف ذات الأهمية الكبيرة، إذ كان من بينهم ممثلو العموم فى البرلمان . وقد أرسلت الكثير من عائلاتهم أبناءها للقتال فى فرنسا؛ والواقع أن بعضهم يدين برفاهيته للغنائم التى تم الاستيلاء عليها فى الحرب الفرنسية واستثمرت فى شراء الضياع الزراعية والأملاك. والجزء الذى لعبوه فى الحرب نفسها ، أى الاجتماعات الكثيرة للبرلمان، واستمرار دفع الضرائب هو الذى ساهم فى جعل مثل هؤلاء الناس يعتادون على التفكير بطريقة وطنية وليست محلية . وصارت الدلائل على أنهم يفكرون بهذه الطريقة أكثر وضوحًا بمرور الزمن ففى سنة ١٣٧٦م نسمع للمرة الأولى عن أعضاء من العموم يدينون فشل الحكومة فى مناقشة جرت بمجلسهم. وفى ثمانينيات القرن الرابع عشر، وخمسينيات القرن الخامس عشر سعوا إلى إدانة مستشارى الملك بمسئوليتهم عن سوء إدارة العمليات العسكرية أمام الأمة. وفى القرن الخامس عشر نجد العديد من العرائض والمنشورات المكتوبة على ورق عريض، منها ما هو رسمى وما هو غير ذلك، وتتعلق بالشئون العامة، توضح أنها كانت تثير حقًا موضوعات حيوية وهامة. وبدأت المراسلات العائلية تمتلىء بالتساؤلات عن اتجاهات الأمور الكبرى والتعليقات عليها.

«سمعنا اليوم أن شيربورج ضاعت، وليس لنا الآن موضع قدم بفرنسا ». فى هذه الجملة الواردة فى خطاب مكتوب إلى أحد أفراد أسرة باستون فى نورفولك أرسله أحد سكان لندن سنة ١٤٥٠م نجد أن كلمة «نحن» ذات مغزى. إذ أن مجهود الحرب قد قرب الطبقات القادرة على إتخاذ موقف مسئول ومعارض للحكومة فى إنجلترا على نحو ربما لم يكن ممكنًا تحقيقه بوسيلة أخرى. فالحيرة العامة، عندما وجد الناس فى نهاية الحرب أن جهودهم لم تسفر عن شىء، قد ساعدت حقًا على ظهور الهياج السياسى الذى تجسد فى حرب الوردتين. وفى نهاية هذه الحرب، كانت روح التضامن والشعور بالصالح العام عند الطبقات الإنجليزية الراقية هى الأساس الذى قامت عليه الملكية القوية التى شادها ملوك بيت يورك والملوك الأوائل من آل تيودور. وإذ انفصلت مملكتهم فى نهاية الأمر عن القارة الأوربية، فإنها كانت مملكة إنجليزية فى اللغة والرؤية العامة والعادات، تفخر بتاريخها الوطنى الخالص.

وفى فرنسا عند نهاية حرب المائة عام بدأ نوع مشابه من الإحساس بالذات الوطنية يعلن عن نفسه. ففى غمار الظلمات والفوضى التى أعقبت معاهدة تروى يصعب أن نجد دلائل على هذا ؛ بيد أن المشاعر كانت كامنة تحت السطح، وهو ما أظهرته قصة جان دارك المذهلة إذ أخرجت هذه المشاعر إلى الحياة. ذلك أن الوقت الذى كانت فيه الأصوات الخفية تحادثها فى غابات دومريمى، لتقوم بمهمة لتخليص شعبها ، كان فى الحقيقة أحلك الأوقات، إذ أن ذلك كان بعد معاهدة تروى مباشرة . وظهور جان دارك سنة ١٤٢٩ على رأس جيش لإنقاذ أورليانز التى يحاصرها الإنجليز ، استحوذ على خيال قوات دوفين التى أنهكتها الحرب، ووجهتهم لإحراز إنجازات كانوا قبل سنة لايفكرون فيها ولو على سبيل المحاولة.

«لقد طلبت منى أن أحضر كأسًا من النبيذ ، وقالت أننا لابد وأن نشرب سويا فى باريس. وما فعلته ظهر لى على أنه معجزة من الرب، مثل رؤيتها وسماعها ».

هذه هى الكيفية التى كان الجندى جاد دى لافال يتذكرها بها فى المعسكر بعد فك الحصار عن أورليانز. لقد أعطت انتصاراتها لأمثاله ما لم يكن لديهم من قبل، أى الإنتصار فى قضية وطنية يمكن أن تتجمع الذكريات والأساطير حولها. كما أن نجاحها فى تتويج «الدوفينى اللطيف » بكتدرائية ريمس عند نهاية الحملة التالية سنة ١٤٢٩م أضفى سحراً ورونقًا جديدا على آل فالوا الذين كان يبدو أن ربهم قد تخلى عنهم. ومنذ ذلك الوقت شاعت بين الفرنسيين بالخارج روح جديدة لم يكن ممكنا أن تخف حدتها سوى بالنهاية المرعبة التى لقيتها جان دارك، ابنة الشعب، على أيدى محاكم التفتيش.

وبعد موت جان دارك كان كل ما يحتاجه الفرنسيون هو قائد يلهمهم مثلما كانت تفعل . ووجدوا ضالتهم فى شارل السابع الذى كان قد ألقى بعيدا بالخمول والفتور الذى خيم على آل دوفين فى أيامه (على الرغم من أن جان دارك لم تكن هى التى وجهته؛ لأن عشيقته أجنيس سوريل هى التى شحذت همته، ولم تكن قديسة بل خاطئة) . وفى سنة ١٤٣٦م دخلت قواته باريس. وعندما بدأوا يضغطون داخل نورماندى كانت هناك فورة حماسية لتحيتهم . وبدأ شارل يظهر أنه حاكم جدير بالعرش .

ومنذ ذلك الحين كان المجهود الحربى الفرنسى قائمًا على أسس أكثر فعالية، والمرسوم العظيم الذى أصدره شارل سنة ١٤٣٩م هو الذى وضع ترتيبات تنظيم جيش دائم ، والطريقة التى يتم بها الحصول على الأموال اللازمة للإنفاق عليه من خلال الضرائب السنوية taille.

وقد أدى هذا إلى التخفيف عن البلاد كثيراً من وطأة النهب والسلب الذى كانت تقوم به عصابات الجند المتوحشة الهمجية، والتى لم تكن تأخذ أى رواتب فى العادة، والتى تحولت منذ تلك الفترة إلى جيش نظامى. كما أن العناية التى أولاها شارل للمدن والريف عندما استعادها من الإنجليز رفعت شهرته عاليا، ونفعت فى المستقبل. وفى ظل حال الضعف التى انتابت المملكة، كان الذين يرغبون فى الحرية المهلكة من بين العامة قليلين؛ فقد سرهم أن يرحبوا بملك **«يأخذ سنويا من رعاياه بقدر ما يلزم لحمايتهم»**. لقد عانى شعب فرنسا بلاحدود من القتال الذى لاينتهى على أرضها ، وكان لابد من وجود يد قوية تعيد الرخاء من جديد. وكسبت السلطة الملكية المطلقة قوة عندما حققت النجاح العسكرى وأيقظت الروح الوطنية.

وقد حصل ابن شارل ، لويس الحادى عشر، على الثمار الكاملة لانتصارات أبيه. إذ شهد عصره بداية ازدهار تجارى فرنسى جديد، وكان ذلك ثمرة للحماية الفعالة التى وفرها هو ، وأبوه قبله، للمصالح التجارية للمدن الكبرى مثل روين، وبوردو، وليون، وللتحالف الوثيق بين الملكية الفرنسية والعائلات البورجوازية الكبيرة. وقد شهد ذلك العصر عصبة الأمراء **«من أجل رفع معاناة الشعب»**، والتى تشكلت لحماية الإمتيازات التى كانوا هم وكبار النبلاء قد كسبوها أو اغتصبوها أثناء الحرب، وهى تتمزق بسبب انعدام الوحدة بين أعضائها وانعدام التأييد الشعبى. وشهد أيضا الملكية المتعافية وهى قادرة على أن تمد سيادتها إلى مناطق بعيدة ، فى حوض نهر الرون ومنطقة جبال البرينيس، وإلى برجندى فى نهاية عصر ذلك الملك، بعد سقوط آخر دوق من أسرة فالوا، وهو شارل الجسور . وفى النهاية كان الرعب الذى سببته الحرب قد استنفد روح الإنفصالية الإقليمية، التى كانت خطراً يتهدد فرنسا بالفناء؛ وكان نجاح الملكية فى القضاء على النزعة الإنفصالية كبيرا بالقدر الذى جعلها قادرة على أن تتوسع فيما وراء حدودها القديمة. ولو لم تكن الحرب مع الإنجليز قد تسببت فى هذا القدر الكبير من الدمار لما استطاع شارل السابع ولويس الحادى عشر أن يرسيا مثل هذه الأسس القوية، فما بنوه كان فى قلب قوة فرنسا لأنه استمر موجوداً حتى نهاية النظام القديم Ancien Regime *.

---

* أى قيام الثورة الفرنسية وانتهاء الحكم الملكى بقيام الجمهورية الأولى. (المترجم)

لقد خرجت كل من إنجلترا وفرنسا من غمار حرب المائة عام مستقلة، ولها هويتها الوطنية الذاتية، وواعية بهذه الهوية . وكان هذا إتجاها سار تاريخهما نحوه فترة طويلة؛ كما أن العلامات الدالة على ما سيكون كانت واضحة قبل زمن طويل من حربهما الكبرى، فى التطورات التى جرت بهما أيام فيليب الرابع فى فرنسا وهنرى الأول فى إنجلترا، فى القرن الثالث عشر، ومنذ ذلك الحين أدت الضغوط التى خلقتها الحرب إلى تقوية الشعور بالتضامن الداخلى بين سكانهما على نحو هائل. كما أنها عودت حكامهما على التفكير فى السياسة فى ضوء الظروف المناسبة لهذا الوضع، بحيث جعلوا الأولوية الأولى لمتطلبات الرخاء الدنيوى لرعاياهم ، وهو ما كانت سلطتهم تعتمد عليه . وتمثلت النتيجة فى اختفاء الاعتبارات الدولية تمامًا من أساليب الحكم بفرنسا وانجلترا، وهى اعتبارات كان لها تأثيرها الواضح منذ أيام لويس التاسع ملك فرنسا وهنرى الثالث ملك انجلترا . وتم توجيه السياسة الملكية لكى تلعب دورا جديدا فى أوروبا مختلفة . وكما سنرى فى الفصل التالى، فقد أدت تداعيات الحرب بين فرنسا وانجلترا حقًا إلى تغيير أوروبا فى نهايتها .

١٨- السياسة والمجتمع السياسى زمن الحرب

رأينا كيف أنه على الرغم من أن ملك فرنسا أو ملك إنجلترا لم يكن يمتلك الموارد المالية لتنظيم مجهود عسكرى متواصل والحفاظ عليه، فإن صراعهما أخرج إلى الوجود قوات عسكرية ثابتة ودائمة. ومثلما فعلت الحملات الصليبية فى زمن سابق، اجتذبت الحرب الفرنسية الإنجليزية الجنود من كل أنحاء أوروبا، ممن وجدوا فرصتهم فى خدمة أحد الجانبين أو الآخر لكى يكتسبوا الشهرة والغنائم معًا ، وربما يحوزون لأنفسهم حكم بعض المناطق المقهورة. وكانت «الشركات الحرة» التى نظم هؤلاء المغامرون أنفسهم فيها عصابات حرب قوية ومستقلة تمامًا. وبرهنوا بسلوكهم على أنهم كانوا جاهزين لخدمة أى سيد يقدم لهم شروطًا جيدة. وفى غياب التوظيف المنتظم كان بوسعهم أن يعولوا أنفسهم من خلال عمليات السطو المنظمة. «**بدون الحرب لايمكن أن تعيش ولاتعرف كيف تعيش**» ، هذا هو ما قاله سيرجون شانوس، مساعد الأمير الأسود لمجموعة من الضباط الذين جاءوا لاستشارته . وعندما كانت الأعمال العدوانية تتوقف بشكل رسمى، عادة ما كان أولئك الجنود يواصلون الحرب حتى يجدوا وظيفة أخرى، لأنهم لم يعرفوا وسيلة أخرى لكسب العيش. وكان النهب والسلب الذى يقومون به خطيراً مثل الوباء أو المجاعة .

كانت الخدمة مع مثل هذه الشركات تتيح فرصًا للمغامرة والحصول على الثروة على السواء، لأنها رابطة يتم فيها تقاسم مخاطر الحرب ومكاسبها على السواء. ولم يكن هذا هو

العامل الجذب الوحيد فى مثل هذه الخدمة على أية حال. فبسبب المكانة الاجتماعية السامية التى أضفتها أفكار الفروسية المعاصرة على مهنة السلاح، فإنها أتاحت مخرجًا للطاقات الطبيعية والميول لطبقة كاملة من الأشخاص على الهامش الخارجى غير الآمن للطبقة الأرستقراطية؛ مثل الفرسان الذين لم تكن أملاكهم تكفيهم، والأبناء الصغار والأبناء غير الشرعيين لعائلات السادة الإقطاعيين، والمتطلعين إلى مكانة اجتماعية لم تكن لهم بالميلاد. وكما رأينا، فإن كُتابًا مثل فرواسار وصفوا نشاطهم فى مصطلحات ينظرون هم أنفسهم بها إلى أفعالهم. **«بخوذته العسكرية فوق رأسه يكون الرجل المقاتل نبيلاً، ولائقا للحرب مع الملك»** : كان ذلك هو الفخر الذى يتباهى به مثل هذا الجندى. وكانت «الشركات الحرة» أكثر من مجرد نتاج جانبى للحرب فى عصر لم تكن فيه ثمة جيوش نظامية دائمة؛ وإنما كانت ظاهرة اجتماعية. إذ لعبت دوراً هامًا ، لا فى الحرب الإنجليزية الفرنسية وحدها، ولكن فى كل الحروب الكبرى فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر تقريبا.

ولأنهم لم يكونوا يمتلكون وسيلة أخرى لكسب العيش سوى الحرب، كان من الصعب حل مثل هذه الشركات الحرة. ولم يكن بوسع الأمراء الذين لايمكنهم الاحتفاظ بجيوش ثابتة أن يدفعوا لعصابات الجنود الذين كانوا قد استخدموهم على أسس مؤقتة تمامًا. وهكذا كان المعروض من الجنود الذين يرغبون فى الخدمة المنتظمة يفوق الطلب دائما وتمثلت نتيجة سعيهم للتوظيف فى وجود حال مناقضة للأحوال الطبيعية فى فترات الحرب التى وقعت بعد ذلك. فبدلا من جر قوى أخرى إلى الصراع المركزى بين إنجلترا وفرنسا مثلا، كان الجهد البشرى والعسكرى فى أى حرب دائرة يميل إلى أن يصب فى صراعات لاتمت بصلة إلى الموضوع الأساسى، أو تمت لها بصلة غير مباشرة فقط . كان السبب فى هذا أن إمكانية الحصول على القوى البشرية فى ظل ظروف التطور السياسى المعاصرة ، وحرص الحكام على أن يجدوا توظيفًا آخر للجنود بدلاً من أعمال السطو، التى لم يكن لديهم القوة للسيطرة عليها قد زاد من إمكانيات حدوث ما يمكن أن تصفه بأنه «مغامرات الأسرة الحاكمة» . ومن الضرورى أن نشرح طبيعة ظروف هذا التطور السياسى، إذا ما أردنا أن نستوعب مغزاها، وكذلك شرح المجهود العسكرى الذى ساعدت ظروف هذا التطور السياسى على توجيهه .

ولم يحدث سوى قرب النهاية أن تم الاعتراف بأن حرب المائة عام بين إنجلترا وفرنسا حرب بين أمتين. لأنه سيكون من الأصوب أن نصفها فى معظم فتراتها بأنها حرب «الأسر الحاكمة». إذ أن مفاهيم «الأمة» و «حكومة» الأمة، كما نفهم نحن هذه المصطلحات ، لم

تكن مألوفة عندما اندلعت الحرب بين إنجلترا وفرنسا فى القرن الرابع عشر. فقد كان الناس يفكرون ويتحدثون بمصطلحات «السيادة الإقطاعية» والأملاك. وكان لفظ «السيادة الاقطاعية» Lordship يوحى على الفور بحق ملكية الأرض أو قطعة الأرض موضوع النزاع، والحق فى حكم الناس الذين يعيشون عليها. وكان يمكن نقل السيادة مثل الملكية، بل كان يمكن شراؤها (داخل حدود معينة) وبيعها. ولم تكن تتضمن بالضرورة ما نسميه نحن الآن السلطة السيادية Sovereignty . فالدوقية أو الكونتية التى كان حاكمها نفسه من الرعايا، كانت منطقة سيادة إقطاعية تمامًا مثل المملكة، على الرغم من أنها من درجة أقل. كان هذا تراثا للظروف الإقطاعية السابقة التى اغتصب فيها النبلاء المحليون حق ممارسة الكثير من وظائف السلطة العامة للتعامل مع أولئك الذين يعيشون فى ضياعهم . وثمة ميراث آخر انتقل من الظروف السابقة هو حق خلق سيادة أخرى أصغر لأمير آخر داخل نطاق أملاكه، وهو الحق الذى كان بوسعه أيضا أن يمنح السيادة لهيئة، على نحو ما فعل أباطرة الماضى بالنسبة لكوميونات المدن فى إيطاليا. وهكذا لم تكن السيادة بالضرورة حقًا شخصيًا، ولكنها كانت كذلك فى أغلب الأحوال. وكانت معظم حقوق السيادة الإقطاعية عبارة عن حيازات وراثية لعائلات ملكية أو نبيلة معينة، تنتقل من الأب إلى ابنه وفق قانون الوراثة العرفى.

وكان من حسن السياسة أن يحاول كل سيد إقطاعى كبير أن يوطد ميراثه من السلطة وأن يزيد فيه بإدارة سياسات عائلته بحذر وحرص، وأن يبحث عن المكافآت لقاء خدماته وتحالفاته على هيئة منح السيادة الإقطاعية التى تزيد من حجم أملاكه الموجودة. وقد أدت مثل هذه السياسات إلى المنافسات البشعة. إذ كان يمكن لسيدين إقطاعيين أن يحوزا هبات بحق السيادة على مدينة أو أرض ذات قيمة من سيدين متنافسين يزعم كل منهما أن المدينة أو الأرض واقعة داخل نطاق أملاكه القانونية. كذلك كان الزواج المميز وسيلة أخرى للحصول على حقوق سيادة جديدة، بيد أنه من المؤكد أنه كان هناك كثيرون يتطلعون للزواج من وريثة، وربما يجد ذلك الذى يفوز بها أن حقها فى الميراث موضع شك بسبب عيب يشوب نسبها. وكان من الممكن لبعض صدف اختفاء خط الوراثة (بموت آخر وريث دون ذرية) أن تؤدى إلى نشوب أزمة سياسية حادة. فقد كان من الطبيعى جدا ألا يميل السيد الإقطاعى إلى التفريط فى مصالحه فى مثل هذه المسألة باعتبارها مسألة نزاع حول الوراثة بدون نضال . إذ كان الرأى المعاصر يعتبر الإدعاء بالمزاعم الوراثية، ضد السيد الإقطاعى الكبير مبررا كافيًا لاستخدام السلاح. وكان الناس يعتقدون أن شن الحرب لمثل هذه الأسباب بمثابة الاحتكام إلى الرب الذى لايخطىء حكمه. وكانت النتيجة هى التكاثر اللانهائى للأعمال العدوانية، ويتولد عنها ظروف

انعدام الأمن الاجتماعى والسياسى بدرجة كبيرة، كما تسبب المزيد من البؤس الاقتصادى . وكانت تلك هى الظروف التى يجد فيها رجال السلاح توظيفًا دائمًا تقريبا. وهذا هو السبب فى أن تأثيرات شيوع المغامرة العسكرية ، التى اجتذبت الرجال إلى حياة الجندى الحر، قد ارتبطت بالسياسات التنافسية للأسر الإقطاعية الحاكمة، بحيث ينبغى أن نفكر فيهما سويًا .

وشركات الجنود التى انتجتها الحروب الكبرى، مثل حرب فرنسا وإنجلترا، كان يتم سحبها باستمرار بعيدا عن هذه الحرب لتخدم فى حروب أخرى مثل تلك التى يتورط فيها كبار الرجال فى الأقاليم المتجاورة. ويزدحم تاريخ القرنين الرابع عشر والخامس عشر بالقصص التى تحكى عن رجال مثل هؤلاء وعن مغامراتهم لتحقيق طموحات الأسر الحاكمة. وادوارد الثالث، بمزاعمه حول التاج الفرنسى هو مجرد مثال للنمط الذى كان شائعًا . والدوقات الذين تتابعوا على عرش أنجو قادوا جنودهم مراراً وتكراراً إلى داخل إيطاليا فى محاولة لكسب حكم مملكة نابولى، التى كانت ملكتها جوانا قد أورثتها إلى الدوق لويس سنة ١٣٨٠م . وكان لويس دوق أورليانز يأمل فى أن يكسب مملكة أدريا فى الأملاك البابوية، التى كان بابا أفينون فى وقت الإنشقاق الكبرى قد وعد بأن يقيمها له فى الأراضى التى يسيطر عليها بابا روما؛ كذلك فإن جون دوق لانكستر فى إنجلترا كان يطمع فى عرش قشتالة بحق زوجته فى وراثتها، لأنها كانت إبنة الملك المخلوع، وأنفق ثروة على المجهود العسكرى والدبلوماسى «لبناء القلاع فى إسبانيا». هذه أمثلة قليلة فقط ليس من الضرورى أن نزيد فى عددها. والمهم هو أن نتذكر أن السعى للحصول على السلطة من جانب أمثال هؤلاء الرجال كان يمكن أن يؤدى إلى تداعيات لاعلاقة لها بنجاح مشروعاتهم الأساسية أو فشلها ، ولم تكن الجيوش التى تبعتهم تعود دائمًا إلى الوطن مثل قادتها . ففى الغالب الأعم كانوا يبقون حيث انتهت الحرب أو الحملة ، ومن ثم يشكلون عاملاً جديداً من عوامل الفوضى فى الصراعات السياسية الدائرة فى مكان محلى آخر. وكان من الممكن أن يستغرق الأمر زمنًا طويلاً لكى تتلاشى الآثار الكاملة الناجمة عن مرحلة واحدة فى الحرب بين أسرتين حاكمتين .

والطريقة الوحيدة لكى نفهم المزيد عن الطريقة التى أثرت بها «موضة» المغامرة العسكرية ومغامرات الأسر الحاكمة فى تاريخ أوروبا أواخر العصور الوسطى هى أن ندرس الأمثلة بالتفصيل وربما تكفى ثلاثة أمثلة، عن قصص تداعيات الحرب ونتائجها فى إسبانيا ، وإيطاليا ، وبرجندى.

* * *

فى أسبانيا برزت مملكتان قويتان نتيجة الحروب ضد المسلمين، هما مملكة قشتالة ومملكة أرغون . ويقدم لنا تاريخ قشتالة المتأخر أكثر مثال مباشر يوضح معظم العمليات التى درسناها حتى الآن. ففى هذه المملكة كانت الحرب ضد المسلمين قد وصلت إلى مدى مؤثر فى منتصف القرن الثالث عشر. ولم تترك هذه الحروب بأيدى المسلمين سوى الأندلس، أى مملكة غرناطة، وبعد هذا كان تاريخ قشتالة حتى منتصف القرن الرابع عشر فى أساسه حكاية الصراعات التى نشبت بين التاج والنبلاء المتكبرين المتغطرسين ، وفى خضم هذا الصراع كان كل من الجانبين يسعى أحيانا إلى التحالف مع المسلمين. وفى عهد ألفونسو الحادى عشر الذى هزم جيشًا غازيًا مسلمًا كبيراً قدم من المغرب العربى عند ريوسالادو Rio Salado، بدأت الملكية مرة أخرى تكسب الهيبة والسلطة. وسعى ابنه بدرو الثانى (١٣٤٩-١٣٦٩م) إلى اتخاذ موقف أكثر قوة مع النبلاء من مواقف أسلافه الملكيين. وقد أكسبه هذا شهرة بالقسوة، وقد كان قاسيًا بالفعل، كما اشتهر بالاعتماد على اليهود والموريسكيين من بين رعاياه . كما أن هذا الموقف المتشدد زج به فى نزاع مع أخيه غير الشرعى، هنرى كونت تراستمارا ، الذى نجح فى طرده من المملكة فى نهاية الأمر سنة ١٣٦١م. ولكنه كان قد ألقى به بين ذراعى حلفاء جدد أقوياء. إذ أن هنرى وجد لنفسه ملاذاً فى فرنسا. ومن هناك عاد عام ١٣٦٦م على رأس جيش كبير من «الشركات الحرة» يقوده الكابتن البريتونى الشهير برتراند دى جوسلكين ، ويموله ملك فرنسا الذى سره كثيرا أن ينفق أمواله على هنرى ما دام سيخلص البلاد من أولئك المغامرين.

وعلى مدى عشرين سنة بعد هذا، كان الصراع على تاج قشتالة وجهود الحرب الأنجلو-فرنسية متشابكين بشكل خطير. ولم يكن بوسع بدرو نفسه أن يضع فى ميدان القتال قوة تستطيع مواجهة جنود دى جوسكلين ومن ثم لجأ إلى خصومهم الطبيعيين ، أى الإنجليز فى جاسكونى . وهكذا سار إلى قشتالة جيش آخر من الشركات الحرة يقوده بدرو والأمير الأسود، وأطاح بهنرى دى جوسكلين فى معركة ناجيرا الكبرى سنة ١٣٦٧م. ولم يستطع بدرو أن يدفع لجنود حليفه ، وسرعان ما اشتبكا فى صراع ضد بعضهما البعض. واستطاع هنرى والفرنسيون العودة فى العام التالى، وهزموا بدرو وقتلوه فى مونتييل بالأندلس . ومن سوء الحظ أن هذه لم تكن نهاية المشكلة لأن بدرو ترك إبنتين. وقد تزوج جون دوق لانكستر ، وشقيق الأمير الأسود وأغنى رجل بين النبلاء فى إنجلترا من الكبرى كونستانزا ، ومن خلال حقها أعلن نفسه ملكًا على قشتالة . ولم يتخل عن جهوده لمتابعة هذه الدعوى حتى سنة ١٣٨٧م عندما غزا جليقية بجيش إنجليزى ، ولكنه خسر من الرجال وأنفق من الأموال ما جعله يتأكد من أنه لن

يستطيع أن يسعى لفرض مطالبه أبعد من ذلك ومن ثم كان مستعداً لأن يتصالح مع جون تراستمارا، خليفة هنرى، وأن يتنازل عن دعاويه مقابل زواج إبنة كرنستانزا من وريث جون. وبذلك يكون قد كسب التاج لها ما دام لم يستطع أن يكسبه لنفسه .

وتبدو هذه القصة بعيدة عن الموضوع للوهلة الأولى. بيد أنها كانت أهم من ذلك كثيرا بالنسبة لقشتالة بأى مقياس. إذ أن سلسلة الحملات التى داست أرضها والمعارك التى خاضها جنود أجانب عاشوا على نتاج الريف الذى مروا من خلال أراضيه ، قد أدت إلى إفقار عامة شعب المملكة كما دمرت الاقتصاد كله. وبالإضافة إلى ذلك اضطر كل من هنرى وجون تراستمارا ، فى سبيل الحفاظ على ولاء النبلاء، إلى إغراقهم بالمنح التى تتضمن امتيازات هامة وضياعًا كبيرة. ولما كان النبلاء مشاغبين من قبل فإنهم ظلوا كذلك ؛ ولكنهم باتوا أكثر قوة فى ذلك الحين، كما كانت موارد التاج أقل مما كانت فى الماضى. وكان على الملك أن يناضل طويلاً لكى يخضعهم ويلزمهم بالنظام . وعلى العموم كانت نتائج حرب الأسر الحاكمة وتدفق الجيوش الأجنبية فى قشتالة هى انهيار قوة المملكة، التى كانت تقود الحرب ضد العرب فى إسبانيا ، مؤقتا. ولم يحدث حتى وقت إتحادها مع أرغونة تحت حكم إيزابيلا وفرديناند أن بدأت المملكة تظهر أنها أفاقت من سوء الأحوال التى حلت بها فى القرن الرابع عشر، نتيجة المنافسة على العرش بين ثلاثة رجال.

ومما يدعو للسخرية أن عوامل مشابهة إلى حد كبير للعوامل التى تسببت فى تدمير قشتالة وخرابها كانت هى العوامل السرية التى أدت إلى رخاء أرغونة وازدهارها فى نفس الفترة تقريبا. ففى حرب أرغونة ضد آل أنجو فى نابولى ، والتى أعقبت ثورة صلوات المساء فى صقلية، وجدت الكثير من شركات الجنود التى تم تجنيدها فى قطالونيا عملاً لها. وعندما انسحبت أرغونة نفسها من الحرب، ظلت هذه المجموعات من الجنود فى خدمة فردريك ، الإبن الأصغر فى الأسرة الملكية الأرغونية الذى صار ملكًا على صقلية. وعندما عقد اتفاق السلام أخيرا فى سنة ١٣٠٢م مع شارل الثانى أنجو بمقتضى معاهدة كالتابلونا Caltabellona ، وجدوا لطاقتهم مخرجًا فى خدمة أول الأباطرة البيزنطيين، ثم فى خدمة دوق أثينا . وانتهى الأمر باجتياح دوقيته وأخذها لأنفسهم وجعلوا من المورة الفرنجية مؤونة لصقلية الأرغونية، وهكذا، ونتيجة للمجهودات المستقلة لأولئك الجنود، وجدت أرغونة نفسها بؤرة لاتحاد يجمع عدة أقاليم بحر متوسطية. وقيض لها أن تلعب دوراً أكثر أهمية فى سياسات شرق المتوسط من دور أية قوى أوروبية أخرى . كما بدأ تجارها من برشلونة يلعبون دوراً هامًا فى تجارة البحر

المتوسط: وأسسوا مراكز تجارية فى مسينا بصقلية، ومودون ببلاد اليونان وفى الاسكندرية وموانى بلاد الشام. وصارت البلاد أكثر ثراء، وصار لحكامها قوة يحسب حسابها . ومن المثير أن الضعف الأساسى لهذه «الإمبراطورية» الأرغونية قد برز من ثنايا الطريقة التى تأسست بها. ولأن حكومات الأقاليم المكونة لها ظهرت إلى الوجود نتيجة لجهود الجنود الأرغونيين المتنافرة فإن هذه الحكومات بقيت مستقلة غير متناسقة. واستولى آل أكيايفولى Acciaivoli فى نابولى على أثينا سنة ١٣٨٦م. وحتى فى زمن ألفونسو الكبير، الذى ضم نابولى إلى ممتلكاته الأخرى سنة ١٤٤٣م، ظل التنسيق بين الحكومة فى إسبانيا ونابولى قاصراً. ولم يكن توسع أرغونة توسعًا وطنيًا حقا: إذ كانت «إمبراطوريتها» بناء هزيلاً نتيجة المغامرات العسكرية الناجحة بالصدفة. وعلى الرغم من أن نتائج هذا المشروع كانت هامة، فإنها كانت السبب دائما فى غياب الأمن السياسى. وقد ظهر هذا بسرعة فى حالة قشتالة ؛ ولكنه لم يتضح بنفس السرعة فى حالة أرغونة، إلا أنه بات واضحًا بمجرد أن تعرضت سيطرتها فى عالم البحر المتوسط للضغط.

* * *

وفى إيطاليا القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر كانت نشاطات الجنود الأحرار أكثر أهمية حتى مما كانت فى إسبانيا . ففى بداية هذه الفترة تمزقت البلاد كلها بالحروب الداخلية، التى لم تستطع الجيوش الهاوية لكوميونات المدن والنبلاء المحليين أن تكسبها بصفة نهائية . ووفر هذا جواً مثاليا للمغامرات العسكرية. ففى منتصف القرن الرابع عشر نجد المؤرخات الإيطالية مليئة بأعمال عصابات الجنود المرتزقة الألمان، الذين ظهروا بإيطاليا مثل عصابة الكونت فيرنو أمير أورسلينجن . كما كانت هناك أيضا مجموعات محلية من الجنود، مثل جماعة فراموريالى الذى ساعد كولادى رينزو على أن يعيد منصب المجلس التريبيونى القديم لروما سنة ١٣٥٤م، ثم أعدم فيما بعد. وفى السنوات التى أعقبت ذلك مباشرة تضخم عدد الجنود الأحرار فى إيطاليا تضخمًا هائلاً بتدفق الشركات الحرة من جنوب فرنسا إبان الحرب الإنجليزية الفرنسية. وقد جلب الأمراء الفرنسيون المغامرون فى إيطاليا، مثل لويس أنجو، مزيداً من الرجال من نفس النوع فى جيوشهم . وكان القادة من أمثال جون هوكوود من إنجلترا، وبرناردون دى لاسال من لانجدوك ، قد اختلطوا بالقادة الألمان والقادة الإيطاليين المحليين، وعلموهم شيئا من مهاراتهم ووحشيتهم فى الوقت نفسه. وكان على إيطاليا أن تتعلم، مثلما تعلمت فرنسا، مدى الخطر الذى يمثله رجال يحاربون فى سبيل أى واحد يدفع لهم، وإذا لم

يدفع لهم أحد يعيشون على نهب البلاد حتى يدفع لهم أحد لكى يرحلوا. كان لأعداد هؤلاء الجنود الذين عرفوا باسم condottiers فى إيطاليا ومهارتهم الاحترافية ، تأثير ثورى على حروب المدن الإيطالية وأحزابها. ولم يكن ممكنًا لأحد سوى أغنى المدن وأقواها أن يستخدم القوات على النطاق الواسع . وبالإضافة إلى ذلك كانت الحكومات الجمهورية فى القوميونات غير منظمة إلى درجة أنه لم يكن بوسعها توجيه جهود مثل هذه الجيوش المستقلة الضخمة . وكانت نتائج هذه الحقائق مزدوجة ، فقد بدأت المدن الكبرى، مثل فلورنسا وميلانو والبندقية، بمساعدة المرتزقة «الكوندوتيرى condottiere»، تبتلع الإمارات الصغيرة المجاورة وتضمها إلى أملاكها . وداخل الكوميونات انهارت المؤسسات الجمهورية تحت ضغط الحرب فى تلك الأثناء. وكان الاستبداد دائما بمثابة الحل المؤقت لمشكلة توجيه الطاقات فى وقت الأزمات؛ ولكنه صار أكثر رسوخا فى ظل الظروف الجديدة، لأن أحداً ، لم يكن يستطيع توجيه سياسة المدينة بشكل واضح متسق إلا إذا كان حاكمًا فرداً، ولاسيما إذا كان أميراً من أسرة تتوارث الحكم. وفى بعض المدن صار «الكوندوتيرى» أنفسهم طغاة؛ وفى بعض المدن الأخرى ، صار الطغاة كوندوتيرى وحافظوا على استقلال دويلتهم بتأجير جيوشهم إلى جيرانهم الأقوياء.

وكان لسلطة الطغاة فى إيطاليا ظل من الشرعية على الأقل. وقد حصل بعض الطغاة على هذه المسحة من الشرعية عن طريق منحة بالإنابة سواء من البابا أو الإمبراطور ، مثلما فعل فيكونت ميلانو الذى أقامه الإمبراطور وينسلاس Wenceslas فى الدوقية سنة ١٣٩٥م وحصل الآخرون عليها عندما منحهم رعاياهم ومواطنو مدنهم هذه السلطة، مثلما فعل آل مديتشى فى فلورنسا فى نهاية الأمر. والحقيقة أن مفتاح سلطة الطغيان كان هو نفسه ذات المفتاح دائما ، أى القدرة على الدفع للقوات والسيطرة عليها، وكذلك القدرة على توجيه السياسة . وكان هذا هو سر كوزيمو دى ميدتشى (١٣٨٩-١٤٦٤م) فى فلورنسا الذى أدار دبلوماسيتها وقواتها من خلال ثروته الهائلة، بدون أن يشغل حتى منصبًا رسميًا فى حكومة المدينة. وفى نهاية الأمر وقعت ميلانو تحت حكم واحد من المرتزقة (الكوندوتيرى) هو فرانشيسكو سفورزا (١٤٠١-١٤٦٦م)، الذى خدم الفيكونتية جيداً وتزوج إبنة آخر دوق منهم. هذان مجرد مثالين ربما يبسطان الصورة تبسيطًا زائفًا . إذ أن صعود وسقوط الطغاة فى المدن قصة معقدة بشكل لانهائى ، لعبتِ فيها المنافسات المحلية العائلية، وتقلبات المرتزقة الذين كان الأعداء قد عرضوا عليهم شروطًا أفضل للخدمة، والتدخل الأجنبى - كلها لعبت دوراً فى القصة. كما كانت الأحوال المضطربة فى الأراضى البابوية أثناء الإنشقاق العظيم عاملاً مربكًا آخر فى تاريخ يمور بالفوضى ، وكان تاريخًا شخصيا ومعقدا بحيث كان من المستحيل تتبعه فى بعض الأحيان.

وفى مرتين خلال فترة الإنشقاق ظهر الحكام على درجة كبيرة من القوة بحيث بدأ وكأن قوتهم العسكرية يمكن أن تجتاح إيطاليا كلها. وبحلول سنة ١٤٠٢م كان جيانجلياتزو، فيسكونت ميلانو ، قد أخضع لمبارديا كلها لسيطرته، ولو أنه تمكن من أخذ فلورنسا لكانت أقاليم وسط إيطاليا كلها قد باتت مفتوحة بلا دفاع أمام الكوندوتيرى الميلانيين. وقد استولى لاديسلاس ملك نابولى بعد عشر سنوات على روما وحكم فى أملاك البابوية حتى حدود أملاك فلورنسا، وقيل صراحة أنه كان يخطط «إلى استعياد إيطاليا كلها». وجاء الموت المفاجىء ليخطف كلاً من الرجلين فى قمة نجاحهما؛ إذ مات جيانجلياتزو سنة ١٤٠٢م ومات لاديسلاس سنة ١٤١٤م . وانهارت جيوش الكوندوتيرى التى حققا بها غزواتهما بمجرد موتهما. ومن غمار الفوضى التى سادت السنوات الثلاثين التالية برز نوع من التوازن بين خمس قوى كبرى. كانت هى مدينة البندقية ومدينة ميلانو فى الشمال، ومدينة فلورنسا فى تسكانيا ، وفى الجنوب كانت البابوية وأملاكها، ومملكة نابولى (التى أعيد توحيدها سنة ١٤٤٣ مع جزيرة صقلية تحت حكم ألفونسو ملك أرغونة) . وبالنسبة للعلاقات الخارجية كان ثمة فارق بسيط فى طبيعة كل من هذه الدويلات ؛ إذ كانت تعتمد على الأموال وعلى القوة العسكرية (أو البحرية) التى يمكن أن تشتريها. وكان على مدن إيطاليا، مثل المدن الكبرى بشمال أوروبا، أن تشكل مراكز علمانية مستقلة ذاتيا، تستند على الرخاء والقوة العسكرية المحلية.

وإذ تأمل مكيافيللى تاريخ الدويلات الإيطالية فى هذه الفترة، أوضح إن نقطة الضعف الرئيسية فى هذه الدويلات تكمن فى اعتمادها على المرتزقة الذين لايمكن الاعتماد عليهم . ومن المؤكد أن هذا كان أحد الأسباب فى أن الانتصارات، مثل تلك التى أحرزها جيانجلياتزو ولاديساس، الذين سعيا إلى اجتياح شبه الجزيرة الإيطالية، أو جزء كبير منها، كانت انتصارات عابرة. ومن المؤكد أيضا أن الكوندوتيرى لم يكونوا قادرين على مواجهة جيش ملك فرنسا عندما قام بغزو إيطاليا فى أيام ميكافيللى. وفى الوقت نفسه كان لأولئك الجنود وأسلوب حياتهم تأثير شامل فى إيطاليا حيث صار وجودهم أحد الملامح الأساسية فى المشهد الاجتماعى والسياسى. إذ عاش زعماؤهم مثل النبلاء واكتسبوا عاداتهم وسلوكياتهم ، فقد كان لدى جاكوبى سفورزا والد فرنشيسكو الذى لم يكن أبداً أكثر من جندى مرتزق ، كتب مترجمة من اليونانية واللاتينية يشغل بها وقت فراغه . وبدورهم علم الكوندوتيرى حكام إيطاليا أن يشاركوهم ذوقهم فى الفروسية والمبارزات والمباريات. وفوق هذا كله أدت نشاطاتهم إلى جعل الظروف السياسية تنافسية وغير آمنة إطلاقًا . ومن خلال هذا كله تمت صياغة فكر الإيطاليين ومواقفهم فى عصر النهضة . ولكن بالنسبة لتجربة إيطاليا فى أيام الكوندوتيرى لم

يستطع مكيافيللي أبداً أن يرى فن الحكم باعتباره نضالاً للإنسان ضد الحظ ؛ ولم يكن المهندسون المعماريون في عصر النهضة الباكر ليستغرقوا إلى هذه الحد في المتطلبات العسكرية للتصميم .

* * *

ويكشف تاريخ إيطاليا وقشتالة كيف فاضت الحرب الإنجليزية- الفرنسية جنوبا وغربا فيما وراء حدود فرنسا، وكانت نتائجها وتداعياتها النهائية بعيدة تمامًا عن هذه الحرب. أما تاريخ برجندي فيكشف كيف أن شيئا ما من نفس النمط قد حدث أيضا في الشرق . بيد أن نموذج الأحداث هنا مختلف قليلا، كما كانت السيطرة عليه أفضل . إذ أن الأزمة المطولة ، التي هزّت ولاء كثير جداً من المقاطعات للملكية الفرنسية، هي التي سببت تداعي الأحداث في برجندي . ذلك أنها كانت بمثابة الفاتحة الأساسية للسياسة الإقليمية والأسرية الناجحة التي تولاها أربعة دوقات ، متتالين، من آل فالوا . فمن خلال ضم سلسلة من الإمارات الإقطاعية الصغيرة خارج المملكة الفرنسية في البلاد الواطئة وفي أراضي الراين الإمبراطورية، جعلوا من برجندي دوقية وراثية أوشكت في نهاية الأمر على أن تكون قوة مستقلة .

كان أول من ابتدع سياسة التوسع شرقا لبرجندي هو فيليب الجسور (١٣٦٣ - ١٤٠٤م)، الذي كان أول الدوقات من آل فالوا ، وكان هو أيضا كونت الفلاندرز بحق زوجته . ففي عهده تم ضم لوكسمبورج عن طريق الزواج، وليمبورج عن طريق التنازل ، كما استقر عرش برينت على ذرية زوجته . أما ابنه «جون الذي لايعرف الخوف» (١٤٠٤ - ١٤١٩) فقد استمر على هذه السياسة وضمن زواج وريثة فينولت وهولندا من داخل عائلته . وكانت حاجته إلى الاحتفاظ بنفوذ قوي في حكومة فرنسا ، لكي يزيد من نطاق دبلوماسية دوقيته ، هي السبب وراء صراعه المرير ضد آل أرمنياك في عهد شارل السادس، كما كانت سببا في تحالفه مع هنري الخامس والإنجليز . وكان قادرا في خضم الحروب الأهلية التي سادت تلك الفترة ، أن يجعل من نفسه رجلاً قويا في فرنسا ، ولكنه كان مستقلاً عنها من الناحية الفعلية . ولم تكن السياسة الإقليمية البرجندية فقط ، في عهد جون ، هي التي بدأت تستقل بشكل ملحوظ عن المصالح الفرنسية. إذ أن صراعاته ضد آل أرمنياك جمعت حوله عدداً من القادة العسكريين الذين بدأت عصاباتهم تشكل نواة جيش برجندي مستقل . وهناك نلحظ النموذج الذي صار مألوفًا آنذاك يكرر نفسه ، أي عندما يقوم أمير كبير بمتابعة طموحات أسرته ويجتذب إليه الرجال الذين يتمتعون بالقوة والموهبة .

وقد ساعد تقسيم فرنسا ، فى السنوات التى أعقبت معاهدة تروى ، ابن جون وخليفته «فيليب الطيب» ، على أن يباعد أكثر بين مصالح برجندى ومصالح فرنسا . وكان من الحكمة بحيث رأى أن موارد دوقيته لن تكفى للالتزام الكامل فى الحرب الإنجليزية - الفرنسية التى حاول أن يبتعد عنها قدر الإمكان ؛ والحقيقة أنه ابتعد عنها بشكل يكاد يكون تاماً بعد انسحابه من التحالف مع إنجلترا سنة ١٤٣٣م . وقد أحرزت له شركاته المحاربة عدة انتصارات مفيدة فى حروب صغيرة كان عليه أن يشنها لتأكيد الحصول على عرش برينت وهولنده ، كما ساعدت على دعم قضية تابعه أنطوان دى فودمون الذى كان يحارب للجلوس على عرش دوقية اللوورين . وقد أدى السلام النسبى الذى تمتعت به أملاك فيليب إلى ازدهارها ، كما جعل حاكمها غنياً . والحقيقة أنه ربما بقيت برجندى مستقلة تمامًا لوقت طويل بعد عهده ، لو لم يحاول آخر دوق من آل فالوا ، شارل الجسور ، أن يضغط بطموحاته إلى حدود تفوق قدراته . ذلك أن محاولاته لمحاربة الفرنسيين والسويسريين وفى اللورين أرهقت الموارد المالية لممتلكاته بالضرائب ، كما ظهر عجز قواته العسكرية . وفى سنة ١٤٧٧م ، وبعد أن كان قد خسر جيشين فى السنتين الأخيرتين ، اشتبك مع السويسريين فى نانسى بقوات صغيرة ومات فى الهزيمة النكراء التى لحقت بجيوشه .

ولم تكن الأراضى البرجندية تتمتع بقدر من الوحدة يكفى للحفاظ على تماسكها الداخلى بعد تلك الكارثة . وفى النهاية تم تقسيمها بين لويس الحادى عشر ملك فرنسا وماكسميليان ملك النمسا الذى تزوج وريثة شارل ، مارى . وكشف مصير هذه الأراضى كيف أن القوة البرجندية قد قامت على أسس غير آمنة ، على الرغم من أنها بدت قوة كبرى أثناء انشغال فرنسا وإنجلترا بمواصلة حربهما حتى النهاية المريرة . إذ كانت عبارة عن سلسلة من الإمارات الإقطاعية المتجاورة جمعتها الدبلوماسية لا المصلحة الحقيقية ، ولم يكن فى استطاعتها أن تنصهر لتكون مملكة حقيقية : كما أن تعدد العادات واللغات المحلية ، مما جعل تكوين حكومة واحدة لها مستحيلا ، هو الذى جعل الأقاليم المكونة لبرجندى متباعدة تماما . وهنا توضح قصة برجندى السبب فى أن سياسات الأسر الحاكمة فى أواخر العصور الوسطى كانت على هذا القدر من الفوضى والاضطراب . فالإمارات الإقطاعية التى ارتبطت ببعضها من خلال ترتيبات الأسرة الحاكمة ، والتى كان الحفاظ عليها يتم عن طريق القوة العسكرية المؤقتة فى أحسن الأحوال ، كان يمكن أن تشكل قوة تبدو قادرة للوهلة الأولى، ولكنها كانت ضعيفة فى حقيقتها ، لأنها لم تكن متماسكة سياسيًا أو عسكريًا . وهى حالة مضطربة تلك التى تتفكك فيها دولة ، ظل الناس يحسبونها إحدى القوى الكبرى فى أوروبا على مدى أربعين سنة ،

بمجرد موت أميرها . وليس من المدهش أن «الحظ» كان صورة غالبًا ما لجأ إليها الكتاب فى القرن الخامس عشر : ففى ظل انعدام الأمن فى تلك العصور ، كان من الممكن أن تدور عجلة ربة الحظ دورة كاملة وسريعة .

* * *

وبسبب هذا كله كان لبرجندى تحت حكم أسرة فالوا تأثير هام على التاريخ الأوروبى بحيث لايعتبر مجرد ظاهرة سياسية هامشية . فمن خلال الحياة فى بلاط الدوق ، تركت برجندى أثراً قويًا على الثقافة والعادات الأوروبية . فقد كان المستوى الذى حددته للاحتفالات تأثيره الفعال فى قصر فرساى حتى عصر لويس الرابع عشر . وكان هناك ما هو أكثر من الاحتفالات على الرغم من أن الكثير من أهميته يمكن رصده من خلال الاحتفالات . وهذه نقطة تستحق أن نقف عندها قليلاً ، لأنها تكشف عن الكيفية التى ساعدت بها الحروب والمنافسات بين الأسر الحاكمة، فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر، على خلق مناخ جديد، ليس سياسيا واجتماعيًا فحسب ، وإنما ثقافيًا أيضا .

ويعكس الجو السائد فى البلاط البرجندى أيام عزه ، أى فى عهد فيليب الطيب والسنوات الباكرة من عهد شارل الجسور ، المشاغل السياسية والعسكرية لأولئك الدوقات بشكل مباشر. والحقيقة أن هذه الاهتمامات والمشاكل تبرهن على أنها كانت بالفعل أمراً لازمًا على نحو ما نرى فى تاريخ منظمة «الفروة الذهبية» الى أنشأها الدوق فيليب على غرار منظمة الجارتر الإنجليزية . فمن الناحية السياسية كان الارتباط بها وسيلة لربط النبلاء فى الأقاليم التى تم الاستيلاء عليها حديثا بمصالح الدوق ، كما كان وسيلة لتوثيق التحالف مع الحكام الأجانب . وفى الوقت نفسه كانت هذه المنظمة تعبيراً عن التطلعات والتقاليد العسكرية للقادة الذين خدموا الدوق من خلال نظام الفروسية التى كانت قوانينها مصممة للحفاظ عليها ، كما كانت اجتماعاتها زينة لهذا النظام . كما أن نظام الفروسية هذا وجد التعبير عن نفسه فى مباريات البلاط الكبرى التى كان الدوقات يقيمونها ، والتى كان يتم فيها استخدام كافة الوسائل للربط بين نكهة الخيال وأريج الفخامة . وكانت الأماكن التي تقام بها هذه المباريات تُطَهر مرة أخرى بشكل خيالى احتفالاً بالمناسبة : وهكذا كانت هناك المباراة عند «شجرة شارلمان» وعند «بئر البكاء» وعند «ممر التفاحة الذهبية» . وكانت تنفق مبالغ طائلة على هذه التسليات ؛ وكان النبلاء يفدون من كل أنحاء أوروبا لكى يشاركوا فيها ، كما كانت مؤرخات بلاط الدوقية تسهب فى وصفها بدقة .

هذا الاستعراض المقصود للقيم العسكرية والفروسية له دلالته الهامة . فهو يذكرنا مرة أخرى أن رجال السلاح يسعون فقط إلى الكسب عندما يخدمون أمراء الأسر الحاكمة ، ولكنهم كانوا يسعون أيضا إلى المجد . فقد كان حمل السلاح يعد أمراً نبيلاً ؛ إذ أن حياة الجندية بحد ذاتها كانت تعنى أن «تحيا حياة نبيلة» . وكان النبلاء والجنود يرون فى الخدمة التى يؤدونها لأمراء من أمثال فيليب دوق برجندى شيئا مساويًا لما كان أسلافهم يرون فى الحملات الصليبية، أى يرون فيها جهداً لنصرة الحق، ويمكن من خلاله أن يربحوا الشهرة والثروة . بل إن البعض تحدثوا عن فرسان منظمة الدوق فيليب باعتبارهم «أتباعًا لديانة الفروة الذهبية» ، كما لو كانت منظمة رهبانية مثلما كان الفرسان الداوية زمن الحروب الصليبية . ولاينبغى لنا بطبيعة الحال أن نذهب بعيداً فى هذه المشابهة بينهما . فقد كانت طقوس الفروسية المعقدة فى بلاط برجندى فى جزء منها جهداً فى اللاوعى لحجب الإدراك بأن قضايا الدوق كانت ذات وضعية أخلاقية أقل كثيرا من الحملة الصليبية . وعلى أية حال ، كان الجهد ناجحا إلي حد كبير . والحقيقة أن الأسلوب الفخم لبلاط الدوق قد ربط بين المجد والعمل فى خدمته . وقد أضفى التظاهر بهذا الأسلوب جاذبية مباشرة على كبرياء هذه الطبقة وعلى قيم النبلاء الراسخة، التى عملت على تركيز وعيهم الإجتماعى بذاتهم وتقاليدهم العسكرية حول الخدمة والولاء لعائلة الدوق . وهنا يمكننا أن نرى بداية عملية تحويل القيم التى ارتبطت ذات مرة بالحملة الصليبية لترتبط بأهداف ذات طبيعة مختلفة تماما .

ولم يجد أسلوب البلاط البرجندى التعبير عن نفسه فى نظام الفروسية فقط . إذ كان الدوقات حماة كباراً للأدب والفنون . والذكريات الدالة على أسلوبهم الفخم فى الحياة يمكن أن نجدها فى رسومات فنانين من أمثال جان وهيوبرت فان إيك ، وفى التفاصيل الثرية للأثواب الموشاة بخيوط الذهب والفضة ، وفى تفاصيل الرفاهية الداخلية فى الصور التى نفذوها للدوقات الذين أسبغوا عليهم الحماية والرعاية . وكانت لدى أسرة فان إيك التى اشتغل أفرادها رسامين فى البلاط عمل رتيب كثير ليقوموا به (ولكن لم يبق من أعمالهم سوى ما يستحق التسجيل) مثل تزيين حاملات السلاح فى المباريات ، والمساعدة فى تجهيز لوحات حية Tableaux - Vivants لاحتفالات البلاط . وبالنسبة لأمثال هؤلاء الناس تكون غريزة تقديم الجمال فى التفاصيل الدقيقة للثوب أو التصميم أمراً طبيعيًا ، حتى عندما يكون الموضوع الذى يرسمونه موضوعًا دينيًا . وعملهم شاهد على الأسلوب الذى كانت تقوم عليه بلاطات الأمراء العلمانيين فى القرن الخامس عشر ، التى كانت تضع نمط التعبير الفنى ومستوياته ، مثلما أرست القيم الإجتماعية والأخلاقية للطبقة الأرستقراطية .

ولم تكن صدفة أن أسرة فان إيك كانت معاصرة لأول جيل عظيم من رسامى عصر النهضة بإيطاليا . فهناك أيضا أرست بلاطات الحكام مستوى أسلوب الحياة والثقافة . ففى جو المنافسات السياسية المحمومة فى إيطاليا فى ذلك العصر الذى حكم فيه الطغاة وساد فيه الجنود المرتزقة (الكوندوتيرى) ، كان العرض السخى لرعاية الفنون تعبيراً عن تطلعات أولئك الذين كانوا يسعون إلى الحياة «بأسلوب نبيل» ، كما ربط بين المجد وخدمة الحكام الأفراد . وكانت الطرز فى إيطاليا مختلفة عن الطرز فى الشمال ، طبعا ، خاصة فيما يتعلق بولع الإيطاليين بالقديم . إذ أن أحداً فى برجندى لم يسع ، مثلما فعل بيكو دى ميراندولا ، إلى التوغل فى أسرار «لاهوت» الأفلاطونية الجديدة ، أو أن يُدخل البهجة على من يتولون رعايتهم ، مثلما فعل بوتيسللى ، عندما نسج قصصًا رمزية أخلاقية allegories مستمدة من الأساطير الإغريقية فى موضوعات رسوماتهم . والفروق بين الشمال والجنوب التى تنعكس هنا هامة ولكن ما هو مشترك بينهما له دلالته التاريخية . وكما نرى ، فإن نفس القوى تكمن وراء الدور الغالب الذى لعبته بلاطات الأمراء فى وضع مستويات الثقافة وأنماطها فى كل من المنطقتين .

ويؤدى بنا هذا إلى استنتاج هام . إذ أنه يكشف كيف أن الظروف السياسية التنافسية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، والتى ساهمت فى توجيه القوة البشرية العسكرية الزائدة ، قد أدت أيضا إلى ما هو اكثر من ذلك . ذلك أن المنافسات بين الأسر الحاكمة الكبيرة ولدت حروبا كثيرة ، كانت سببًا فى كثير من البؤس والكساد على نحو ما يكشف تاريخ قشتالة . ومع هذا فإنها زرعت قوى إبداعية خلاَّقة مثلما زرعت قوى تدميرية . وكان السبب فى هذا راجعًا إلى حد كبير لحقيقة أنه على الرغم من أن البسالة العسكرية كانت إحدى الخصائص والمميزات التى كانت تفتخر بها الأرستقراطية كثيرا أواخر العصور الوسطى ، فإنها لم تكن الأرضية الوحيدة التى يقوم عليها احترام هذه الطبقة لذاتها . إذ كان أبناء هذه الطبقة يفخرون أيضا بمستوى معيشتهم الراقى ، واستغلالهم لوقت الفراغ وتقديرهم للثقافة ، كما كانوا يفخرون بكل ما يجعل أسلوبهم فى الحياة أسلوبا نبيلاً متميزاً . وهكذا أدت المنافسة السياسية إلى توجيه سلسلة كاملة من الطاقات إلى جانب الطاقة العسكرية ، وفى أثناء هذه العملية أحدثت تغييرات حاسمة فى الرؤية العامّة . لقد أمست المنافسة ، فى خضم الحروب ، هى دم الحياة للإيديولوجية الأرستقراطية والعسكرية على السواء ، كما صارت ضرورية

لحركات جديدة فى الفكر والأدب . وفى ظل هذه الظروف لم يكن ممكنًا أن تجد الدعوة لحمل السلاح فى سبيل العالم المسيحى ، والإتحاد فى حملة صليبية ، أية استجابة . كذلك فإن مثال الوحدة المسيحية الذى كان يلهم الكتاب أيام دانتى وتوماس أكويناس لم يعد كذلك بالنسبة لأولئك الذين يسعون للحصول على الحماية من بلاطات الأرستقراطية لأنه صار خارجًا عن سياق الظروف المعاصرة . لقد كانت هناك أوروبا جديدة بازغة ، لم تكن فيها الحدود هى فقط التى اختلفت عن حدود الماضى ؛ بل إن الإطار الكلى للفكر السياسى والولاءات والانتماءات، كان آخذا فى التحول والتغير .

١٩- انقلاب فى الكنيسة : أفينون
الانشقاق الكبير والمجامـع الكنسيـة

خلال القرن ونصف القرن الذى شهد نشوب الحرب الكبرى بين فرنسا وإنجلترا كانت كنيسة الغرب الأوروبى تمر بأزمة مدبرة للتحكم فى شئونها . وفى نهاية الأزمة كانت مكانة كنيسة روما وسلطتها الدينية قد نالها ضرر لايمكن إصلاحه. ولم تكن ثمة قوة باقية فى النظام الكنسى يمكنها أن تحافظ على العقيدة الكاثوليكية على مستوى القارة الأوروبية فى مواجهة الضغوط التى تولدت عن حركة الإصلاح الدينى. وعلى أية حال، فإن كان كل شىء يبدو هادئًا على السطح فى بداية هذه الفترة: أما علامات المخاطر المتربصة على الطريق فكانت قد بدأت فى الظهور لتوها. وقد تطورت الأزمة ببطء بعد بدايتها الدرامية مع انفجار الإنشقاق الكبير سنة ١٣٧٨م. وقصة هذه الأزمة غاية فى الطول والتعقيد لدرجة أننا ربما نفهمها على النحو الأحسن إذا قسمناها إلى أجزاء. وفى الجزء الأول سوف نعرض للكنيسة وأحوالها فى الفترة السابقة على الإنشقاق. وفى الجزء الثانى يجب أن ندرس التأثير الناتج عن الإنشقاق والصعوبات التى كانت فى طريق إنهائه. أما القسم الثالث فإننا سوق نتتبع فيه تاريخ المجامع العامة التى أعادت الوحدة الخارجية، وسنحاول أن نرى حقيقة ما هو كامن خلف الوحدة التى أعادتها تلك المجامع الكنسية.

١- بابوية أفينون

عندما نشبت حرب المائة عام لم يكن البابا والبلاط البابوى فى روما ، ولكن فى أفينون ، على ضفاف نهر الرون خلف حدود مملكة فرنسا آنذاك. وعندما تم انتخاب البابا كليمنت الخامس (١٣٠٥- ١٣١٤م) اختار أفينون محلاً لإقامته وهناك بدأ يبنى القصر البابوى الكبير، الذى ما يزال باقيًا ليذكر المرء بأسلوب الحياة الفخم التى ترتبط ذكرى بابوية أفينون به أساسًا. ولم يكن الهجوم الوحشى المعاصر على رفاهية أساليب «بابل الثانية» عادلة تماما. فقد حكم ستة بابوات الكنيسة الرومانية الكاثوليكية من أفينون . وكانوا جميعًا من الفرنسيين ، وكان هذا هو السبب فى أنهم لم يكونوا محبوبين من أولئك الذين لم يكونوا فرنسيين، لاسيما من الإنجليز الذين كانوا فى حرب مع فرنسا ، ومن الإيطاليين الذين شعروا أن إقامتهم فى أفينون مُزرية بالنسبة لممتلكاتهم . وكان هؤلاء الستة جميعًا رجالاً أكفاء مستقيمين ومخلصين ، يهتمون حقا بصالح العالم المسيحى. ولم يكن التجاهل غلطة بابوات أفينون الملازمة لهم وإنما كان العكس هو الصحيح. ففى الفترة التى كانت فيها المشاكل التى جابهت البابوية صعبة وقاسية بشكل خاص ، وجد البابوات أنفسهم مضطرين إلى التدخل فى الأمور غالبًا ما لم تكن فى صالح سمعة المنصب البابوى.

أما أهم ميزة وفرتها الإقامة فى أفينون للبابوية فكانت هى خلاصهم من خضم اضطرابات إيطاليا وحروبها. وكان هذا هو السبب الرئيسى فى أن البابوات بقوا هناك هذه الفترة الطويلة. إذ أن الأمن والهدوء فى وادى نهر الرون وفر لهم أيضا فرصة ذهبية لتنظيم أمورهم. وكان هذا سبب التطور الذى يعد من أهم خصائص بابوية أفينون ، التى وصلت فيها الإدارة البابوية إلى قمتها فى الكفاءة الإدارية. وأدى هذا إلى التوسع فى كافة أعمال البلاط البابوى؛ وكان ذلك التوسع أشد وضوحًا على الجانب المالى وسيطرة البابوية على ترقيات القساوسة وتعييناتهم .

ففى أفينون تم وضع نظام للسيطرة البابوية على التعيينات فى المناصب الكنسية. كما أن المجلس القضائى الإدارى البابوى طور أقساما مختلفة للنظر فى التماسات الترقيات، مع فحص حالات المرشحين، مع إعداد الشروط اللازمة لتولى المناصب ، وإقرارها وتسجيل العملية كلها. وفى كل مرحلة من مراحل هذه العملية للحصول على منصب كان لابد من دفع الرسوم للمجلس القضائى. ومن خلال هذه العملية احتكر البابوات التعيين فى المناصب الهامة مثل الأسقفيات ورئاسة الأديرة بحيث قوضت تمامًا حق الإنتخاب الذى كان للكنائس الكبرى. أما حُماة الأديرة والكنائس من العلمانيين ، سواء كانت حمايتهم رسمية أم لا ، والذين كان

النظام البابوى يغض النظر عنهم، فكانوا يقدمون أسماء الذين يرغبون فى ترقيتهم حتى «يحجز» المجلس القضائى الإدارى وظائف لهم فى حال خلو بعض المناصب. وكانت هناك منافسة حامية، مع تدخل التأثير الملكى فى أحيان كثيرة؛ ضد دعاوى أبناء عمومة الكرادلة وأعضاء البلاط البابوى ، فضلا عن الجامعات التى كانت تضغط على البابوات من أجل الترقيات لدعم العلماء فى دراساتهم. وقد أدت المنافسة إلى فيضان من القضايا المنظورة فى المحكمة البابوية، التى أضافت مكاسب المصروفات القانونية إلى المكاسب التى تحققت من الرسوم التى كانت تدفع للحصول على خطابات «الحجز» وعلى مراسيم «التعيين».

كانت الرسوم والمصروفات القانونية تمثل جزءا فقط من الأرباح التى جنتها البابوية من هذا النظام. كان البابا يزعم أن من حقه الحصول على كل العائد من الوظيفة الخالية التى يكون من حقه أن يعين فيها من يشاء. وفى السنة الأولى من التعيين كان الدخل كله يعود إليه من شاغل الوظيفة، وكان هذا الرسم يسمى عوائد السنة الأولى أو «الثمار الأولى» ، وكان إيرادها وفيراً جداً. وخلال فترة أفينون لم تصبح هذه الرسوم وحدها هى المنتظمة وإنما كانت الضرائب المفروضة على الدخول السنوية للقساوسة (وهى العشور الصليبية القديمة) قد صارت أكثر انتظاما. كما كانت تجمع مبالغ طائلة أيضا من بيع صكوك الغفران، التى كانت هى الأخرى من الأموال التى تدفع لتمويل الحروب الصليبية، ولكنها صارت آنذاك مصدراً منتظمًا من مصادر الدخل. وفى كل أسقفية كبرى فى الكنيسة ، كان يتم تعيين الجُباة البابويين، وكانوا هم الذين يتولون جباية هذه الأموال. وعادة ما كانوا يودعون هذه الأموال لدى الوكلاء المصرفيين للبابا (آل باردى Bardi فى أوائل القرن الربع عشر كانوا أبرز أولئك الوكلاء، ثم خلفهم آل ألبرتى Alberti فيما بعد) . وكان المصرفيون ينقلون الأموال إلى حيث تدعو الضرورة لنقلها. وكان جزء منها يذهب إلى أفينون للإنفاق على المقر البابوى، ولدفع نفقات البلاط البابوى، ومقار الكرادلة، ولدفع تكاليف المبانى مثل القصر البابوى. على أن جزءا أكبر كثيرا من هذه الأموال كان ينفق فى إيطاليا، على الحملات التى لم تكن تنتهى لصالح البابوات أو لاستعادة السيطرة على أراضى الممتلكات البابوية .

وربما كانت آثار السيطرة البابوية على التعيين فى الوظائف الكنسية فى صالح الكنيسة لأنها أنهت المنازعات الكثيرة العبثية التى كانت تثيرها انتخابات المراكز الأسقفية والديرية. ففى معظم الكنائس الجامعة كانت الإيرادات قد صارت وراثية تقريبًا فى العائلات المحلية النبيلة، كما كان مرشحو البابوية هم الرجال الأحسن فى الغالب «إن المسيح نفسه لم يكن ليُسمح له بالدخول فى هذه الهيئة بدون ترخيص من البابا» ، هذه هى ملاحظات

إيراسموس فى وقت لاحق حول إحدى الكاتدرائيات الألمانية. وعلى العموم كان الإشراف البابوى يميل إلى رفع المستويات وتنظيمها ، كما كان نتيجة نحو كسر قبضة الأرستقراطية المحلية العلمانية على المناصب الكنسية.

ومع هذا فقد كان من المحتم أن يثير النظام البابوى المعارضة. إذ أنه ضرب المصالح والنفوذ الراسخ لاسيما بين رجال الكنيسة أنفسهم . وغالبًا ما كان بوسع الملوك والنبلاء الأقوياء أن يمارسوا نفوذهم السياسى على البابا بحيث ينحاز إلى رجالهم، بيد أنه كان على الأساقفة ومجالس الكهنة أن يعودوا أنفسهم على فقدان الحماية فى سبيل الحصول على الوظيفة. وفضلاً عن ذلك، أفسحت سيطرة البابوية على التعيينات فى الوظائف الكنسية المجال أمام الممارسات السيئة مثل التعددية وتكرار الغياب عن العمل، لأنه لم يكن من الصعب الحصول على الإذن البابوى بتولى مختلف الوظائف الكنسية، أو العزل منها بواسطة المندوبين البابويين. كان من السهل تمامًا الحصول على هذا الإذن، أو الموافقة على الرسامة الكهنوتية، إلا إذا حصل عليها الشخص فى شبابه الباكر. أما الذين لم يكن لهم نفوذ ، والذين غالبًا ما كانوا هم الأكثر جدارة، فكان عليهم أن يرتبطوا بالحكام. وبالنسبة للقساوسة المحليين كان النظام يبدو قائمًا على أساس ترقية الأجانب . وكانوا يعرفون أيضا أنه وسيلة لأخذ مبالغ كبيرة من بلادهم لدفع نفقات الحروب فى إيطاليا، وهى حروب لم تكن تهمهم . ولم يكن زعماؤهم، من كبار الأساقفة والأساقفة قادرين على التحكم فى إساءة استخدام السلطة التى تنتج عن هذا النظام، طالما أن البابا قد وافق عليها. ومن الصعب جدا القول أن الصيحة التى انطلقت ضده، ودمغته بأنه نظام غير أمين ومسىء، كانت بلا أساس، حتى لو افترضنا أنه كان أقل تعرضا للفساد من أى نظام آخر.

وكانت المعارضة فى بعض البلاد من القوة بحيث جعلت النظام البابوى بلا فاعلية. وكان هذا هو الحال فى إنجلترا على وجه الخصوص ، حيث كان الكثيرون يشكون فى أن الأموال التى كانت تجمع إسميا لبابوية أفينون، إنما كانت تسلم فى الحقيقة لمساعدة العدو القومى، أى الفرنسيين . وقد أتاحت الشكوى التى تفشت على نطاق واسع الفرصة للملوك الإنجليز لكى يكسبوا نصيبًا من التعيين فى الوظائف الكنسية. ففى سنة ١٣٥١م أتاح «قانون التعيين فى الوظائف الكنسية Statute of Provisors» للملك أن يتدخل فى أى لحظة يسعى فيها البابا لتعيين أحد القساوسة ، ويحبذ تعيين الرجل الذى يريده. هذا القانون لم ينه العمل بنظام «التعيين» البابوى فى إنجلترا لأن الملك، لأسباب دبلوماسية ، لم يكن يفرضه بانتظام. ولكنه

ببساطة كان يبطل مفعول هذا النظام إذا لم يخضع البابا لرغبات الملك فى شئون التعيينات. وقد أدى الاستغلال من جانب سيدين ، بدلاً من سيد واحد، إلى عدم احتواء رجال الكنيسة الإنجليز ، ولكن من الأمور ذات الدلالة أن الكثيرين منهم كانوا يفضلون التدخل الملكى على التدخل البابوى. وفى سبعينيات الرابع عشر ترددت أصداء الاقتراح الخطير بأن الملك وحده هو صاحب الحق فى فرض الضرائب على الموارد الروحية للقساوسة الإنجليز. ونشبت حول هذا الموضوع مناقشات عنيفة على الورق، وفيها اتخذ العالمان البندكتيان بنهام وبولدون جانب البابوية. ورداً عليهما كتب جون ويكلف كتيبًا لصالح الملك لفت إليه الأنظار آنذاك .

أما فى ألمانيا فكانت المعارضة للتعيينات البابوية أكثر إثارة للإضطرابات . فقد لقى بعض المرشحين البابويين مقاومة قوية بحيث أنهم لم يتمكنوا من القيام بواجباتهم. وكانت السلطات العلمانية غير قادرة وغير متعاونة على السواء، ووقعت حوادث قبيحة ، إذ تم إلقاء القساوسة الثلاثة الذين قدموا من فيرزبورج لتعيين أحد المرشحين فى نهر الماين. وتعقد الموقف فى ألمانيا أكثر بسبب الصعوبات التى اعترضت العلاقات بين البابوية والإمبراطورية فى إيطاليا وأدى هذا إلى أن يصدر البابا جون الثانى والعشرون قرار الحرمان ضد الإمبراطور لويس البافارى الذى لم يكن قد تخلى عن تحالفه مع الجبللينيين فى لمبارديا . وحتى موته سنة ١٣٤٧م، كان الفريق الموالى له من القساوسة الألمان قد خرج فعلاً من نطاق كنيسة روما. كما أن بلاط لويس وفر الملجأ والملاذ لأعداء البابا من الرهبان الفرنسسكان وبينهم الفيلسوف الإنجليزى الكبير وليم أوكهام. وقد وضع أوكهام قلمه فى خدمة لويس ساعيًا إلى توضيح أن إدارة كل المصالح الدنيوية الكنسية من اختصاصات الإمبراطور، وكذلك الحكم النهائى فى كافة القضايا المتعلقة بالممتلكات الدنيوية، سواء كان الفرقاء من العلمانيين أو من رجال الكنيسة.

كان لأوكهام تأثير أبعد كثيرا من كونه مجرد مجادل معاد للبابوية. وقد فاق كل الذين سبقوه بين أساتذة الجامعات، من حيث كونه أستاذاً للمنهج المنطقى. ولم يكن يفهم لماذا ينبغى على الأفراد أن يتقبلوا مالا يمكنهم فهمه من خلال تجربة الأشياء التى يمكن وصفها وتحديدها باعتباره حقيقة. وذلك أن مناقشات المفكرين السابقين لم تصل فى تساؤلاتها إلى هذا المستوى . وكان لمنهج أوكهام المنطقى إمكانيات واضحة جلية بحيث أن روحه النقدية الفاحصة حكمت دراسات العلماء فى الجامعات فى كافة أنحاء أوروبا على مدى قرن من الزمان تقريبًا بعد مماته. وتطلع الرجال الذين درسوا بهذه الروح إلى التوصل لحلول لمشكلات معاصرة يمكن

تبريرها دون اللجوء إلى حكمة القوى الغيبية. وعلى الرغم من أن الكثيرين لم يكونوا راغبين في الهجوم على النظام الكائن مثلما فعل أوكهام، فإن الجو الثقافى الذى تولد بهذه الطريقة كان متشككا فى المزاعم القديمة عن السمو البابوى . ومع هذا فإن البعض أرادوا أن يوسعوا نطاق الهجوم ويمدوه إلى مدى أبعد، حتى بين أولئك الذين رفضوا منهج أوكهام المنطقى من أمثال ويكلف.

* * *

كانت أعمال أوكهام وويكلف وتلاميذهما قوية من الناحية الفكرية؛ بيد أنها لم تكن تجتذب القراء. إذ أن الحماسة الروحية والإنسانية التى ميزت الفرنسسكان والدومينيكان الأوائل، مثل (مثل بونا فينيرا وأكويناس) كانت غير موجودة فى هذه الأعمال. وكانت تلك خصائص يصعب وجودها فى الجامعات فى أيامهم، أو فى البلاط البابوى، أو حتى بين المتدينين فى المنظمات الرهبانية. وليست هذه علامة على أن القرن الرابع عشر كان عصراً يفتقر إلى الروحانية. ولكنها مجرد علامة على أن المرء يبحث عنها فى المكان الخطأ ، أى فى معاقلها التقليدية بين صفوف رجال الكنيسة.

ولاينبغى للمرء أن يبحث عن الروحانية فى مناصب الكنيسة العليا فى العصور الوسطى، وإنما ينبغى أن ينشدها بين القساوسة الفقراء وفى أوساط العلمانيين الذين كانوا متأثرين بالتدين الشعبى الجياش. وقد أدى هذا إلى ظهور حركة تكاد تكون جديدة فى الدين a devotio moderna كما أطلق عليها المعاصرون . ويمكن أن نلمس أبرز تعبير عنها في الجماعات التى عرفت باسم «إخوان الحياة المشتركة»، التى أسسها تلاميذ الناسك الفلمنكى جيرارد جروت (١٣٤٠-١٣٨٤م) .

وقد جمع جروت حوله فى بيته طائفة صغيرة من القساوسة والمدرسين الصغار ؛ وكانوا يعولون أنفسهم سويًا بمساعدة طلاب المدارس والكتاب الآخرين، عن طريق نسخ الكتب. وكانت جماعة جيرارد الصغيرة فى منزله نموذجًا للعديد من «بيوت الإخوان» الصغيرة، التى تأسست فى المدن الصغيرة بالبلاد الواطئة وألمانيا ، والتى كان أعضاؤها فى معظمهم من العلمانيين المتدينين . وعاشوا حياة جماعية، وفقًا لقاعدة أو دستور، ولكنهم لم يتحولوا إلى إطار رسمى «**ليست المواثيق بين الأخوان هى التى تجعل الأعضاء يشاركون العبادات والصوم، ويشتركون فى النظام والصلاة: إنما إتحادهم فى الحب الأخوى**» هكذا كتب جون ويسيل عن إخوان زوول Zwolle. ولم يكن لدى جروت وأتباعه رغبة فى وظائف الكنيسة أو نفوذها ولم

يحصلوا عليها. ومع هذا، كان لهم نفوذ شامل بين العلمانيين بفضل المثال الذى قدموه وبفضل كتاباتهم التأملية، ومن خلال نشاطهم كمدرسين وأساتذة، وهو الأهم. كان هذا هو السبب فى أن جون فوس كان قادراً على أن يسمى جروت **«حوارى هذا البلد الذى أشعل نيران الدين فى قلوب الناس الباردة»**.

كان فى الديانة الشخصية للإخوان عنصر نفور من ثروات الكنيسة المعاصرة وإساءة استخدامها للسلطة. **«ليست للقسيس سلطة جعل الرجل محل رضاء الرب»**، هكذا كتب أحد الإخوان. هذه الثورة تبدو أكثر وضوحًا فى مواعظ المبشرين الشعبيين من أمثال توماس ستيتنى وميليك كروميرتيز اللذين كانا يتركان تأثيرا بين العلمانيين فى بوهيميا مشابها لتأثير جروت فى الفلاندرز، وفى نفس الوقت تقريبا، ومن الأمور ذات الدلالة أن ستيتنى كان رجلاً علمانيا لفترة طويلة، وكتب مقالاته الدينية بلغته المحلية، أى اللغة التشيكية. أما الزاهدان الألمانيان إيكهارد وتاولر، فقد كتبا أيضا باللغة المحلية؛ وكذلك فعل ريتشارد رول الناسك فى إنجلترا ووليم لانجلاند الذى كتب القصيدة الصوفية الشهيرة المعروفة Piers Plowman هذا الاستخدام للغة المحلية علامة على نمو التعليم بين العلمانيين، وهو الذى أدى بدوره إلى نمو روح الوعى بالذات والتدين بين العلمانيين . كما أنه ساعد على ظهور روح معاداة رجال الكنيسة التى غالبا ما كانت مصحوبة بالتدين بشكل أكثر قوة ؛ وكانت السخرية الحاذقة من أساليب القساوسة تجد لها الكثيرين من القراء. هذا الإتجاه المعادى ضد السلطات الكنسية فى حركات جروت وستيتنى جلب عليهما سويا المتاعب مع سلطات الكنيسة . وكان الموقف الدينى لأتباعهما يذكر الكنيسة بالمذاهب المنشقة الشعبية القديمة، مثل مذهب بطرس والدو، بحيث لم يكن بوسع بابوية أفينون أن تراه سوى بعيون الشك والإرتياب . ولايستطيع المرء أن يقول إن البابوات أخطأوا فى هذا؛ إذ وجدت البروتستانتية، فيما بعد ، كثيرين اعتنقوها على الفور، فى هذه البلاد التى أرسى فيها الزهد الشعبى فى القرن الرابع عشر موقف العلمانيين الدينى. وهكذا أضاف تيار المشاعر الدينية القوى بين العلمانيين إلى مشكلات حكام الكنيسة بدلاً من أن يقلل منها. ومع مرور الوقت كانت هذه المشكلات تزداد خطورة .

كان من الواضح أن البابوية لابد أن تعود إلى روما إن عاجلاً أو آجلاً؛ فلم يكن بوسعها أن تحصل على قدر كبير من الاحترام وهى فى أفينون خارج حدود فرنسا . ولكن جعل روما مقراً آمنًا كان يعنى بالنسبة للبابوات أن يخوضوا غمار الحروب فى إيطاليا، وهو ما كان يعنى أن يطلبوا المزيد من المال، وأن يجهدوا النظام الذى كان بالفعل قد سبب معارضة أدت إلى القضاء

على فعالية البابوية . وهكذا كان على البابوات أن يصارعوا من أجل الحفاظ على سيطرتهم على الحكومة البابوية، فى الوقت الذى كانت تشير فيه الدلائل إلى ضعف سيطرتهم على أرواح الناس. وكان الإنقسام فى المصالح وفى ردود الأفعال الناتجة عن هذا الموقف فى فترة بابوية أفينون قد أنتج ضغوطا لم تظهر آثارها الكاملة سوى بعد وقت طويل. وبدأ يظهر أن هناك فارقًا بين رؤية الكنسيين فى كل من فرنسا وإيطاليا ، حيث كان الولاء للبابوات فى أقوى صوره، ورؤية رجال الكنيسة فى إنجلترا وألمانيا حيث كان التدين الشعبى يتحول عن الوحدة مع كنيسة روما ، إلى الوحدة الداخلية فى ظل الحب والروح والأخوية. وهنا ظهرت ملامح الجغرافيا الدينية لحركة الإصلاح الدينى.

٢- الانشقاق العظيم

فى سنة ١٣٧٦ ترك البابا جريجورى الحادى عشر أفينون ليعود إلى مدينته المقدسة فى إيطاليا . ومات هناك سنة ١٣٧٨م. وصمم مواطنو روما علي أن لايتركوا الكرادلة ينتخبون رجلاً فرنسيًا آخر للعرش البابوى، لئلا يعود مرة أخرى بالبابوية إلى أفينون. وكان على الاجتماع الذى سيتم فيه انتخاب خليفة جريجورى أن ينعقد فى ظروف تشبه الحصار، فقد كان هناك جمع كبير من القتلة ينادون بانتخاب بابا إيطالى . وفى النهاية وقع اختيار الكرادلة على بارثلميو كبير أساقفة بارى، الذى اتخذ إسم إربان السادس. وكان هذا الاختيار كارثة. فقد اتضح بسرعة أن عدم قدرة بارثلميو على التحكم فى أعصابه «**التى كانت تجعل وجهة قرمزيا وتجعل صوته محشرجا**»، بحيث يجعل مركز الكرادلة، ولاسيما الفرنسيين منهم، لايطاق. وكانت سلسلة من المشاهد المرعبة: إذ كان لابد من كبح جماح أوربان يومًا ما بسبب تصرفاته العنيفة مع كردينال ليموج ؛ وفى مناسبة أخرى حاول أن يصرخ لإسكات كردينال ميلانو فى أثناء القيام بالقداس. ومع الإقتناع بأن الكنيسة لايمكن أن تتحمل مثل هذا الراعي كثيراً، تقاعد جميع الكرادلة وانسحبوا من روما إلى أنانجنى فيما عدا ثلاثة منهم. وهناك أخذوا فى القيام بخطوات يائسة. وزعموا أن انتخاب إربام لم يكن صحيحًا لأنه تمت ممارسة ضغوط عنيفة على الكرادلة من جانب غوغاء روما، ولذلك أعلنوا أن عرش البابوية لايشغله أحد. وفى ٢٠ سبتمبر تم انتخاب جديد، واختير فرنسى هو روبرت كاردينال جنيف. واتخذ إسم كليمنت السابع.

وقد أحاط الكرادلة العالم علمًا بالتصرف الذى اتخذوه ، والأسباب التى دعتهم إلى اتخاذه . وكان انتخاب إربان قد تم الإخطار به من قبل بالأسلوب الرسمى. ولم ينسحب؛ بل

إنه احتج وعين أسماء كرادلة جدد ليحلوا محل المتمردين. وسرعان ما اتضح أن أولئك الذين دبروا انتخاب كليمنت فى أجنانى قد خلقوا مشكلة خارج نطاق سيطرتهم. إذا كان هناك فى ذلك الحين إثنان من البوابات المنتخبين : إربان فى روما وكليمنت الذى انتقل إلى أفينون بعد وقت قصير. وبدأ الإنشقاق العظيم.

ولم يسبق أن حدث مثل هذا الموقف. فقد كان هناك بابوات متنافسون من قبل خلال الصراع بين البابوية والإمبراطورية فى القرن الثانى عشر؛ ولكنهم على الأقل كانوا يدافعون عن مبادىء مختلفة فى حكومة الكنيسة. أما إربان السادس وكليمنت السابع فلم يكونا كذلك. فمن روما وأفينون أطلق كلاهما نفس المزاعم ووجها نفس الإدارة- بل إنه لم يكن هناك موضوع عميق بين هذين الرجلين: إذ أن منظور مزاعم كل منهما، المتضاربة مع مزاعم الآخر عن السلطة الكونية فى العالم المسيحى، كان يكشف بوضوح عن أن العقيدة المشتركة والمثل المشتركة، والمؤسسات المشتركة لم تكن كافية للحفاظ على وحدة الكنيسة . وبدا أن الموقف يتهدد بالخطر الوحدة الدينية التى كان الناس قد تعلموا أن يحترموها وأن يمسكوا بزمامها أيضا.

ومن بين ردود الأفعال التى نتجت عن ذلك تسترعى انتباهنا منها ثلاثة بشكل خاص. أولها أن الناس قد صاروا مجبرين على أن يفكروا بجدية أكبر فى دور تلك البابوية، التى كانت مقسمة آنذاك، والذى ينبغى أن تلعبه فى حياة كنيسة المسيح الواحدة. وثانيها أنها كشفت عن عدم الرضى عن النظام الكنسى القائم وخلقت طلبات ملحة بالإصلاح. إذ أن ممارسات إساءة استخدام السلطة التى يمكن تجاهلها أو نسيانها عندما يكون هناك بابا واحد مسئول لايمكن تجاهلها عندما يكون هناك إثنان . وأخيراً ، فإنه بينما كان الجميع يوافقون على أنه يجب وضع نهاية للإنشقاق بأسرع ما يمكن، وجدوا أنفسهم وقد وقعوا فى شباك الحيرة بسبب الاختلاف الحاد فيما بينهم حول كيفية تحقيق هذا.

والحقيقة أن الإنشقاق استمر حوالى ثلاثين سنة، أى أنه استمر زمنًا طويلاً بعد موت إربان وكليمنت . وكانت هناك أسباب ثلاثة لهذا. كان أولها الإخفاق والفشل الإنسانى، فباستثناء خليفة إربان المباشر فى روما ، بونيفاس التاسع، كان كل البابوات الذين انتخبوا خلال الإنشقاق على يد مجمع الكردينالات فى روما وأفينون قد أقسموا سلفا على أن يستقيلوا فور أن يظهر أن ذلك سيؤدى إلى تحقيق الوحدة. ولكن عندما كان الأمر يصل إلى هذه النقطة، لم يكن بندكت الثالث عشر ، الذى خلف كليمنت، ولا إنوسنت السابع وجريجورى الثانى عشر،

اللذان خلفا بونيفاس، على استعداد للإستقالة لصالح المنافسين بأى حال. ويمكن التماس العذر لهم؛ إذ كان لهم مؤيدون وأقارب وأتباع يفكرون مثلهم، ولكن من الصعب تجنب الأفكار والخواطر القاسية . وقد جعل عنادهم من المستحيل إنهاء الإنشقاق بأى صيغة من صيغ الاتفاق المتبادل. ولم يكن اللجوء إلى السلاح أمراً وارداً لأن التأييد لكل من روما وأفينون كان متساويًا. وبهذا لم يكن هناك سوى طريق واحد للخروج من المأزق ، وهو إنهاء الإنشقاق عن طريق إتخاذ إجراء فى مجمع كنسى عام، وهو المؤسسة الوحيدة فى الكنيسة الرومانية التى يعترف الكل بأنها قادرة على الحكم على البابوات .

وهنا ظهرت الصعوبة الثانية التى تعترض سبيل إنهاء الإنشقاق ، وهى عقبة دستورية. قد أوضحها كونراد جلينهاوزن بإيجاز فى الأيام الأولى للإنشقاق:

«من المستحيل عقد أى مجمع أو الإهتمام به بدون سلطة البابا. ولكن دعوة مثل هذا المجمع فى الظروف الحاضرة لايمكن أن تتم عن طريق البابا، لأنه ليس هناك من يحظى باعتراف العالم بأنه البابا ».

ولم يكن هناك حل فى القانون لهذا المأزق الدستورى. وقد بذل مجمع الكرادلة فى كل من روما وأفينون ما بوسعهما لإقناع البابوات بالوصول إلى بعض المصالحة، مثل الدعوة المتزامنة لعقد المجمع فى مكان يتفق عليه، ولكن جهودهم باءت بالفشل . وعندما نفد صبر الكرادلة فى النهاية ودعوا إلى عقد مجمع فى بيزا سنة ١٤٠٩م على أساس من سلطتهم الجماعية، لم يؤد هذا سوى إلى زيادة الأمور سوءاً. إذ لم يكن هناك من هو واثق من قانونية المجمع، كما أن الاستجابة لعقد المجمع لم تكن كافية . ومع هذا مضى المجمع ليعلن خلع البابوات الإثنين وانتخاب بابا آخر. وبذلك انتخب مؤيدوه خليفة له هو الكاردينال بلداسار كوسا، الذى حمل لقب البابا جون الثالث والعشرين.

وكما اتضح من أحداث مجمع بيزا لم يكن من الصعب استدعاء مجمع كنسى للاجتماع؛ ولكن ما كان صعبا جدا هو جعله مجمعًا عامًا. ولو كان حكام أوروبا متفقين لكان من السهل عليهم إجبار الكنسيين فى ممالكهم وإماراتهم على الاجتماع سويا، بيد أنهم لم يكونوا على وفاق . وهنا تظهر الصعوبة الثالثة فى طريق إنهاء الإنشقاق. لقد حدث الشقاق فى لحظة كانت أوروبا فيها ممزقة سياسيا بالفعل تحت وطأة الصراع الكبير بين فرنسا وإنجلترا . إذ أن توزع الولاء ما بين إربان وكليمنت، المنافسين الرئيسيين، قد أرسى خطوطًا جاهزة للفُرقة الدبلوماسية. فقد أخذت فرنسا وسكوتلنده وقشتالة جانب كليمنت؛ أما إنجلترا والفلاندرز

ومعظم الدويلات الإيطالية فقد إنحازت إلى إربان وانضم إليهم الإمبراطور وينسلاس . وسرعان ما كانت مشكلات الإنشقاق جزءاً من السياسة الداخلية والخارجية لهذه القوى. وفى فرنسا كانت جاذبية الأملاك الإيطالية التى لوح بها كليمنت وبندكت لكل من لويس آنجو ولويس دوق أورليانز، قد اجتذبتهما وأتباعهما إلى الوقوف بثبات فى جانب بابوية أفينون. أما فى الإمبراطورية، وعندما اشتبك الإمبراطور وينسلاس مع روبرت بالاتينات Rupert of Palatinate، الذى خطط لتعيين نفسه إمبراطوراً منتخبًا على الرومان منافسا له، وتحالف البابوات الرومان معه ومع مؤيديه واعترفوا به ملكًا. ومن ثم ، صار وينسلاس وفيليب دوق برجندى، منافس لويس دوق أورليانز، من أشد المؤيدين للمجمع، على حين كان روبرت ولويس من أشد معارضيه. وقبل أن يمكن عقد مجمع عام حقيقى، كان لابد من تحقيق قدر من الإتفاق الدبلوماسى والانسجام السياسى الداخلى بين دول أوروبا ، وهو الأمر الذى جعله الإنشقاق غاية فى الصعوبة. وكانت للإنشقاق تداعياته الطبيعية أيضا من حيث تقوية الحكام العلمانيين على رجال الكنيسة فى ممتلكاتهم ، وهو ما أدى بدوره إلى زيادة صعوبة إعادة توحيد الكنيسة .

٣- مجمع كونستانس ومجمع بازل

فى النهاية برهنت الدبلوماسية على أنها المخرج الوحيد . وقد مهد الطريق سكون الحرب الإنجليزية الفرنسية؛ فقد أرسلت كل من البلدين مندوبين عنها إلى بيزا. وفى سنة ١٤١١م، بعد موت روبرت ، تم انتخاب سجسموند المجرى إمبراطوراً ، وتنازل له أخوه وينسلاس عن مزاعمه فى العرش الإمبراطورى. وقد برهن ملك الرومان الجديد على أنه مناضل لايكل فى سبيل الوحدة. وسنحت له فرصة عظيمة عندما قام لادبيسلاس ملك لمبارديا بغزو الأراضى البابوية وأرغم البابا حنا الثالث والعشرين على أن يلجأ إليه طلبا للحماية، واستطاع أن يرغم البابا على الدعوة إلى عقد مجمع كنسى فى كونستانس . وقد تصرفت غالبية الكرادلة على نحو يتفق مع سجسموند؛ وكان يمكنه أن يعول أيضا على فرنسا وإنجلترا ، وبعد موت روبرت لم يعد لمؤيدى البابا جريجورى الثانى عشر بألمانيا أهمية تذكر. وعندما نجح سجسموند أخيراً فى إقناع ملوك أرغونة وقشتالة والبرتغال، سنة ١٤١٥م ، على أن يرسلوا ممثليهم إلى كونستانس ، تأكد انتصار المجمع على الإنشقاق. وكان قد مضى على انعقاد مجمع كونستانس فى ذلك الوقت ما يزيد على سنة.

لقد أضافت ثلاثون سنة من الإنشقاق إلى المشكلتين الرئيسيتين اللتين كانتا تواجهان آباء الكنيسة فى المجمع؛ وهما إعادة وحدة الكنيسة وإصلاح الفساد الذى استشرى بها. لقد

أضعف الإنشقاق كثيرا من متانة تلك المؤسسات التى كانت فى الماضى أقوى دعائم الوحدة الكنسية. إذ أنه لم يشق صفوف القساوسة، الذين كانوا عادة يطيعون حكامهم، فحسب وإنما قسم المنظمات الرهبانية أيضا. فقد كان تنظيم المنظمات الرهبانية والديرية على أسس عالمية داخل كنيسة كونية قد أضفى على البابوية قوة ذاتية ساعدتها على الخروج من الأزمة التى وقعت زمن بونيفاس الثامن وكليمنت الخامس. وقد كسر الإنشقاق وحدة التنظيمات الرهبانية العالمية وعودها على درجة أكبر من الطاعة للسلطة المحلية. كما أن التأثيرات المشتركة لكل من الإنشقاق وحرب المائة عام قد دمرت أيضا النزعة العالمية لجماعات المتعلمين فى الجامعات. لقد انفصمت عرى العلاقات القديمة التى كانت تربط بين جامعتى أوكسفورد وباريس، وبين جامعة باريس والجامعات الألمانية، وصارت رؤية علمائها أكثر ميلاً إلى المحلية الضيقة. وانعكست تأثيرات هذه التقسيمات المتزايدة فى العالم الكنسى على إجراءات عمل المجمع. إذ كان النواب والمثلون منظمين فى مجموعات قومية بهدف التصويت؛ إنجليز وفرنسيين وألمان وإيطاليين. ولم يكن ممكنا فى المسائل الهامة أن تصوت المنظمات الرهبانية والجامعات، بل وهيئة الكرادلة، كهيئات قائمة بذاتها. كان هذا يعنى أن جهود المجمع استمرت تعتمد على نفس الدرجة من الوحدة الدبلوماسية التى أدت إلى انعقاده. لقد صارت التقسيمات القومية من الأهمية لدرجة أنه لم يكن من سلطة المجمع، حتى لو رغب فى ذلك، أن يعيد للبابوية هيمنتها على الحكومة الكنسية التى مارستها قبل الإنشقاق.

ومنذ البداية تسبب الإنشقاق فى تركيز الإنتباه على الآراء التى طرحها كُتاب من أمثال أوكهام ومارسيجليو البادوى عن سلطات المجامع الكنسية العامة. وكان رجال الكنيسة الكبار، والذين كان تأثيرهم حاسمًا فى الأيام الأولى لمجمع كونستانس : مثل جان جرسون وبيير كردينال أيلى، والكردينال فيللاستر، متأثرين بعمق بأوكهام الذى كانت تعاليمه المنطقية تؤكد على السبب البشرى بطريقة تتطلب إفساح مجال للرأى الفردى أوسع مما كان النظام القديم يسمح به. إذ لايمكن فصل الكنيسة عن المسيح عريسها، على حد تعبير جرسون الذى كتب يقول إنها يمكن أن تنفصل عن نائب المسيح (البابا) : إذ أن المجمع يمثل الكنيسة بأسرها والتى هى دائما كنيسة واحدة مع المسيح، والبابا فقط هو السيد الأعلى البشرى فيها. بيد أن بيير دايلى كان أكثر وضوحًا فى آرائه المعبرة عن حكومة الكنيسة. فقد كان يعتقد أن كل السلطات الدنيوية مستمدة من المجتمع فى التحليل الأخير. وكان يرغب فى أن يرى الكرادلة وقد صاروا هم النواب المنتخبين للأسقفيات الكبرى فى الكنيسة، بحيث يجعل من الهيئة المقدسة نوعًا من البرلمان يحيط بالبابا.

وقد وجدت الآراء التى من هذا النوع التعبير عن نفسها فى إثنين من أشهر وأهم مراسيم المجمع. أولها المرسوم المعروف باسم Sacrosancta (١٤١٥م) الذى قرر أن المجمع الكنسى العام هو السلطة العليا بالكنيسة فى أمور الدين. أما المرسوم الثانى Frequens (١٤١٧م) فقد وضع الترتيبات لعمل اجتماعات منتظمة للمجامع العامة على فترات لاتزيد عن عشر سنوات. وهكذا نتجت عن المجمع الخطوط العريضة لهيكل جديد للحكومة الكنسية، مع وجود ملكية بابوية دستورية داخل نظام نيابى تمثله المجامع الكنسية. ومن سوء الحظ أنها كانت خطوطا عريضة للخطة فحسب؛ إذ لم تكن هناك أية قواعد للإجراءات ولا أى نظام محدد للتمثيل النيابى مثل تلك التى كان دايلى قد اقترحها . ولم يكن واضحًا ما الذى سوف يستلزمه هذا الهيكل أو كيف سيعمل فى الواقع.

وكان معظم أولئك الذين حبذوا وضع قيود على السلطات البابوية من جانب المجامع الكنسية يرون أن تكون هناكِ درجة أكبر من الاستقلال الذاتى المحلى فى الحكومة الكنسية، على أساس أن هذا من ضرورات تقييد السلطة البابوية . وقد طرح هذا الحل الوحيد الممكن لمشاكل الضرائب البابوية ، والتعيينات البابوية، والتعددية، وتكرار الغياب والمستوى التعليمى المنخفض للمندوبين الكنسيين المحليين ذوى الدخل المنخفض - وكافة أنماط إساءة السلطة فى النظام الكنسى التى سببت نقداً لاذعًا مريراً للبابوية أيام أفينون. وقد زاد الإنشقاق هذه الشرور سوءا . فقد كان البابوات المتنافسون بحاجة ملحة إلى المال، وخلقوا ممارسات خاطئة جديدة للحصول عليه، مثل النوع الجديد من خطابات الحجز التى ابتكرها بونيفاس التاسع، والتى كانت لها الأولوية على كافة خطابات الحجز الأخرى بسبب الرسم الإضافى الذى يدفع فيها، لنفس الوظيفة الكنسية، وكتب ديتريخ نيم أحد موظفى البلاط البابوى يقول : **«مثل هذه الأمور كانت تتم علانية، بلاخوف من الرب أو خجل من الناس . كما أن البابوات ضعفاء بحيث لايقدرون على مقاومة الحكام المسلحين بنفوذهم السياسى والذين كانوا يضغطون من أجل تعيين المرشحين غير المناسبين . وكا يبدو أنه لايوجد حل للشرور التى باتت راسخة فى نظام الحماية البابوية، سوى انتزاع الحماية من البابوات وإعادة حق التعيين للأساقفة كما كان لهم من قبل، مع الصلاحية الكاملة للإشراف على كل الكنسيين الذين يتولون المناصب فى أسقفياتهم، وإعفائهم من المعارضة البابوية».** لقد كان الصخب الكبير حول الإصلاح موضوعًا متكرراً فى كتابات المؤلفين الأكاديميين الذين ألهمهم الإنشقاق بالرغبة الجذرية فى الإصلاح مثل جرسون ديتريخ ونيكولاس كليمان وجون ويكلف.

وقد أضاف الزمن إلى مشكلة السيطرة على الوظائف والقساوسة الرعويين بعداً جديداً قبل أن يجتمع المجمع الكنسى فى كونستانس . ففى إنجلترا وبوهيميا ثبت أن البعد عن روما يوفر تربة صالحة لبذور الهرطقة. وذهب ويكلف إلى مدى أبعد من الآخرين الذين أدانوا فساد الكنيسة القائمة. فعلى الرغم من أن أفكاره كانت أكاديمية فى أساسها، فإنها جعلته فى مركز أقرب للتدين الشعبى مما فعله رفاقه . إذ كان أكثر جذرية من التوفيقيين؛ فبالنسبة له كانت هناك سلطة نهائية واحدة فى اللاهوت ، وهى سلطة الكتاب المقدس، الذى كان يعتقد بأنه يجب أن يترجم إلى اللغة المحلية، بحيث يستطيع البسطاء حفظ كل الحقائق الواردة فيه. وإذ كان يؤمن بالقضاء والقدر بطريقة جامدة ، فإنه كان يجد الكنيسة الحقيقية فى اتحاد قلوب أولئك الذين كتب لهم الخلاص وليست فى أى شكل خارجى. بل إن آراءه الفلسفية قادته إلى ما هو أبعد من ذلك، إذ أدت به إلى الهجوم على عقيدة تحول الخبز والنبيذ إلى جسد المسيح ودمه، وهى عقيدة أساسية راسخة فى الكنيسة . وفى جميع الآراء لم يكن ويكلف بعيداً عن مارتن لوثر. وأدى رد الفعل السريع من جانب السلطات الكنسية إلى تشتيت أتباعه فى مدارس أوكسفورد ، ولكن تلاميذه حملوا مذهبه إلى الريف. وعلى مدى سنوات طويلة استمرت مجموعات صغيرة من البروتستانت العلمانيين المتعلمين فى أماكن مجهولة يكدرون صفو السلام فى عقول الأساقفة الإنجليز، وذلك من خلال لقاءاتهم الدينية التى كانوا يقرأون فيها ترجمة الكتاب المقدس وأعمال ويكلف التى كان تلاميذه يعدونها ويناقشونها.

ظلت آراء ويكلف المنشقة عن الكنيسة فى إنجلترا مبعثرة ومنتشرة بين المعدمين، ولم تشكل خطراً حقيقيا على السلطات التقيدية أبداً. أما فى بوهيميا ، فإن آراءه اكتسبت نفوذاً أكبر من ذلك بكثير بسبب استقبال العلماء التشيك الحماسى لها فى جامعة براغ. لقد كان التاريخ الدينى لبوهيميا فريداً فى تلك الفترة، لأنها كان البلد الوحيد الذى اتحدت فيه نزعة معاداة رجال الكنيسة بين الأكاديميين مع التدين الشعبى فى موقف واحد. وكانت كنيسة بيت لحم فى براج هى مكان اللقاء بينهما. إذ أن دعوات ميليك وستيتنى وآراءهما ألهمت جون مولهايم وكرتيز لتأسيس هذه الكنيسة لتلقى فيها المواعظ باللغة التشيكية لسكان المدينة؛ وكان لابد أن يكون الواعظ أستاذاً جامعيًا من التشيك. كان هذا هو المنبر الذى كان جون هس، الذى اعتنق آراء ويكلف عندما كان يدرس الفلسفة بكلية تشارلز، يوجه من فوقه مواطنيه الريفيين بفصاحته بحيث تجمع حوله حشد كبير من الأتباع . وفى سنة ١٤٠٩م، عندما كان مستشار الجامعة ، كان الدفاع الحماسى عن آراء ويكلف من جانب العلماء التشيك قد صار متشابكًا مع نزعاتهم العدائية ضد الألمان فى الجامعة؛ على حين كان هجوم هس على

ثروات القساوسة وفسادهم قد جلب عليه عداوة كبير الأساقفة فى نفس الوقت تقريبًا . وفى سنة ١٤١٣م، وبينما كان هس يعظ بالتشيكية بين الفلاحين فى جنوب بوهيميا، كان الألمان وكبير الأساقفة جون يعدون تهم الهرطقة ضده لوضعها أمام المجمع القادم. وهكذا وجد الآباء فى كونستانس أنفسهم فى مواجهة الاختيار بين بطل الإصلاح الذى كان يوجه الروح العامة للشعب، والعقيدة الصحيحة التى ظهر أنه هو والناس على وشك تركها.

وحتى سنة ١٤١٦م كان مجمع كونسانس محكومًا بالقرارات الحاسمة لكل من الإنجليز - والألمان الذين كانوا يصوتون سويًا باستمرار، وعادة ما كان الإيطاليون يساندونهم . وكانت القوة الحاسمة الأخرى فى تلك الفترة هى قوة الأكاديميين الفرنسيين البارزين الذين كانوا قد تعلموا فى مدرسة كانت ترفض بشدة الفلسفة التى بنى على أساسها ويكلف وهس تعاليمهما. وقد أودى هذا بهس الذى أدانه الفرنسيون والألمان والإنجليز جميعا بالهرطقة وأعدم حرقًا، على حين كان هو قد توجه إلى مجمع كونستانس بضمان تأمين سلامته . وكانت تلك خطوة مشئومة، على نحو ما أوضحه الاحتجاج القوى الذى أظهره ممثلو بوهيميا؛ وكان ذلك عقبة كبيرة ضد الوحدة التى كان المجمع قد عمل فى سبيلها بشكل مستمر وناجح حتى ذلك الحين .

* * *

وكان البابا جريجورى الثاني عشر، الذى هجره الجميع فيما عدا حفنة من أتباعه المقربين، قد وضع استقالته فى أيدى آباء المجمع. وخسر جون الثالث والعشرون كل المؤيدين الذين كان قد جمعهم سويا عندما حاول الهرب من كونستانس ؛ فبعد تمرير مرسوم الساكروسانكتا Sac-rosancta أعلن أنه سبب فى زيادة الإنشقاق وتم خلعه . وقد أدى التزام ممالك إسبانيا بالمجمع سنة ١٤١٥م إلى ترك البابا الثالث بندكت الثالث عشر بدون أى تأييد حقيقى. وبينما أغلق على نفسه أبواب قلعة بنساكولا فى جبال البرينيس، تمت إزاحته رسميا أيضا من منصبه. وهكذا انتهى الإنشقاق . وكان المجمع قد نجح فى أداء مهمته الأولى، أى إعادة الوحدة الخارجية للكنيسة. كما أنه كان قد بدأ فى مهمته الثانية كما رأينا ، وهى استئصال الهرطقات التى تسبب الإنشقاق فى وجودها .

وقد برهن إلتزام الممالك الإسبانية على أنه ليس تمهيدا لطريق الوحدة الكاملة، وإنما هو نهاية للوحدة التى كانت قائمة . ففى نفس اللحظة التى قام فيها ، خارج المجمع الكنسى، تحالف هجومى ودفاعى جديد بين إنجلترا والإمبراطورية ضد فرنسا (معاهدة كانتربورى سنة ١٤١٦م بين سجسموند وهنرى الخامس) ليقلب التوازن الدبلوماسى الهش الذى أتاح اجتماع

هذا المجمع ، أدت إضافة أمة جديدة إلى مناقشات المجمع إلى تدمير الأغلبية الفاعلة للإنجليز والألمان. إذ ادعى الفرنسيون آنذاك إن إنجلترا تضم عدداً قليلاً من الأسقفيات بحيث لايمكن أن تشكل أمة بذاتها داخل المجمع. وفى خضم مشاهد الغضب العنيف التى أعقبت ذلك ظن الجميع أن وحدة العمل قد انتهت ، وعندما بدأت العاصفة تهدأ كان المجمع قد انقسم إلى كتلتين سياسيتين، كل منهما قد عقدت العزم على الإطاحة بالأخرى. وكان الإنجليز والألمان يرغبون فى المضى قدمًا نحو إصلاح الحكومة المحلية فى الكنيسة. وأصر الفرنسيون والأسبان على أن انتخاب بابا جديد يجب أن تكون له الأولوية على هذا. ولم يُلزم الإيطاليون أنفسهم بشيء، وظهر أن هناك مأزقا للجميع. وقام مجلس مكونا من ممثلى الأمم الأوروبية والكرادلة بانتخاب أحد الإيطاليين لعرش البابوية، وهو أودو كولونا، لأن أى أمة أخرى لم تكن تستطيع الحصول على الأغلبية . وحمل إسم البابا مارتين الخامس.

كان الاستسلام الإنجليزى من أعراض الإرهاق الذى حل بالآباء جميعًا. وتم وضع مسألة المزيد من الإصلاحات على الرف. وتم منح قدر من الاستقلال الذاتى المحلى على سبيل التجربة لمدة خمس سنوات فى سلسلة من الإتفاقيات بين البابا والحكام العلمانيين الممثلين فى المجمع. وتم إرجاء كل ما عدا ذلك إلى المجمع القادم، الذى ألزم مرسوم Frequens البابا مارتين بعقده فى وقته المناسب . وثبت حقا أن المعاهدات حبر علي ورق؛ إذ لم يكد المجمع ينفض حتى بدأت الممارسات الفاسدة القديمة تزحف من جديد. وترك مارتين ، الذى كان من نبلاء روما ، لإعادة النظام فى ممتلكات البابوية دونما مساعدة خارجية عسكرية أو سياسية. وكان بحاجة إلى كل الأموال التى يمكن لحقوقه السيادية أن تجلبها له، وسرعان ما وجد أن معظم الحكام كانوا سعداء تمامًا بنظام التعيينات القديم فى الوظائف الكنسية، إذا ما قابل ذلك برعاية أتباعهم وموظفيهم رعاية كافية.

* * *

انفض مجمع كونستانس بعد أن نجح فى نهاية المطاف فى أن يعيد للكنيسة الأب الروحى الواحد. وكان هذا تقريبا هو كل ما أنجزه المجمع. وفى كل مجال آخر، كانت تصرفات المجمع إضافة إلى الصعوبات التى أطاحت بالوضع الكنسى. وبتأجيل الإصلاح ، أبقى على حيوية المسائل الدقيقة، ولكنه جعل الإصلاح صعب المنال فى حقيقة الأمر، بسبب وجود بابا عالمى قانونى قد عقد العزم على ألايفرط فى أى حق من حقوقه ما لم يرُغم على ذلك. كان المرسومان Sacrosancta ، Frequens بالنسبة له ولخلفائه ضوابط لابد من تجنب قوتها بسبب

الضرورات السياسية. إذ أن مجمع كونستانس قد جعل أية تسوية وسط بين البابا والمجمع الكنسى مسألة مستحيلة.

ولكن أكبر خطوة كارثية تم الإقدام عليها كانت حرق جون هس. ذلك أنها لم تقض على الهرطقة، وإنما أعطت البوهيميين شهيدا فى سبيل الديانة الوطنية. وعندما حاول سجسموند أن يفرض الكاثوليكية بقوة السلاح بمباركة مارتين، منى بهزيمة ساحقة خارج براغ على يد القائد الهسى الأعور جون زيزكا . وتجمعت الأمة التشيكية بأسرها حول قضية «كأس العشاء الربانى» . وتجاوزوا البابا والإمبراطور ولجأوا إلى المجمع الكنسى القادم؛ كما حرصوا على ضمان اجتماعه . وتولى القائد القسيس بركوب جيس زيزكا إلى خارج بوهيميا ، ليعيث فساداً فى ألمانيا وبروسيا حتى وصل إلى البحر البلطى حيث تذكر حوليتهم أنهم **«سقوا خيولهم من مياه البحر البعيد»**. وبينما وضح أن انتصاراتهم قد باتت خطراً يهدد ألمانيا كلها بسيادة الهرطقة ، وكانت الحكايات التى تحكى عن فظائعهم تجعل الناس فى فرنسا يرتعدون هلعًا ، كانت غزوات الأتراك العثمانيين تضغط فى البلقان وتتهدد المجر. وتطلع البيزنطيين المحاصرون من جميع الجهات داخل القسطنطينية إلى الغرب فى طلب المساعدة الماسة، وعرضوا إعادة توحيد كنيستهم مع الكنيسة الكاثوليكية ثمنا لهذه المساعدة. ولم يكن أمام خليفة مارتين الخامس، إيجنيوس الرابع بديل فى هذه الظروف سوى أن يمتثل للضغوط التى تطلب عقد مجمع كنسى آخر. وبدأ يجتمع فى بازل سنة ١٤٣١م، على خلفية تهديد المسلمين للعالم المسيحى هذه المرة، وعلى أساس الحاجة إلى الوصول لحل وسط مع الجماعات المسيحية فى بوهيميا والدولة البيزنطية والتى لم تكن صحيحة العقيدة فى رأى كنيسة روما.

هذه القضايا أعطت مذاقًا جديدا لآمال المجتمعين التى بدأت تظهر مرة أخرى ، وكتب نيقولاس كوسا **«لايمكن أن يكون هناك اتفاق بدون الخلافات»** .

وكان فى ذهن هذا الأفلاطونى المسيحى الكبير صورة لمجمع كنسى يجمع البوهيميين والبيزنطيين فى جسد واحد ، ويغرق خلافاتهم فى وحدة الروح .كانت تلك فكرة متعاظمة عن احتمالات التمثيل النيابى فى الحكومة الكنسية تفوق أية فكرة وردت فى مجمع كونستانس . وفى الوقت نفسه لم تكن القضايا القديمة قد طويت فى طى النسيان . لأنه بالنسبة للكثيرين من رجال الكنيسة المخلصين اختلطت الآفاق الجديدة بالآمال المنتعشة فى البرنامج الإصلاحى الكبير الذى كان مجمع كونستانس قد بدأه ثم أعلن تأجيله .

وطوال السبع عشرة سنة التى اجتمع فيها مجمع بازل الكنسى ، خابت كل تلك الآمال الكبار . فلكى يتم تجنب المنازعات التى تسببت في تخريب مجمع كونستانس ، لم يتم تقسيم النواب المثلين إلى «أمم» ، ولكن فى خمس لجان كبرى أو « مجالس نيابية » . وأدى هذا إلي فشل المجمع . وداخل اللجان لم تكن السيطرة للرجال الذين كانت لهم مسئوليات وخبرات إدارية حقيقية ، مثل الكرادلة ، وكبار الأساقفة والأساقفة ، وإنما كانت السيطرة بيد الأكاديميين وفوقهم جميعًا رجال القانون . وبحلول سنة ١٤٣٦م كان قد بدأ يتضح أن موقفهم الجامد بشأن تفوق المجمع علي البابا بحكم القانون الكنسى ورفضهم السطحى بالتالى للمراسيم التى أصدرها البابا إيجنيوس سعيا إلى نقل مكان انعقاد المجمع إلي إيطاليا ، قد بات خطراً يتهدد اقتراحات توحيد الكنيسة الكاثوليكية مع الكنيسة البيزنطية . وقد رفض البيزنطيون تمامًا أن يسافروا إلى أبعد من سافوى لمقابلة ممثلى الغرب . وكان المجمع قد حقق بالفعل مصالحة رسمية مع المعتدلين من أتباع هس . وفى هذا الموقف شعر أكثر الزعماء استنارة فى المجمع – ومن بينهم نيكولاس كوسا والكاردينال جيساريني – أنهم لايستطيعون البقاء فى بازل. وانسحبوا ومعهم عدد كبير من أتباعهم الذين زعموا أنهم يمثلون المجمع «الحقيقى» ، وذلك طاعة منهم لدعوة البابا بالاجتماع . وفى المجمع الذى عقده البابا بفلورنسا ، والذى كان من الناحية النظرية امتداداً لمجمع بازل ، تمت إعادة توحيد كنيستى روما والقسطنطينية رسمياً سنة ١٤٣٩م .

وبعد انسحاب جيسارينى وزملائه ، كان ما فعله مجمع بازل تتضاءل أهميته بشكل مطرد. إذ أن المصالحة التي تمت من قبل مع أتباع جون هس كانت قد فقدت أهميتها ومعناها لأن البابا إيجنيوس لم يقبل شروطها . وربما لم يكن ذلك يهم كثيرا آنذاك ، لأن أتباع هس كانوا منقسمين فيما بينهم بحيث لم يعد لهم خطر خارج بوهيميا . وكان الأخطر من ذلك حقيقة أن السلسلة الكاسحة من الإصلاحات فى الإدارة الكنسية، التى وافق المجمع عليها فى النهاية سنة ١٤٣٦م ، قد اتضحت بعد رحيل جيسارينى ومؤيديه ، أى عندما فقدت صفتها العمومية فى الحقيقة . وكان الآباء الذين ظلوا فى بازل باعتبارهم هيئة إصلاحية فى موقف حرج للغاية. إذ لم يكن البابا يعترف بأنهم مجمع كنسى عام ، كما لم تكن لديهم ميزانية للإنفاق على أنفسهم ، ومن ثم لم يكن بوسعهم أن يحققوا شيئا يذكر بدون مساعدة الأمراء . وكان جهدهم التالى بهدف تنظيم وضعهم القانونى هو الحصول على الدعم والمساومة عليه بجدية شديدة . وأعلنوا خلع إيجنيوس ، واختاروا خلفًا له أماديوس دوق سافوى السابق . وكان أماديوس رجلاً علمانيًا ، وكانت التزكية الأساسية له لدى الآباء أنه كان ثريا ؛ ولكنه تحت إسم البابا

فيلكس الخامس لم يحقق شيئا مع حكام أوروبا الذين لم يكونوا يرغبون فى توريط أنفسهم فى انشقاق جديد .

وبدون توجيه كثير من فيلكس ناضلت بقايا مجمع بازل طوال أربعينيات القرن الخامس عشر ، ولكن الشيء الوحيد الذى أضفى على سلطتهم المشرقة على الموت قدراً من الأهمية هو الحرج السياسى الذى انتاب الإمبراطور فردريك الثالث فى علاقاته مع إيجنيوس . وعندما مات إيجنيوس وتصالح فردريك مع البابا الجديد نيكولاس الخامس بسرعة ، سار آباء الكنيسة فى الطريق الوحيد المحترم المتاح أمامهم . وتخلى فيلكس عن العرش البابوى ؛ وانتخبوا نيكولاس ، ثم حلوا أنفسهم . كان هذا فى سنة ١٤٤٩م . وأخيرا انتهت كافة المتاعب التى كان الانشقاق قد أثارها .

لقد كانت سنوات الهوان الطويلة التي شهدت تدهور أحوال مجمع بازل الكنسى سببا فى تدمير سمعة هذا المجمع . بيْدَ أن هذا لا ينبغى أن يقودنا إلى نسيان النجاح والآمال الكبار التى انعقدت على هذا المجمع فى سنواته الأولى ، لأنها كانت مهمة . وإذا أخذنا مجمع كونستانس على حدة ، فربما يذكره المؤرخون فقط باعتبارها فاصلاً ، أو استراحة ، في قصة إعادة البابوية الواحدة . وتكشف الفترة الباكرة من مجمع بازل كيف كانت خبرة عقد المجامع الكنسية فى الحكومة الكنسية فى هذا المجمع أكبر كثيرا منها فى كونستانس . ففى فترة كانت الإنقسامات العميقة قد بدأت تتضح فى داخل هيئة «الكنيسة المقدسة الواحدة » بالغرب ، يشكل المجمعان سويًا جهداً كبيرا لإعادة الوحدة التى كانت قائمة من قبل ، بخلق إطار جديد تفقد فيه هذه الإنقسامات أى أهمية لها . والمنظور الواضح لنيكولاس كوسا فى هذه النقطة هو الذى يجعله أعظم رجال المجامع الكنسية ؛ إذ يقول : « **لايمكن أن يكون هناك إتفاق بدون خلاف** » . وقد أدى السعى إلى الإتفاق إلى زحزحة الموقف العنيد والنزعة القانونية الجافة لدى رجال القانون الكنسى الذين وقفوا ضد إيجنيوس الرابع سنة ١٤٣٦ وسنة ١٤٣٧م حول موضوع سمو سلطة المجمع الكنسى فوق سلطة البابا . وكانوا يرون أن الاستسلام يعنى أن تنتصر أساليب البابوية القديمة ، وعودة أساليب الفساد القديمة ، وظهور إنشقاقات أعمق من تلك التى كانت تقسم العالم المسيحى بالفعل . ومن الصعب تماما القول بأنهم كانوا قصيرى النظر فى آرائهم تلك ، إذا ما كنا نعرف ما الذى سيحدث بعد فترة قصيرة فى حياة مارتن لوثر .

لم يكن فشل مجمع بازل نجاحًا للبابوية ، على الرغم من أنه كان يبدو كذلك فى تلك الفترة. أما ما حسم الموضوع آنذاك لصالح إيجنيوس فهى الحقيقة القائلة بأن معظم الحكام يفضلونه على فيلكس الخامس .فقد كانت السيطرة الحقيقية على شئون الكنيسة قد انتقلت إلى أيدى هؤلاء الحكام . وقد أوضح مجمع كونستانس ، الذى تحدد مصيره من خلال دبلوماسية الأمراء ومنازعات النواب الذين يمثلون مختلف الأمم، هذه الحقيقة تماما : كما أن ما حدث بعد مجمع بازل قد كشف عن هذه الحقيقة بوضوح أشد . وقد تم توزيع منشورات دورية بالإصلاحات فى الحكومة الكنسية التى أصدرها سنة ١٤٣٨م فى كافة مقاطعات الكنيسة وعلى كل الأمراء فى أوروبا المسيحية . ولم يهتم الإنجليز لأن قانون توظيف القساوسة Statute of Provisors وغيره من التشريعات التى يعود تاريخها إلى بابوية أفينون كان قد أعطى لملوكهم بالفعل السيطرة الكافية على شئون الكنيسة . وجمع شارل السابع ملك فرنسا القساوسة فى بورج سنة ١٤٣٨م ، وجعل إصلاحات بازل سندا لسلطته ، وبمقتضى هذه «الموافقة العملية النفعية » جعل فرض هذه الإصلاحات من حقه ، وبعد ذلك بسنتين أقدم على الاعتراف بالبابا إيجنيوس . وفى الإمبراطورية تم قبول هذه الإصلاحات حتى باع فردريك الثالث رفضه لها لنيقولاس الخامس مقابل وعد بالتتويج الإمبراطورى . وحينذاك صار الحكام العلمانيون هم الذين يقررون أى البابوات وأى المجامع ينبغى الاعتراف بها ، كما يقررون ما ينبغى فرضه من الإصلاحات .

كانت الكنيسة العالمية فى الغرب ، كما برز من طيات فترة الإنشقاق والمجامع الكنسية ، فى حقيقتها اتحاداً كونفيدراليًا إسميًا بين الكنائس الوطنية . أما ما كان يجمعها سويًا فى المظهر فلم تكن سلطة البابا بوصفه الأب الروحى ، وإنما مهارته الدبلوماسية مع القوى العلمانية . ولم يكن هذا مجرد نتيجة لفشل المجامع الكنسية ، وإنما كان نتيجة للقضايا التى كانت مطروحة قبل اجتماع هذه المجامع بزمن طويل . وقد أدت السيطرة الفعالة على حكومة الكنيسة وإدارتها ، التى كانت البابوية قد أرستها فى فترة أفينون وما قبلها ، إلى تقويض الاستقلال الذاتى المحلى للكنائس الإقليمية ، بدرجة جردتها من أية قوة ذاتية . وأدى هذا بدوره إلى ترك هذه الكنائس فريسة سهلة للسلطة العلمانية ، عندما نشب الإنشقاق ووجد البابوات الإثنان المتنافسان نفسيهما معتمدين على التأييد السياسى .

ولم تستطع المجامع الكنسية تقويم الأمور لأنه على الرغم من قدرتها على التعبير عن التطلع والرغبة العالمية فى الإصلاح ، لم يكن ممكنا القيام بالإصلاحات الفعلية سوى من خلال

السيطرة الإدارية الفعالة على الحكومة الكنسية ، وهى سيطرة لم تكن بحوزتهم ولم يكونوا قادرين على حيازتها . وقد ساعدت جهودهم على التقليل من السلطة البابوية لصالح الأمراء، وليس لصالح رجال الكنيسة .

وقد حكم برلمان باريس سنة ١٤٨٧م بأن **«الأساقفة عليهم طاعة الملك أكثر من البابا فى أمور الوظائف الكنسية »** هذه هى الكيفية التى انتهت بها الإنتفاضة الطويلة فى أمور الكنيسة والمناقشات حول حكومتها إلى وضعها تحت سيطرة القوى العلمانية . والحقيقة أن كل احتياطى النفوذ والثروة التى كانت متمركزة بأيدى الكنسيين كانت قد صارت آنذاك بأيدى السلطة العلمانية لكى تزيد من سيادتها على المجتمع الدنيوى بحيث صارت سيادة وطنية. كاملة **« أنت الساعد الأيمن للكنيسة »** هكذا خاطب جان جوفينال الأورسينى الملك الفرنسى شارل السابع . وكان يمكن أن يقال أيضا عن إدوارد الرابع أو هنرى السابع فى إنجلترا . وقد جعل هنرى الثامن هذا الوضع هو الوضع القانونى للتاج الإنجليزى .

ولايمكن أن يكون للجسد الواحد عدد كبير من السواعد اليمنى ، ولا أن يكون له رأسان . عندما صار كل ملك من ملوك أوروبا الساعد الأيمن للكنيسة فى بلاده ، كان معنى هذا نهاية وحدة العالم المسيحى . ولم تعد السلطة العالمية للكنيسة قوة حية ، ولكنها صارت أداة سلطة بأيدى الحكام العلمانيين . وكانت المجامع الكنسية مجرد كتابة على ضريح الوحدة الكنسية التى كانت موجودة يوماً ما ، تظهر أنها لم تمت دون حزن وحداد عليها ، أو دونما صراع .

٢٠- أوروبا والمسلمون* بعد الحروب الصليبية

كان تاريخ المجامع وحرب المائة عام متداخلاً بحيث فرض ضرورة التركيز على تلك البلاد التى تأثرت بالحرب أكثر من غيرها، مثل إنجلترا وفرنسا وبرجندى وإيطاليا . وتوضح قصتها كيف أدت هاتان الهبتان الكبيرتان فى أوروبا المسيحية إلى انفصام عرى الوحدة فيها. وفى روايتنا لهذه القصة فقدنا الرؤية، جزئيا ، فى تلك الأقاليم الواقعة على أطراف أوروبا المسيحية، والتى كانت أقل تأثراً بالحرب الإنجليزية- الفرنسية والتى كانت لها علاقات واتصالات أكثر بجيران أوروبا غير المسيحيين. وحتى نذكر شيئا عنها تبقى صورة أوروبا فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر غير كاملة. والحقيقة، كما سيظهر أن قصة الإتصالات الأوروبية السياسية مع الجيران الخارجيين فى القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر قصة كاشفة مكملة لقصة المجامع الكنسية والحرب الإنجليزية- الفرنسية.

فبعد استرداد المسلمين لعكا سنة ١٢٩١م لم تعد الحملة الصليبية إلى الأرض المقدسة مغامرة عملية. وكان الناس ما يزالون يتحدثون عن خطط لحملات كبرى تستهدف الاستيلاء على بيت المقدس، ولكن بلاد الشام لم تعد تشهد أى قتال . وليست هذه علامة على أن

---

* استخدم المؤلف كلمة "The Infidel" ، أى الكفار ، الدلالة على المسلمين .

اتصالات أوروبا بالعالم الإسلامى قد باتت أقل أهمية مما كانت عليه. ولكنها دلالة على أن مصر والشام، لم تعودا نقطتى الإتصال السياسى الهامتين بالعالم الإسلامى ، على الرغم من استمرار أهميتهما التجارية. إذ كانت نقاط الاتصال الهامة آنذاك على أرض أوروبا نفسها، فى جنوب إسبانيا ، وفى الشرق وراء نهر الدانوب حيث كانت الاتصالات أهم كثيراً . وهنا بدأ خطر الأتراك العثمانيين فى منتصف القرن الرابع عشر.

لقد ظهر الأتراك العثمانيون فى التاريخ للمرة الأولى فى بواكير القرن الثالث عشر، بين العديد من القبائل البدوية التى سيقت من مراعيها الآسيوية فى خضم التوسع المغولى . ووجدوا لأنفسهم مهربًا من سيوف جنكيز خان فى سلطنة السلاجقة فى قونية، حيث استقروا حول أنجورا وأسدوا خدمات جليلة للسلطان ضد البيزنطيين . وعند انحلال السلطنة السلجوقية سنة ١٣٠٠م أعلن زعيمهم عثمان نفسه أميراً مستقلاً، وتحت زعامة ابنه أورخان (١٣٢٦-١٣٥٩م) بدأ العثمانيون يقومون بهجمات قوية داخل الممتلكات الآسيوية للإمبراطورية البيزنطية. وفيما بين سنة ١٣٢٦م وسنة ١٣٣٨م استولى أورخان على بورصا ونيقية ونيقوميديا، ثم وصل أخيرا إلى شاطىء بحر مرمرة . وكان حاكمًا موهوبًا حول غزواته إلى هيمنة قوية على الأناضول الذى كان تحت السيطرة البيزنطية. وكان أورخان هو أول من شكل الإنكشارية الذين كان يتم تجنيدهم من بين المسيحيين الذين كانوا يؤخذون من أبويهم فى طفولتهم الباكرة ويتم تعليمهم العقيدة الإسلامية وفنون القتال وفق نظام صارم. وقد شكلوا جيشا مقيمًا قويا مخلصًا، يتمتع بخبرة قتالية عالية ويطيع السلطان طاعة مطلقة .

وعندما مات إمبراطور القسطنطينية، أندرنيكوس باليولوجوس سنة ١٤٣١م، خطط قائده حنا كونتاكويزن لكى يضع نفسه مكان ابنه مانويل. ولجأ كونتاكوزين إلى أورخان طالبًا مساعدته . وكان هذا هو أول دخول للعثمانيين إلى أوروبا، وكانت الغنائم الضخمة التى أحضرها أورخان فى عودته من حملته مع كونتاكوزين فى البلقان سببًا حاسمًا فى رجوع العثمانيين إلى هناك. وفى سنة ١٣٥٤م استولى على جاليبولى. ومنذ ذلك الحين فصاعدا كان على الغرب أن يراقبهم. وفى سنة ١٣٦٦م أرسل البنادقة والجنوية أسطولا لمساعدة البيزنطيين فى محاولة استعادة جاليبولى، ولكن العداوة القديمة بين البندقية وجنوه كانت من القوة بحيث أنهما سرعان ما أخذتا تحاربان فى جانبين متعارضين . وفى الوقت نفسه، بدأ مراد ابن أورخان يتوغل أكثر فى داخل البلقان. وسقطت فى يديه أدرنه وفليبوبوليس. وقد جعله هذا فى مواجهة مباشرة مع عدو كاثوليكى أشد خطورة ، مملكة المجر .

في ذلك الوقت كانت المجر مزدهرة إلى حد كبير تحت حكم ملوك آل أنجو. فقد كان شارل الأعرج ملك نابولي، ابن شارل أنجو الكبير، قد تزوج من إبنة الملك بيلا ملك المجر، وبعد أن اندثرت السلالة المحلية، اعتلى عرش المجر حفيده شارل روبير سنة ١٣٠٨م. وحكم حتى سنة ١٣٤٢م ثم خلفه ابنه لويس الكبير (١٣٤٢-١٣٨٢م)، الذى صار سنة ١٣٧٢م ملكًا على بولندا أيضا باختيار النبلاء وبناء على نصيحة حاكمهم الراحل كاسيمار الكبير. كان روبير ولويس ملكين قادرين ، فقد وفرا الحماية للبورجوازية الضعيفة فى مدن مملكة كل منهما ، واستقدما المهاجرين إلى هذه المدن من إيطاليا وألمانيا . ودعما التجارة من خلال الاعتراف بالعملة وإلغاء الرسوم على طرق السفر، وزادا من إنتاج مناجم الذهب فى المجر بفضل القوانين الجديدة لتنظيم أحوال عمال المناجم . كما أنهما دعما قوة المملكة العسكرية بحماية الخاصية الوراثية لضياع وأملاك العائلات النبيلة الكبرى التى كانت حاشياتهم وأتباعهم يشكلون الجيش، كما زادا من حجم قوات الحراسة الملكية الخاصة. وكان كاسيمار الكبير فى بولندا قد صاغ سياساته على نموذج سياسات آل أنجو فى المجر لأنها كانت ناجحة تماما؛ وكان الأمل فى أن تكسب البلاد المزيد من حكمهم المستنير هو الذى دفعه إلى اختيار لويس خليفة له.

وفى القرن الرابع عشر، بدأ لويس ملك المجر إحياء التقاليد الإمبراطورية لآل أنجو. وبوصفه ملكًا على المجر وبولندا، بدأ ينظر بعين الحسد إلى تاج العائلة فى نابولى ، ولولا الأتراك لطمع فى القسطنطينية أيضا، مثلما فعل شارل أنجو من قبل. وقبل أن يوطد الأتراك أنفسهم فى أوروبا كان لويس يسعى بالفعل لمد الهيمنة المجرية على القبائل السلافية المستقلة فى البلقان. وهنا كانت الكاثوليكية المقاتلة لآل أنجو عقبة فى سبيلهم. إذ كان معظم السلاف، وغيرهم من شعوب البلقان أيضا، على المذهب الأرثوذكسى البيزنطى، كما أن المسيحيين فى رومانيا ومولدافيا وبلغاريا قاوموا بضراوة تقدم آل أنجو. ولهذا السبب قدم لهم لويس مساعدة ضئيلة عندما بدأ الأتراك فى الضغط عليهم. وفى سنة ١٣٨٩م، أى بعد سبع سنوات من وفاته، قام جيش اتحادى كبير من الرومانيين والصرب والمولدافيين بمحاربة الأتراك الذين أطاحوا به فى كوسوفو، وكانت هذه الهزيمة نهاية لاستقلالهم جميعا. وهكذا انتهت سياسة آل أنجو بالمساعدة فى بناء إمبراطورية فى البلقان، ليست للمجر، وإنما للأتراك الذين وجد المجريون أنفسهم فى مواجهتهم.

ولم تكن تلك لحظة سعيدة للمواجهة من وجهة نظر المجر. إذ أن موت لويس العظيم سنة ١٣٨٢م أدى إلى نشوب نزاع على عرشه بين ابنته مارى وشارل ملك نابولى. ونجحت مارى

فى النهاية فى الجلوس على العرش ولكن كان عليها هى وزوجها الملك سيجسموند أن يواجها الخطر التركى الماثل بموارد منهكة . وخسرا إيطاليا، لأن النبلاء هناك اختاروا الأخت الصغرى لماري، واسمها جادويجا Jadwiga ملكة عليهم. وقد لجأ الإثنان إلى الغرب طلبا للمساعدة، واستجابة لذلك خرجت آخر حملة صليبية كبرى نظمت بفرنسا صوب الشرق تحت قيادة جون الإبن الأكبر لدوق برجندى. هذا الجيش الصليبى وجيش سيجسموند لقيا هزيمة مروعة مزقتهما تمامًا على يد السلطان بايزيد فى نيكوبوليس ، خلف نهر الدانوب ، سنة ١٣٩٦م. وباتت المجر مفتوحة بدون أى دفاع.

وبعد نيكوبوليس مباشرة استدار الأتراك للهجوم على البيزنطيين . ومن القسطنطينية أرسل الإمبراطور مانويل توسلاته اليائسة بطلب المساعدة من الغرب، ولكن الغرب لم يرسل أى قوات جديدة. والحقيقة أن كلاً من المجر والقسطنطينية كان لابد لهما من الخضوع بسرعة لو لم يظهر عدو جديد للأتراك هناك فى آسيا . إذ وجد المغول لأنفسهم قائداً جديداً فى شخص تيمورلنك السمرقندى الذى كانت له نفس سمات جنكيز خان، والذى قاد جيوشه الغازية عبر أنحاء آسيا وداخل الهند. وفى عودته من هناك اجتاح بلاد الشام وبدأ يضغط على الحدود العثمانية . وسار بايزيد بجيش ضده، وفى معركة كبرى جرت قرب أنجورا سنة ١٤٠٢م تمت الإطاحة تمامًا بالقوات التركية. وانكسرت سلطة بايزيد مع جيشه؛ واجتاح المغول الأناضول ووصلوا إلى سميرنا على بحر إيجه. وبعد هذا عاد تيمورلنك إلى وطنه فى سمرقند حيث مات سنة ١٤٠٥ **«تاركًا خلفه مدنًا مخربة، ومناطق ريفية منهوبة، وجبالاً من الغنائم، وأهرامات من الجماجم »** واستغرق الأمر طيلة عمر محمد بن بايزيد لإعادة بناء شىء يشبه سلطة أبيه وإمبراطوريته. ومات بعد عهد حافل بالعمل والنجاح سنة ١٤٢١م.

وتوفرت لسيجسموند ملك المجر استراحة طويلة استعد أثناءها لتجدد الصراع ضد العثمانيين. ولم يمر عليه الوقت عبثا. فقد كان الحافز وراء نشاطه الذى لايكل لجمع مجمع كونستانس هو أمله فى أن يقود حملة صليبية من كافة أنحاء العالم المسيحى ضد العثمانيين بعد نهاية المجمع. وفى سنة ١٤١٠م اختاره ناخبو الإمبراطورية ملكًا على الرومان. ولابد أنه كان آنذاك فى موقع قوى للغاية عندما بدأت الهجمات العثمانية تتجدد بعد موت السلطان محمد. ولكى نوضح السبب فى أنه لم يكن قويا لابد من أن نعود القهقرى لكى ندرس التاريخ السابق للإمبراطورية التى كان سجسموند حاكمها فى ذلك الحين .

* * *

كان والد سجسموند، شارل الرابع، قد صار إمبراطوراً قبله، وكذلك كان أخوه وينسلاس . كان شارل من بيت لوكسمبرج، وكان والده قد صار ملك بوهيميا، بعد أن تزوج من وريثة الحكام المحليين فى عهد أول إمبراطور من بيت لوكسمبورج ، وهو هنرى السابع (ت١٣١٣م). وتم اختيار شارل ليكون ملك الرومان من جانب بعض من لهم حق الانتخاب سنة ١٣٤٦م فى حياة سلفه لويس البافارى وتحت رعاية البابوية . وكان موت لويس فى السنة التالية علامة على نهاية التحالف الطويل بين الإمبراطورية وأعداء البابا الإيطاليين. وكان اعتلاء شارل العرش بلامنازع سنة ١٣٤٧م بداية أيضا لسياسة إمبراطورية جديدة فى ألمانيا .

كان اهتمام شارل الأول منصبًا على مملكته فى بوهيميا، حيث نجح حكمه تماما. وقد أعلن أحد المعجبين به فيما بعد **«كان السلام سائدا فى عصره على نحو غير مسبوق ، سواء فيما يتذكره الإنسان أو فيما نقرؤه فى المدونات التاريخية»**. فقد أسبغ بلاطه حماية فعالة جديدة على عامة الناس ضد ضغوط النبلاء وأنفق مبالغ طائلة لبناء كاتدرائية سان شارل الكبرى فى براغ، وأسس جامعة هناك (على غرار جامعة كاسيمير فى كراكاو ببولندا) . وازدهرت براغ بالقدر الذى جعل شارل يبدأ فى اتخاذ خطوات لضم المناطق الخارجية التى ورثها فى لوساتيا وسيلسيا تمامًا إلى المملكة البوهيمية، ولكى يحول فى المستقبل دون أى احتمالات للتدخل الإمبراطورى فى شئونها الداخلية. ولكى يقوم بهذه الأشياء كان لابد له من ضمان تأييد الناخبين فى الإمبراطورية والذين كانوا ينفذون دستورها . أما الثمن الذى تعين عليه أن يدفعه لهذا فربما نلمسه فى المرسوم الذهبى الذى أصدره سنة ١٣٥٦م، والذى صار هو قانون الإمبراطورية.

كان هدفه الرئيسى حماية المصالح البوهيمية. ويمكن أن نرى هذا من خلال حقيقة أنه كان يعطى لملك بوهيميا مكانًا مرموقًا بين الناخبين الأربعة العلمانيين، كما أنه أرسى مبدأ أنه عندما تخلو مناصب الناخبين تكون تحت تصرف الإمبراطور، ويكون لملك بوهيميا الحق فى اختيار من يحكمها إذا لم يكن ثمة وريث من العائلة. وهناك امتيازات أخرى كانت بوهيميا تشارك الناخبين الآخرين فيها. وأكد المرسوم كافة حقوق المناجم والتعدين للناخبين فى أراضيهم. كما أكد على حقهم فى إصدار العملات ، وجعل التآمر على حياة أى من الحكام الذين لهم حق انتخاب الإمبراطور خيانة عظمى. ولم يكن من الممكن محاكمة أى من رعايا الناخبين خارج أراضى الدولة التى يحكمها الناخب الإمبراطورى. والواقع أن المرسوم الذهبى قد أعطى بهذه الطريقة حقوقا سيادية للناخبين الإمبراطوريين داخل أملاكهم. وقد جعل هذا من المستحيل فعلاً على أى إمبراطور فى المستقبل أن يعيد بناء الإدارة الإمبراطورية فى ألمانيا بشكل فعال.

وعلى أى حال لم يكن شارل مهتما حقًا بألمانيا . ففى سنة ١٣٧٦م كان مستعداً لأن يقدم مزيداً من التنازلات للناخبين مقابل ضمان موافقتهم على انتخاب ابنه إمبراطوراً أثناء حياته. فقد رفع السيادة الإمبراطورية على عدد من المدن الإمبراطورية فى الراين كانت تعتمد على الإمبراطورية مباشرة، وحولها إلى عدة أمراء. وكسب له هذا التأييد الذى كان بحاجة إليه؛ ولكنه أدى أيضا إلى تكوين العصبة السوابية بين المدن لمقاومة سادتها الجدد، كما أدى إلى حربها الطويلة ضد الأمراء . وهكذا قوى تشارل من سلطة التاج فى بوهيميا . وأبقى التاج الإمبراطورى فى أسرته، ولكن الثمن كان تقوية استقلال الناخبين، وزاد من الفوضى الداخلية فى الإمبراطورية.

وكان على وينسلاس ، ابن شارل ، أن يعانى من سياسات أبيه. إذ أن عُصَب السلام التى حاول تنظيمها لإعادة نوع من الهدوء إلى ألمانيا منيت بالفشل؛ وتعرض لمتاعب قاسية للغاية عندما ووجه بالناخب روبرت البالاتينى. فقد أوضح روبرت أن استقلال الحاكم الناخب يمكن أن يتحقق من خلال البرلمان الإمبراطورى (الدايت) الذى حصل منه سنة ١٤٠٠م على حكم بخلع وينسلاس ، وانتخابه هو إمبراطوراً بدلاً منه. كما واجه وينسلاس المتاعب أيضا فى بوهيميا حيث شهد عهده بداية الانتفاضة الاجتماعية والدينية أثناء عهد جون هس. وانكب بشدة على شرب الخمر (إذ يحكى أنه فى زيارة لفرنسا سنة ١٣٩٧م كان يسكر بشرب كميات كبيرة من الشمبانيا كل ليلة قبل العشاء) واضطربت سياساته بشكل مطرد . وعند موته سنة ١٤١٩م، اتحد النبلاء والعامة، الذين كانوا قد عودوا أنفسهم على العمل الجماعى نتيجة لعدم كفاءة حاكمهم، لحماية كنيستهم الوطنية وديانتهم القومية. وبما أن وينسلاس لم يخلف ولداً ، صار سجسموند وريثًا لعرش بوهيميا ومشكلاتها؛ وكان قد ورث مشكلات وينسلاس فعلا فى الإمبراطورية سنة ١٤١١م. وواجهته صعوبات أخرى جاهزة فى تلك اللحظة التى كان يحتاج فيها إلى أن يكون حراً فى مواجهة الخطر والتهديد التركى الجديد.

كانت كل أملاك سجسموند الرئيسية فى الشرق. وهنا شهدت حياته ما كان ثورة دبلوماسية بالفعل. إذ كان القرن الرابع عشر قد شهد نمو قوة فرسان التيوتون إلى شمال شرق الإمبراطورية بحيث وصلت إلى ذروتها. هذه المنظمة الصليبية كانت قد قامت بغزوات كبرى فى القرن الثالث عشر فى أراضى الوثنيين الليفونيين والبروسيين. وبعد سقوط عكا بأيدى المسلمين نقل السيد الكبير لهذه المنظمة مقر قيادته إلى قلعتهم الكبيرة فى مارينبرج ببروسيا، ومن هناك بدأ حملة صليبية اتسمت بالقسوة الوحشية ضد الوثنيين فى ليتوانيا. وتحالف

الفرسان مع الهانزيين الذين كانت عصبتهم تضم معظم المدن الواقعة داخل ممتلكات الفرسان التيوتون، كما تحالفوا مع البولنديين ، واستغلوا تحالفهم فى هذه الحال لمد نطاق سيادتهم إلى داخل بولندا. وتحول موقفهم كله فجأة باعتناق جاجييلو دوق ليتوانيا الكبير المسيحية، وزواجه سنة ١٣٨٥م من جادويجا ابنه لويس ملك المجر، والتى كان نبلاء بولندا قد توجوها فى كراكاو قبل عام مضى.

وهكذا وجد الفرسان التيوتون أنفسهم فى مواجهة عدو مسيحى جديد وقوى. كما أن سجسموند ، الذى كانت زوجته مارى هى الأخت الصغرى لجادويجا كان مهتما بالجلوس على عشر بولندا، فضلا عن أن قوة جادويجا كانت بمثابة تهديد واضح لأسرته على الحواف الشرقية للإمبراطورية. وبات هذا التهديد أكثر وضوحا عندما قدم أتباع هس فى بوهيميا عرشهم لجاجيللو بعد أن ألحقوا الهزيمة «بالحملة الصليبية» التى قادها سجسموند ضدهم عند نهر فيتكوف سنة ١٤٢٠م. وعمل سجسموند على منع هذا الخطر بأن تخلى عن تأييده السابق للفرسان التيوتون مقابل وعد بألا يقبل جاجيللو أو أخوه ويتولد عرش بوهيميا. على أن هذا النجاح الدبلوماسى لم يحل مشكلته، التى برزت مرة أخرى فى شكل جديد. وكان الاحتمال حينئذ أن الفرسان الذين فقدوا المدافع عنهم سوف يقرون تحالفهم مع فردريك هوهنزولرن Frederick of Hohenzollern ، ومارجريف براندنبرج ، ومن ثم تحالف سجسموند ضد البولنديين. وكانوا معًا قادرين على أن يشكلوا قوة على حدود بوهيميا يخشى بأسها مثل قوة جاجيللو، وربما كانت مستعدة لاستغلال الوضع الثورى فى بوهيميا لصالحها مثله تماما.

كانت نتيجة هذه التعقيدات الدبلوماسية عزلة المجر تمامًا فى مواجهة موجة جديدة من الهجمات التركية. وفى ألمانيا، حيث كانت سلطة سيجسموند قد ضعفت بسبب تنازلات أبيه وفشل أخيه، دخل سيجسموند فى نزاع مع فردريك الذى كان واحدا من أقوى الأمراء الألمان. وكانت بولندا هى أقوى جيرانه ، ولكنه كان خائفًا من طلب مساعدتهما. لأنه كان قد فقد كل سيطرة له فى بوهيميا نتيجة لثورة أتباع جون هس. وحارب سيجسموند الأتراك بقوات المجر وحدها، ولم تكن تقلبات الحرب فى صالحهم إلا قليلاً . وأثناء غيابه الطويل عن الإمبراطورية، زاد ضعف السلطة الإمبراطورية؛ والحقيقة أنه تحت ضغط الغارات الكبرى التى قامت بها الجيوش الهسِّية تفككت كل سلطته فى ألمانيا . وفى الوقت نفسه بدأ البولنديون يتقدمون مرة أخرى إلى الأراضى المملوكة للفرسان التيوتون . وكان فردريك هوهنزولرن آنذاك مشغولاً بحماية نفسه ضد البوهيميين بحيث لم يكن قادراً على عمل أى شىء لمساعدتهم.

مات سيجسموند سنة ١٤٣٧م. ونتيجة لجهوده القاصرة ضد الترك فإنهم وطدوا أنفسهم في ذلك الحين داخل البلقان تمامًا. كما أن عهده قد خلق أيضا حالة من الفوضى في ألمانيا بحيث لم يبق سوى أمل بسيط لدى المجر في الحصول على المساعدة من هذه البلاد؛ وخاصة بعد انتخاب فردريك النمساوي سنة ١٤٤٠م إمبراطوراً رومانيًا، وهو الأمر الذي فصل بين الإمبراطورية والمجر مرة أخرى. وربما كان أسوأ ما حدث هو أن الصعوبات التي واجهها سيجسموند كانت قد خلقت أيضا بناءً دبلوماسيًا في الشرق جعل من الصعب تماما على المجريين أن يجدوا لهم حلفاء ضد الأتراك بين الشعوب السلافية. إذ أن التشابك القديم بينهم وبين بوهيميا والمجر كاد أن يؤدي إلى كارثة عقب موت ألبرت خليفة سيجسموند سنة ١٤٣٩م. فقد قام فردريك الثالث وإليزابيث أرملة ألبرت بغزو المجر بجيش من المرتزقة الهسيين لضمان عرشها لإبنها القاصر، على حين قدم النبلاء المجريون عرشهم إلى لاديسلاس ملك بولندا الذي ظنوا أنه سوف يوفر لهم حماية أفضل. ولو لم يتدخل المندوب البابوي كيساريني لكان من المحتمل تدمير المجر بسبب الحرب الأهلية وهجمات الأتراك في وقت واحد.

وأدى تدخل كيساريني إلى التحالف قصير المدى بين بولندا والمجر ضد الأتراك، والذي قاده لاديسلاس والنبيل المجري العظيم جون هونيادي. وانتهى التحالف بعد الهزيمة المرعبة التي لحقت به في فارنا سنة ١٤٤٤م حيث لقي كيساريني ولاديسلاس مصرعهما . أما هونيادي ، الذي ظل يحارب ضد الأتراك طيلة حياته، فكان يقاتل وحده. ولقي هزيمة مروعة ثانية سنة ١٤٤٨م عند كوسوفو نجا منها بمعجزة. وبعد أن صار ابنه ماتياس كورفينوس ملكًا على المجر سنة ١٤٥٨م، عادت الحياة تدب في أوصال نظام التحالف القديم لكي يمارس من جديد نفوذه الضار. إذ كان ماتياس يعلم أنه لابد وأن يجد المساعدة بوسيلة ما، بيد أن كل وسيلة جربها كانت محفوفة بالمصاعب التي كان عهد سيجسموند قد خلقها. وتم تشجيعه على محاولة التدخل في بوهيميا والاستيلاء على عرش الملك الهسي جورج بودبرادي. ودفاعا عن النفس لجأ جورج إلى التحالف التقليدي مع البولنديين، وفي هذه المرة انفصمت الروابط بين المجر وبولندا نهائيا. وكان على ماتياس أن يعود حينئذ إلى فرسان التيوتون لكي يظل البولنديون مشغولين . بل إنه فكر في أن يجعل نفسه إمبراطوراً مكان فردريك الثالث الضعيف، على أمل أن يحصل بذلك على مساندة الألمان. ولم يسفر هذا في النهاية عن شيء وإنما ساهم فقط في المزيد من ضعف السلطة المتداعية لأضعف أباطرة العصور الوسطى على الإطلاق.

كان ماتياس كورفينوس ملكًا عظيمًا للمجر. إذ أعاد صياغة قوانينها ، وأسس جيشا ثابتًا، وخاض حروبا كثيرة ضد الأتراك. ولو أنه لم يضيع كل هذا الجهد فى مشاريع عقيمة فى بوهيميا وفى الإمبراطورية وضد البولنديين ، فربما كانت بلاده قد تجنبت كارثة موهاتز Mo-hacz، حيث لقى المجريون الهزيمة سنة ١٥٢٦م على أيدى الأتراك الذين اجتاحوا مملكتهم بعد ذلك. كانت معظم متاعب ماتياس موروثة منذ أيام سيجسموند. فقد كان ماحدث فى عهد سيجسموند هو سبب عزلة المجر فى مواجهة الأتراك. ففى الفترة الحاسمة فى صراعها ابتعدت عن جيرانها السلاف، بوهيميا وبولندا بصورة مدمرة ، على حين كانت السلطة والنظام فى ألمانيا قد تفسخا بحيث لم يكن ثمة أمل فى الإمبراطورية . ومع هذا فإنه من الظلم أن نلوم سيجسموند نفسه كثيراً. إذ أن إخفاقات عهده كان وراءها تاريخ طويل جدا، لعبت فيه مشروعات لويس الكبير ملك المجر البالغة الطموح وتجاهل شارل الرابع لألمانيا ، ونهم الفرسان التيوتون للحصول على الأراضى- كلها لعبت دوراً ، ناهيك عن جون هس.

* * *

كانت هناك قوة واحدة بالإضافة إلى المجر، وكانت طوال الفوضى التى سادت عهد سيجسموند وما بعده توحد جهودها لتنظيم تحالف كبير ضد الأتراك. كانت تلك القوة هى البابوية . فحتى فى أحلك لحظاتها، عندما كانت الممتلكات البابوية مهددة من جميع الجوانب بسبب الكوندوتيرى المعادين، وعندما كان مجمع بازل فى قمة نجاحه ، لم ينس البابا أبداً الدفاع عن العالم اللاتينى. وأثناء السنوات الصعبة الأخيرة فى عمر مارتين الخامس ، كانت المفاوضات مع البيزنطيين من أجل الوحدة مستمرة، ومعها باستمرار فكرة شن حملة صليبية ضد الأتراك. وعمل إيجنيوس الرابع بدأب لكى تؤتى هذه المفاوضات ثمارها ، حتى عندما اهتزت سلطته اهتزازا عميقًا بسبب نجاح الآباء فى مجمع بازل. وفى المجمع الذى عقده بفلورنسا أبدى استعداده للصمود فى وجه كافة العقبات ، وعناد كل من البيزنطيين والكاثوليك ، ولتقديم التنازلات فى الوقت الصحيح. وعندما تم تحقيق الوحدة فى نهاية الأمر، كانت صلاته الأولى **«إن الذى بدأ عمله الطيب على هذا النحو سوف يتم كماله، وبسبب مساعينا سيكون فألاً خيرا وسيكون من الرحمة أن ننتشل الشعب الكاثوليكى من نير العبودية البائس»**. وكان نير العبودية الذى يقصده هى حكم الأتراك.

ولم يعمل إجينوس ضد الأتراك فقط. إذ كان هو الذى أرسل الكادرينال سيزارينى للمصالحة بين فردريك الثالث ولاديسلاس ملك بولندا عندما كان يتصارعان على عرش المجر.

وكان التحالف الذى تم بين بولندا والمجر فى فارنا من خلفه. ولم يستطع خليفته نيكولاس الخامس بعد ذلك أن يساعد جون هونيادى كثيراً ، أو أن يمنع وقوع الهزيمة الثانية فى كوسوفو؛ كما لم يستطع أن يفعل شيئا للبيزنطيين عندما كانت المجر واقعة تحت ضغط كبير من الأتراك. وانفصمت الوحدة التى تمت سنة ١٤٣٩م بسبب منازعاتهما قبل أن يطبق الأتراك على القسطنطينية بزمن طويل . وقد سقطت القسطنطينية سنة ١٤٥٣م. وحتى بعد هذا لم تيأس البابوية إذ كانت البابوية كلها وطاقات بيوس الثانى (١٤٥٨-١٤٦٤م) مشغولة بخطط ومفاوضات تهدف إلى القيام بحملة صليبية جديدة. ولكن وعود المساندة التى تلقاها من سفورزا ملك ميلانو، ومن البندقية، ومن إثنين من أكثر فرسان فرنسا وعيًا، وهما فيليب البرجندى ورينيه أنجو، لم تكن أكثر من تعبير عن حسن النية. وكانت آخر محاولات بيوس لدفع الرجال إلى النشاط قيادته لحملة صليبية انتهت على نحو مأساوى . وتم حمله من روما على محفة وهو يعانى سكرات الموت، على رأس قوة هزيلة كان معظم أفرادها قد هربوا عندما وصلت إلى أنكونا على بحر أدريا. وكان فى انتظارها هناك أسطول صليبى مكون من سفينتين وأحد الكرادلة. ولم يذهب بيوس إلى الخارج أبدا لأنه لم يشف من مرضه. إذ مات فى أنكونا سنة ١٤٦٤م.

وقد برهنت جهود إيجنيوس الرابع وبيوس الثانى المضنية المستمرة لتنظيم حملة صليبية على شىء واحد بصورة واضحة ونهائية، وهو أن دعوات البابوات للحرب المقدسة لم تعد قادرة على أن تحظى باستجابة عامة فى العالم المسيحى، حتى لو كان الأتراك داخل أوروبا. بل إنها برهنت على ما هو أكثر من هذا أيضا. فحتى فى شرق أوروبا، التى كان حكامها مدركين لمدى الخطر التركى، كانت الجهود المشتركة (مثل تلك التى حققها البابوات) تعتمد تمامًا على القناعة السياسية للحكام المشاركين حتى تستمر فعاليتها. لقد احتلت الحرب المقدسة المكانة الثانية باستمرار فى العمل الدبلوماسى، إذ لم يكن فى استطاعة سيجسموند أن يعمل مع أى حليف تكون له مصالح فى بوهيميا . كما كان فردريك الثانى مستعدا لمحاربة المجر فى سبيل أن يظل وريث عرشها تحت رقابته بدلاً من مساعدة جون هونيادى. كذلك كان ماتياس كورفينوس مستعدا لاستغلال هيبته كبطل ضد الأتراك للحصول على المساعدة البابوية ضد بولندا المسيحية . أما سياسة الفرسان التيوتون ، الذين كانوا منظمة صليبية، فكانت محكومة كلية بعزمهم على إنقاذ ما يمكن إنقاذه من سلطتهم الإقليمية. ولم يفكروا أبداً فى تحويل سلاحهم ضد الأتراك.

كان لنموذج التطور فى شرق أوروبا زمن الغزوات التركية، حيث ظهرت دول قوية فى بولندا والمجر وبوهيميا ، نتيجة للحروب فيما بينها وليس نتيجة للحروب ضد غير المسيحيين، شبيه واضح فيما جرى فى الغرب البعيد، أى فى شبه جزيرة أيبيريا.

كانت هذه هى المنطقة الأخرى الوحيدة فى أوربا التي كان لها إتصال مباشر بالعالم الإسلامى، لأن مملكة غرناطة الإسلامية عاشت فى الأندلس حتى سنة ١٤٩٢م. كانت أيبيريا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر مسرحًا لحروب كثيرة. وهنا أيضا برزت ثلاث ممالك قوية عند نهاية القرنين؛ هى قشتالة ، وأرغونة والبرتغال. ولم يكن الإتحاد ضد المسلمين هو الذى حكم تطورها . حقا لقد حارب البرتغاليون ضد المسلمين ، ولكن غالبا فى المغرب وليس فى الأندلس ، كما أن اكتشافات هنرى الملاح ركزت انتباههم بصورة أكثر ثباتًا على أفريقيا دون غيرها. وقد خاضت أرغونة حروبها الرئيسة في إيطاليا ، وفى بلاد البحر المتوسط من أجل غزو جزر البليار. أما قشتالة فقد مزقتها الحروب الأهلية زمنًا طويلاً، وفى أثنائها كان ملوكها يتطلعون غالبًا إلى مساعدة المسلمين فى غرناطة بدلاً من أن يحاربوهم . وفى القرن الرابع عشر بذلت قشتالة جهودا لغزو البرتغال أكبر بكثير من جهودها لغزو غرناطة. ولم يحدث حتى زواج إيزابيلا ملكة قشتالة من فرديناندو ملك أرغونة الذى وحد المملكتين سويا سنة ١٤٧٩م أن كانت الهجمات ضد المسلمين فاعلة أو مؤثرة. لقد كان الإتحاد الذى ينهى المنافسة بين المسيحيين ضروريا قبل القيام بالمرحلة الأخيرة فى الحرب ضد مسلمى أسبانيا. ولو أن اتحاداً مثله قام فى الشرق بين بولندا والمجر مثلاً ، لشكل قوة لايستهان بها فى مواجهة الأتراك* كانت الحرب فى كلتى المنطقتين ضد غير المسيحيين وتقلباتها محكومة بالسياسة وليس بالدين.

هنا فرق واحد كبير بين الصراع ضد المسلمين فى إسبانيا والصراع ضد المسلمين الأتراك فى البلقان. إذ لم يكن المسلمون فى الأندلس أقوياء بالدرجة الكافية لأن يشكلوا تهديدا مباشراً للممالك الإسبانية. أما الأتراك فكانوا يهددون المجر مباشرة، وليس المجر وحدها، لأن تقدمهم بحذاء الساحل الشرقى للبحر الأدرى عبر بلاد الصرب جعل التهديد العثمانى لأوروبا واضحًا.

---

* يسرف المؤلف كثيراً فى استخدام «لو». والتاريخ لايبحث فى الاحتمالات وإنما فيما حدث بالفعل؛ ومن ثم فليست هناك قيمة لكلمة «لو» فى دراسة التاريخ، لأنه يصبح فى هذه الحالة ضربًا من التمنى والرغبة الذاتية. (المترجم)

وكان الموقف اليائس لمسيحيي القسطنطينية موضوعا للنقاش فى كل بلاط يضم الفرسان فى أوروبا قبل سنة ١٤٥٣م. وكان استيلاء الترك على ممتلكات مدينة البندقية ومنظمة فرسان الاسبتارية فى منطقة بحر إيجه، وبقايا السيادة الفرنجية فى الأراضى البيزنطية، بمثابة خطر يتهدد عالم البحر المتوسط بأسره. ولم يكن تقدم العثمانيين مشكلة محلية أو مشكلة محددة، مثلما كانت مملكة غرناطة، وإنما كانت مشكلة أوروبية.

هذا هو ما يسبغ مثل هذه الأهمية على فشل أوروبا المسيحية فى الاستجابة للخطر التركى. ذلك أن كلاً من السلطتين العالميتين فى أوروبا، أى الإمبراطور زمن سيجسموند والبابوات باستمرار، بذلتا جهودا جبارة لتوحيد أوروبا المسيحية فى عمل مشترك للدفاع عن نفسها. وقد فشلت كلتاهما فشلاً تاماً. وهذا بسبب خواء سلطتهما العالمية. لو عدنا مائتى سنة إلى زمن إنوسنت الثالث وفردريك الثانى لوجدنا كلا من هاتين السلطتين تلعب على الاستجابة العالمية التى كانت تلقاها الدعوة إلى الحملة الصليبية بالتأكيد فى سبيل الحفاظ على مكانتهما الكونية . والتناقض مع القرن الخامس عشر يكشف عن تغيير أكبر من تدهور السلطة البابوية والإمبراطورية. لقد كان الإحساس بالوحدة الذى لعبت عليه البابوية والإمبراطورية فى الماضى قد اختفى آنذاك. بل إن خطر غير المسيحيين المتوغلين فى أوروبا قد فشل فى أن يلهب جذوتها ويحولها إلى لهيب نشط. إذ لم يعد الوعى بالوحدة المسيحية، فى أمور السياسة والدين على السواء، والذى يميز أوروبا العصور الوسطى عن أوروبا الحديثة، موجودا .

خاتمة : البعد عن المواقف التقليدية

فى حوالى منتصف القرن الخامس عشر ، تصادف وقوع عدد من الأحداث ذات الأهمية القصوى. إذ أن انفضاض مجمع بازل نهائيًا سنة ١٤٤٩م كان علامة النهاية على محاولة إعادة الوحدة إلى الكنيسة الغربية عن طريق المجامع. وفى سنة ١٤٥٣م ، سقطت القسطنطينية، وأختفى آخر أثر للإمبراطورية المسيحية فى شرق المتوسط. وفى سنة ١٤٥٣م، أيضا ، أحرز الفرنسيون فى شاستيلون نصرهم الكبير الذى ختم حصاد نضالهم الطويل ضد الإنجليز، والذى كان له الأثر الكبير فى تشكيل كل من المملكتين. والصدفة التى قاربت بين زمن هذه الأحداث تجعل من منتصف القرن الخامس عشر نقطة من الممكن والمفيد للمؤرخ أن يقف عندها، ثم يعود لكى يرصد التغير الذى حدث.

فى الفصل الأول من هذا الكتاب بدأنا بالنظر إلى خريطة أوروبا فى العصور الوسطى، وقارناها بخريطة أوروبا فى عصر الإمبراطورية الرومانية. ورأينا حينذاك أن أهم نقطة لافتة للنظر تشترك فيها هذه الخرائط أن حوض البحر المتوسط هو مركزها البؤرى. فقد كان طريق التجارة، كما أن البلاد الواقعة على شواطئه كانت مهد الثقافة وتقاليد الحكم. ويقى هذا صحيحًا فى العصور الوسطى مثلما كان فى الفترة الكلاسيكية وحتى القرن الرابع عشر على الأقل. والحقيقة أن فرنسا فى عهد لويس التاسع وبعده كانت تبدو القوة المسيطرة فى أوروبا: ولكن ماذا كانت الدلائل الخارجية والعلامات المرئية لهذه السيطرة ؟ الزعامة الفرنسية للحملات الصليبية، وقوة الدويلات الفرنجية فى الأراضى البيزنطية، وبيت آل أنجو فى إيطاليا- أى السيادة الفرنسية فى عالم البحر المتوسط بعبارة أخرى. وبمنتصف القرن الخامس عشر كان ثمة تحول جذرى هناك. إذ أن غزوات الأتراك قد حملت إلى داخل أوروبا سلطة لم تكن مسيحية ولا أوروبية ، كما جعلت شرق المتوسط مقر قيادة التهديد الإسلامى للغرب.

ومن الناحية السياسية كانت أكبر قوة كاثوليكية فى البحر المتوسط آنذاك هى أرغونة ، فى أطرافه الغربية. ولم يعد شرق المتوسط أهم منطقة توسعت فيها أوروبا خارج حدودها. فمع البحارة البرتغاليين الذين أخذوا يتحسسون طريقهم بحذاء الشاطىء الأفريقى، اكتسب شاطىء الأطلنطى أهمية جديدة قبل رحلة كولومبوس بزمن طويل .

وفى هذه الظروف كان لابد للمثال السياسى الذى يبلور إحياء الإمبراطورية الرومانية أن يفقد الكثير من هيمنته التى سيطرت على عقول الناس زمنًا طويلاً منذ منذ أيام شارلمان . ولم يحدث سوى مرة واحدة فى الحقيقة، بعد منتصف القرن الخامس عشر، أن ظهرت ما تسمى بالإمبراطورية فى الغرب قوية ، وكان ذلك فى زمن شارل الخامس عندما كان الإمبراطور ملكا على إسبانيا أيضا. وفى القرن الثالث عشر، فى زمن فردريك الثانى، كان امتلاك مدينة روما ما زال يبدو جائزة يمكن أن تضفى على لقب الإمبراطور أهمية وبريقًا. وفى منتصف القرن الخامس عشر لم تكن على هذا القدر من الأهمية ، لأن روما كانت فى ذلك الحين بعيدة جدا عن مراكز القوة السياسية الحقيقية فى أوروبا . فباعتبارها مقر البابوية وعاصمة الغرب الكنسية، كانت روما ما تزال مكانًا هاما، كما كان تبجيل التقاليد الكلاسيكية لروما القديمة قوة فعالة كما كان الحال دائما. ولكن الربط بين هذه العوامل أو الحقائق لم يعد مهمًا. ويعكس هذا تغيرا فى الرؤية له دلالاته الهامة.

وربما يمكن توضيح طبيعة هذا التغير فى الرؤية بأفضل شكل من خلال الأمثلة. لقد تحدثنا فى الفصل الأول عن رؤية تاريخ الكتاب المقدس والتاريخ الكلاسيكى الذى ورثته العصور الوسطى الباكرة عن الآباء المسيحيين. وكانت تلك رؤية تهتم بكل الماضى وعلاقته بالقصد الإلهى، ورأت فى تجسد المسيح الذروة العامة لكل هذه التواريخ . ونسبت للإمبراطورية الرومانية مهمة تاريخية محددة، وهى إقرار السلام وتحقيق الوحدة فى العالم تمهيداً لقدوم المسيح المخلص. وكان الربط بين الأهمية الدينية والدور السياسى للإمبراطورية السبب الرئيسى فى الاهتمام الشغوف بنوع من إعادة بناء سلطتها . هذه الطريقة فى النظر إلى الأمور ما تزال مدينة لدانتى، الذى كتب بعد سنة ١٣٠٠م مباشرة ؛ والحقيقة أنها قدمت الإطار التاريخى الأساسى لعمله الشعرى الكبير. فهى تشرح لنا لماذا اختار فرجيل شاعر روما الإمبراطورية، الذى كان قد تنبأ بمصيرها العظيم قبل مجىء المسيح، ليكون مرشده فى العالم السفلى، ولماذا وضع الذين اغتالوا قيصر، والذين حاولوا تعطيل هذا المصير ، مع يهوذا الإسخريوطى فى أدنى درك فى الجحيم. لقد أثر موقفه من الماضى على رؤيته للحاضر أيضا. لأن الشرور التى كانت فى أيامه كان لها علاج واحد فى نظره: أن يعيد للمسيحية سلطة موجهة واحدة، مثلما كانت الإمبراطورية الرومانية فى هذا العالم ذات مرة. ورأى فى هذا وسيلة للهدوء المدنى، ووسيلة أيضا للخلاص الإنسانى، مثلما كانت فى العصور الكلاسيكية على ما كان يظن. ولم تكن لإحداهما معنى أو قيمة فى نظره بدون الأخرى كان هذا هو سبب عمق مرارته ضد مدينته

فلورنسا التى كانت بمقاومتها العنيدة للأباطرة قد حالت دون عودة السلام إلى ربوع العالم المسيحى .

وإذا ما قارنا آراء دانتى بآراء ليونارد برونى، الذى كتب أيضا عن روما فى الماضى وفلورنسا فى الحاضر، بعد مائة سنة بالتمام، سنجد أن الإطار المسيحى للتصميم الإلهى، الذى كان أساسيًا عند دانتى، قد سقط عن الصورة . ويفصل بين حياة كل من الرجلين عصر من الاكتشافات ، كان رائده بترارك ، بين الأعمال المخطوطة للكُتاب الكلاسيكيين. وبالتالى فإن بترارك لم تكن لديه فقط معرفة أوثق بحقائق الماضى الكلاسيكى . وبالتالى فان بترارك لم تكن لديه فقط معرفة أوثق بحقائق الماضى الكلاسيكى من معرفة دانتى، ولكنه يعرف أيضا المزيد عن الناس فى العصور التى شرحها؛ وبذلك تعلم أن لايرى حقائق الماضى فحسب بل يرى أيضا حقائق عصره، مثلما كان المؤرخون الكلاسيكيون قد فعلوا ، فى ضوء حقائق الجهد الإنسانى الخالص، وكان يحمل مشاعر الإعجاب لبروتوس الذى كان قد سعى إلى حفظ تقاليد الجمهورية الرومانية باغتيال قيصر، ورأى فى قصة حياته صدى لصراع فلورنسا فى زمانه للحفاظ على حريتها الجمهورية التى كانت تهددها قوة جياجالياتزو ملك ميلانو. والدور الرعوى المنسوب إلى الإمبراطورية الرومانية من خلال التراث لم يكن له معنى بالنسبة له. ولذلك، فإنه عندما يكتب عن فلورنسا، مادحًا دستورها، نجد آراءه بعيدة عن النظريات الدينية ونظريات العناية الإلهية فى التاريخ. إذ أن إعجابه بها نابع من كونها عملا إنسانيًا كان القصد منه تحقيق غاية إنسانية محددة، وهى الحفاظ على الحرية والأمن معًا. وهنا يشير برونى إلى الطريق صوب فكرة إدارة الدولة بوصفها مهارة إنسانية تساعد الناس على تحقيق أهدافهم بالتقديرات السليمة للطريقة التى سوف يكون عليها رد فعل الناس. هذه هى فكرة إدارة الدولة التى أخذت تعبيرها الكلاسيكى فيما بعد لدى كاتب فلورنسى آخر هو ميكافيللى صاحب كتاب «الأمير» . وفى هذا الكتب سوف يبحث المرء عبثا عن مفهوم وحدة العالم المسيحى كمثال سياسى صالح، أو عن السعى السياسى الذى يصلح وسيلة لتحقيق الخلاص الإنسانى.

وكما تساعد هذه المقارنة بين أفكار دانتى وأفكار برونى على التوضيح، كان هناك شىء أكثر أهمية يحدث فى القرن الخامس عشر بالإضافة إلى تغير الموقف من روما والماضى الرومانى. وكان الإطار الفكرى الذى كانت المثل الدينية والسياسية فيه غير منفصلة عن بعضها، والذى كان يرى أن أعمال القساوسة والأمراء وسائل مكملة لبعضها البعض فى

السعى صوب الهدف نفسه- هذا الإطار الفكرى كان يفقد جدواه. إذ كان الناس قد بدأوا يجربون مبادىء مرشدة إلى نمط من الفكر والفعل يتجاهل هذه الروابط . وبمرور الوقت كان مفهوم العالم المسيحى ، ومفهوم أوروبا بوصفها نوعا من الدولة المسيحية العظمى، قد صار بلامعنى. ومنذ زمن شارلمان حتى زمن المجامع الكنسية، كان الاعتقاد بأن وحدة العالم المسيحى لم تكن أمراً ذا معنى فحسب، وإنما كانت هى القيمة الأسمى فى المصطلحات السياسية والدينية، هذا الاعتقاد هو الذى أدى بالناس إلى التفكير والكتابة كما قادهم إلى الفعل أيضا.، وثمة تغير حقيقى هنا يقدم التبرير لتناول الفترة التى صار فيها هذا الاعتقاد عقيما فى المجال العملى باعتبارها نهاية عصر بأكمله.

فإذا ما قبلنا الأمر كما هو ، فإننا يجب أن نتحلى بقدر كبير من الحذر فيما يخص مسألة واحدة. وينبغى التأكيد على أن تزايد التباعد بين الأفكار الدينية والإيديولوجية السياسية لم تكن بأى حال انعكاسًا لشعور دينى حقيقى. بل إنها لم تكن تعنى أن الدين لم يعد يقبل باعتباره دليلا إلى العمل السياسى. ذلك أن الحرب بيم الكاثوليك والبروتستانت فى القرن السادس عشر لم تكن حروبا على الورق فقط؛ وإنما تم خوضها بالسيف والبارود فى ميدان القتال، مصحوبة ببسالة متعطشة للدماء لإدانة الآخر. وكان المبدأ الذى ساد فى نهاية هذه الحروب Cujus regio ejus religio يربط بشكل مباشر بين الدين والسياسة. وكان ذلك مبدأ للتعايش الإقليمى ولم يكن مبدأ من مبادىء الوحدة الدينية والسياسية. ومن هذه الناحية فهو ينورنا ويضىء لنا؛ إذ يساعدنا على فهم أشمل لما كانت تعنيه التغيرات التى جرت فى نهاية العصور الوسطى.

لم يكن تدهور المشاعر الدينية هو الذى قام عليه المثال التوحيدى للعالم المسيحى فى العصور الوسطى، ولكنه قام على أساس الاختلافات الإقليمية فى أوربا ، وتطوراتها ، والحساسية المتزايدة تجاه العلاقات فيما بينها. هذا هو حقيقة ما دار حوله الشطر الأكبر من تاريخ العصور الوسطى المتأخرة. فقد رأينا كيف أنه فى ممالك مثل إنجلترا وفرنسا قد نما فى تلك الفترة شعور بهوية قومية متماسكة ، جنبا إلى جنب مع تزايد كفاءة الحكم. لقد تطورت المؤسسات مثل البرلمان الإنجليزى، الذى عبر عن نمو مثل هذه المشاعر على حين امتد مجال الحكومة لكى يشمل تنظيم أمور مثل التجارة والعلاقات الاجتماعية على نطاق قومى. كما أننا رأينا كيف أضعفت التقسيمات فى أوروبا ، والتى نتجت عن الحروب والإنشقاق الكبير، نفوذ القساوسة كهيئة عالمية فى ذلك الوقت ، وقللت من استقلال زعمائهم عن السلطات

العلمانية الإقليمية . فمع انتشار التعليم بين العلمانيين، بدأت اللغات المحلية تظهر مستقلة بذواتها، وبدأت اللغة اللاتينية تفقد تأثيرها ونفوذها كلغة حية، أو lingua franca لـكـل المتعلمين: وهكذا صار العالم المتعلم أيضا أقل عالمية. كل هذه العوامل عملت سويًا لكى تجعل من الإنفصال الإقليمى قوة اجتماعية أكثر أهمية فى نهاية العصور الوسطى لاسيما بالنسبة للطبقات السائدة، أى القساوسة، ورجال العلم والأدب والأرستقراطية العسكرية والتجارية.

ولكى نحقق أكبر قدر ممكن من الفهم لهذا التغير الذى طرأ على الرؤية العامة والتى نسعى إلى توضيحها ، فإننا يجب أن نضع إلى جانب هذه الأهمية المتزايدة للإنفصال الإقليمى ما أطلق عليه بعض المؤرخين إسم «نمو الروح العلمانية» والحقيقة أن الإثنين كانا جزءاً لايتجزأ من نفس العملية . كان النظام الكنسى فى العصور الوسطى نظامًا عالميًا. وعلى النقيض ، كانت الروابط المحلية والشخصية آنذاك، وكما هى الحال دائما ، بمثابة البؤرة التى تتركز فيها روابط الولاء العلمانية الخالصة. وطالما استمر العلمانيون فى النظر إلى رجال الكنيسة طلبًا للزعامة والتوجيه، فإن مثال وحدة العالم المسيحى، الذى وجد التعبير الكلاسيكى عنه فى كتابات المفكرين الكنسيين (لاسيما مفكرى القرن الثانى عشر) ، والذى كان يبدو أن النظام التوحيدى للحكومة الكنسية بمثابة الأساس الذى يقوم عليه- هذا المثال كان يمكن أن يكون مؤثرا وفعالاً. وفى زمن لم يكن أى شىء علمانى فيه آمنًا، لم يكن هناك من يدافع عنه، وعندما كان أقوى الرجال العلمانيين يعيشون فى القلاع، كانت أماكن السكنى التى تكون فيها متطلبات التحصين سابقة على اعتبارات الجمال والراحة، لم يكن مدهشًا أن العلمانيين كان يتطلعون فعلا إلى القساوسة طلبًا للقيادة والتوجيه . وفى كافة الأمور المرتبطة بالفعل كانت مكانة ومستويات رجال الكنيسة هى الأعلى. وكانت تلك ظروفا لاتشجع التساؤل على المضامين العلمانية للمثل التى ارتكزت عليها السلطات الكنسية بدرجة كبيرة.

وبمنتصف القرن الخامس عشر كانت هذه الظروف قد صارت جزءاً من الماضى. إذ صارت أنماط الفكر والتعبير الفنى تتشكل فى قصور الأمراء العلمانيين. كما كانت المنازل الفاخرة التى كان النبلاء يبنونها لأنفسهم- مثل قصر الدوق فى أوربينو، أو قصر بيتى بفلورنسا- شاهداً على المدى الذى حررت فيه الحياة العلمانية نفسها آنذاك من معوقاتها القديمة. وكذلك الكنوز، والمخطوطات، والرسوم التى كان يجمعها فى تلك الفترة هواة جمع التحف الكبار بين النبلاء العلمانيين من أمثال جان يرى وهمفرى كانت أفضل ما فى حياتهم . بل إنه حتى فى

الأمور الروحية لم تعد سلطة القساوسة مطلقة. إذ أن العلمانيين المتعلمين الذين جذبتهم تعاليم جيرارد جروت والأستاذ إيكهارد وأمثالهما، كانوا يستطيعون أن يجدوا الرب فى قلوبهم داخل منازلهم، بقدر ما كانوا يجدونه فى الكنيسة من خلال الخدمة الكهنوتية التى يقدمها القساوسة. ومع اضمحلال نفوذ القساوسة كان من المحتم أن تفقد فكرة بناء وحدة اجتماعية وسياسية ودينية أيضا على أساس النظام الكنسى الرومانى، جاذبيتها وتخلو من السمة العملية أيضًا. ففى عالم لعب العلمانيون فيه دورا أكثر استقلالاً فى توجيه الأمور، كان ذلك هدفا فقد جاذبيته وجدواه.

مرة أخرى ، ربما كان تقديم الأمثلة خير وسيلة لتوضيح نقطة هامة. فدائما ما تقدم المبانى مرشدا مفيدا لفهم مغزى الحياة فى الماضى، وما جرى عليها من تغيرات ، لأنها الأثر المرئى والملموس من هذه الحياة الماضية. ومبانى العصور الوسطى تقدم نوعا من السجل الأثرى لتاريخها. ففى العصور الوسطى الباكرة ، وفى شتى أنحاء أوروبا، نجد طرازاً واحداً سائداً هو الطراز الرومانسك Romanesque . فالقوس المستدير، والتجاويف نصف الدائرية، والقبة التى هى من خصائصها البارزة ، تذكرنا بأنها مستمدة من الطراز الرومانى أواخر الفترة الكلاسيكية ، والفترة البيزنطية . وكل أعمال الرومانسك الكبيرة فى الغرب كنسية تقريبا، مثل كنيسة سان مارك بالبندقية والكاتدرائيات مثل مواساك وسانجيل بفرنسا ودورهام فى إنجلترا كلها مُشيدة على هذا الطراز . ويصدق هذا أيضا على الطراز الذى بدأ فى القرن الثانى عشر يحل محله بشكل يكاد يكون عالميًا ، وهو النظام القوطى الذى يذكرنا إسمه بالكنائس الكبرى مثل نوتردام فى باريس ، وكاتدرائية سالزبورى أو إكستر فى إنجلترا، أو بورجوس بأسبانيا . لقد نشأ الطراز القوطى فى شمالى فرنسا؛ ويذكرنا انتشاره السريع، بحيث صار هو الطراز السائد فى أوروبا ، بوحدة الثقافة الكنسية الأوروبية من القرن الثانى عشر حتى القرن الرابع عشر، كما يذكرنا بالنفوذ المهيمن لفرنسا فى تلك الفترة. ولكن ربما كان أهم شىء نتعلمه من تصميم أفضل الكنائس الكاثوليكية هو كيف كانت سيادة القساوسة غالبة فى عصر كان الناس يعرفون فيه معظم ما يودون معرفته عن الدين ومعنى الحياة لا من الكتب وإنما من خلال ما يرونه ويسمعونه فى الكنيسة ، ولايكاد يوجد تفصيل فى أى كنيسة كاثوليكية كبرى بدون غرض ؛ سواء كان هذا الغرض معماريا، أو دينيا ، أو تعليميا .

وهناك اختلافان هامان يمكن ملاحظتهما بين الطراز القوطى وطراز عصر النهضة الذى بدأ انطلاقه فى القرن الخامس عشر. أولهما هو اهتمام مهندس البناء فى عصر النهضة كثيراً

بتأثيرات جمالية خالصة. وثمة ميل فى هذا الإتجاه فى الطراز القوطى المتأخر فعلا؛ وهو علامة على أن متطلبات البناء الدينى قد باتت أقل صرامة بالنسبة للمصمم. أما الفرق الثانى فهو أهم كثيراً . إذ أننا لسنا مضطرين إلى أن ننظر إلى المبانى الكنسية وحدها بحثًا عن انتصارات عصر النهضة . إذ أن القصور والفيللات الإيطالية فى المدن وفى الريف، والقلاع الفرنسية chateaux مثل بلوا وفنتان بلو، توضح بجلاء أن هندسة البناء العلمانية قد أصبحت مستقلة. لقد كان العالم قد تعلم أخيرا أن يوفر سكنًا لأمرائه لايقل فخامة عن سكن قساوسته . والشهادة هنا شهادة على تغيير حدث فى كل أساليب الحياة وليس فى الطراز المعمارى فحسب.

والمبانى التى نتخذها دليلاً هنا التغير الكبير تقدم لنا توضيحًا لطبيعته وبعض المقاييس لأهميته. إذ أنه لايضعنا أمام الأحوال التى يمكن أن نسميها حديثة بشكل سليم بمستويات منتصف القرن الثانى عشر. فمن الواضح أنه لم يكن تغييراً أثر على كل الطبقات ، وليس بشكل متساوٍ بأى حال ؛ فليس هناك افتراض أن الجميع فى القرن الخامس عشر كانوا يهتمون بسكنى الفقراء. ومع هذا، كان تغيراً هامًا للغاية؛ لأنه يعكس تحولاً ليس فقط فى رؤية ذوى النفوذ ، ولكنه يعكس أيضا التحول فى الظروف التى حكمت رؤيتهم . فهى إشارة إلى تغير هام عندما نجد أن رجلاً علمانيا من ذوى الامتيازات كان يأمل فى أن يعيش فى راحة بمستوى معقول من الثقافة والتمدن، حتى فى الريف دون أن يضطر إلى الاختيار بين الأمن فى قلعة أو فى أروقة الأديرة. أما ما جعل ذلك ممكنًا بالنسبة له فهو الكفاءة المتزايدة للحكومة العلمانية الإقليمية. ولم يكن عليه أن يقلق بنفس الطريقة التى كان أسلافه الذين عاشوا فى الحصون والقلاع يعانونها، بشأن نشاطات الأعداء الذين كانوا يعيشون فى حصون أخرى ليست بعيدة. هذا الأمن المحلى، سر راحته، كان يشاركه فيه آنذاك كثيرون ممن لم يكن أسلافهم قادرين على بناء قلعة. هذا التغير لم يكن ليهم كثيراً لو لم يصحبه ارتفاع مستوى التعليم والثقافة بين العلمانيين، ولو لم تحرز الطبقات العلمانية العليا قدرة متصاعدة على أن يفكروا لأنفسهم بمصطلحات واسعة وعامة عن وضعهم . لقد كان التغييران سويا كافيين لكسر طلسم المثل الاجتماعية والدينية والسياسية التى ميزت العصور الوسطى.

مصادر ومراجع

القسم الأول: ٨٠٠-١٠٤٦م

الفصل الأول (المدخل)

مراجع عامة : ناقش المشاكل العامة فى هذه الفترة كتابان غاية فى الأهمية لإثنين من العلماء الإنجليز: أولهما سوثرن فى كتابه تكوين العصور الوسطى.

R. W. Southern, The Making of the Middle Ages (London 1953) .

والثانى ولاس هادريد، الملوك ذوو الشعر الطويل

J. M. Wallace Hadrid, The Long Haired Kings (London 1962).

هناك عالم ثالث يجمع بين التميز العلمى والتناول الواسع (أنظر)

Marc Bloch , Feudal Society (London 1961, transl . L.A. Manyon)

من بين المصادر الأصلية ربما تكون أفضل المعلومات عن المشكلة التى تناولها هؤلاء العلماء موجودة فى كتاب اينهارد عن سيرة شارلمان.

Einhard , Life of Charlemagne (London 1905) .

وهنا بعض المادة التوضيحية الهامة أيضا ، أنظر:

Theodore Mommsen , Imperial Lives and Letters of the Eleventh Century (Columbia 1962).

ولايستطيع أحد أن يفهم الحياة الكنسية فى هذا العصر حتى يقرأ كتاب

The Rule of St. Benedict, transl. by Justin McCann (London 1960).

كذلك فإن كتاب:

Regularis Concordia , transl. by T. Symon (Nelso's Medieval Calssics 1953) .

يعطى إنطباعاً ممتازاً عن الطريقة الذى كان الدستور البندكتى متبعًا بها فى القرن العاشر.

الفصل الثانى:

أحد الكتب الهامة والمفيدة فى مناقشات العصر الكارولنجى هو :

M. Fichtenau, The Carolinigian Empire (trans. P. Munz, Oxford 1963).

وكذلك كتاب بوللوج الذى يعتبر كتابًا مميزاً ومفيداً للغاية:

D. Bullough, The Age of Charlemagne (London , 1965) .

وهناك بعض الكتب الممتازة التى تناقش مختلف جوانب الغزوات الجرمانية فى القرنين التاسع والعاشر . فقد ساهم لويس مساهمة مدهشة ، أنظر :

A. R. Lewis , Naval Power and Trade in the Mediterranean A.D.500 - 1100 (Princeton 1958)

وعن الفيكنج أنظر :

T. D. Kendrick , A History of the Viking (London 1962) .

وأفضل مقدمة عن ظهور الإمبراطورية الألمانية نجدها فى الكتابين التاليين :

F. Dvornik , The Making of Central and Eastern Europe (London , 1949) .

الفصل الثالث :

أنظر أفضل مناقشة عن أصول وطبيعة الإقطاع فى :

Marc Bloch , Feudal Society (London 1964) .

وكذلك فإن الفصل الخاص بروابط المجتمع فى كتاب سوثرن ، تكوين العصور الوسطى، فصل يوضح الكثير ويعالج المشكلة بطريقة مختلفة. وقد درس هنرى بيرين الاقتصاد الأوروبى فى تلك الفترة وفسره فى كتابه الشهير.

Mohamed and Charlemagne (trans. B. Miall , London 1954) .

وقد واجه كتابه انتقادات كثيرة ، وتمّ جمع مختارات من آراء ناقديه فى كتاب :

A. F. Havighurst (ed .) , The Pirenne Thesis (Boston 1958) .

الفصل الرابع :

هناك أدبيات كثيرة تتناول الأديرة والحياة الديرية ومثلها العليا فى العصور الوسطى. وثمة كتابان يجب ذكرهما بسبب تفوقهما.

D. C. Butler , Benedictine Monachism (London 1919) .

Knowles,The Monastic Order in England (Cambridge 1949).

وعن تأثير دير كلونى أنظر :

L. M. Smith , The Early History of the Monastry of Cluny (Oxford 1920) .

من ناحية أخرى ، لايوجد كتاب واحد مرضى باللغة الإنجليزية عن المثل العليا السياسية فى تلك الفترة ، ولم تتم ترجمة كتاب سهرام على الرغم من أهميته ، أنظر :

P. E. Sehramm , Kaiser Rom und Renovatio (Darmstadt , 1957) .

وهناك تعليق مفيد فى كتاب جيبرك :

O. Gierke , Political Theories of the Middle Ages (trans . F. W.Maitland , Beacon Paperback 1958)

أنظر أيضا :

Tellenbach , Church, State , and Christian Society (Oxford , 1958 , trans. R. F. Bennet) .

وهما كتابان يقولان الكثير عن الأفكار فى تلك الفترة بطريقة واضحة مثيرة ولكن مداهما التاريخى أوسع من هذه الفترة كثيرا .

القسم الثانى : ١٠٤٦ - ١٢١٦م

عن هذه الفترة أيضا ، يبرز كتاب سوثرن وكتاب مارك بلوخ باعتبارهما أفضل الأعمال التى ناقشت مشكلات هذه الفترة والفترة السابقة أيضا . وهناك مصادر معاصرة أكثر وفرة مما كان فى العصر الكارولنجى، وهى تلقى أضواء جديدة ومثيرة على نسيج الحياة والأحداث. وتمت ترجمات جديدة كثيرة. فهناك، مثلا:

C. C. Mierow (trans .) , Otto of Freising , The deeds of Frederick Barbarossa (New York , 1953) .

وهناك عدد من المذكرات الصليبية مثل أعمال الفرنجة ، وهى مذكرات جندى مجهول عن الحملةالصليبية الأولى ؛ أنظر :

Deeds of the Franks (Trans. Rosalind Hill, Nelson Medieval Classics, 1951).

Geoffrey Villehardouin , trans. by M. R. B. Shaw in Chronicles of the Crusades (Penguin Classics 1963) .

The Chronicle of Jocelin of Brakeland (trans. H.E. Butler , Nelson Mdievle Classics , 1951).

وهى تعطى صورة مليئة بالحيوية للحياة فى مستوى مختلف تماما فى دير بشرق إنجلترا وعن الضياع التى كان دير بيورى سان إيدموندز يملكها .

الفصل الخامس :

G. Tellenbach , Church , State and Christian Society (Oxford , 1958)

عبارة عن مناقشة ممتازة حديثة للمشكلات التى أثارها الصراع بين البابوية والإمبراطورية .

W. Ullman , The Growth of Papal Government (London 1958)

كتاب علمى هائل قائم على قراءات واسعة جدا لمصادر الفترة والموضوع .

J. p. Whitney , Hildebrandine Essays (Cambridge 1932)

يراجع بطريقة مفيدة الرجال الذين أثروا فى البابا جريجورى السابع مثل الكردينال هيومبرت وبطرس دميانى ، كما يناقش متاعب البابا مع أسقفية ميلانو، هناك أدبيات أخرى على موضوع هذا الفصل على نحو ما ستوضحه ببليوجرافيا هذا الكتاب. ولايمكن أن تكون هناك قائمة مكتملة بدون ذكر كتاب العالم الأوروبى الكبير فليش ، أنظر:

A. Fliche , La Reforme Gregorienne (3 vols. Louvain 1924 - 37) .

الفصل السادس :

أفضل تقديم للموضوعات التى يناقشها هذا الفصل سنجده فى الأجزاء المتصلة بالموضوع فى :

Cambridge Economic History of Europe , vols. I and II (ed. J. H. Clapham and E. Poer, Cambridge 1941 - 52)

أنظر أيضا :

Lynn Jr., Medieval Technology and Social Change (Oxford 1962)

فهناك بعض الأفكار المثيرة ، ولكن ليست كل مناقشاته مقنعة . عن نمو المدن والتجارة ، أنظر :

H. Pirenne , Medieval Cities (trans . F. D. Halsay Princeton 1925)

عن النورمان وغزواتهم أنظر كتاب هاكسينز الممتاز :

C. H. Haskins , The Norman in European History (Boston 1915) .

وقد تم وصف التوسع الألمانى صوب الشرق فى القرن الثانى عشر فى كتاب :

J. W. Thompson , Feudal Germany (Chicago , 1928) .

الفصل السابع :

C . H . Haskins , The Twelfth Century Renaissance (Harvard, 1927)

وهو أفضل تناول عام بالإنجليزية ، وهو يوضح الكثير لاسيما فيما يتعلق بصحوة الإهتمام بالدراسات

الكلاسيكية . كما أن كتاب بول عن الفكر والتعليم فى العصور الوسطى كتاب فائق القيمة على الرغم من قدمه ، أنظر :

R. L. Poole , Jllustrations of the History of Medieval Thought and Learning (London 1920).

ولكن أفضل المؤلفات عن التاريخ الفكرى فى القرن الثانى عشر هى التى ظهرت فى عشرينيات هذا القرن للعلماء الفرنسيين ، أنظر :

J. de Ghellink , Le Mouvement Theologique au XII me Siécle (Paris, 1948) , G. Paré , A. Brunte , and P. Tremblay , La Renaissnce du II me Siécle : Les ècoles et l' enseignement (Paris 1933)

وعن الأفكار الجديدة والموضوعات الجديدة فى الأدب هناك تعليق قيم جدا فى كتاب كير عن الملحمة والرواية، أنظر :

W. P. Ker , Epic and Romance (London 1908) .

C. S. Lewis , Allegory of Love (Oxford 1936) .

R. S. Loomis (ed.) , Arthurian Litrature in the Middle Ages (Oxford 1959) .

الفصل الثامن :

ليس هناك كتاب واحد يقدم مسحًا عامًا للموضوعات التى يناقشها هذا الفصل وعن صقلية فى النصف الأول من القرن الثانى عشر ، أنظر:

E. Curtis , Roger II and the Normans in Lower Italy (New York 1912)

هناك قدر كبير من الكتب عن المؤسسات الإنجليزية فى الفترة من ١٠٦٦ إلى ١٢١٦م ويعالج إثنان منها المشكلات المتعلقة بالموضوع باستفاضة ؛ أنظر :

A. L. Poole , From Domesday Book to Magna Carta (Oxford , 1951) J. C. Holt , Magna Carta (Cambriadge , 1965) .

R. Fawtier , The Capetian Kings of France (trans . L. Butler and R. J. Adam , London , 1960).

وهو كتاب يقدم أفضل تناول موجز للتاريخ الفرنسى . أما عن الأحوال فى الإمبراطورية ، أنظر :

G. Barraclough , The Origins of Modern Germany and Medieval Germany (2 vols , Oxford 1961) , R. L. Poole , Lectures on the History of Papal Chancery (Cambridge , 1915)

وهو كتاب يقدم تقريراً ممتازاً عن نم الزسلوب البيروقراطى فى الحكومة البابوية.

الفصل التاسع :

ثمة كتابان ممتازان يحكيان قصة الحروب الصليبية :

S. Runciman , A History of Crusades (3 vols. Cambridge 1951 - 4), K. M. Setton (ed.) , History of the Crusades (6 vols. Pennsylvania , 1958 -85)

وهناك كتابان بارزان آخران يتناولان جوانب محددة وهامة من تاريخ الحروب الصليبية ، هما :

R. C. Smail , Crusading Warfare (Cambridge 1956) , J. L. La Monte , Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem (Cambridge, Mass , 1933)

وقد نوقشت العلاقات بين الصليبيين والإمبراطورية البيزنطية فى كتابين آخرين ، أنظر :

A. A. Vasiliev , History of the Byzantine Empire (Oxford , 1956); G. Ostrogorsky , History of the Byzantine State (Oxford , 1956) .

أما عن أفضل مناقشة عامة للمصالح التجارية المرتبطة بالحروب الصليبية فهى فى الكتاب التالى :

W.Heyd , Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age (Leipzig, , 1936) .

الفصل العاشر :

حتى الآن لم تكتب سيرة جيدة حقًا عن البابا إنوسنت الثالث. ولمعرفة حياته وأعماله بشكل عام ينبغى الرجوع إلى الكتاب التالى:

A. Luchaire , Innocent III (6 vols. , Paris , 1905 - 8) .

وهناك دراسات ممتازة عن بعض جوانب معينة فى بابويته :

C. R. Cheney and W. H. Semple, Selected Letters of Pope Innocent III Concerning England (Nelson Medieva Classics , 1953) , C. C. Bayley, The Formation of the German College of Electors (Toronto, 1949)

وهو كتاب يعطينا تقريراً ممتازاً عن تعامل إنوسنت مع ألمانيا ومع المرشحين لمنصب البابوية . كما أن كتاب رنسيمان عن المانوية فى العصور الوسطى يكشف عن طبيعة الهرطقة الثنائية فى لانجدوك أنظر:

S. Gebhardt, The Medieval Manichee (Cambridge, 1955).

وعن الحملة التى جردها إنوسنت الثالث ضد الألبيجنسيين :

P. Belperron, La Croisade contre les Albigeois (Paris, 1959) .

القسم الثالث : ١٢١٦-١٣٣٠م

فى تقديرى أن الكتاب الذى يبرز بين الكتب التى ناقشت القرن الثالث عشر والذى فهم روح تلك الفترة بدرجة خاصة هو:

E. Gebhardt, Mystics and Heretics in Italy (trans. E.M. Hulme, London, 1922) .

وهناك بعض الترجمات الإنجليزية الممتازة للمصادر المعاصرة. وتبرز ثلاث منها بصورة متمايزة ، إحداها السيرة الذاتية للراهب الفرنسسكانى سالمبينى وربما كانت أفضل ثرثرة وصلت إلينا من العصور الوسطى ، أنظر:

G.G. Coulton, From St. Francis to Dante (London , 1906) .

أنظر أيضا :

M. R.B. Shaw, Chronicles of the Crusades (Penguin Classics).

وفيها يقدم جوانفيل مذكراته التى صاغها على شكل سيرة للملك لويس التاسع وتحدث فيها عن محاولاته الصليبية . وهناك كاتب ثالث يجب ذكره بطبيعة الحال هو دانتى. وهناك ترجمات عديدة لكتابه الكوميدية الإلهية وربما كانت أفضلها ترجمة بيكرستيث G. Bickersteth التى نشرت فى أكسفورد ١٩٦٥م.

الفصل الحادى عشر:

هذا الفصل له طبيعة خاصة، إذ أن كل ما كتبته فيه متأثر كثيرا بكتاب جيبهارد عن الهرطقة فى إيطاليا، أنظر :

E. Gebhardt, Mystics and Heretics in Italy .

أما عن ظهور الجامعات، وتنظيماتها ونفوذها فيجب الرجوع إلى الكتاب التالى :

H. Rashdall , The Universities of Europe in the Middle Ages, ed. F.M. Powicke and A.B. Emden (3vols., Oxford 1936).

أما أفضل ما كتب عن الفلاسفة وتعاليمهم فهى كتب جيبسون ، أنظر :

E. Gibson, A History of Christian Philsophy in the Middle Ages (London 1955) , The Philosophy of St. Thomas Aquinas (trans. L. S. Houghton, London 1904), p. Mandonnet, St Dominique, I L'idée; I homme, et l'oevure (Paris, 1937) .

أنظر عن الفرنسسكان أيضا:

R.B. Brooke, Early Franciscan Government (Cambridge, 1959), D.L. Douie, The Nature and the Effect of the heresy of the Fraticelli (Manchester, 1932) .

الفصل الثانى عشر:

E. Kantorowicz, Frederick II (trans. E.O. Lorimer, New York, 1957).

وهو كتاب ممتاز عن فردريك الثانى وعصره ، كما أنه كتاب هام استطاع حقا أن يمسك ببعض الملامح الحقيقية لقصة الإمبراطور. وهناك أيضا كتاب فى نفس الموضوع ولكنه أكثر اختصارا، أنظر:

Geogian Masson, Frederick of Hohenstaufen (London 1957).

وهناك بعض التعليقات الثاقبة على تلك الفترة ومشكلاتها فى الكتاب التالى:

A. L. Smith, Church and State in the Middle Ages (Oxford, 1913).

D. Waley, The Papal State in the Thirteenth Century (London, 1961);

C.C. Bayley, The Formation of the German College of electors (Toronto, 1949).

والكتاب الأخير كتاب قيم لاسيما فى مناقشة المشكلات التى ثارت فى ألمانيا بعد موت فردريك الثانى. والكتاب الذى يقودنا عبر الدروب المتشابكة للسياسة فى إيطاليا إبان حياته وبعد موته، هو كتاب:

E. Jordan, Les Origines de la domination Angevine en Italie (Paris, 1909) .

أنظر أيضا:

S. Runciman , The Sicilian Vespers (Cambridge, 1958); P. Villari, The Two First Centuries of Florentine History (2 vols., trans. L. villari, London, 1901) .

الفصل الثالث عشر:

عن تاريخ الحروب الصليبية فى القرن الثالث عشر يأتى كتاب رنسيمان والكتاب الذى أشرف عليه سيتون فى المقدمة ، مثلما هو الحال عن تاريخ الحروب الصليبية فى القرن الثانى عشر. وهناك كتاب آخر يناقش تغير المواقف فى هذه الفترة، أنظر:

Throop, Critisim of the Crusade (Amherst, 1940); R.W. Southern, Western views of Islam in the Middle Ages (Harvard, 1962).

وهو يتضمن فصلاً مذهلاً عن إتصالات الغربيين بالمغول. أنظر أيضا:

S. Runciman, The Sicilian Vespers (Cambridge 1958).

الفصل الرابع عشر:

Maurice Powicke, King Henry III and the Lord Edward (2 vols. Oxford, 1947); The Thirteenth Century (Oxford, 1953) .

هذان الكتابان يتناولان التاريخ الإنجليزى فى هذه الفترة بشكل عميق. كما توجد سيرة لسيمون مونتفرات مكتوبة بشكل طيب، أنظر:

C. Bemont, Simon de Montfort (trans. E.F. Jacob, Oxford, 1930).

أما أفضل عرض للتاريخ الفرنسي ففي الكتب التالية:

R. Faetier, The Capetian Kings of France (London, 1960); H. Wallon, St Louis et son temps (Paris, 1875), Ch. V. Langlois in E. Lavisse (ed.), Histoire de France (vol. III, pt. II, Paris, 1911).

الفصل الخامس عشر:

من المدهش أن الدراسة الرائعة التي قام بها بوس عن بونيفاس الثامن لم تطبع مرة أخرى، وهي أفضل عمل باللغة الإنجليزية عن بابويته؛ أنظر:

T.S.R. Boase, Boniface VIII (London, 1933).

وهناك دراستان ممتازتان كتبهما إثنان من علماء أوروبا:

J. Riviere, Le Probléme de l'église et de l'état au temps de Philippe le Bel (Lvain, 1926); J; Digard, Philiippe le Bel et le Saint Siége (paris. 1936).

أنظر أيضا عن هنري السابع:

W. M. Bowsky. Henry VII in Italy (Lincoln, Nebraska, 1960).

وعن قصة حياة دانتي الليجيري أنظر:

Paget Toynbee, Dante Alighieri (London 1910).

وهي سيرة صمدت حتى هذا الوقت ، أنظر كذلك المقدمة التي كتبها جويرث لترجمة مارسيجليو البادوي، والتي تعتبر أحسن دراسة حديثة عن هذا المفكر:

A. Gewirth, Marsiglio of Padua, The Defence of Peace (Columbia 1956).

القسم الرابع : حوالى ١٣٣٠ إلى حوالى ١٤٦٠م

يبدو لي أن أحسن كتابين ينقلان عدم الاستقرار في هذه الفترة، والمشكلات التي سببت قلق الناس الذين عاشوا أثناءها هما:

J. Huizinga, The Waning of the Middle Ages (trans. F. Hopman, London 1924); E.F. Jacob, Essays in the Concilliar Epoch (Manchester, 1963).

وتبدو قوة كتاب هويزنجا في حساسيته إزاء ردود أفعال الأرستقراطية العلمانية ، أما قوة كتاب جاكوب فتتمثل في تقديره لما شغل المفكرين والعلماء المسيحيين.

وهناك ثروة كبرى في الكتابات الأصلية فى تلك الفترة والتى يمكن قراءتها بالإنجليزية . فهناك ترجمات عديدة لمؤرخات فرواسار عن حرب المائة عام، ولبوكاشيو عن الديكاميرون، ولوحات شوسر عن الحياة الإنجليزية فى حكايات كانتربورى. وقد يضيف المرء إلى هذه القائمة ترجمات ثلاثة من شهود العيان فى مجمع كونستانس أقل شهرة لكنها تلقى أضواء مفيدة وقد تم نشرها حديثا، أنظر:

L. R. Loomis, The Council of Constance (New York, 1961).

ويوميات الكاردينال وليم فيللاستر تقدم قراءة ممتازة.

الفصل السادس عشر:

J. W. Thompson, Economic and Social History of Europe in the Middle Ages (New York 1960) .

وعن الحياة الحضرية وتطورها أنظر :

C. Gross, The Gild Merchant (Oxford 1890); H. Pirenne, Histoire de Belgique (Brussels, 1948-52); Gene A. Brucker , Florentine Politics and Society.

والكتاب الأخير يقدم دراسة عميقة شاملة للتاريخ الإجتماعى لمدينة إيطالية صناعية وتجارية كبرى فى القرن الرابع عشر هى مدينة فلورنسا.

ولم تكن الأرستقراطية أواخر العصور الوسطى محظوظة مثل البورجوازية من حيث لفت انتباه كبار المؤرخين فى الماضى القريب، فكتاب هويزنجا الذى أشرنا إليه فى السطور السابقة ليس دراسة منظمة لأساليب حياتهم، ولكنه يخبرنا بالكثير عنهم، وربما أكثر من أى كتاب آخر. ويمكن أن نقول شيئًا مشابهًا عن الحياة الزراعية فى كتاب كولتون عن القرية فى العصور الوسطى:

G.G. Coulton, The Medieval Village (Cambridge, 1931) .

وهو كتاب يوضح الكثير، بيد أنه ليس دراسة متسقة متماسكة عن حياة الفلاحين ، لأنه لم يقصد أن يكون هكذا. وكتاب «الموت الأسود » لنفس المؤلف (لندن ١٩٢٩م) يعد أفضل مقدمة عن تاريخ الأوبئة الكبرى. أما أحسن دراسة عن ثورات الفلاحين هى :

C. Oman, The Great Revolt of 1381 (Oxford, 1906) .

الفصل السابع عشر:

E. Perroy, The Hundred Years War (trans. D.C. Dauglas, London , 1951) .

هذا الكتاب يقدم مسحًا شاملاً لمجرى الصراع الإنجليزى الفرنسى فى دراسة محكمة. أما عن الموقف الإنجليزى تجاه الحرب وتقلباتها فى القرن الرابع عشر، فقد صورها جيدا هذا الكتاب:

M. Mckisack, The Fourteenth Century (Oxford, 1959).

ويقدم لنا جاكوب فى كتابه عن هنرى الخامس تقريراً واضحًا عن مجرى الحرب فى النصف الأول من عصر أسرة لانكستر ، أنظر:

E. F. Jacob , Henry V and the Invation of France.

أما الكتاب الذى يغطى الفترة نفسها من وجهة النظر الفرنسية فهو:

J. Calmette , Charles V (Paris 1945) ; A. Buchan, Joan of Arc and the Recovery of France (London 1948) .

وثمة كتابان يناقشان الجوانب العسكرية الخالصة للحرب لمؤلف واحد، هما:

A. H. Burne , The Crécy War (London , 1955) ; The Agincourt War (London , 1956)

الفصل الثامن عشر :

الموضوعات التى عرض لها هذا الفصل يمكن استكشافها بشكل مفيد من خلال الكتب التى تتناول تاريخ البلاد التى ورد ذكرها فيه . فهناك كم كبير من الأدبيات على تاريخ برجندى فى عهد أسرة فالوا ، أنظر :

J. Calmette , Les Grands Ducs de Bourgogne (Paris , 1949) ;O. Cartellieri , The Court of Burgundy (trans. M. Letts , London , 1929) ; R.Vaughan , Philip the Bold (London , 1962) , John the Fearless (London , 1965) .

والعثور على كتب ممتازة تعالج تاريخ أسبانيا أمر أكثر صعوبة ، وربما كان الكتابان التاليان أكثر مقدمات مفيدة فى هذا الموضوع :

R. B. Merriman , The Rise of the Spanish Empire (New York , 1918); H. J. Chaytor , History of Aragon and Catalonia (London , 1933)

وهناك أعمال ممتازة كثيرة للغاية تتناول مشكلات إيطاليا والنهضة الإيطالية فى عصر النهضة ، ولكن بوركهارد الذى كتب فى القرن التاسع عشر ، والذى كان نقطة البداية لكل الدراسات التى جاءت بعده ، يحتل القمة بينها ، أنظر :

J. Burckhardt , The Civilization of the Renaissance in Italy (Paperback, translation by S. G. C. Middlemore , Harper , New York , 1958) ;J.A. Symonds , The Ages of the Despots (London , 1880) , Denis Hay , The Italian Renaissance (Cambridge , 1961) .

والكتاب الأخير يعد من بين أفضل الدراسات الحديثة عن الموضوع ومشكلاته ويتضمن بعض المناقشة للآراء الجريئة التى طرحها بارون فى كتابه :

H. Barron , The Crisis of the Early Italian Renaissance (Princeton , 1955).

الفصل التاسع عشر :

تاريخ البابوية فى فترة أفينون عالجتها بشكل جيد عدة كتب ، أنظر :

G. Mollat , The Popes at Avignon (author, s translation , London , 1963); M. Greighton, A History of the Papacy from the Great Schism to the Sack of Rome (6 vols. , London , 1897) ;W. Ullman , The Origins of the Great Schism (London , 1948) ;G. Barraclough , Papal Provisions in the Late Middle Ages (Oxford , 1935) .

والأوراق التى ضمنها جكاوب فى كتابه الذى ذكرناه فى بداية مراجع القسم الرابع يغطى موضوعات كثيرة، وقد وجدتها مفيدة تماماً وأثرت بشدة على آرائى . وهناك فصل ممتاز فى الكتاب عن حياة الرهبان .

الفصل العشرون :

P. Wittek , The Rise of the Ottoman Empire (London , 1938) ; S. Runciman , The Fall of Constantinople (Cambridge 1965) .

أما أحسن رواية عن جهود البابوية لتنظيم المقاومة ضد الأتراك فنجدها فى هذين الكتابين :

J. Gill , Eugenius IV (London , 1961) ; C. Ady , Pius II . (London , 1913) .

وعن شئون شرق أوروبا وأحوالها أنظر :

F. L. Carsten , The Origins of Prussia (Oxford , 1954) ;F. G. Heymann, John Zizka and the Hussite Revolution (Princeton , 1955) ; C. A. Macartney , Hungary (Edinburg , 1962).

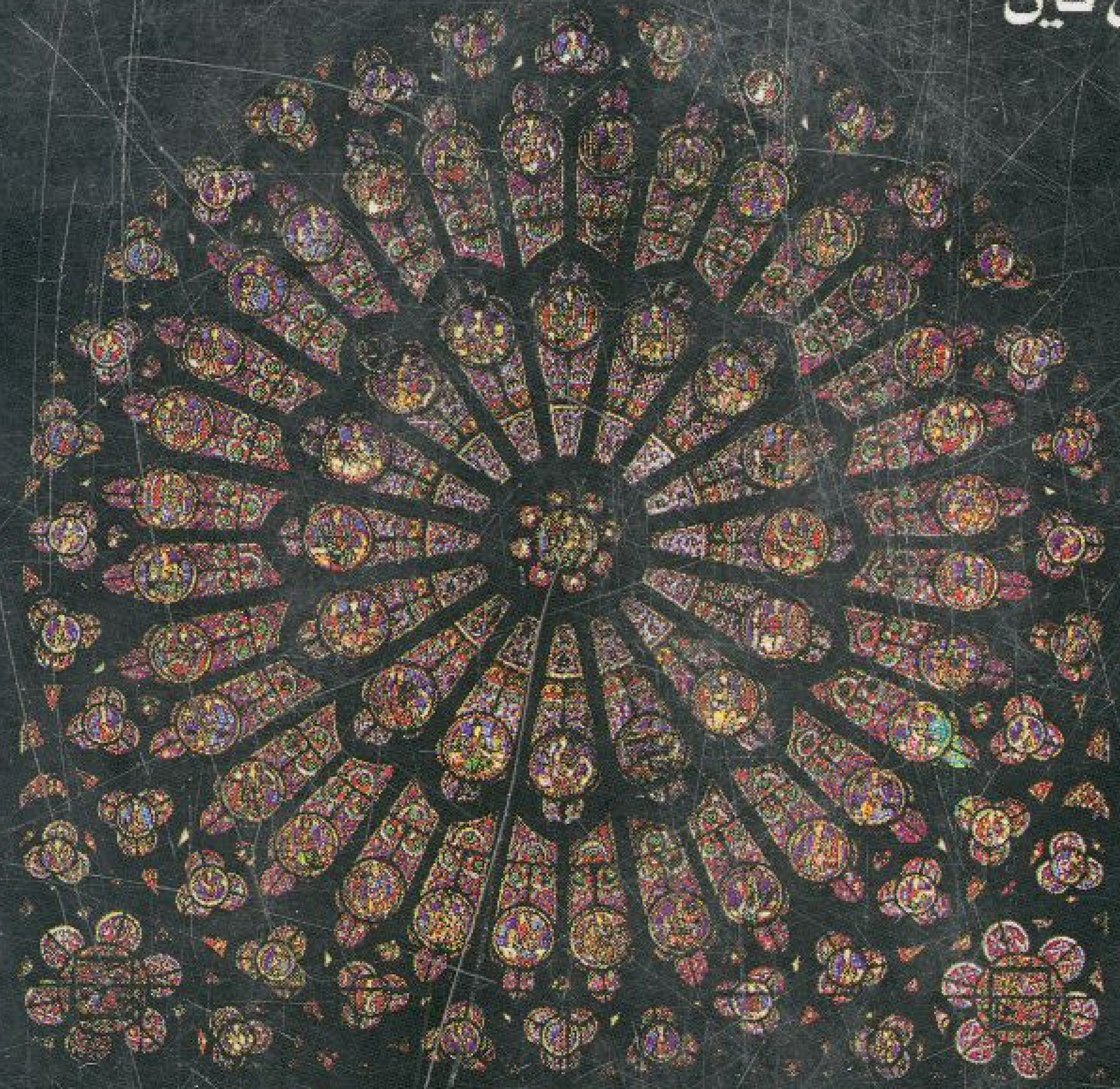
رقم الإيداع ١٠٥٩٠/٢٠٠٠

الترقيم الدولى 2- 036 - 322 - 977

دار روتابرينت للطباعة ت: ٧٩٥٢٣٦٢ - ٧٩٥٠٦٩٤
٥٣ شارع نوبار - باب اللوق



موريس كين



حضارة أوروبا العصور الوسطى

ترجمة د. قاسم عبده قاسم


Bibliotheca Alexandrina
02933329




للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES